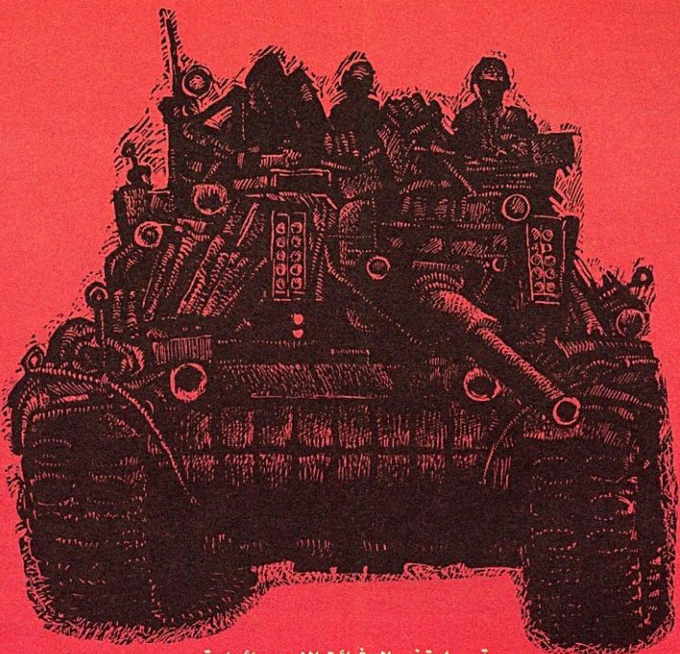
الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية. العدد الخامس والعشرون. السنة الثالثة. فبراير ٢٠٠١. الثمن عشرة جنيهات Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 25 - February 2001



قراءة فى الوثائق الإسرائيلية

حُدود السّلاح !

محمد حسنين هيكل

إدوارد سعيد

وقوة ذاكرة نجيب محفوظ !

التاريخ.. كيف يدرسه التلاميذ فى مصر؟

قاسم عبده قاسم

قصة الصدام بين المنظمات الصهيونية والإدارة الأمريكية

محمد حقى



تفسير جديد لأزمة السيولة والركود

محمود عبد الفضيل

يحيى الجمل ورشدى سعيد .. قصة حياة عادية وأخرى فذّة!

جلال أمين

أزمة الثقافة : وثقافة الأزمة !

سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد الخامس والعشرون
فبراير ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

٩٩ تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة ٦٦

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- إدوارد سعيد .. أستاذ الأدب المقارن بجامعة كولومبيا.
- توماس أونيل.. صحفى أمريكى.
- جلال أمين.. أستاذ الاقتصاد بالجامعة الامريكية بالقاهرة.
- حسين عبد البصير.. مساعد مدير آثار الجيزة.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- عبد الرشيد محمودى .. خبير فى اليونسكو سابقا وأستاذ الأدب العربى فى جامعات فرنسا
- قاسم عبده قاسم.. أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة الزقازيق.
- محمد العرابى .. سفير بوزارة الخارجية المصرية.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد حقى... صحفى مصرى مقيم في واشنطن.
- محمود عبد الفضيل... رئيس قسم الاقتصاد بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية
- نسيم مجلى... ناقد أدبى.
- يحيى الرخاوى... أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة.

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجى - نبيل تاج - سعد الدين شحاتة**

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٢ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكيًا. باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى. ص. ب: ٣٢ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهما - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالا - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٢٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمــــــة..

الأولـــــــويـــــــات..
فى «جدوى البحث والنظر»

فى أجواء مُثقلة بأسئلة كثيرة وكبيرة، وبعد انتخابات لها أن ترسم ـ بحكم ملابسات عدة ـ خطوطاً وألواناً على خارطة وطن يبدأ عامه الأول فى قرن جديد. وفى خضم محاولات وتكهنات.. و«إرهاصات» لخارطة الجوار و«المحيط» اللصيق بهذا الوطن. وفيما يشبه قنابل الدخان التى من المفترض ألا تستخدم إلا للتعمية أو للتغطية أو للفت الأنظار بعيداً، اندلعت فجأة «أزمة الكتيبات الثلاثة» التى روج لها ـ فى التحليل الأخير ـ من قصدوا الاحتجاج عليها، فشُغِلت الصحف والمانشتات بعبارة هنا وعبارة هناك، وبيانات وتصريحات.. و«منشورات». واختفت كالعادة القضية الأصلية تحت ركام شظايا تراشق، هو بالمنطق غير مبرر، فضلاً عن أنه بالضرورة غير مطلوب.

ومرة أخرى ـ وكأنه المشهد ذاته ـ نرى على شاشات التلفزيون وصفحات الصحف من يقف فى مربع لا يعكس فى واقع الأمر «رأيه» اللاحق فى الموضوع، بل «موقفه» المسبق من الآخر.

ورغم أن الصخب كان أهدأ تلك المرة، والغبار كان أقلّ كثافة من ذلك الذى لونته قبل أشهر القنابل المسيلة للدموع، بالدخان والدماء.. إلا أن الكثيرين رأوا أن قائمة "أولويات النخبة" بدت بحاجة إلى ترتيب.

خطورة الخلل فى ترتيب الأولويات، وإن كان من زاوية أخرى، وفى شأن آخر، هو موضوع مقال للدكتور يحيى الرخاوى يهتم بمسألة «دراسة جدوى البحث والنظر»، و ينبه فيه إلى أننا «استدرجنا إلى البحث فى مشاكل ليست هى الأولى بالبحث» ويحذر من مخاطر استيراد الأفكار والمناهج والمشاكل موضحاً أن «استيراد الأفكار غير الإلمام بفكر الغير، وغير الاطلاع عليه، وغير الحوار معه..» وأن المشكلة هى فى الاستسلام بلا وعى «لتبنى فكرة سابقة التجهيز، كاملة المعالم، نشغل بها وعينا، ووقتنا، فتحل تماماً محل ما يمكن أن يتفتق فى أذهاننا بما هو نحن».

خلاصة القول إذن ـ يرى الرخاوى ـ أنه قد توجد عندنا المشكلة نفسها، لكنها ليست بالأهمية نفسها ولا بالحجم نفسه ولا بالمضاعفات نفسها التى تجعلنا نترك كل مشاكلنا لنولى هذه المشكلة كل الاهتمام الذى يولونه إياها.

وردا على الذين يقولون بأن «أى مشكلة فى أى مكان هى مشكلة الإنسان فى كل مكان»، يرى المقال أنه حتى لو توحدت المشاكل فإن طبيعتها تختلف، وكذا موقعها على سلم الأولويات»..

ومن الأمثلة التى تبقى بلا حصر، يشير المقال إلى بعض ما يتعلق بالطفولة، فيتساءل هل «ضرار الأطفال» أو حسب التعريف الغربى «إلحاق الأذى بالطفل من ذويه» هو المشكلة الأكثر تواترا لدينا وأكثر خطراً وأكثر حاجة إلى البحث والنظر، أم أن «حرمان الأطفال» من مطالب الحياة الأساسية لا لتقصير من جانب الوالدين ولكن لأننا ببساطة فقراء.. «كم طفلا ينام فى حجرة ليس لها سقف؟ وكم والدين مازالا فى طور الإنجاب النشط ينامون فى نفس حجرة أطفالهم، لأنهم لا يملكون غيرها، لا لأنهم لا يعرفون أن فى ذلك ما يضر أطفالهم...».

وينبه المقال إلى قضية ربما كانت الأخطر حين يتناول منظومة القيم الأولى بالرعاية متسائلاً ألا يعرف الباحثون فى مجال الطفولة والتربية فى مصر أن قيمة «الغش» قد انتشرت فى مجتمعنا انتشاراً مقلقاً بعد أن نعكس مضمونها لتعنى فى الضمير العام مرادفاً للشطارة والفهلوة.. والنجاح. مؤكداً على أن أولى المشاكل بالدراسة عندنا فى هذه المرحلة من تطورنا هى معرفة القيم التى توصلها السلطة التعليمية للمربين (الكبار)، ثم يوصلها الكبار للأطفال. وهى هى القيم التى سادت بشكل أو بأخر فى مجالات كثيرة أخرى، من أول الغش التجارى، حتى البحث العلمى، مروراً على مسلسل الانتخابات فى مختلف المواقع والمناسبات.

ويفترض المقال ـ اتفقنا أو اختلفنا معه ـ أن الأطفال ـ أخذاً فى الاعتبار مستقبلهم ـ يضارون من اهتزاز منظومة القيم أو تشويهها أكثر مما يضارون من الضرب أو ما شابه. وأن هذا الذى يحدث فى أطفالنا مبكراً هكذا هو أخطر علينا من أن يضرب أب طفله لأنه تأخر فى العودة إلى المنزل بعد العاشرة. الأمر الذى فى مجتمعات أخرى، وفرت كل مادون ذلك، ربما استدعى تدخل الشرطة لمنع «قسوة الأب»!

مقال أستاذ الطب النفسى يلتقط ويدلل على أفكاره بنماذج أدبية من أعمال إبراهيم عبد الحليم وطه حسين ونجيب محفوظ وبهاء طاهر، موضحاً كيف يعتبر الإبداع الروائى مصدراً لمعرفة سيكولوجية عميقة بماهية الطفولة وأبعادها. وكيف رسم ديستوفسكى أبعاد الطفولة بكل التفاصيل والعمق فى البطل الصغير. ثم الطفلة نللى فى «مذلون مهانون» والطفل فلالى فى قرية «ستيبانتشكوفو»، وكذلك الطفلة كاتيا فى رائعته التى لم تكتمل «نيتوشكا نزفانوفنا».

دعوة الرخاوى للاهتمام «السيكولوجى» بالأدب، وباعتبار المعايير التى تفرزها الثقافة الشعبية، التى هى «خلاصة تجارب غير معلنة المنهج لكنها حاسمة النتيجة»، تتبدى أيضا فى مقال آخر تنشره «وجهات نظر» باتفاق خاص مع مجلة National Geographic حول الحكايات الخرافية الشهيرة: سندريللا ، الجمال النائم، سنو وايت، ذات الرداء الأحمر..إلخ. والتى جمعها الألمانيان «الأخوان جريم» فى تلك الأيام البعيدة أوائل القرن التاسع عشر (صدرت الطبعة الأولى فى ألمانيا عام ١٨١٢).

واتساقاً مع الطابع الخاص للمجلة، يحكى المقالُ مشاهد من رحلة محرر المجلة إلى بلدة الأخوان جريم. ويقدم تحليلاً تاريخياً رصيناً يرصد كيف أثرت السياسة على تطور «وتلون» حكايات جريم (٢١٠ حكاية) خلال مراحل انتشارها الجغرافى المذهل عبر قرنين من الزمان (ترجمت إلى ما يزيد على ١٦٠لغة، من الإينوياتية فى القطب الشمالى إلى السواحلية فى إفريقيا) التى شكلت اقتصادياً جانباً كبيراً من المواد الخام التى أسهمت فى تدشين «ديزنى» كعملاق فى مجاله. و يعتبرها المهتمون بصناعة النشر منافسة للإنجيل «انتشاراً».

ويحكى المقال المتعمق كيف لعبت حكايات الأخوان جريم دورا محورياً فى مقاومة الحكام الجدد والحفاظ على ثقافة موحدة فى وقت تفسخت فيه ألمانيا على يد فرنس نابليون إلى خليط من الإقطاعيات والإمارات. ثم كيف أعيدت كتابة بعض القصص ـ أثناء انتشارها الجغرافى ـ بما يتلاءم مع بعض الأذواق السياسية (فى إحدى طبعات سندريللا نرى البطلة تنظم نقابة للخادمات، ثم تدخل السجن، وبعد هروبها تهاجر إلى الولايات المتحدة..) ثم كيف سقطت الحكايات فريسة للمنظرين ورجال الدعاية السياسية. فمنظرو الرايخ الثالث حولوا ذات الرداء الأحمر إلى رمز للشعب الألمانى، الذى يستنقذ من براثن الذئب اليهودى الشرير. ومع نهاية الحرب العالمية الثانية منع الحلفاء نشر حكايات جريم فى ألمانيا باعتبار أنها تدعم وحشية النازى.

ويشير مقال توماس أونيل إلى محاورات علماء النفس هناك حول ما إذا كان قذف الأميرة للضفدع يرمز إلى "اليقظة الجنسية" لها كما يؤكد عالم النفس الفرويدى برونو بتلهايم، أم أن الأميرة تقدم نموذجاً للدور النسوى من خلال تحديها للسلطة الأبوية لوالدها الملك؟ أو أن الضفدع ربما كان مجرد ضفدع؟ ثم إلى الجدل حول نظريات بتلهايم المعروف بإعلانه للقيمة العلاجية لحكايات جريم. والتى ينظر إليها على أنها تعد تدريباً للاوعى، ووقاية للمحللين النفسيين.

المقالان: «الرخاوى» و «توماس أونيل» يثيران ـ ضمن أمور أخرى ـ أسئلة كثيرة حول الثقافة الشعبية وأصالتها. وأهمية ـ أو ربما لا أهمية ـ الحفاظ على تلك الثقافة مقابل الانخراط أو «التوحد» فى ثقافة أعم وأشمل. وربما كان السؤال هو نفسه الذى صار مؤرقا للكثيرين أكثر من أى وقت مضى: «السيارة اللكزس أم شجرة الزيتون»؟

وجهات نظر

78-٣



حُـدُودُ الســلاّح!



محمد حسنين هيكل

١ التاريخ

نهاية السفر الطويل والبعيد مع الوثائق الإسرائيلية - تصل بأى مسافر إلى مَوقعَين - كلاهما على مقربة من الآخر إلى حَدّ التماس، حتى ليكاد الجوار بينهما أن يعطى الاثنين معاً فضاءً واحداً مكشوفاً لا يقطعه فاصل.

□ الموقع الأول يَبين عليه أنه «لا يوجد» الآن حلٌ دائم لما اصطلح على تسميته مجازاً بـ: «أزمة الشرق الأوسط» - أو بـ: «الصراع العربى الإسرائيلى» إذا وَقعَ استعمال تعبير أصرح لا يحتاج إلى «المجاز» كى يَصُك له مُصطلحاً!

والسبب أن هذه الأزمة - بصرف النظر عن تسميتها - تُنتمى إلى نوعٍ من الأزمات يَصعُب حَلُّه بتفوُق السلاح مهما بَلغت دَرَجته، لأن هذا النوع من الأزمات مَوصولٌ فى أساسه بثوابت من الجغرافيا والتاريخ، مع ملاحظة:

- أن الجغرافيا ليست خرائط مرسومة من خطوط وألوان - وإنما هى حقائق ناشئة ونامية من ارتباط على طول الزمان بين أرضٍ لها طبيعتها، وبَشَر لهم خصائصهم، ومحيط مُتداخل بتضاريسه مع القارات، مُطل أو مُتطلّع نَحو البحار.

- ثم إن التاريخ ليس «بضاعة» من الممكن «حيازتها» (بتركيبها أو شرائها)، وإنما التاريخ حياة تَصنع نفسها بنفسها بواسطة العلاقة الخَلاَّقة بين الأرض والبَشر، وفى عملية حوار خصب لا ينقطع بين الاثنين تتحَقّق نتائجه وآثاره فى رُقى المجتمعات وعُمرانها، وفى أدواتها الحضارية من اللغة والهَوِيّة والثقافة والفن - وفى اتساق من القيَم والتقاليد والأعراف والقوانين تُعبّر عن كيانات إنسانية تملك حوافز ودوافع تَقدمها وتستشعر موجبات أمنها، ولها فوق الأرض آثارها تَدُل على تواصُل وجودها وتتابُع عصور حيويتها - كما أن لها فى بطن التراب قبورها شاهداً على استمرار حياتها بغير انقطاع جيلاً بعد جيل، ومن أزلٍ إلى أبَد.

□ الموقع الثانى يَبين عليه ما هو أخطر - ذلك أنه إذا كان الموقع الأول يُظهر أنه «لا يوجد» حَل - فإن الموقع الثانى يَبين عليه أن ما كان «صعباً» قبل سنة ١٩٦٧ أصبح «مُستحيلاً» بعدها، والسبب أن «السلاح» الذى لم يكن من الأصل أداةً صالحة لحَلّ «الأزمة» أو حَلّ «الصراع» مع اتصالهما بثوابت الجغرافيا والتاريخ - جرى اعتماده فى تلك السنة (١٩٦٧) أداة وحيدة للحَل، وبظن أن تفوُّق السلاح قادر، وتَرتّبَ على ذلك أن تفوّق السلاح أنساه حدوده فإذا هو يَجور على الحَيز المخصص له فى الإستراتيجية العُليا التى يخدمها، وفى المحَصلة النهائية فإن غواية التفوّق أساءت، فى حين كان ظنُّها أنها أخلصت وزادَت!

وتلك أحياناً كارثة الخطط حين يَتبَدّى نجاحها، فإذا هى تُعدّى على أهدافها بغير أن تقصد، ثم إذا هى تُحَقّق النجاح بمعنى



success ولا تُحَقِّق النصر بمعنى victory - ثم تُواجِه الخطط مصائر لم تكن في حساب هؤلاء الذين وضعوها ورأوها «تنجح» أمام عيونهم في مراحل مُتقدِّمة من عملية تنفيذها، وإذا هُم يكتشفون انه برغم «حصول» النجاح فإن النصر «أفلت» منهم ولم يُحَقِّق وَعده أو مَوعِده مع النجاح!

□

وهذه ظاهرة تَكَرَّرت كثيراً في تجارب الأزمات أو الصراعات أو الحروب - على طول التاريخ الإنساني. وربما أن أشهر وأقرب الأمثلة عليها معروفة في وقائع الحرب العالمية الثانية، وهي حاضرة في الذاكرة الدولية المعاصرة على كل المستويات المتعارف عليها للفعل السياسي: مستوى الإستراتيجية العُليا - ومستوى الإستراتيجية - ومستوى التاكتيك.

- ومثلاً وعلى مستوى الإستراتيجية العُليا - فإن السلاح الألماني تَفوّق إلى دَرَجَة جعلت من «أدولف هتلر» سَيِّداً على أوروبا كلها (وكانت تلك إستراتيجيته العُليا) - لكن السلاح الألماني تجاوَز ما يَقدر السلاح على تحقيقه مهما بَلَغ تَفوُّقه - فإذا «هتلر» يَخرُج من أوروبا إلى الشرق نحو الاتحاد السوفيتي ويُقرِّر غزوه في أغسطس ١٩٤١ - ثم إذا هو يَخرُج عبر المحيط ليُعلِن الحرب على الولايات المتحدة في ديسمبر من نفس السنة. وانتهى النجاح الألماني في استعمال «السلاح» وتَفوُّقه إلى هزيمة ألمانيا واستسلامها بلا قَيد ولا شرط، ثم انتهى «هتلر» - رغم نجاح سلاحه - إلى الانتحار داخل خَندق مَبني بالأسمَنت جامد وبارد!

- ومثلاً وعلى مستوى الإستراتيجية - فإن القائد الألماني الأسطوري «إروين روميل» وَصَل إلى دَرَجَة الإبداع في «هندسة» أسلوب (تتعاون فيه المدرعات مع الطيران على توجيه ضربات صاعقة للعَدو) - ثم ظن «روميل» أن التفوُّق في استعمال «السلاح» (إلى دَرَجَة الإبداع) - يَسمَح له بالخروج من حدود ليبيا للسيطرة على أفريقيا - بجيشه الذي أطلق عليه وصف «الفيلق الأفريقي» - بادئاً كخطوة أولى بفتح شمال أفريقيا بعَرضه - من مضيق جَبَل طارق إلى برزخ وقناة السويس. وفي ذلك نسى «روميل» أن البحر الأبيض المتوسط - على نفس العَرض - يَمتَدُّ حائلاً بينه وبين قيادته وطُرق إمداده في أوروبا. ونتيجة غواية «السلاح» فإن الفيلق الأفريقي الذي كانت مُدَرَّعاته تضوى بالخيلاء تحت شمس الصحراء الغربية لمصر - تَحَوَّل إلى أكوام من خُردة الحديد مُتناثرة على طول الطريق الساحلي من العلمين إلى تونس - وانتهى «روميل» نفسه - برغم نجاح سلاحه - إلى الانتحار بطلقة مسدس وضعه بيده في أذنه.

- ومثلاً وعلى مستوى التاكتيك - فإن الماريشال «مونتجمري» نجم معركة «العلمين» كاد أن يخسر معركة ألمانيا بـ«جسر واحد أبعَد من اللازم» one bridge too far

**هـــذا النـــوع مـــن الأزمـــات
مـــوصـــــول فى أســاســـه بـثـــوابـت
مـــن الجـغـــرافـيــا والتـــــاريــخ، فـــإن حـــلــه يـصـــعـب
بتفـــوق الســــلاح مهمـــــــا
بلغـــت درجتــــــه**

- على نهر «الراين». وكانت الخطة التى وَضَعَتها قيادة الحُلفاء لغزو أوروبا واحتلال ألمانيا تفترض عبور نهر «الراين» بأربعة جُسور تُقام عليه. لكن «مونتجمرى» بإغراء تَفَوُّق السلاح أضاف على الخطة جسراً خامساً فى منطقة «أرنهايم». وعند هذا «الجسر الواحد الأبعَد من اللازم» - كاد الماريشال الألمانى «فون رونشتد» أن يُقَسِّم القوة البريطانية قسمَين، ويَخترق ثغرةً فتحَها بينهما ويُؤخِّر أو يُعَرقل تحرير أوروبا. ووَعى «مونتجمرى» دَرسَه ولَزِمَ حَدَّه، وتَوَقَّف أسبوعين يَضُمّ فيهما صفوفه قبل أن يَتَقَدَّم مرة أخرى وفقاً للخطة، وبدون زيادة يغرى بها تَفَوُّق السلاح! ▪



٢ كـــــــــاردوم

▪▪ غواية التَفَوُّق فى السلاح - كما يكشف كل مَلَف وكل ورقة وكل سطر فى الوثائق الإسرائيلية - أعطت لإسرائيل فى حرب سنة ١٩٦٧ نجاحاً هائلاً - لكن جائزة النصر أفلتت بالضبط لنفس السبب وهو أن تجاوز السلاح لدَوره - جار واعتدى على أهداف الإستراتيجية العُليا لإسرائيل كما فَكَّر فيها ووضعها الآباء الأوائل لمشروع الدولة اليهودية.

وفى حين أن حرب سنة ١٩٦٧ انتهت وقد تَصَوَّر السلاح الإسرائيلى انه بتَفَوُّقه أخلص وزادَ - فإن الحقيقة الواقعة من يومها وحتى الآن تُظهِر انه حَقَّق نجاحاً، ولم يُحَقِّق نصراً.

وبتفصيل أكثر لأننا الآن أمام نقطة جوهرية مما تَكَشَّف عند القراءة المتأنية للوثائق الإسرائيلية فإن مشروع الدولة اليهودية فى فلسطين كان منذ البداية حُلماً يَستَعصى على التنفيذ، وكانت تلك الحقيقة ظاهرة للعيان وماثلة أمام الآباء المؤسسين للمشروع.

وكان هؤلاء الآباء المؤسسون يملكون من الذكاء والدهاء ما جعلهم يُدركون انه إذا كانت هناك فرصة لتنفيذ الحلم المستعصى، فإن «فك» الاستعصاء مَرهونٌ بوضع إستراتيجية عُليا له تَتَعامَل أولاً مع الجغرافيا والتاريخ لأن الموانع الطبيعية هناك. وكانت خُطَّة التعامُل (مُتماثِلة مع مشاريع استيطانية سبقتها وواكبتَها فى القرن التاسع عشر خصوصاً فى أفريقيا) هى عَزل الجغرافيا عن التاريخ - أى الفصل بين الناس وبين الأرض، وفتح ثغرة يَنفُذ منها المشروع إلى ميدان معركته.

ومن المفارقات انه من قبل سنة ١٩٤٨ (قيام إسرائيل) - وبعدها حتى سنة ١٩٦٧ - كان يبدو أن المشروع الصهيونى يُحَقِّق جزءاً مُهِماً من إستراتيجيته العُليا.

- فمن بداية القرن، وإلى وَعد «بلفور» (١٩١٧)، وإلى ما بعد الحرب العالمية الثانية - أخذ المشروع الصهيونى جزءاً من أرض فلسطين (بخديعة الشراء والاستيلاء)، وفى إطار هذا الجزء من فلسطين حَقَّق الفصل بين الأرض والناس، وتمكن من وضع نفسه فى ميدان معركته.

- وبعدها وبقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة، وبواقع وجوده فى ميدان معركته فوق جزء من أرض فلسطين - حصل فى مناخ دولى مُوات على ٥١ ٪ من مساحة الأرض - أى القسمَ الأكبر من الأرض

- ثم هو بقَدر محسوب من السلاح، وفى أحوال إقليمية مائعة، أتاح لدولته فى إسرائيل توسيع النصيب الذى خَصَّصَه لها قرار التقسيم من ٥١ ٪ إلى ٧٨ ٪ من فلسطين.

وذلك كله مَنَحَ إسرائيل الفرصة لتُحَقِّق إستراتيجيتها العُليا فى الفصل بين الأرض والسُكان فى أكثر من ثلاثة أرباع فلسطين وتَنجَح - وتَتَطلَّع بثِقة نحو تحويل النجاح إلى نصر!

والنصر يَتأتّى عندما تَتَمَركَز إسرائيل فوق قاعدة صلبة فى فلسطين - ثم عندما تَتَوَسَّع من هذه القاعدة إلى نفاذ أو نفوذ حولها، أى فى كل الشام التاريخى معزولاً عن وديان الفرات والنيل!

□

كان الانفراد بالشام وفى قلبه فلسطين هو مطلب الإستراتيجية العُليا لإسرائيل.

وكانت الإستراتيجية - كما يُوَضِّح كل مَلَف وكل ورقة وكل سطر فى الوثائق الإسرائيلية - هى عزل سوريا عن مصر بعدما تلاقى الاثنان معاً ضمن حَرَكة تيار قومى عربى مُتَدَفِّق تَظهَر له إمكانية فعل مُؤثر إذا سَنَحَت ظروف وسنحت فُرَص!

ولأن الشام كان مطلوباً - صحيحاً وسليماً ..

ولأن مصر مُنجَذبة إليه - بقوة الجغرافيا والتاريخ - فإن ضرورة إبعاد مصر طَرَحَت نفسها.

وهنا كانت إستراتيجية «الصيد» بأسلوبين:

● بالشَبَكة فى الشام - حيث لا جرح ولا دَم قدر الإمكان، لأن الإقليم جواراً ومحيطاً هو الهَدَف المطلوب.

● وبالرُمح harpoon فى مصر - ولأن المطلوب تأكيد الاستبعاد - فإن الاستئصال كان مطروحاً ما دام ضرورياً!

وكان ذلك فى الواقع محوَر إستراتيجية يونيو سنة ١٩٦٧ كما أقَرَّها مجلس الوزراء المُجتمع على هيئة مجلس أمن قومى فى جلسات مُتَواصلة كان آخرها يوم ٤ يونيو ١٩٦٧، والشاهد أن «توجيه العمليات» الذى صَدَرَ إلى السلاح الإسرائيلى كان وبحَسَب المحاضر وبالنص تقريباً:

١ - إن العَدُو هو مصر - والضربة الرئيسية لجيش الدفاع الإسرائيلى مُوَجَّهة ضدها طبقاً للخطة وهى الآن «كاردوم»، بعد أن أضيفت إليها التعديلات التى أدخلها عليها الجنرال «موشى ديان» بالاتفاق مع رئيس الوزراء «ليفى أشكول» فى آخر لحظة.

(والخطة «كاردوم» تقضى باحتلال قطاع غَزَّة والالتفاف داخل الحدود المصرية، والاستيلاء على رَفَح والعريش، والوصول إلى قلب سيناء، واحتلال جَبَل «لبنى»، والوصول إلى «شرم الشيخ» و«رأس محمد» لفتح مضيق «العقبة» - وأثناء ذلك تطويق وتدمير قوة الجيش المصرى الرئيسية، وإتمام ذلك بسرعة فى مُدَّة لا تزيد عن ٧٢ ساعة لكى تكون الضربة سريعة وحاسمة.)

٢ - عمليات دفاعية فى أضيق نطاق - وفى حالة الضرورة على الجبهة السورية - وعند الحَدّ الأقصى دخول المنطقة المنزوعة السلاح بين سوريا وإسرائيل.

٣ - تَجَنُّب أى اشتباك مهما كانت دواعيه على الجبهة الأردنية، واليَقظة فى «تدارُك أى موقف ينشأ بسبب انفلات وِحدة فى موقع أو جنون ضابط فى قطاع»، وسُرعة الاتصال عن طريق الوسائل (المعروفة) بالقيادة السياسية فى الأردن (الملك «حسين») - فإذا لم تَقَع استجابة سريعة فإن قائد الجبهة الوسطى وهو الجنرال «أوزى ناركيس» مُخَوَّل بالوصول إلى حائط المبكى وما حوله فى القدس، والتوقف فى انتظار تعليمات جديدة (وبذلك تكون إسرائيل قد «خَطَفَت» snatched جائزة وَسَط الزحام يَفرَح بها يهود العالم ويَسعَدون!)

وكذلك فإنه عند مساء ٤ يونيو ١٩٦٧ كان «الصيد» على وشك أن يبدأ:

صَيدٌ بالشَبَكة حول فلسطين (فى الشام) تُمَدُّ وتُنشَر.

وصَيدٌ بالرُمحَ المقذوف (harpoon) مُوَجَّهاً إلى مصر مشدود على الآخر - وهى لمسة واحدة على الزناد وينطلق! ▪



٣ الجـــــنــــــرالات

▪▪ تُزَكّى الوثائق الإسرائيلية - فى كل مَلَف وورقة وسطر - صِدق مَقولتَين شهيرتَين عن إدارة الحرب:

المقولة الأولى وهى لـ«كلاوزفيتز» الأستاذ الأول لعلوم الصراع فى العصر الحديث، وفيها قوله: «إن الحرب هى السياسة بوسيلة أخرى» (بمعنى مباشر فإن الحوار بالنيران فى ميادين القتال هو «الاحتياطى» الجاهز للحوار الدبلوماسى إذا فقد جدواه فى لحظة تَصادُم مَصالح، وكلاهما (الرصاصة القاتلة أو الكلمة الناعمة) أداة من أدَوات سياسة مُقَرَّرة).

أما المقولة الثانية فهى لـ«كليمنسو» رئيس وزراء فرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى، وفيها قوله:

«إن الحرب مسألة أخطر من أن تُترَك للجنرالات» (وبمعنى مُباشر فإن «كليمنسو» هنا يُفَرِّق - مثل غيره - بين الحرب والقتال، واقتناعه أن الحرب سياسة وأن القتال سلاح).

وعندما بدأت واشتَدَّت واستحكمت أزمة يونيو سنة ١٩٦٧ فإن ما قال به «كلاوزفيتز» وما حَذَّرَ منه «كليمنسو» أصبح مطروحاً للتجربة على أرض الصراع فى الشرق الأوسط - ومَعالم التجربة مكشوفة.

والواقع أن مَسار الحوادث قضى بأن السلاح أصبح كل الحرب، وذلك مُنزَلَق خطير إذا هَوَت إليه السياسة.

والذى حَدَث فعلاً هو أن جنرالات إسرائيل قاموا يوم ٢٨ مايو بنوع من الثورة على السُلطة المدنية الشرعية دَعاهم إليه ما تَصَوَّروه من تَرَدُّد «ليفى أشكول» أمام نصيحة من الولايات المتحدة - تقترح عليهِ تأجيل بدء العمليات أسبوعين أو ثلاثة «رَيثما تَتَمَكَّن من قياس موقف خصمها السوفيتى، والاطمئنان على موقف صديقها العربى» - وقد فوجئ رئيس الوزراء وتَحَرَّج موقفه إلى درجة تثير القلق، وبدا غير واثق من نفسه بعد أن أهانه الجنرالات واتَّهَموه صراحة بالجُبن والتخاذل، والعجز عن تَزَعُّم وزارة حرب.

إن الجنرالات الثائرين، وفى مقدمتهم «إيزر وايزمان» (مدير العمليات)، صاحوا فى وجه



رئيس الوزراء أثناء ذلك اللقاء العاصف بينه وبينهم مُطالبين باستقالته وراغبين فى عودة «بن جوريون» من عُزلته فى النقب ليرأس الوزارة ـ فى هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ إسرائيل ـ بدلاً من «أشكول». وكذلك أن يعود «موشى ديان» من صفوف الجنرالات بالمعاش إلى الخدمة العاملة وزيراً للدفاع بَدَلاً من «أشكول» أيضاً.

وبصَوت يرتَعِش وبنبرة كسيرة رَدَّ «أشكول» بأنه لن يترك رئاسة الوزارة لـ«دافيد بن جوريون»، وأنه سوف يَستَعيض عن ذلك بتَحويل وزارته إلى وزارة وحدة وطنية تشترك فيها كتلة «جحال» ويَدخلها «مناحم بيجين» شخصياً وزيراً للدولة. ثم أذعَن «ليفى أشكول» ـ ضمن صيغة حل وَسَط وتَرَك وزارة الدفاع لـ«موشى ديان» الذى عاد إلى الساحة عودة قيصر إلى روما (فى ذروة الخلافات التى انقسم فيها الشيوخ على بعضهم فتناً، والقناصل على بعضهم معسكرات، والقوات على بعضها جيوشاً وفِرَقاً!)

وتَظهَر الصورة بائسة من خلال مذكرة عن حديث بين «ليفى أشكول» وبين «إسرائيل جاليلى». وقد كتبها الجنرال «ليور» مدير المكتب العسكرى لرئاسة الوزارة. وطبقاً لنصوصها فإن رئيس الوزراء يقول لوزير الدولة:

«هُم لا يثقون بى مَسئولاً عن قيادة المعركة القادمة. يظنون أننى لا أفقه شيئاً فى العسكرية مثل «بن جوريون». وهُم مُخطئون. وسوف يعرفون يوماً من الحقائق ما يَجعَلهم يَخجلون مما فعَلوه معى».

ثم يَستَطرد:

ـ إننى جئت لجيش الدفاع بسلاح لم يكن يخطر على بال قادته.

ـ وأنا أول رئيس وزراء لإسرائيل يُدير معركة ويأخذ فى حسابه وجود سلاح نووى، وقد عاصرت صُنع هذا السلاح وذللت كل صعوباته أكثر مما عاصره «بن جوريون» وأدار من شئونه، ولو أن «بن جوريون» هو الذى بدأ.

ـ وليس هناك إسرائيلى غيرى يستطيع أن يحصل من «جونسون» (رئيس الولايات المتحدة) مثلما أستطيع أنا بعلاقة خاصة تجمعنا سَوياً، و«جونسون» نفسه دائم الإشارة لها.

ـ وأنا وإن كنت لم أشارك فى إدارة معركة مُسلَّحة، وكنت أعتبر نفسى جاهلاً فى الشئون العسكرية ـ فإنى قد اكتسبت الآن بالممارسة خبرة لها قيمتها وسوف يرون عند التجربة».

□ ثانياً ـ وَقَعَ أن الجنرالات «استولوا على الحرب». لم يَكتفوا بالقتال وهو اختصاصهم، فى حين أن الحرب (أى ممارسة السياسة بطريقة أخرى ـ على حَدّ قَول «كلاوزفيتز») كانت اختصاص غيرهم ـ ووَقَعَ ما حَذَّرَ منه «كليمنسو» من «أن الحرب مسألة أخطر من أن تُترَك للجنرالات».

والحاصل أن جنرالات إسرائيل، وابتداء من يوم ٤ يونيو، استولوا على القرار السياسى فى دولة إسرائيل، ولا زالوا حتى هذه اللحظة يمسكون به، وهذه حقيقة لا تحتاج إلى إثبات، ذلك أنه من يومها وإلى الآن فإن صُنّاع القرار السياسى فى إسرائيل ظاهراً وباطناً كانوا ولا زالوا من الجنرالات: «إسحاق رابين» ـ «موشى ديان» ـ «بيجال آللون» ـ «إسحاق موردخاى» ـ «حاييم بارليف» ـ «أمنون شاهاك» ـ «أرييل شارون» ـ «إيهود باراك». والمدهش أنه فى هذه اللحظة وبعد ثُلث قرن على سنة ١٩٦٧ ـ أن الصراع على رئاسة الوزارة يَدور بين جنرالين: أحدهما يرأس تحالف أحزاب العَمَل وهو «إيهود باراك»، والثانى يرأس تحالف الليكود وهو «أرييل شارون». والأشد إثارة للدَهشة أن كلاً من الرَجُلين ليس جنرالاً فقط وإنما هو عسكرى تلقى تربيته وتعليمه وخِبرَته وثقافته من العَمَل فى القوات الخاصة حيث قَتَل بيَدِه وخَنَقَ بأصابِعه!

وكانت مَعركة سنة ١٩٦٧ هى نجاح الجنرالات فى القتال ضدّ العرب دون انتصار ـ وانتصارهم فى السياسة الداخلية لإسرائيل دون نجاح ـ على الأقل حتى هذه اللحظة من بداية سنة ٢٠٠١.

والشاهد أن الجنرالات استولوا على «السياسة» فى نفس اللحظة الذى استولوا فيها على «الحرب»، وتَصَرَّفوا كما شاءوا فى ميادين القتال دون تفرقة ضرورية بين المستويات الثلاثة لـ: السياسة ـ والحرب ـ والقتال.

ـ فالسياسة هى تحديد الأهداف بعيدة المدى للدولة (الإستراتيجية العُليا)، وإدارة كافة مواردها ـ بَشَرِيّة واقتصادية وطبيعية وثقافية ـ بما يَخدم هذه الأهداف.

ـ والحرب هى إدارة «الصراع» مع الآخرين (الإستراتيجية) بهَدَف تحقيق المطلوب.

ـ وأما القتال فهو مرحلة استخدام القوة العسكرية بالسلاح لإزالة عَقَبة أو لفتح طريق يَعتَرِض أو يُهَدِّد الأمن فى الحاضر الراهن أو المستقبل المنظور.

وعندما استولى الجنرالات على «السياسة» وعلى «الحرب» وعلى «القتال» فى إسرائيل فإنهم حَقَّقوا أسوأ مخاوف «ليفى أشكول» ـ على حَدّ ما وَرَدَ مَنسوباً إليه فى المذكرة التى كتبها مدير مكتبه العسكرى الجنرال «إسرائيل ليور» الذى وَصَفَه وكأنه «رَجُل يُكَلِّم نفسه بأسى» مُتسائلاً:

«ماذا يريدون؟ ـ هل يريدون أن نعيش بالسيف وحده؟ هل يريدون لمستقبل إسرائيل أن يكون بالسيف إلى الأبد؟» «for ever by the sword?» وذلك نص كلماته كما نقلها وترجمها الجنرال «ليور»! ■



٤ التمرد

■ ■ من المفارقات المدهشة التى تكشفها الوثائق الإسرائيلية أن حرب إسرائيل سنة ١٩٦٧ (والتى يعتبرها معظم العرب نموذجاً فى الفنون والعلوم العسكرية) ـ تُظهِر عند أصحابها أشد ما تكون بُعداً عن الفنون والعلوم العسكرية. وليست تلك شهادة الوثائق الإسرائيلية وحدها ـ وإنما شهادة جهات أخرى وَصَلَت إلى الوثائق الإسرائيلية، وهى جميعاً تُبَيِّن دواعى للخلل أصابت الأداء الإسرائيلى سنة ١٩٦٧:

● الداعى الأول أن سُلطة القرار انتقلت من «السياسة» إلى «السلاح». وبالتالى فإن الإستراتيجية العُليا ـ والإستراتيجية ـ وَقَعَت فى أيدى العسكريين وحدهم، وهُم موظفون فى أحد أجهزة الدولة لم ينتخبهم أحد، ولم يُكَلِّفهم بمسئولية القرار دستور وقانون وناخب!

[وكان من «قوانين نابليون» المشهورة، وهو الشيخ الأكبر فى فقه الحرب، نَصٌ يقول: إن الحرب مسئولية الأمة كلها، ولهذا فإن قرار الحرب سياسى. والقتال ليس قراراً عسكرياً وإنما هو أمر سياسى يُنَفِّذه العسكريون].

وفى يونيو سنة ١٩٦٧ كان قرار الحرب الإسرائيلى فى يَد الجنرالات!

● والداعى الثانى أنه حين انتزع العسكريون فى إسرائيل سُلطة القرار من ساستها المكلفين به والمسئولين عنه ـ فإن تَصَرُّفهم تَوَسَّع وملأ الساحة كلها.

[ومن «قوانين» الحرب، و«الشيخ الفقيه» هذه المرة هو الفيلسوف العسكرى البريطانى الأشهر «ليدل هارت» قاعدة أساسية تقول: «إن مُهِمّة الإستراتيجية أن تُقَلِّل من دور القتال فى الحرب قَدر الإمكان].

● والداعى الثالث أنه فى يونيو سنة ١٩٦٧ تَكَفَّلَ الجنرالات بجَعل دور السلاح يَتَوَسَّع بأكثر مما هو ضرورى حتى تجاوَز وجارَ على الإستراتيجية ـ وتجاوَز وجارَ على الإستراتيجية العُليا كما وَضَعها الآباء المؤسسون لدولة إسرائيل!

□

ومنذ اليوم الأول من يونيو ١٩٦٧ ـ وفى أعقاب ثورة الجنرالات وتوابعها ـ كانت القيادة السياسية فى إسرائيل بَدأ مُرتَعِشة ـ بالغضب المكبوت.

وفى ظروف معارك على وشك أن تفتح مدافعها وتَبعَث طائراتها وتدفع مُدَرَّعاتها وتُحرّك كتائبها ـ فإن رئيس الوزراء ومجلس الوزراء، وعندهم القرار السياسى بالحرب ـ كَتَموا جميعاً مشاعرهم، وتركوا السُلطة تَنزَلِق بعيداً عنهم!

والجنرال «إسرائيل ليور» مدير المكتب العسكرى لرئيس الوزراء شاهدٌ حاضرٌ ـ وهو يقول فى مُذَكّرة له: «إن ليفى أشكول» رئيس الوزراء لم يُخامره الشك لحظة فى أنه إذا لم يكن ما قام به الجنرالات انقلابا بالضبط ـ فإنه كان تَمَرُّداً بالتأكيد.

وقد كان «أشكول» فى تلك الظروف يَنتَفِض غضباً لكنه جاهَدَ فى السيطرة على مشاعره إلى حَدٌ دعانا جميعاً للقَلَق عليه. وقد اعتبر نفسه مسئولاً عن احتواء «التَمَرّد» حتى ولو ضَحّى بسُلطته، خشية أن يَتَحَوّل «التمَرّد» بالفعل إلى «انقلاب» يُسىء فى تلك الأوقات إلى مصلحة دولة إسرائيل وأمنها!»

وعندما قبل «أشكول» بحَلٌ وَسَط أعاد «ديان» من «التّيه» إلى «قيادة الجيش» مرة أخرى ـ مع استمرار «بن جوريون» فى «عُزلته» داخل مستعمرة «سد بوكر» (قلب «النقب») ـ دون أن يَعود إلى رئاسة الوزارة ـ فإن رئيس الوزراء اعتبر قبول الجنرالات لهذا الحَل نوعاً من الترضِيَة تَدعوه لأن يُساير رغباتهم.

والغريب أن الجنرالات لم يكونوا فى تلك اللحظة جبهة واحدة، وإنما كانوا جبهتين على الأقل:

● جبهة يمثلها الجنرال «موشى ديان» العائد إلى وزارة الدفاع على «ظهر حصان أبيض» كما يقولون.

● والجبهة الثانية يمثلها الجنرال «إسحاق رابين» الذى كان رئيساً لهيئة أركان الحرب التى وَضَعَت الخطط. وكان شعوره أن عودة «ديان» فوق رأسه إلى وزارة الدفاع ـ إهانةٌ لكفاءته وشكٌ فى قدرته على تَنفيذ خطة تَحمل توقيعه!

وكان أبرز «الصقور» فى جبهة «ديان» هو «إيزر وايزمان» الذى قادَ تَمَرّد الجنرالات فى مكتب رئيس الوزراء. وكانت العلاقة بين «ديان» و«وايزمان» وثيقة، وكان كلاهما «عديلاً» للآخر، أى أن زوجَتَى الجنرالين ـ وقتها ـ كانتا أختين!

وكان «رابين» فى الموقف

«غــواية التفــوق فى الســـلاح»
أعطــت لإســـرائيل فى حــــــرب ٦٧ نجــاحا
هــــائلا. لكـــن «جــائزة النصــر» أفــلتت لأن تجــاوز الســـلاح لدوره
جـــار عــلى أهـــــداف الاســــــتراتيجية
العليـــــا لإســــــرائيل

الضــعيف رغم أن عـدداً من الجنرالات كـانوا على استعداد لمساندته، ولم يكن ذلك إعجاباً بـه، وإنما نُفوراً من «ديان».

وكان شعور هؤلاء الجنرالات - خصوصاً هؤلاء الذين شـاركـوا فى إعـداد الجـيش الإسرائيلى لذلك «الموعد مع الحرب» فى يونيو ١٩٦٧ - والذين وَضَعوا خطة العمليات المرسومة لتحقيق هَدَف الحرب - أن مجىء «ديان» جائزة لا يستحقها رَجُلٌ لم يكن له دور لا فى إعداد القوات ولا فى وضع الخطة، وقد قفزَ بمناورة انتهازية على مَشهد كان بعيداً عنه فـإذا هو فى طرفة عين مُقدّمة المشهد وصانعه وبَطله - بلا استحقاق!

□

وكالعادة - من يومها وحتى الآن - فإن «شيمون بيريز» الباحث دائماً عن دور، والمتلكئ دائما بعد فوات الأوان - ذهبَ إلى الجنرال «ديان» فوْر توَلّيه لوزارة الدفاع ولديه - كما هى العادة أيضاً! - اقتراح لم يخطر على بال أحد غيره. وكان مُؤدى اقتراح «بيريز» كما تسجله الوثائق الإسرائيلية فى شبه إجماع بين المصادر - قوله همساً فى أذن «ديان»:

«الوزارة تواجه طلباً أمريكياً بالانتظار حتى يتأكدوا من تثبيت موقف الزعماء السوفييت والاطمئنان على موقف الشيوخ العرب.

والكل - مع تصميمه على ضرورة ضَرب «ناصر» وإهانته - مُتَرَدِّد فى اللحظة الأخيرة تَحَسُّباً لوقوع خسائر كبيرة، واقتراحى عليك ما يلى:

ان تُعلن الآن وفوراً أن إسرائيل سوف تُجرى تجربة على «جهاز نووى» nuclear device».

ويضيف «بيريز»:

«إنه على حَدّ علمى فإن إدارة مشروع «رافائيل» لديها ما يمكن أن «تُجَرّبه»، وبعد ذلك (وفق تقديره) فإن مجرد صدور إعلان بهذا المعنى كفيل بإسقاط «ناصر» لأن الجيش والشعب فى مصر كليهما سوف يدركان أنهما أمام قوة نووية. وحينئذ تنتهى المعركة قبل أن تبدأ».

ولا يَظهر فى الوثائق الإسرائيلية أن اقتراح «بيريز» - مثل كل اقتراحاته - عاش طويلاً، فقد تكفل كثيرون فى الوزارة وفى قيادة الأركان بالرّدّ عليه، وكان ملخص رَدهم:

● أن مثل هذا الإعلان عن مشروع إسرائيل النووى سابقٌ لأوانه.

● أن الولايات المتحدة سوف تجد نفسها مضطرة إلى الوقوف ضدّ «إعلان نووى إسرائيلى» - وَقع بدون موافقتها - فى منطقة لا تحتمل هذا النوع من التصرفات.

● أن الاتحاد السوفيتى قد يَعتبر «الإعلان» إجراءاً طائشاً، ومن ثم يتدخّل ويكون لتدخُّله فى الظرف الموضوعى الراهن صدى دَولياً مواتياً.

● أن مثل هذا الإعلان سوف يُوحّد بين كل العرب على كل الجبهات، بينما المقصود الأصلى من سياسة «الشَبكة» و«الرُمح المقذوف» هو عَزل الجبهات العربية عن بعضها، فذلك جَوهر الإستراتيجية العُليا للدولة اليهودية.

وهكذا كان على «بيريز» أن يرى واحداً من اقتراحاته «الخلاّقة» يضيع وَسَط أناس لا يعرفون قدره ولا يعترفون له بدور يراه لنفسه، وهو دَور «صانع الأفكار»!



٥ مـــطـــــارق!

في الساعة العاشرة والربع من ليل ٤ - ٥ يونيو ١٩٦٧ أصدر الجنرال «ديان» أول أمر يَحمل توقيعه:

«إلى كل قوات جيش الدفاع على الجبهة الجنوبية:

الهَدَف: تدمير الجيش المصرى فى سيناء.

المدى: احتلال شمال وبطن سيناء والالتفاف حتى شرم الشيخ».

وكان هذا «الأمر الأول» للجنرال «ديان» قبل ساعات قليلة من بدء العمليات مُتَّسقاً على نحو كامل مع الإستراتيجية العُليا للأمن الإسرائيلى - ومُطابقاً لإستراتيجية وُضعت مبكراً لضرب مصر بقصد إخراجها من الشام، وحصرها تماماً فى أفريقيا بعيداً بالكامل عن آسيا. والدليل المؤكّد لهذا الاتساق أن «أمر ديان الأول» اقتصر على الجبهة المصرية، وأما على الجبهات الأخرى (السورية والأردنية) - فقد كان ما صَدَرَ عنه فى اللحظة الأخيرة تعزيزاً للأوامر السابقة (أى دفاع مَحدود على الجبهة السورية، مع احتلال المنطقة المنزوعة السلاح إذا اتسع نطاق العمليات قبل أن يتأتى حصرها - ثم إنه لا عمليات على الجبهة الأردنية إلا بإذن، وإذا جَرت مفاجأة غير مُتَوَقَّعة فإنه يمكن إلى حين حَلّها «خطف» حائط المبكى وما حوله فى القدس!)

□

كانت الخطة العسكرية الإسرائيلية على الجبهة الجنوبية - فى أصلها - تصميماً كلاسيكياً «التزم بما جاء فى الكُتُب» دون إدْعاء بعَبقرية ينفرد بها.

□ ووفق كتابات الجنرال «جودريان» وتطبيقاته لها فى الحرب العالمية الثانية فإن الحرب الخاطفة هى الحرب العصرية. والحرب الخاطفة تبدأ بضربة تُقصد بالدرجة الأولى شَل أعصاب العَدُو وإرباكه إلى دَرَجة تدعوه للتخبُط فى رَدّ فعله بما يُشوّش تفكيره ويُؤثر على قراره.

(وكان ذلك هَدَف الضربة الجوية الإسرائيلية الأولى على كل المطارات العسكرية المصرية. وقد أضيف إليه هَدَفٌ ثانٍ هو حماية عُمق إسرائيل من احتمال غارات مُضادة يكون الطيران المصرى قادراً عليها!)

□ ووفق كتابات «ليدل هارت» فإن كفاءة الجيش الحديث مَرهونة بخفّة حَرَكته، وذلك يتأتى حين تكون تشكيلاته المقاتلة «وحدات» قادرة على الفعل السريع بما يُمَكّنها بكثافة وتركيز النيران أن تخترق بالحَرَكة الخاطفة اية دفاعات وتلف حولها.

وكان «ليدل هارت» ينصح دائماً باسلوبين:

● أن تتحوّل «الوحدات» إلى «مطارق» تضرب، والموضع المثالى لضربة «المطرقة» هو أن تنزل فوق الرأس - أى فوق قيادات الجيوش وعُقَد مواصلاتها.

● أن لا يتوقّف تقدّم «الوحدات» المتحركة بكثافة النيران كى تحتل وتُؤمّن ارضاً. وإنما نصيحة «ليدل هارت» إلى كل قائد عسكرى بأنه: «لا داعى لتعطيل القوات فى احتلال أرض. اكسر الجيش الذى يواجهك تنفتح لك أرجاء الأرض وراءه».

[وكان ذلك بالضبط ما فعلته القوات الإسرائيلية فى سيناء: ضربات «مطرقة» تنزل على الرؤوس - و«ألوية» تتحرك بسرعة، وهى لا تحتل أرضاً وإنما تُمَزّق خطوطاً وتفتح ثغرات، وتلتف وتطوّق، وفى ذلك فإنها تُؤكّد - أيضاً - نظرية قديمة لـ«كلاوزفيتز» تعتبر «هَدَف المعركة قتل «أعصاب» العَدُو قبل قتل «أجساد» جنوده!»]

....

....

[ولسوء الحظ فإنه بمقدار ما تصَرّفت القيادة الإسرائيلية فى بداية الهجوم وفق ما طلبته «نصائح الكتاب الكلاسيكية» فإن القيادة المصرية فى مواجهة الهجوم تصَرّفت بالضبط وفق «نواهى الكتاب الكلاسيكية».

وكان تنظيم الجيش المصرى وخطة عملياته وخطوط تحركه على النظام البريطانى - الفرنسى الذى اعتمد فى معارك الحرب العالمية الأولى - وكان تجربة الحرب العالمية الثانية لم تحدث.

وكان أن الضربة الجوية الإسرائيلية شلّت أعصاب القيادة.

ثم إن «مطارق الألوية» فوق الرؤوس أصابت بالدوار.

وأخيراً فإن الحركة السريعة والالتفاف والتطويق لجيش كبير - ثقيل بذَيْل إدارى طويل - حَوّلت هذا الجيش فى ساعات إلى جُزُر معزولة عن بعضها - وعن قيادتها.]

....

....

[ثم كان ما سمعته بنفسى من الجنرال «أندريه بوفر» وهو الخبير العسكرى الفرنسى المعترَف له دولياً - حين قال لى - يوم ٤ سبتمبر ١٩٧٥ - ونحن فى بيته الواقع على نهاية شارع «فوبورج سانت أونوريه»:

«إننى دَرَستُ معارك سنة ١٩٦٧، وناقشت تفاصيلها طويلاً مع القادة الإسرائيليين ومنهم «ديان» و«رابين»، وتقديرى أن جيشكم (الجيش المصرى) انهزم فى حرب نفسية قبل أن يَنهَزِم فى حرب عسكرية. القيادة ذُهلت من ضربة الطيران، والقوات فى الميدان فُوجئت بالتحَرُكات الخاطفة للألوية الإسرائيلية، وتفكّك الجيش الكبير نفسياً قبل أن تبدأ معارك القتال الحقيقى، وذلك تفسير ظاهرة أن خسائركم الكبيرة فى المعركة لم تَقع إلا بعد صدور قرار الانسحاب من القاهرة!»]

....

....

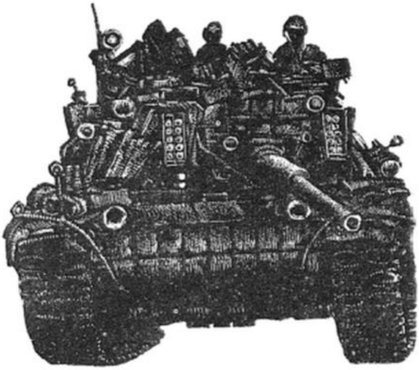


٦ جـــنـــــون!

كان النجاح الإسرائيلى فى سيناء طوال المرحلة الأولى للعمليات ظاهراً وأكيداً، ومُتوافقاً بالحركة (التاكتيك) مع مطالب الإستراتيجية الإسرائيلية - ومطالب الإستراتيجية العُليا للدولة اليهودية كما وضعها المؤسسون الأوّل للمشروع الصهيونى.

لكنه عند لحظة النجاح بالضبط وَقَع التجاوز - لأن النجاح بهذه السهولة جاء معه بغرور القوة - وغرور القوة أغوى العسكريين وأوّلهم «ديان» - على الخروج من السياق وعلى النَص!

ولم يكن وصول القوات الإسرائيلية إلى قناة السويس مُقرّراً أو مطلوباً فى الخطة الأصلية للعمليات كما صَدَرت بها الأوامر مساء ٤ - ٥ يونيو ١٩٦٧.



بل إن الابتعاد عن قناة السويس وتجنُّبها تماماً كان هو المطلوب ودواعيه (نقلاً عن مذكرة رسمية أشار إليها الدكتور «آفى شلايم» فى دراسته الكبيرة ـ صفحة ٢٤٣) كما يلى:

● إن الوصول إلى ضفة القناة يُكلِّف الجيش الإسرائيلى بحماية خطوط مواصلات طويلة لا بد أن تَظلَّ مفتوحة باستمرار لضرورات إمداد وتموين الخط الأول من القوات على حافة الماء.

● أن الوقوف على ضفة القناة سوف يُلزم الجيش الإسرائيلى بأسلوب الدفاع. وهو أسلوب فى الحرب يأخذ من هذا الجيش أكبر مزاياه وهى سُرعة الحركة.

● إن قناة السويس مَمَرٌ مائى دولى. واقتراب إسرائيل منه قد يُحَوِّله إلى منطقة عمليات عسكرية. وذلك يُصبح خطراً على الملاحة.

● أنه فى حالة وصول القوات الإسرائيلية إلى قناة السويس فإن مصر سوف تبادر بإغلاقها بادِّعاء الحرص على سلامة الملاحة. وتقع المسئولية على إسرائيل.

● إن إغلاق قناة السويس قد يكون استفزازا للاتحاد السوفيتى يدعوه إلى التدخل بأكثر مما ينوى وأبعَد مما يريد.

□

والذى جرى أنه مع النجاح غير المتوقع. ومع الغرور. ومع الغواية ـ فإن الخروج عن سياق الخطة ونصْها تَـرَكَ نفسه يَنساق إلى قرارات لا علاقة لها بالخطة الأصلية.

ومثلاً فإنه قبل ظهر يوم الأربعاء ٧ يونيو وَصَلَت إلى قيادة القوات إشارة من داورية إسرائيلية متقدمة تقول «أنها وَصَلَت إلى ضفة قناة السويس. وهى تَقِف الآن عند حافة مياهها».

وعُرِضَت الإشارة فى البداية على رئيس هيئة أركان الحرب الجنرال «إسحاق رابين». وكان تقديره طبقاً لما عَلَّقَ به على الإشارة «أن وصول الداوريات الإسرائيلية إلى ضفة قناة السويس نجاح فائق». وهو يَتساءل: «هل تَتَمَسَّك هذه القوات بمواقعها أم تَنسَحِب؟».

وكَان ظاهراً أن ظنـاً ساوَرَه بأن «بقاء القوات قد يكون فيه تعزيز لقوة «الموقف التفاوضى الإسرائيلى بعد انتهاء المعارك»!»

وعندما وَصَلَت الإشارة إلى وزير الدفاع الجنرال «ديان» كان تعليقه الأولى عليها حازماً إذ قَرَّر أن «وقوف القوات على ضفة القناة والتَمَسُّك بها مُخالف للخطة ومُتعارِض مع السياسات التى قام عليها بنيانها».

وعلى هذا الأساس أصدر وزير الدفاع أمراً «للتنفيذ العاجل» مُوَجَّهاً إلى قائد القوات التى وصلت إلى ضفة قناة السويس. يقول فيه: «ابتعد فوراً عن ضفة القناة واسحب قُوَّتك بعيداً. والزم التعليمات السابقة التى تُحَدِّد مُهِمَّتك».

وتَـمَّ تنفيذ أمر وزير الدفاع.

لكنه لم تمض غير ساعات حتى أصدَرَ «ديان» نفسه أمراً لقوة لواء كامل أن تَتَقَدَّم على نفس الخُطى التى مَشَت عليها داورية الصباح ـ وتكون داورية الصباح هى «المرشِد» الذى يقود «لواء العصر» إلى حافة مياه القناة.

وكان ذلك تغييراً جوهرياً فى الخطة تجاوز به السلاح حدوده وأعطى نفسه سُلطة القرار السياسى. ولم يكن رئيس الوزراء ولا مجلس الوزراء على علم بأن القوات الإسرائيلية الأن ـ وعلى خلاف مع الخطة ـ قد وَصَلَت إلى قناة السويس.

....

....

[وروى لى الجنرال «أندريه بوفر» فى لقائنا يوم ٤ سبتمبر ١٩٧٥ ما نصه:

«إننى سألت الجنرال «ديان» لماذا أمَرَ قواته ـ خلافاً للخطة ـ بأن تَعود إلى ضفة قناة السويس وتَتَوَقَّف هناك. وتَحفُر خنادقها وتَتَحَصَّن؟ ـ ولم أجد عنده رَداً مُقنعاً.

ولقد أحسست من ردوده أنه يَتَهَرَّب من مناقشة قرار ثَبَتَ فيما بعد أنه خطأ على مستوى الإستراتيجية الإسرائيلية. ذلك أنه بالوقوف على خط الماء ألزم الجيش الإسرائيلى بسياسة دفاع ثابت هى ضد عقيدته القتالية ـ ثم إن وقوفه بهذا الشكل على خط الماء أصبح استفزازا يستحيل قبوله بالنسبة للمصريين. والمؤكد أنهم سوف يجدون فى أنفسهم «شجاعة تَفرِض نفسها عليهم فرضاً» وتدعوهم لعبور القناة إلى الناحية الأخرى بأى ثمن».

....

....

واستكمل الجنرال «بوفر» روايته:

«قال لى «ديان» بعد مناقشة طويلة. ولم يكن ما قاله فى معرض الجد:

ربما أننى أردت استعادة ذكرى الأيام القديمة حينما قمنا باحتلال قناة السويس ضمن خطتنا المشتركة سنة ١٩٥٦».

(وكان الجنرال «بوفر» فى سنة ١٩٥٦ هو قائد القوات الفرنسية البَرِّيَّة التى نزلت فى بورسعيد. وكان أيضاً نائب القائد العام (البريطانى) فى مؤامرة السويس. وبالتالى فإنه كان مُطلعاً على دخائل السياسة قدر إطلاعه على خطة العمليات).

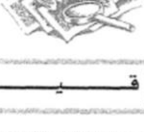
واستطرد الجنرال «بوفر» فى حديثنا (٤ سبتمبر ١٩٧٥):

«حاول ديان أن يروغ من الإجابة وأن ينسب «تجاوزه» إلى «حنينه للماضى» ـ مع أن اعتقادى أن ما قاله لى ديان فيه شىء من الصِحَّة. فقد ساقه syndrome السويس (تداعى الوقائع المستعادة) أن يُرَسِّخ لنفسه صورة المنتصر فى سيناء سنة ١٩٥٦. وقد وجدت نفسى (الكلام للجنرال «بوفر») مُضطراً أن أذكره بأنه حين وَصَل بقواته إلى قناة السويس سنة ١٩٥٦ فإنه فَعَل ذلك ضمن خطة نزولنا فى بورسعيد. وعزمنا على احتلال كامل منطقة القناة. وذلك لم يفرض على الجيش المصرى أن يخلى سيناء دون قتال فحسب. وإنما واجَهَه أيضاً بجدار عازل أمامه من قوات الحلفاء يحجزه عن سيناء!]

....

....

وكذلك فإن استيلاء الجنرالات على القرار فى إسرائيل ـ حَشَرَ السياسة فى ماسورة بندقية!



٧ قيادات

صباح ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ ـ لم يكن لدى القيادة الإسرائيلية ـ أو هكذا يبدو من الوثائق ـ أى قلق لوجود الفريق «عبد المنعم رياض» فى مقر القيادة العامة فى عَمَّان. لأن الكل فى إسرائيل كان على علم بأن القيادة العامة الأردنية فى ذلك الوقت كانت هيكل قيادة فى مدينة الزرقاء تصدر عنه الأوامر إلى غرفة عمليات بعيدة عنه ـ فى عَمَّان ـ ثم إن غرفة العمليات فى عَمَّان تَتَصَرَّف وفق أوامر سُلطة أخرى ـ لها وحدها شرعية القرار وقُوَّته.

وعلى أى حال فإنه فى الضُحى يوم ٥ يونيو حوالى الساعة العاشرة والربع صباحاً فتح أحد المدافع فى القدس نيرانه على موقع قريب من جَبَل «المكبر». وكان تعليق رئيس وزراء إسرائيل أن هذه طلقات «يُبرِئ بها الأردن ذِمَّته ويعفى نفسه». وحين سأله «مناحم بيجين»: «أشكول .. أليست هذه فرصة لتحرير كامل أرض إسرائيل (أرتز إسرائيل)؟ ـ رَدَّ عليه «أشكول» بأنه «لا يوافقه على رأيه». وألح «بيجين» بالسؤال. ورَدَّ «أشكول»: «القضية هى ما إذا كنا نريد الأمريكان معنا أو أننا استغنينا عنهم؟!»

ثم قال «أشكول بعد فترة صمت: «إن حائط المبكى يُلِح علىَّ. ومن الواضح أن الشعب اليهودى كله يريدنا أن نأخذه ـ حتى «ميريام» (زوجته) حَرَّضتنى عليه مساء الأمس.»

وحين راح «بيجين» يتساءل عن السبب الذى يدعو الأمريكان إلى الغضب إذا قامت إسرائيل بتحرير كامل أرض إسرائيل ـ كان رَدّ «أشكول» أنهم «سوف يغضبون لأسباب كثيرة:

أولها أن ذلك يجعل للحرب هدفاً أوسع من إسقاط «ناصر» وتصفية التهديد المصرى.

والثانى أن الهاشميين لهم دَور خاص فى خطط الغرب.

والثالث أن احتلالنا للقدس كلها سوف يضع الشيوخ من أصدقاء أمريكا فى حالة انكشاف!

□

واللافت للنظر أن ذلك كان اقتناع «ديان» أيضاً. فقد كان يَعرف كل الدواعى السياسية الخاصة بالأردن. ثم إنه كان يَعرف الحقائق العملية مما هو جار فى عَمَّان. وكانت المخابرات العسكرية الإسرائيلية (آمان) تَضَع أمامه دقيقة بدقيقة صورة كاملة للحقيقة الأردنية فى تلك الساعة. وكانت «آمان» تحصل بالتَسَمُّع التليفونى على الأوامر الصادرة من القيادة العامة التى يجلس فيها الفريق «عبد المنعم رياض» ويُصدِر من خلالها أوامره. مُتَصَوِّراً أنها واصلة إلى التشكيلات فى الميدان ـ وفى نفس الوقت كانت «آمان» تلتقط الإشارات الحقيقية الصادرة من غرفة العمليات الخاصة فى عَمَّان إلى التشكيلات. وكان فى وسعها أن ترى الفارق الهائل بين الاثنتين.

● الأوامر الأولى (من القيادة العامة ـ فى الزرقاء) تُحَرِّض على القتال..

● والإشارات الثانية (من غرفة العمليات ـ فى عَمَّان) تَتَوقّى تشويه!

وبرغم «الحقيقة» فإن بعض ما تَوَقَّعَته الخطط الإسرائيلية حَدَث. فقد سُمِعَت على مواقع مُتَعَدِّدة من الجبهة عصر يوم ٥ يونيو طلقات مدفعية ودفعات مدافع رشاشة.

وقبل الظهر انتهز «أشكول» رئيس وزراء إسرائيل فرصة مقابلته للجنرال «أودبول» القائد النرويجى للقوات الدولية المراقبة للهُدنة وطلب منه نقل رسالة منه إلى الملك «حسين» يُبدى فيها حرص إسرائيل على عرشه. ويطلب منه تَوَخِّى الحَذر أكثر لأن «بعض مدافعه تُطلِق نيرانها الآن».

لكنه ما كاد الجنرال «أودبول» يخرج من مكتب رئيس الوزراء حتى دخله «مناحم بيجين» ومعه الجنرال «بيجال آللون» يُلِحَّان على رئيس الوزراء أنه «الآن وأصوات طلقات المدافع والرشاشات تُسمَع قرب القدس وحولها فإن الفرصة مُلائمة على الأقل لتحرير القدس. ولن يغفر

كان الانفراد بالشام
وفي قلبه إسرائيل، معزولاً
عن وديان الفرات والنيل، هو على الدوام
مطلب الإستراتيجية
العليا لإسرائيل

لنا «الشعب اليهودى» أبداً إذا ضيّعنا الفرصة السانحة هذه اللحظة».

□

وصباح يوم ٦ يونيو قام «موشى ديان» بإخطار رئيس الوزراء (مجرد إخطار) بأنه أمرَ «بمحاصرة القدس» لأنه «لا يريد قتالاً حول المدينة المقدسة يطول أياً من معالمها ويثير ثائرة العالم الإسلامى والعالم المسيحى».

ويستطرد الإخطار:

«لقد لفتَ نظرى أن القوة التى بدأت تُحاصر القدس اكتشفت أنه ليس أمامها مقاومةً من أى نوع، وأن قوات الجيش الأردنى تنسحب بانتظام من المدينة، وإن كان بعض السكان الفلسطينيين يقاومون».

(ولم يكن فى أيدى هؤلاء سلاح مُؤثر لأن السلطات الأردنية لم تكن تسمح للمدنيين فى الضفة الغربية والقدس بحمل السلاح).

وفى الصباح الباكر من يوم ٧ يونيو أصدر الجنرال «موشى ديان» أمره إلى القوات الإسرائيلية «أن تنتقل إلى داخل القدس». لم يكن أمره قتالاً، وإنما كان نص أمره: انتقالا «أن تنتقل» . To move

صَدَرَ الأمر إلى القوات فى الساعة السابعة. وقبل الساعة العاشرة (بعد أقل من ثلاث ساعات) كانت القوات الإسرائيلية قد انتقلت وسيطرت على المدينة المقدسة بكاملها، وكان الجنرال «موشى ديان» على موعد لدخولها ومعه الجنرال «رابين» رئيس الأركان، والجنرال «أوزى ناركيس» قائد المنطقة الوسطى. ووقف «ديان» أمام حائط المبكى وفاجأ الجميع بأن «جيش الدفاع الإسرائيلى أتمّ هذه اللحظة تحرير القدس موطن المقدسات اليهودية - وأعاد توحيدها عاصمة لإسرائيل غير قابلة للتقسيم مرة أخرى».

وقرأ رئيس الوزراء الإسرائيلى فى البرقيات ما قاله وزير دفاعه، وكذلك كان علمه لأوّل مرة بهذا القرار السياسى الخطير!

وفى الوثائق الإسرائيلية رواية بالغة الدلالة بلسان الجنرال «أوزى ناركيس» حكى فيها أنه «بعد نصف ساعة تقريباً من وقوف «ديان» و«رابين» وهو شخصياً (الجنرال «ناركيس» قائد الجبهة الوسطى) أمام حائط المبكى هرع إلى الموقع كبير حاخامات الجيش الإسرائيلى الجنرال «شلومو جورين».

ويُسجّل الجنرال «ناركيس»: «إننى وقفت بجوار كبير الحاخامات وهو يتلو بعض الأدعية بصوت عال وَسَط تزاحُم ضباط وجنود من الوحدات جاءوا لمشاهدة الحائط وملامسته تبرّكاً. وجاء إلىّ كبير الحاخامات يأخذنى من يدى جانباً ويقول لى هَمساً: «أوزى - أليست هذه هى اللحظة الملائمة لوضع مائة كيلوجرام من المفرقعات فى مسجد «عمر» و«قُبّة الصخرة» حتى تتوقّف دعاوى المسلمين بوجود حق دينى أو تاريخى لهم فى القدس؟» - وقلت لكبير الحاخامات: «أرجوك - ذلك أمر لا داعى له وسوف يثير الدنيا علينا». وسألنى: «أى دنيا سوف يثيرها؟» - وقلت: «المجتمع الدولى وعلى رأسه أمريكا. أمريكا لها صداقات تُحرص عليها فى المنطقة. نحن أيضاً لنا أصدقاء فى العالم الإسلامى: تركيا وإيران بالذات، وإندونيسيا وباكستان، وغيرهم كثيرون»! - ولكن كبير الحاخامات أصَرّ على مواصلة دعوته قائلاً لى: «أوزى - هذه فرصتك لدخول التاريخ «وأنت تُضَيّعها».» ورددت مضطراً عليه: «بأننى سَجّلتُ اسمى فى كُتُب التاريخ بدخول القدس وانتهى الأمر». وأدار كبير الحاخامات ظهره لى ومشى بعيداً».

□

وحتى مساء يوم ٧ يونيو كان «موشى ديان» يقصر عملياته فى الشرق على القدس وحدها لا يتجاوزها. وكانت قواته التى أحاطت بالمدينة تجس المواقع الأردنية وتتحسّس أوضاعها. وفى الساعة السابعة مساءً تلقى «ديان» إشارة بعث بها قائد أحد الألوية المدرعة يقول فيها «أن داورية من وحداته المتقدمة بغرض الاستكشاف وصلت إلى مواقع ترى منها «أريحا» بالعَين المجَرّدة دون أن تقابل فى طريقها أية مقاومة». وردّ «ديان» بنفسه على قائد اللواء المدرع يطلب إليه «أن يستعيد داوريته ويسحبها فوراً».

لكن المثير للدهشة بعد ذلك أنه نتيجة لعملية الاستكشاف التى وصلت إلى حيث ترى «أريحا» بالعَين المجَرّدة أمامها - فإن مركز العمليات فى عَمّان أصدر إشارة تأمر بانسحاب عام من الضفة الغربية كلها تُجَنّباً لمحظور اشتباك واسع بين القوات الأردنية والقوات الإسرائيلية.

وكانت الإشارة الأردنية أمام «موشى ديان» بعد دقائق من صدورها. وكان رَدّ فعله إزاءها على عكس ما كان عليه موقفه قبل أقل من ساعة. فقد أصدر الأمر - ودون رجوع إلى مجلس الوزراء أو إلى أى سُلطة سياسية بدخول القوات الإسرائيلية وانتشارها فى كل الضفة الغربية، وطول الليل كان ذلك يَتم بسرعة ونظام. وفى اجتماع حضره رئيس أركان الحرب الجنرال «إسحاق رابين» وعَدَد من ضباط القيادة العليا تساءل «رابين»: «كيف يمكن لقواتنا أن تسيطر على مليون مواطن عربى يعيشون فى الضفة الغربية؟» - وقاطعه أحد ضباط أركان الحرب يُصَحّح أرقامه قائلاً له: «مليون ومائتين وخمسين ألفاً من العَرَب».

ولم يُعَلّق «ديان»!

□

ويكتب الجنرال «أوزى ناركيس» قائد الجبهة الوسطى فى تقرير رسمى: «إن ما حَدَث على الجبهة الأردنية ما زال يثير استغرابى، فعندما بدأت بعض المواقع الأردنية تطلق نيراناً مُتقطّعة، خطر لى أنها فرصة نستفيد منها، وكذلك طلَبتُ إذناً باحتلال منطقة «اللطرون» - لكن الجنرال «ديان» رَفَضَ طلبى.

وأعَدتُ الكَرّة مرة ثانية بعد ساعة، وللمرة الثانية رَفَضَ «ديان» طلبى.

وكان علىّ أن أفهم رَدّه لطلبى المتكرر لالتزامه بسياسات إسرائيل إزاء المملكة الأردنية الهاشمية:

فالحكومة لا تريد احتلال الضفة الغربية - بل تُعارضه بوضوح..

وقوات جيش الدفاع لم تُواجه أى تَحَدّ حقيقى يستفزها للرَدّ بقوة عليه».

ومع ذلك فإن النتيجة النهائية جاءت شيئاً لم يُخطّط له أحد - فقد جرى على الجبهة الأردنية نفس ما جرى على الجبهة المصرية مع اختلاف الظروف، والسبب - مرة أخرى - هو أن السلاح أغراه تفوّقه، كما أن الزحف العسكرى أغوته مساحة الأرض المفتوحة أمامه.

كان الغرور غلاباً، والإغراء لا يُقاوَم، و«الخطيئة أجمل من أن تُقاوَم» بصرف النظر عن الخطة، وكذلك انحرفت إستراتيجية إسرائيل - وانجرفت الإستراتيجية العُليا التى وَضَعَها المؤسسون الأوّل لمشروع الدولة اليهودية! ▪



٨ الجولان

▪ ▪ وتعود الوثائق الإسرائيلية (كل مَلَف وكل وَرَقة وكل سطر) لتؤكّد أن نفس الشىء وَقَع على الجبهة السورية، بنفس الطريقة، بذات الأسلوب، وللسبب عينه: تفَوّق السلاح، وغرور القوة بالنجاح فى الميدان، ونسيان أن الحرب ليست ما يجرى فى ميدان القتال وحده، وإنما الحرب إستراتيجية عُليا تُحَدّد - وإستراتيجية تُخَطّط - وتحركات تُنَفّذ (وضمنها دَورٌ للسلاح لا يتجاوزه، وإلا جارَ على حُدود ليست له، وليس لها!)

وتُظهر الوثائق الإسرائيلية بما لا يقبل الشك أن أمر العمليات يوم ٥ يونيو كان قاطعاً فى أنه ليست هناك خطة مطروحة للتنفيذ للعمل العسكرى ضدّ سوريا (رغم أن التوتّر الذى تَحَوّل إلى أزمة كبيرة فى مايو سنة ١٩٦٧ بدأ كله على الجبهة السورية!)

ولا تُظهر الوثائق الإسرائيلية هذه الحقيقة فقط، وإنما تُظهرها ومعها الأسباب المنطقية الداعية إليها، وفى المقدمة منها «أن إسرائيل لا تريد جراحاً كبيرة يَصعُب مداواتها فى الشام» (وعلى حَدّ تعبير الجنرال «ياريف» فهى هناك تريد أن تصيد بالشَبَكة لا تُدمى، على عكس صَيْدها فى الجنوب ضدّ مصر بالرُمح المقذوف يُصيب، وليس مطلوباً منه أن يُداوى، والأفضل أن لا يكون لإصابته شفاء).

ومع ذلك فمن الواضح فى الوثائق الإسرائيلية أن عَدَداً كبيراً من القادة الإسرائيليين كانوا يشعرون بغَيْظ يَتَمنّون لو استطاعوا التفريج عنه «بتلقين الجيش السورى درساً» على حَدّ تعبير الجنرال «دافيد إليعازار» قائد الجبهة الشمالية، لكن الخطط الإستراتيجية - على أساس الإستراتيجية العليا - كانت شديدة الوضوح - ومَسنودة بمنطق كامل:

١ - أن أى ضربة فى الشام سوف تجعلها حرباً إسرائيلية ضدّ العرب وليس ضربة مُوَجّهة إلى «ناصر» بالدرجة الأولى.

٢ - إذا بَدَت الضربة حرباً إسرائيلية ضدّ العرب فإن ذلك سوف يُحرِج عَدَداً من أصدقاء الولايات المتحدة التى جعلت موقفها مَعروفاً بجلاء أمام إسرائيل حين صَرّحَت لها بالعَمَل ضدّ «ناصر».

٣ - سَبَبٌ إضافى بعد ذلك يَخُصّ سوريا وهو مُتَعلّق بالاتحاد السوفيتى الذى قد يَسكُت «إزاء ضربة تجعل ناصر أكثر تَواضُعاً فى التعامُل معه» - لكن ضربة ضدّ سوريا (وفيها قيادة تعتبرها موسكو يسارية مُخلصة فى ثوريتها ومُتَشَدّدة) قد تكون استفزازا لا تستطيع موسكو أن تسكت عليه.

□

وأيام الاثنين ٥ يونيو، والثلاثاء ٦ يونيو، والأربعاء ٧ يونيو، والخميس ٨ يونيو - كان الموقف على الجبهة السورية محكوماً ودَرَجَة تَوَتّره مضبوطة. ومع أن صوت المدافع كان مَسموعاً من هضبة الجولان، وأزيز الطائرات يسرى فى الأجواء ما بين وقت وآخر - فلم تُظهَر شواهد على أن وحدات سورية نَزَلَت من الهضبة - ولا أن وحدات إسرائيلية صَعَدَت إليها.

ويوم الخميس ٨ يونيو كان شبه مُؤكّد أن المعركة الرئيسية على الجبهة المصرية قد انتهت وأن قراراً من مجلس الأمن بوقف



إطلاق النار على وشك أن يصدر. وأن الحكومة المصرية قامت بإخطار الحكومة السورية حتى لا تُفاجأ عندما يتوقف إطلاق النار على الجبهة المصرية. وفى الواقع فإن لا القيادة العسكرية ولا القيادة السياسية فى مصر كلتاهما كانتا تعرفان مما يجرى على الجبهة السورية غير ما كانت تحمله برقيات وكالات الأنباء. وكان معظمه مُشَوَّشاً لا تبين من خلاله صورة واضحة يمكن التعويل عليها فى تعاون أو تنسيق.

ومساء ٨ يونيو وقد بدا أن العمليات انتهت، تَوَجَّه وفدٌ من المستوطنين فى مستعمرات الجليل الشمالى إلى تل أبيب لمقابلة عاجلة مع رئيس الوزراء يطلبون فيها «عمل شىء» يُعَزِّز أمن مستعمراتهم ويفتح الأفق أمامهم. وذلك - فى رأيهم - ممكن بعد كل ما جرى على الجبهة المصرية. وحَضَر «موشى ديان» بنفسه بعد عودته من الجبهة جزءاً من الاجتماع بين المستوطنين من الجليل وبين رئيس الوزراء «ليفى أشكول». وكان تعليقه على حَدّ ما سَجّلت محاضر الاجتماع: «إنه لا يُوافق لأسباب كثيرة:

أولها «أننا بذلك سوف ننشر قوات جيش الدفاع على رقعة شديدة الاتساع بحيث تصبح قوته ضعيفة ببعثرتها فى كل مكان»!

وثانيها «أن جيش الدفاع يَلتزم دائماً بإستراتيجية تُجَنِّب الحرب على جبهتين فى وقت واحد».

وثالثها «أننى لا أريد أن أستفز السوفييت لأن النظام فى سوريا له وَضعٌ خاص فى حساباتهم. وهنا فإن أى عَمَل لاحتلال الجولان مُخالفٌ لخطتنا فى هذه الحرب»!»

ثم يستطرد «ديان» يَحكى قصة «هذه الحرب» بخِفّة ظاهرة:

«الحقيقة أننا بدأنا معارك هذه الحرب لكى نبعد «ناصر» عن فلسطين. ونضربه فى سيناء، ونكسر قبضته على مضيق تيران (خليج العقبة).

ثم إننا فى الطريق إلى هدفنا الرئيسى وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه أمام القدس بما تُمثله لنا، وأخذناها.

وبعد أن أخذناها اكتشفنا الضفة الغربية كلها مفتوحة لنا فدخلناها.

لكنه أكثر من ذلك لا ينبغى لرحلتنا فى ميدان القتال أن تطول».

وحين بدأ بعض الحاضرين من سكان مستوطنات الجليل يناقشون «ديان» فى حضور رئيس الوزراء الذى جلس ساكتاً - كان رَدّ «ديان»: «إننى لا أوافق. الجولان خارج الخطة ويجب أن تظل خارج الخطة لأسباب دولية - وإذا كانت بعض مستعمرات الجليل تشعر بالخطر بسبب وقوعها تحت المرتفعات السورية مباشرة - فإن خط المستعمرات فى الشمال يمكن سحبه إلى الوراء قليلاً ولو بعِدَّة كيلومترات!»

وطبقاً لمحضر الجلسة (وهو ضمن أوراق «ليفى أشكول») - فإن رئيس الوزراء شعر بالحَرَج أمام المستوطنين من الأسلوب الذى تَحَدَّث به «ديان». وتَدَخَّل الوزير «ييجال آللون» وهو نفسه ينتمى إلى مستوطنة «جينوسار» فى شمال الجليل - قائلاً أن «خط الحدود السكانى» لإسرائيل. وهو مُلامس لـ«خط حدودها الدولى» تقريباً لا يمكن تغييره بهذه البساطة. وعاد «ليفى أشكول» إلى مُجرى النقاش ليقول أنه «كفلاح يعرف كيف تعيش المستوطنات الزراعية. وهو يَفهَم أن نقل مستوطنة بسكانها وبيوتها وأرضها وزراعاتها هو شىء خارج الواقع وخارج أى خيال».

ورَدّ «ديان» بصَلَف بأنه «قال كلمته وهو مُقتَنِعٌ بما قال».

ولاحظ الجنرال «إسرائيل ليور» أن «وزير الدفاع يَتكلّم كما لو أنه هو السُلطة العليا فى البلد وأنه وحده صاحب القرار. ولم تكن لديه الكياسة - ولا الأدب - ليراعى أن «أشكول» مُشارك فى الاجتماع. وأن وزير الدفاع كان مُحَتَّماً عليه - حتى لو أراد أن يرفض طلب مستوطنى الشمال - أن يقول «أنه سوف يتشاور فى الأمر مع رئيس الوزراء»!».

وتَبَدَّى للجميع أن وزير الدفاع يَعتبر أن القتال بالنسبة له مسالة انتهت.

وعند منتصف الليل ٨ - ٩ يونيو ذَهَب عَدَدٌ كبيرٌ من قادة الجيش الإسرائيلى - بما فيهم رئيس الأركان «رابين» - إلى بيوتهم ينامون فيها لأول مرة منذ نشوب المعارك وظنهم هُم الآخرون أنه لم يَعُد مطلوباً منهم شىء - ما كان مطلوباً ثَمّ أداؤه!

□

وفى الصباح الباكر من يوم الجمعة ٩ يونيو استيقظ «ديان» واتصل بقيادة الجبهة الشمالية وقائدها الجنرال «إليعازار» يسأله: «دادو» - تدليل «دافيد» - هل أنت جاهز لصعود الهضبة؟ لديك خطة الطوارئ الاحتياطية نَفِّذها على الفور وقُم باحتلال الجولان، وسوف يُؤخذ السوريون على غِرّة لأنهم يعتقدون، وهذا ظاهر فى إشاراتهم، أن المعركة انتهت ولا يُصَدِّقون حظوظهم السعيدة بأنها انتهت وهُم سالمون لم يَحدُث لهم شىء!»

وقبل ظهر يوم الجمعة ٩ يونيو كانت قوات الجبهة الشمالية بقيادة الجنرال «دافيد إليعازار» قد احتلت الجولان و«رَكِبَت الهضبة واستقرت على ظهرها» على حَدّ التعبير الذى استعمله قائد المنطقة الشمالية!

وعندما وَصَلَت أنباء ما جرى على الجبهة الشمالية ظهر يوم الجمعة ٩ يونيو - إلى مكتب رئيس الوزراء - كان «ليفى أشكول» فى حالة من الضيق لم يخفها على أحد. ولم يكن غاضباً لأن «ديان» غَيَّر رأيه فى ساعات قليلة من النوم نَهَض بعدها من فراشه ليأمر باحتلال الجولان - وإنما كان غَضَب رئيس الوزراء من أسباب أخرى:

● أن وزير دفاعه غَيَّرَ رأيه دون إخطاره. وسَمَحَ لنفسه بتوسيع مساحة العمليات دون إذنٍ منه ولا من أى سُلطة سياسية.

● أن «ديان» وضعه فى موقف بالغ الحَرَج أمام المستوطنين الذين سوف يستنتجون بلا شك أن رئيس الوزراء لا يملك سُلطة. وأن الرَجُل الذى «أعطاهم» «أُفُق» و«عُمق» الجولان هو «موشى ديان» وحده.

● أن وزير الدفاع وهو يُخطر رئيس الوزراء عند الظهر وبعد إتمام العملية باحتلال الجولان - لم يُضف إلى إخطاره أى تفسير لتَصَرُّفه وهو مُخالف ليس فقط للإستراتيجية المتّفق عليها - لكنه أيضاً «بعُمق الاحتلال» - شاملاً لكل الهَضَبَة - مُؤَثّرٌ على الإستراتيجية العليا لإسرائيل (فى الشام)».».

وكَتَبَ الجنرال «ليور» - مدير المكتب العسكرى لرئيس الوزراء - مُتَشَائِماً: «إن تصرفات ديان لا تحتاج هذه اللحظة فى تفسيرها إلى تحليل سياسى أو عسكرى. وإنما تحتاج إلى تحليل نفسى!»

□

وكان رَدّ فعل الاتحاد السوفيتى فى البداية كما تَوَقّع الكل - لكن النهاية جاءت مُخالفة للتَوَقُّعات!

فما بدأ «رَعداً» انتهى «هَمساً»!

صباح يوم الجمعة - ٩ يونيو - وقبل أن تتاكد شائعات تَرَدَّدَت عن تحركات إسرائيلية فى اتجاه الجولان - قال السفير السوفيتى فى إسرائيل «ديمترى شوفاكين» لنظيره الألمانى السفير «رولف باولس» (حسب تقرير من تل أبيب ضمن وثائق الخارجية الأمريكية برقم ١٢١٨/٠٠٧٧٧٨):

«... بعد ما حَدَثَ على الجبهة المصرية والجبهة الأردنية فإننى خائف من أن الإسرائيليين قد أصبحوا سكارى بنجاحهم إلى حَدّ يثير القلق على المستقبل. وإذا تَحَرّكوا خطوة واحدة بعد الآن فإننى أخشى أن مُستقبل هذا البلد (إسرائيل) سوف يكون مستقبلا حزيناً.»

ولسببٍ ما (يمكن تَصَوُّره) فإن نُسخة من هذه البرقية محفوظة فى الوثائق الإسرائيلية.

وفى الوثائق الإسرائيلية بعد ذلك (وأيضاً فى مكتبة الرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» - الصندوق رقم ١٩ - الملف رقم ٧ - وعلى أوراق مجلس الأمن القومى الأمريكى بتاريخ ١٠ يونيو) - مجموعة من المراسلات الهامة تَرسم صورة للحوار الذى دار على القمة الدولية فى تلك الساعات الحرجة:

□ رسالة من رئيس الوزراء السوفيتى «أليكسى كوسيجين» إلى الرئيس الأمريكى تقول: «إن معلوماتنا تَدُل على أن القوات الإسرائيلية بعد فراغها من العمليات العدوانية التى قامت بها ضدّ مصر والأردن - تشن الآن هجوماً على سوريا. وهو هجوم يبدو أنه مُوَجّه إلى العاصمة السورية دمشق. وتستطيعون التأكد من أن الاتحاد السوفيتى لن يقف ساكتاً إزاء ما يجرى فى سوريا. كما أنه لن يقبل استمراره ولا أى نتائج تَتَرَتّب عليه».

□ ويظهر رَدّ من الرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» مُوَجّه إلى «أليكسى كوسيجين» يجىء فى نصه: «لقد بدأنا بالفعل فى اتخاذ إجراءات لتهدئة تُؤَثّر نظن أن الأخبار المتوافرة بشأنه لديكم مُبالغٌ فيها».

□ ويُجيب «كوسيجين» بسرعة: «إننا نعتقد اعتقادا جازماً أننا أمام موقف تفرض علينا الحقائق فيه أن نتصرّف. وإذا لم تَتَوَقّف الأعمال العُدوانية فى سوريا فوراً فإن الاتحاد السوفيتى سوف يَتَدَخّل مُنفرداً لوقف العُدوان الإسرائيلى - لكننا حتى هذه اللحظة نُفضّل أن يتوقف العَمَل الإسرائيلى بجهد مُشترك».

□ وتَظهَر فى الوثائق الإسرائيلية بعد ذلك مذكرة عن حديث جرى بين المتحدث الرسمى للجيش الإسرائيلى وبين الملحق العسكرى الأمريكى فى تل أبيب. وفيها يقول الضابط الإسرائيلى (برُتبة جنرال) «أن الأسطول السوفيتى فى البحر الأبيض يَتّجه إلى شرق البحر بأقصى سرعة. وقد مَرّت بعض وحداته قبل ساعات أمام جزيرة كريت».

ويتساءل المتحدث الرسمى الإسرائيلى: «هل تكون تلك مُقَدّمة لعمليات إنزال سوفيتية على شواطئ إسرائيل وقرب حيفا بالذات؟!»

ويَطول الحوار على القمة الدولية. وقُرب نهايته تُكشف الوثائق الإسرائيلية أن مشهد الختام فيه جرى عندما وَصَلَت شائعات الإنزال السوفيتى قُرب حيفا إلى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض. وقرأ الرئيس الأمريكى

إن الجنــرالات اســتولوا علــى «الســياســة» فى نفس اللحظــة التى اســتولوا فيهــا علــى «الحــرب»... وتصــرفوا كمــا شــاءوا دون تفــرقــة «ضــرورية» بين الســياســة. والحــرب. والقتــال

«ليندون جونسون» ما تلقاه منها والتفت إلى وزير دفاعه «روبرت ماكنمارا» وكان يجلس أمامه وسأله: «أين الأسطول الأمريكي السادس (في البحر الأبيض)؟» - ورَدَّ «ماكنمارا» بأنه وفق آخر معلومات لديه فإن القوة الضاربة لهذا الأسطول ابتعدت قدر ما هو ممكن عن منطقة العمليات «حتى لا نُتَّهَم بالمساعدة فى «شىء» قامت به القوات الإسرائيلية على الجبهة المصرية أو على غيرها»!

ورَدَّ «جونسون»: «أعط الأمر للأسطول السادس بأن يعود بأقصى سرعة إلى شرق البحر الأبيض». وسأله «ماكنمارا»: «وهل نُخطِر السوفييت؟» وقال «جونسون»: «لا داعي لإخطارهم بشيء. دَعهُم يعرفون من الإشارات الملتقطة أن الأسطول السادس عائدٌ إلى منطقة العمليات، ولا بأس أن يعرفوا أنه مُتَّجِهٌ إلى حيفا».

وتَوَقَّفت لهجة الحوار على القمة الدولية - وراحت الأزمة تَمشى من اتجاه «التصاعُد» إلى اتجاه «التنازل»! ■



٩ اعـــتـــراف

■ ■ إن الإمبراطوريتين الأعظم فى ذلك العصر - الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي - تُحاورتا بلُغة التهديد فى مناخ أزمة دولية خطرة، لكن كلتيهما - عن فهم لحدود القوة - تَوَقَّفت قبل أن يتجاوز الحَد ويفلت الزمام.

وفى نفس الوقت فإن دولة صغيرة - بمعايير الإمبراطوريات - لم تعرف حدود القوة، وتجاوزت، وتركت الزمام يَنفلت.

والمزعج أنها فعلت ذلك بدون تصميم مُسبق، وعن غير عَمد مقصود، وإنما هو تَفَوُّقٌ فى السلاح أغرى وأغوى بالخروج عن السياق، وعلى النص!

وفى تقييم للمعارك كتبه رئيس أركان الحرب «إسحاق رابين» تُقدِّم الوثائق الإسرائيلية مذكرة كتبها «رابين» ونقلها عنه كتاب «التاريخ الرسمى لحرب الأيام الستة»:

«إن مسار المعارك فى حرب الأيام الستة لم تُقَرِّره الأهداف السياسية المقَرَّرة، وإنما قَرَّره «المنطق الداخلى» لتَطَوُّر الحوادث».

وبالطبع فإن «المنطق الداخلى» لتَطَوُّر الحوادث هو بذاته تأثير «نشوة النجاح» فى تَفَوُّق السلاح، ومن الصَعب تَصَوُّر وجود مُؤَثِّر آخر.

ويُسَجِّل الجنرال «دافيد إليعازر» قائد الجبهة الشمالية فى تقريره:

«لم تكن هناك عمليات عسكرية مُقَرَّرة فى الخطة لهجوم على سوريا. ولم تكن هناك فوق ذلك ضرورة لمثل ذلك الهجوم».

والحاصل أن ضغوط النجاح على كل الجبهات حَرَّضت «موشى ديان» على تجاوُز الخطة وتجاوُز الضرورة، وإطلاق العنان للسلاح مادام هذا السلاح قادرًا على أن يذهب إلى بعيد!»

□

ويَستَحق التَوَقُّف والاهتمام أن الجنرال «موشى ديان» راجَعَ نفسه وانتقد تصرفاته عندما أخذته النشوة بتَفَوُّق السلاح سنة ١٩٦٧ خصوصاً فيما يتعلق بسوريا. وفى الوثائق الإسرائيلية شرائط مُسَجَّلة بصوته فى حضور ابنته (عضوة الكنيست الحالية) «يائيل ديان».

قال الجنرال «ديان» ضمن «وثائق التاريخ الشفوى المسَجَّل» بصوته، ورَداً على سؤال وُجِّه إليه (وجزءٌ مما قاله نشرته جريدة «يديعوت أهارونوت» بعد وفاته (سنة ١٩٨١) ما نصه:

«إن الهجوم على سوريا واحتلال الجولان كان الخطأ الكبير الذى أتَحَمَّل مسئوليته فى إدارة حرب الأيام الستة. كان ذلك خطأ كبيراً من وجهة نظر الإستراتيجية العليا لإسرائيل».

وطُرِحَ عليه فى التسجيل سؤال: «ولكن ألم تكن سوريا هى مَصدَر الإزعاج فى الحوادث التى سبقت يونيو ١٩٦٧ - بل وكان التَوَتُّر على حدودها هو الذى قاد إلى الحرب؟»

وقاطَعَ «ديان» السؤال كما هو ظاهر فى التسجيل قائلاً:

«كل ذلك كلام فارغ. كنا نحن الذين نصنع هذه الحوادث على الجبهة الشمالية. ثمانين فى المائة منها على الأقل كانت من صُنعنا لاستفزاز السوريين!

كان دخولنا إلى سوريا خطأ، وأعتَرِف بذلك الآن بعد أكثر من عشرين سنة».

ويستحق الإشارة هنا أن «ديان» لم يكن وحده هو الذى اعترف بالخطأ، وإن كان اعترافه هو الأهم، ربما لأنه كان أشد «السكارى بنشوة النجاح بتَفَوُّق السلاح سنة ١٩٦٧».

ففى وثائق التاريخ الشفوى المسَجَّل يقول الجنرال «أوزى ناركيس» قائد الجبهة الوُسطى:

«لا أعرف لماذا قبلت تعليمات «ديان» بدخول الضفة الغربية للأردن؟ لكننا جميعاً كنا طائرين مع السَحاب لا تُلامِس أقدامنا سطح الأرض!

إننى كنت أعرف أن الحكومة لم تُقَرِّر أية عمليات على الجبهة الأردنية إلا فى إطارٍ مَحدود جداً وفى ظروف «مُعَيَّنة» و«مُقَيَّدة»!

إن الحكومة كانت شديدة الحرص على الأمر الواقع مع الأردن status quo كما هو منذ هُدنة سنة ١٩٤٩.

وفوق ذلك فإن معلومات المخابرات العسكرية أمامنا كانت تُؤكِّد بما لا يَدع مجالاً للشك إن الجيش الأردنى لن يُشارك فى أية عمليات عسكرية.

وحتى فى مجال التخطيط العملى فإننى وَجَدتُ أن رئيس الأركان (إسحاق رابين) يَسحَب لواء الدبابات الذى كان تحت إمرة قيادة المنطقة الوُسطى، وقد رَجَوتُه أن يتركه تحت تَصَرُّفى تَحَسُّباً للطوارئ - ورَدَّ علىَّ الجنرال «رابين» قائلاً: «أوزى .. إنك لن تحتاج إلى هذه الدبابات، ونحن نحتاج إليها أكثر فى سيناء، وتركها عندك هنا معناه إبقاؤها مُعَطَّلة طول الحرب، وذلك «إهدارٌ» لا مُبَرِّر له»!

لكن ذلك كله تَغَيَّر فجأة يوم ٧ يونيو حين عرفنا من الإشارات، ومن التحركات أيضا، أن الجيش الأردنى يقوم بإخلاء الضفة الغربية، وحينئذ فإن إغراء الأرض المفتوحة جعلنا نَتَقَدَّم ونُطيع «ديان» حين قال لنا: هَيَّا بنا!»

□

وهكذا فإن جنرالات إسرائيل الذين انتزعوا سُلطة القرار السياسى وتَصَرَّفوا بمنطق السلاح وحده، واندفعوا وراء تَفَوُّقه إلى حيث قادهم بخَمر النجاح (كما قال السفير السوفيتى فى تل أبيب) - أو تَصَرَّفوا خارج إطار الخطة (كما اعترف الجنرال «إليعازار» قائد الجبهة الشمالية) - أو تَصَرَّفوا بالخطأ فى حق الإستراتيجية العُليا للدولة (كما اعترف «موشى ديان» وزير الدفاع) - أو تَصَرَّفوا «بالمنطق الداخلى» لسَير المعارك (كما قال «إسحاق رابين» رئيس الأركان) - أو تَصَرَّفوا طائرين مع السحاب (كما قال الجنرال «ناركيس» قائد الجبهة الوُسطى) - وهكذا فإن أهم ما فعلوه سنة ١٩٦٧ - إنهم حققوا ما لاحَظه وتَحَسَّب له «ليفى أشكول» رئيس الوزراء الإسرائيلى (وسَجَّلَ عنه مدير مكتبه العسكرى الجنرال «إسرائيل ليور») ومُؤَدّاه: «أن هؤلاء الجنرالات يريدون لإسرائيل أن تعيش بالسَيف وحده، وأن تعيش على السَيف وحده إلى آخر العُمر»!

كان هذا ما تَوَقَّعه «ليفى أشكول» (يوم ٢٩ مايو ١٩٦٧) ومن قبل أن تنطلق رصاصة واحدة فى الحرب - وما زال هو بالضبط ما يَحدُث حتى الآن (سنة ٢٠٠١).

لقد انتزع الجنرالات بالفعل سُلطة القرار السياسى ونَزَلوا بالإستراتيجية العليا لمشروع الدولة اليهودية إلى «مستوى السلاح» - ثم إن «السياسة حَصَرَت نفسها فى «ميدان القتال»!

وحين أصبح على إسرائيل أن «تعيش بالسَيف، وبالسَيف وحده» - على حَدِّ تعبير «أشكول» - فإن مُؤدى ذلك بالدِقَّة أن السلاح الإسرائيلى يُحرز النجاح - لكن السلاح الإسرائيلى لا يُنجِز النصر لأن النصر ليس مُعلَّقاً بنجاح السلاح وحده - وإنما النصر مُعَلَّق بتحقيق أهداف إستراتيجية عُليا للدولة اليهودية كان عليها دائما أن تَتَذَكَّر وتحت كل الظروف مُعادَلة الجنرال «ياريف»:

«إنه الصيد بالشَبَكة (خفيفة لَيِّنة) فى الشام - لا تُجرَح ولا تَقتُل.

وإنه الصيد بالرُمح المقذوف (harpoon) صَلبٌ وبارد) فى سيناء - يَجرَح ويَقتُل إذا اقتضى الأمر». ■



١٠ أســـئلـــة

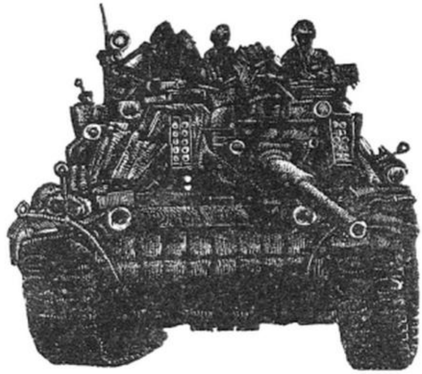
■ ■ عندما طاحَ السلاح مُنتَشياً بخَمر النجاح ضِدَّ مصر فى سيناء فقد كان ذلك مفهوماً - ومعقولاً من وجهة نظر الإستراتيجية العُليا للدولة الإسرائيلية.

لكنه عندما طاحَ السلاح مأخوذاً بجنون النجاح ضِدَّ الأردن فى الضفة الغربية - وضِدَّ سوريا فى هضبة الجولان - فقد بان ذلك تَجاوُزاً إلى دَرَجَة العُدوان على الإستراتيجية العُليا للدولة اليهودية.

وكان التجاوز مَحسوساً فى دوائر صُنع القرار الإسرائيلى - على المستوى السياسى - منذ اللحظة الأولى.

والحقيقة أنه كان هناك نوعٌ من الانبهار مَصحوب بالخوف من النتائج التى حققها السلاح الإسرائيلى - ولم تكن بعض هذه النتائج ضرورية ولا كانت وقتها مطلوبة!

وفى يومى ١٠ و١١ يونيو سنة ١٩٦٧ - وقد انكشف الغبار والدخان من ميادين القتال



ـ كان أول ما قاله رئيس الوزراء «ليفى أشكول» لمدير مكتبه العسكرى الجنرال «إسرائيل ليور»: «لدينا إمبراطورية لم نحلم بها ولم نُخطط لها، ولا كنا نريدها ـ ولست أعرف ما الذى نفعله بها ـ لكن الشعب اليهودى فى كل مكان يحق له أن يَفرَح بسلاحه!»

ثم شارك رئيس الوزراء فى عدَّة اجتماعات لمجلس الوزراء وللجنة الأمن والدفاع التابعة للمجلس، ولجنة الأمن والدفاع التابعة للكنيست ـ وفى كل هذه الاجتماعات كانت حَيْرة رئيس الوزراء الإسرائيلى تزيد وتُفسِد عليه إحساسه بالفرحة.

لكن الشكوك ما لبثت أن عاودَت الجميع. فقد كانت لدى «ليفى أشكول» ولدى غيره من كبار الوزراء أسئلة يريدون توجيهها للعسكريين. وفى اجتماع لمجلس الوزراء يوم الأحد ١١ يونيو، وهو أول اجتماع كامل ورسمى يعقده المجلس ـ كان المناخ احتفاليا إلى أقصى دَرَجة. ومع ذلك لم يتمالك رئيس الوزراء نفسه من أن يسأل «ديان» (الذى دَخَلَ إلى قاعة الاجتماع «مُختالاً» نافشاً ريش «عشرة طواويس» ـ كما لاحظ وزير الخارجية «آبا إيبان»!) ـ عن السبب الذى من أجله غَيَّرَ رأيه فاحتل الجولان فى الدقيقة الأخيرة قبل وقف إطلاق النار؟»

وكان رَدُّ «ديان»:

«لم أشأ أن أترك السوريين فوق الهضبة بعد انتهاء المعارك يَتَصَوَّرون أنهم انتصروا لأنهم خرجوا من الحرب سالمين. لو بقوا ومعهم فرصة للادِّعاء بالنصر ـ «لقلقوا» رؤوسنا بدعاياتهم ولصَدَّقوا أنفسهم وخَلَقوا لنا كثيراً من المشاكل فى المستقبل!»

وتَدَخَّل الوزير «إسرائيل جاليلى» بما معناه «ربما كان السوريون يستحقون ما جرى لهم ـ لكن الملك حسين لم يكن يستحق».

وكان رَدُّ «ديان» بما معناه «أن انسحاب الجيش الأردنى من الضفة الغربية خَلَق فراغاً فى هذه «المناطق» كان يمكن أن يؤدى إلى مشاكل كبيرة ـ وعلى أى حال فإن فى مقدورنا فيما بعد أن نتفاوض مع الملك حسين على خطوط جديدة تُعطى عُمقاً أكبر للدولة (إسرائيل) خصوصاً فى «خاصرتها» (المنطقة الوُسطى)».

وعادَ «أشكول» يلح:

«إننا حَوَّلنا كل العرب إلى أعداء لنا ـ جعلنا منهم جميعاً جبهة واحدة ضِدَّنا ـ هذا ما أخشاه».

وفى هذا الموضع من المناقشات الدائرة ـ وَرَدَ قول «رابين» المأثور والذى تَكَرَّرَ أكثر من مَرَّة:

«إن ما تَحَقَّق لإسرائيل شىء عظيم ـ ولكنى أشعر بالحُزن فى لحظة الفَرَح التى نعيشها لأنى أفهم أنه سوف يكون علينا ـ وأقرب مما نَظُنُّ ـ أن نُعيد هذه الأرض التى احتلها السلاح الإسرائيلى إلى أصحابها ـ كلها ـ أو معظمها»!

□

كانت المخاوف لدى العارفين بالظروف فى مجلس الوزراء وفى الكنيست، وحتى بين بعض الضباط فى جيش الدفاع ـ تَتَركَّز فى عِدَّة نقط:

١ ـ أنه إذا كانت مطالب الإستراتيجية العُليا للدولة تَفرض فك الاشتباك المسلح فى المنطقة المحيطة مباشرة بإسرائيل (أى مع الأردن ومع سوريا ـ الشام) ـ فإن هناك «واقع» أن بعض الأراضى فى هذه المنطقة وقد خَضَعَت الآن لسُلطة إسرائيلية سوف تكون نداء لا يُقاوم بالنسبة للحركة الاستيطانية، وذلك يُعَرقل أى تسوية فى هذه المنطقة.

والملاحَظ أن بعض المناطق الأشد تَعَرُّضاً للنشاط الاستيطانى (والمؤدِّية بالتالى إلى عَرقلة التسوية) جرت الإشارة إليها مبكراً:

● هضبة الجولان بخصوبة أراضيها واعتدال مناخها سوف تكون هَدَفاً مُؤكَّداً للاستيطان إذا طالت فترة احتلالها عن سنة واحدة. والقلق ـ فى ذلك الوقت ـ أنه إذا انفتحت هضبة الجولان لاستيطان كثيف فإنه سوف يكون من «المهام بالغة الصعوبة» إقناع المستوطنين بترك الهضبة لأصحابها مع العلم أن الهضبة مُرتبطة بما حولها فى سوريا ارتباطا يَصعُب تغيير طبيعته بغير جراحات مستمرة.

● كانت هناك أيضاً إشارات إلى منطقة الخليل، وكان الخوف هنا من أن الأحزاب الدينية إذا وَصَلَت إلى الخليل أو إلى مشارفها فسوف يستحيل إخراجها إلا بمعركة لا تقبل الدولة أن تخوضها «يهودى ضَدُّ يهودى» ـ وبالتالى فإن أية تسوية مع الملك «حسين» سوف تتعَثَّر.

● وكانت مدينة القدس بكاملها كُتلة حَرِجَة اختلطت فيها الاجتهادات والأفكار، وحسب تعبير «إسرائيل جاليلى» فإن أحداً لا يمكن أن يكون له تَحَفُّظ على استيلاء الجيش الإسرائيلى على كل القدس. لكن ذلك سوف يَضَع الدولة أمام قرار مُستَحيل: لأنها تُعرف من ناحية أن استمرار استيلائها على عُموم القدس سوف يظل عنصر إثارة وتعبئة فى فلسطين وحولها عربيا وإسلاميا ومسيحيا ـ ودوليا ـ ومن ناحية أخرى فإنه سوف يكون من الصعب على أى سياسى إسرائيلى يطلب الفوز فى أى انتخابات فى دولة إسرائيل أن يَضَع توقيعه على قرار يُعيد ما استولى عليه الجيش الإسرائيلى من القدس إلى أصحابه. ومَعنى ذلك أن «القدس» تظل دائماً حائلاً دون التسوية ـ حقل الغام لا يعرف سِرّ خريطته أحد!

● ومبكراً جداً فقد ظهَرَ رأىٌ فى وزارة الخارجية الإسرائيلية يُلِحُّ عليه وزيرها «آبا إيبان» نفسه ـ وهو يرى بضرورة الإسراع بالاتصال بالملك «حسين» وفتح باب التفاوض معه «قبل أن تتجَمَّد الأوضاع فى القدس». وتقدير «آبا إيبان» أنه «إذا أمكن التوصُّل إلى اتفاق سريع مع الملك «حسين» وظهَر أن الأردن على استعداد لأن يكون أول دولة عربية حول إسرائيل تقبَل بتوقيع مُعاهدة صُلح معها فى مقابل استعادة أراضيها ـ فإن الرأى العام الإسرائيلى سيكون ما زال فى حالة سيولة يَقبَل معها انسحاب الجيش الإسرائيلى من «مُعظم» الضفة الغربية ـ بما فيها القدس الشرقية باستثناء حائط المبكى ـ لأنه أثناء حالة السيولة فقد يُمكن إقناع الرأى العام بأن السلاح تَمَكَّن من تحقيق السلام أو جزء منه!»

□

ولكن سيناء كانت هى السؤال الكبير الملح فى طلب قرار «عاجل» و«إستراتيجى» من القيادة السياسية الإسرائيلية، وقد عَبَّرَ عن هذا السؤال «ليفى أشكول» (طبقاً لمحاضر مجلس الوزراء) بقوله: «ماذا نفعل بكل سيناء؟ احتلال شبه الجزيرة كله كان خارج خُطتنا. خطتنا كلها كانت فى الوَسَط والشرق. بالدَرَجة الأولى مَضيق تيران «لكسر قبضة ناصر» عن خليج العَقَبة، وهذا يأخذنا إلى «شرم الشيخ» وليس بعدها».

ودارت مناقشات مثيرة حول سيناء فى مجلس الوزراء (وفى غيره من مراكز صُنع القرار فى إسرائيل) ولم يكن هناك حَسم!

وفى جلسة لمجلس الوزراء المصَغَّر يوم الاثنين عادَ موضوع سيناء يَطرَح نفسه، وعاد «ليفى أشكول» إلى سؤاله: «ماذا نفعل بكل سيناء؟» ـ وكان «أشكول» ما زال مأخوذاً بهواجسه:

« ـ أنه لم تكن لدى إسرائيل خطة لاحتلال كل سيناء.

ـ وأن الاحتفاظ بها عِبء ثقيل من الناحية العسكرية.

ـ وأن ذلك سوف يعكس نفسه على التكاليف الاقتصادية اللازمة لاستمرار الاحتلال.

ـ ثم إن لذلك كله أثره النفسى داخل المجتمع الإسرائيلى.

ـ وأخيراً فهو يخشى أن يكون استمرار احتلال كل سيناء حافزاً على استمرار المقاومة المصرية من حيث إنه استفزاز لكرامة الشعب المصرى ـ حتى فى حالة «سقوط ناصر» ومجىء غيره. «وتقديرى أنه ساعتها لن يكون فى إمكاننا التنازل ببساطة عن سيناء لبديل آخر يَحِل مَحل «ناصر». ومن ناحية هذا البديل فإنه «لن يستطيع توفير أى قدر من المصداقية لنفسه إلا إذا بدأ يُطالب ويَعمَل على إخراجنا من كل سيناء».

وتَدَخَّل أحد الوزراء (وهو فى الغالب «ييجال آللون» أو «آبا إيبان») ليقول «أن ذلك ما حَدَث مع ناصر نفسه حين أقام نظامه بعد الثورة على فاروق ـ فقد كان عليه قبل كل شىء أن يُواجه الاحتلال البريطانى فى قاعدة قناة السويس!»

وفى هذا الموضع من الجلسة جرى استعراض الأخبار القادمة من القاهرة.

وفى البداية كان هناك استغراب من المظاهرات المؤيِّدة لـ«ناصر» فى كل عواصم العالم العربى، وهى مُظاهرات فَرَضَت عليه أن يعود إلى «السُلطة» بعد أن استقال وخَرَج.

وانقسمت الآراء فى تحليل ما جرى وَرَدِّه إلى أسبابه:

□ رأى يقول أن النجاح الإسرائيلى غير المسبوق كان مفاجأة انقضت على العالم العربى، ولم يَعُد لأحد إزاءها غير أن يَتَمَسَّك «بما يعرف» و«بمن يعرف» ـ ولكن ذلك رَدُّ فعل غريزى سوف تُعقُبه إعادة تفكير.

□ ورأىٌ ثانٍ يظُن أن «الرأى العام العربى تَصَرَّف بعواطفه دون معرفة حقيقية بحجم خُسارة الجيوش العربية فى المعارك. وأنه عندما يَظهَر الحجم الحقيقى للخسائر فإن الرأى العام العربى سوف تكون له كلمة أخرى».

□ ورأىٌ ثالث يرى أن رَفضَ الخضوع للأمر الواقع فى الشوارع العربية ـ هَبَّة سوف تتبَدَّد بعد أيام لأن هناك حالة فَوَران وانقلابات خطيرة قادمة فى كل البلدان العربية لعدة أسباب:

ـ الشيوخ العرب سوف يكونون فى وضع أقوى من الثوار العرب.

ـ والمدن العربية سوف يكون عليها أن تتراجع أمام القبائل العربية.

ـ وفى مصر فإن فلول القوات العائدة من سيناء سوف تُهَدِّد السُلطة، وقد تستولى عليها.

ـ وفى سوريا فإن الصدامات سوف تنفجر بين أجنحة حزب البعث المتعارضة خصوصاً فى الجيش.

ـ وحتى فى الأردن فإن جناحاً هاشمياً وعشائرياً له حضوره فى

بالنسبة لإسرائيل، كانت معركة ٦٧ هي نجاح الجنرالات في القتال ضد العرب دون «انتصار». وانتصارهم في السياسة الداخلية لإسرائيل دون «نجاح». على الأقل حتى هذه اللحظة من بداية ٢٠٠١

عَمّان (وليُّ العهد الأمير «الحسن»؟) سوف يلوم الملك «حسين» على مغامرته بالسفر إلى القاهرة قبل نشوب الحرب «بساعات» وهو يعرف أنه مُقبل على مُخاطرة!

□ ثم كان هناك رأيٌ أخير وقد عَبَّرَت عنه تقارير عَدَدٍ من السفراء الإسرائيليين في أوروبا - وسَاندهم جناحٌ مُهِمٌّ من أجنحة المخابرات العسكرية (وضمنه الجنرال «أهارون ياريف» نفسه) وكان تقدير هؤلاء: أن «ناصر» لديه من الشعبية ما يجعل عودته إلى الحكم بضغط من جماهير واسعة في مصر وفي العالم العربي نقطة تحَوُّل يُحسَب حسابها لأنها تُمَثِّل شعوراً طاغياً في العالم العربي يَعتَقِد «أن النتيجة التي انتهت إليها المعارك العسكرية هي مُحَصِّلة أخطاء أكثر منها نتيجة موازين قوة حقيقية بين العَرَب وإسرائيل. وأن ذلك الاعتقاد حتى وإن لم يكن لديه منطق عقلاني متكامل يسنده، إلا أن الشعور به حقيقة سياسية سوف تفرض نفسها على الصراع في الشرق الأوسط، خصوصاً إذا استطاع «ناصر» أن «يَتَعامَل» بحزم مع عناصر في القوات المسلحة (يقصد المشير «عبد الحكيم عامر») تُبدى شكلاً من أشكال الخروج على سُلطته - فإن الرأى العام العربي تحت قيادته سوف يدفع نحو تعبئة شاملة لتصحيح «الخطأ» الذى يعتقد أنه وَقَعَ عندما نَجَحَ الجيش الإسرائيلي في تحقيق نتائج تبدو زائدة عن كل ما تُحَقِّقه موازين القوة بين العَرَب وبين إسرائيل». ■



١١ تحـــــــولات

■■ وكانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية - في واشنطن - على اتصال بكل هذه المناقشات الدائرة في تل أبيب. وعلى نحوٍ ما ولأسباب مُتَعَدِّدة فإن النجاح الإسرائيلي جرى اعتباره في واشنطن نجاحاً في ذات الوقت للسياسة الأمريكية في عِدَّة جبهات:

أولها - جبهة فيتنام، وعليها فقد اعتبر تَفَوُّق السلاح الإسرائيلي نقطة بالزيادة لصالح السلاح الأمريكي في فيتنام تشير إلى إمكانيَّة انتصاره في تلك المعركة على مصير الهند الصينية كلها (فيتنام وكمبوديا ولاوس).

وثانيها - جبهة الحزب الديمقراطي، وعليها فقد تَخَلَّى الرئيس «ليندون جونسون» عن الحَذر التقليدى الذى يَلزمه الجمهوريون عادة إزاء الشرق الأوسط حرصاً على المصالح البترولية وغيرها من المزايا الاقتصادية الواسعة في العالم العربي - واختار إسرائيل حَليفاً إستراتيجياً وشريكاً سياسياً رئيسياً في المنطقة.

وثالثها - جبهة البنتاجون (أو على الأقل في جزء منها) وعليها فقد انبهر العسكريون الأمريكيون بما بدا لهم من كفاءة الأداء الإسرائيلي، وظنوا أنه في الإمكان الاستفادة منها في الحصول على معلومات كافية عن أسرار وخصائص السلاح السوفيتي الذى وَقَع الكثير من مُعدَّاته في يَدِ إسرائيل سواء في سيناء أو في الجولان. وكان ظن هؤلاء العسكريين أن هذه المعلومات مُهِمَّة لكفاءة الجهد العسكرى في فيتنام - ثم إن الهالة التي أحاطت بالجيش الإسرائيلي الآن تجعل القرب منه بالصداقة إضافة مطلوبة يَنعَكِس جزء من وَهَجِها على القوات الأمريكية المتَّهَمة بالعجز في فيتنام.

ورابعها - جبهة جماعات الضغط اليهودي في واشنطن، وعليها فقد تَوَلَّد إحساسٌ قوى بأن نجاح السلاح الإسرائيلي حَوَّلَ إسرائيل من «عميل أمريكي» إلى «شريك أمريكي»، وإذا كان ذلك فإن الطالبين باسم إسرائيل ليس عليهم بعد الآن أن «يَستَجدوا» وإنما لهم الحق الآن أن «يُشيروا» وتكون الاستجابة رَدَّ الإشارة!

وخامسها - وهذه هي الجبهة الأهم - وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وإدارة العمليات الخاصة فيها والتي يديرها «جيمس إنجلتون»، وعليها فقد تأكد الآن أنه من الممكن والضرورى إقامة علاقة تَعاون وثيق وكامل بين الوكالة في واشنطن وبين «الموساد» في تل أبيب. وكان مدير الوكالة «ريتشارد هيلمز» قد انتقل من معسكر المعتدلين في وكالته إلى معسكر المغامرين وأصبح مُؤَيِّداً «لخُطط وأعمال جريئة» aggressive في الشرق الأوسط ليس عليها أن تَلتَزِم بالمحاذير التقليدية!

□

كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تُقَدِّر - وذلك ظاهر في الوثائق الإسرائيلية - أن موقف الرأى العام العربي إزاء استقالة «ناصر» استجابة عاطفية أكثر من أى شيء آخر - لكن هذه الاستجابة العاطفية يمكن أن تكون جسراً يستعمله «ناصر» لتقوية مركزه واجتياز أزمته، وخلق حقائق أخرى في المنطقة تستعيد ما فات وتُسترجع ما ضاع - أو بعضه - ثم تشكل تَحَدِّياً مُتَجَدِّداً مرة أخرى لإسرائيل وللولايات المتحدة التي أظهَرَت مشاعرها ونواياها الحقيقية على مرأى ومَسمَع من العرب جميعاً (رغم حرصها الظاهر على بعضهم)!

لكن ذلك حسب الرأى النافذ الآن في الوكالة كان حالة يمكن مقاومتها.

ومن المسائل التي تستحق الاهتمام أن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وبالتعاون الوثيق مع «الموساد» الإسرائيلي (الذى يرأسه الجنرال «مائير آميت») ومع هيئة «آمان» (المخابرات العسكرية الإسرائيلية التي يرأسها الجنرال «أهارون ياريف») - سارَعَت إلى وضع خطة طوارئ عاجلة «لمنع تماسك الموقف العربي وعودة «ناصر» للقيادة والسيطرة على الرأى العام العربي».

وكان تقدير الطرفين أن عودة «الوضع» العربي إلى نوعٍ من التماسك يَصنَع آثاراً خطيرة بينها:

١ - أن ذلك «الوضع» سوف يُمَكِّن «ناصر» من إعادة تنظيم وبناء قوة عسكرية عربية يُمكنها أن تُقاتِل مُستفيدة من دروس «يونيو الأخير».

٢ - أنه إذا حَدَث وظهَرَت علامات تَقَدُّم في إعادة بناء قوة عسكرية عربية فإن ذلك سوف يُعيد الأمَل ويُعطي للرأى العام العربي قوة تأثير نشيط ومُستَمِر.

٣ - أن هذا «الوضع» قدْ يشكل ضغوطاً على الأنظمة التقليدية الصديقة للولايات المتحدة في المنطقة، وقد تَفرِض هذه الضغوط على هذه الأنظمة أن تخرج من «حالة الانتظار والتَرَقُّب» التي التَزَمَتها - إلى حالة أخرى تضطر فيها لأنواع من التأييد والمساعدة، مما يخلق تَجَمُّعاً عربياً من جديد ضِدَّ إسرائيل - يَتَناقض بالضرورة مع سياسة الولايات المتحدة الأمريكية.

٤ - أن الاتحاد السوفيتي وهو واقع الآن في مأزق حَرِج في العالم العربي إزاء اتهامات له بخيانة أصدقائه، أو بالتقصير في حقهم على الأقل (هكذا تلاحظ الوثائق) - قد يجد نفسه راغباً أو مضطراً إلى إظهار تأييده للعَرَب سواء بمواقف سياسية مُتَشَدِّدة أو بإمدادات من السلاح مُتَجَدِّدة.

وكانت «وَصفة» المخابرات المركزية الأمريكية ومعها «الموساد» و«آمان» هي أنه لعلاج الموقف لابد من مَنع «ناصر» بكل الوسائل من تدعيم «موقفه» ومَنعِه من تحويل عودته إلى السُلطة من «فَوَران عاطفي» إلى «حقيقة سياسية».

وكان العُنصُر الرئيسي في «الوصفة» الأمريكية - الإسرائيلية تكثيف الحرب النفسية لتعميق الشعور بـ«الهزيمة» و«الإهانة» لدى العَرَب بما يؤدى بنظام «ناصر» إلى التآكل ثم إلى السقوط المؤكَّد، وبالتالى تتلاشى كل المخاوف من أن تَتَحَوَّل حالة «فَوَران عاطفي» إلى «حقيقة سياسية» - وعسكرية - مُتَجَدِّدة وخطِرة.

....

....

[وهذه مسالة بالغة الأهمية تستحق العودة إليها في يوم من الأيام، وساعتها فإن أطناناً من الوثائق سوف تكشف عن «معركة أعصاب» من أخطر ما تَعَرَّضَت له مصر وبقية أُمَّتها العربية.] ■

....

....



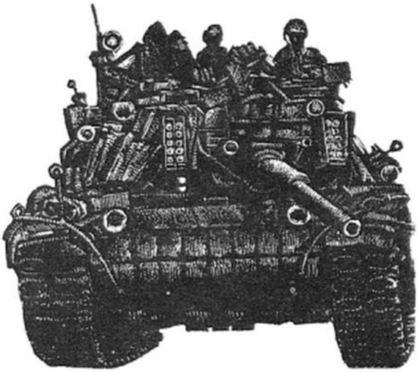
١٢ الخـــــرطوم

■■ ويَستحق التسجيل أن مؤتمر القمة العربي الذى انعقد في الخرطوم يوم ٣٠ أغسطس ١٩٦٧ - أى بعد عشرة أسابيع من معارك يونيو - كان النقطة التي أدرَكَت عندها المخابرات الأمريكية والإسرائيلية أن «الفَوَران العاطفي» العربي يمكن - بقوة الأمر وليس بفرض الاحتمال - أن يَتَحَوَّل إلى «حقيقة سياسية».

وكان المشهد الأهم في وقائع الخرطوم (كما تَبَدَّى في الوثائق والملفات والأوراق) تلك الحَماسة التي استقبلت بها جماهير الشعب السوداني وصول «جمال عبد الناصر» إلى عاصمتها.

كان بين التقديرات الواردة في حساب موقف «الشارع المصرى» ليلة ٩ وصباح ١٠ يونيو - أنها حالة «الفَوَران العاطفي» وربما «ساعَدها أحد أجهزة ناصر»!

وعلى نفس المنوال كان حساب رَدِّ فعل «الشارع العربي» في التوقيت نفسه (٩ و ١٠ يونيو).



لكن ما تَبَدَّى في الخرطوم - وبعد عشرة أسابيع تَكَشَّفَت فيها صُوَر ما جرى في ميدان القتال، وزادت عليها عاصفة حرب نفسية استهدفت تجسيد وترسيخ الإهانة - وَضَعَ الجميع أمام أحوال مُتَغَيِّرة!

والحاصل أن استقبال الخرطوم أكَّدَ فيما رأته الوثائق الإسرائيلية وسَجَّلَته - أن «ناصر» أصبح فعلاً في الوضع الذي كان يُخشَى منه وهو «أنه عاد إلى قيادة قوة عربية سياسية وعسكرية تَحظَى بتأييد واسع داخل العالم العربي وخارجه، الأمر الذي يُمَكِّنه من إعادة تصحيح خطأ تعتقد قطاعات كبيرة من الجماهير - في مصر وخارجها - أنه وَقَع في يونيو سنة ١٩٦٧، وأن هذا الخطأ أتى بنتائج لا يمكن أن تكون مُتوافقة مع موازين القوة الحقيقية بين العَرَب وإسرائيل، وأن هذه النتائج صَنَعَت خللاً لا يمكن تصحيحه إلا بما وصفه «جمال عبد الناصر» نفسه في خطاب وُضِع تحت المجهر للدرس والتحليل في تل أبيب وفي واشنطن - قال فيه: «إن ما أخِذ بالقوة لا يُستَرَدُّ بغيرها»!»

....

....

[وفي وصف زيارة «جمال عبد الناصر» للخرطوم للاشتراك في مؤتمر القمة اختارت مجلة «نيوزويك» الأمريكية - واسعة الانتشار والنفوذ - أن تضع على غلافها كله صورة لزحام الجماهير السودانية حول الزائر القادم من مصر، واختارت للغلاف عبارة واحدة هي: تحية للمهزوم Hail the conquered بدلاً من التحية التقليدية للمنتصر .Hail the conqueror]

....

....

وكان بين النتائج التي لفتت نظر واشنطن أن قرارات مؤتمر القمة في الخرطوم اشتملت على دعم مالي كبير للدول التي تَعَرَّضت للعدوان الإسرائيلي وهي مصر وسوريا والأردن (وزادت عليها منظمة التحرير الفلسطينية).

وتُظهِر الوثائق الأمريكية - والإسرائيلية نقلاً عنها - أن السودان لعب دَوراً في هذه القضية عن رغبة من حكومته في إنجاح مؤتمر القمة الذي استضافته.

ويَذكُر تقرير أمريكي أن رئيس وزراء السودان (محمد أحمد محجوب) ذكر لمبعوث أمريكي (روبرت كومار) زار الخرطوم قبل مؤتمر القمة بأيام - أنه تَوَسَّط بين مصر والسعودية لتسهيل عَمَل المؤتمر. فقد كان الملك «فيصل» يَتَحَسَّب من أنه في المؤتمر قد يواجه دعوات بقطع تَدَفُّق البترول عن أصدقاء إسرائيل وأولهم الولايات المتحدة الأمريكية.

وأنه (رئيس وزراء السودان) اتصل بالرئيس «عبد الناصر» ينقل إليه مخاوف الملك «فيصل»، وسمع منه «أن الظروف التي يَمُرُّ بها العالم العربي لا تَحتَمِل أن يقوم طَرَفٌ عربيٌّ فيه بإحراج طَرَفٍ عربيٍّ آخر، لكنه يَتَصَوَّر أن البترول العربيّ لا بد أن يكون له دَورٌ في المعركة المقبلة الضرورية لإزالة آثار العدوان».

وكان من خلال هذا الحديث أن دُوَل البترول العربي تَحَوَّلت إلى دُوَل مُساندة لدُوَل المواجهة العربية، ثم جرى اعتماد هذه السياسة على مستوى القمة العربية!

□

وفي أعقاب مؤتمر الخرطوم - تَظهَر مسألة «سيناء» في الوثائق الإسرائيلية على نحوٍ مُلِحّ.

ذلك أنه بكل ما جرى في مصر (وأهَمُّه إعادة تماسُك القوات المسلحة) - وبكل ما جرى في العالم العربي (وأهمه استقبال الخرطوم لـ«جمال عبد الناصر» - وتَحَوُّل دول البترول العربي إلى دُوَل مُساندة لدول المواجهة) - وبكل ما جرى في العالم (وأهمه تصميم الاتحاد السوفيتي على حفظ «مركزه» و«دَوره» في الشرق الأوسط وفي العالم الثالث عموماً) - وبكل ما جرى في أوروبا (وأهمه موقف الرئيس الفرنسي الجنرال «شارل ديجول») - فقد تَبَدَّى أن الأزمة سوف تطول، وأن الجبهة الخطرة عليها سوف تكون سيناء لأن المواجهة بين الجيش الإسرائيلي والجيش المصري - وهو أكبر الجيوش العربية - سوف تكون أكثر حضوراً وأكثر قابلية للاشتعال والانفجار على ضَفَّتَي قناة السويس.

وهكذا طلب مجلس الوزراء الإسرائيلي إلى قيادة الأركان أن توافيه برأيها في «شأن السياسات الواجب إتباعها عسكرياً بخصوص سيناء»!

وطبقاً للتقرير الضافي والوافي (في ٣٦٧ صفحة زائداً عليها بعضاً من الملحقات) - والذي كتبه الجنرال «إلياهو زائيرا» مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلية الذي تَسَلَّم عمله في تلك الظروف - فإن هيئة أركان الجيش الإسرائيلي انقسمت في الرأي حول سيناء.

وكانت لدى القيادة السياسية الإسرائيلية فكرة سابقة لتَصَوُّر أنه إذا تَمَّ الصَيدُ هادئاً بالشَبَكَة في الشام، ثم أصيبَت مصر بالرُمح المقذوف جريحة أو أكثر من جريحة - فإن الشام لن يَعود أمامه غير أن يَهتَم بسلامته ويَسكُت. وفي هذه الحالة فإن مصر لا يَعُود لها خيار غير الانسحاب من المشرق. وحينئذ تكون إسرائيل على استعداد لأن تَترُك سيناء - تفادياً لتكاليف احتلالها من ناحية - ولإغراء مصر في مقابل ذلك بأن تكون أول دولة عربية تُوَقِّع اتفاق صُلح وسلام مع إسرائيل.

لكن القيادة الإسرائيلية بدأت تُدرك أن مثل هذا التَصَوُّر السابق أصبح في الظروف المستَجَدَّة خارج ما هو مُحتَمَل في الوقت الحاضر وبالتالي فالبحث فيه لا مجال له، وكذلك فإن التفكير يجب أن يَنصَبَّ على كيفية الاحتفاظ بسيناء وبتكاليف مقبولة: عسكرياً واقتصاديا ونفسياً (وحتى تَتَّضِح الظروف).

وكان أن ذلك البحث أدى إلى انقسامات عميقة يُلَخِّصها الجنرال «إلياهو زائيرا» (صفحة ٨٦ و٨٨ من تقريره) وبنصوصه الأصلية (للترجمة إلى اللغة العربية التي جَرَت في بيروت وطُبِعَت على الآلة الكاتبة في نُسَخٍ محدودة هناك) - على النحو التالي:

□ «أولا: المقدمة

١ - لا تُوجَد لدى المستوى السياسي خطط واضحة ومُبَلوَرة فيما يتعلق بمستقبل سيناء.

٢ - الحَدُّ المتَّفق عليه لتَبَلوُر أساس التخطيط هو أنه «لن يَحدُث انسحاب دون اتفاق مع مصر».

□ ثانياً: المشكلة

في المرحلة الأولى حشد جيش الدفاع الإسرائيلي .I. D.F وحدات مُشاة ومُدَرَّعات على طول القناة بهَدَف السيطرة على الأرض، وأقام نقاطا لمراقبة الضفة الغربية التي يحتفظ بها الجيش المصري. وقد اعتقد الكثيرون أن المصريين الذين لحقت بهم هزيمة مؤلمة لن يتجرءوا على مهاجمة الجيش الإسرائيلي المنتصر - لكن هذا الاعتقاد تَبَدَّد خلال فترة زمنية قصيرة. فقد بدأت مصر في عمليات القصف وعمليات الإغارة على المواقع التي لم تكن لها حماية مناسبة من المدفعية. وقد أخَذت الخسائر (الإسرائيلية) تَتَزايَد، ونتيجة لهذا بدأ النقاش على المستوى السياسي وعلى المستوى العسكري في هيئة الأركان العامة وفي القيادة الجنوبية بهَدَف تقرير الأسلوب الذي ينبغي إتباعه في بناء الشَبَكة الدفاعية في سيناء.

□ ثالثاً: النتيجة

١ - بناء على طلب مجلس الوزراء جَرَت مناقشة المسألة بطريقة مُكثفة خلال الأسبوعين الأخيرين.

٢ - انحصر النقاش في هيئة الأركان وفي القيادة الجنوبية في وجهَتَي نظر:

أ - وجهة نظر ترى أنه يجب انتهاج أسلوب الدفاع الصلب المستميت على خط المياه (الضفة الشرقية لقناة السويس).

ب - ووجهة نظر ثانية تُفَضِّل أسلوب الدفاع المرن والمتَحَرِّك في الأرض الواقعة شرق القناة.

وكان الانقسام حاداً بين:

- رئيس هيئة الأركان الجنرال «حاييم بارليف» يُؤَيِّده قائد القيادة الجنوبية الجنرال «يشعياهو جافيتس» - وكلاهما يرى التَمَسُّك بخط المياه واعتباره أساس الدفاع عن سيناء.

- وأما نائب رئيس هيئة أركان الحرب وهو قائد سلاح المدَرَّعات الجنرال «إسرائيل تال» ويُؤَيِّده في ذلك الجنرال «أرييل شارون» رئيس التدريب والذي يوشك أن يُعَيَّن قائداً للجبهة الجنوبية - فإن كليهما يرى أن أسلوب الدفاع المتَحَرِّك أفضل.

□

وجاء قرار مجلس الوزراء بعد مناقشات طويلة في صالح التَمَسُّك «بخط المياه» واعتباره خط الدفاع عن سيناء، وتَحَمُّل التكاليف العسكرية والاقتصادية، والعبء النفسي.

ورغم أن عَدَداً كبيراً من أعضاء المجلس - وبينهم رئيسه «ليفي أشكول» - رأوا أن سياسة الدفاع المتَحَرِّك أفضل من النواحي العسكرية والقتالية - فإن مجلس الوزراء رَجَّح سبباً سياسياً نفسياً على كل الأسباب، ومُجمَل هذا السبب «أن تبقى القوات عامل ضغط وإهانة يومية تَفعَل فعلها في مصر - من داخلها ومن خارجها. وذلك ضغط له أثره وسوف يزداد هذا الأثر يوماً بعد يوم حتى يضطر «ناصر» أن يمسك سَمَّاعة التليفون ويَتَّصل بنا قائلا: «إنني جاهز للتوقيع» (حسب تعبير الجنرال «موشي ديان»)!»

□

وكان السلاح الإسرائيلي قد صَنَعَ نجاحاً لاشك فيه - لكن النجاح وحده لا يَصنَع نصراً. ومن الفوارق بين الحالتين:

أن النصر مُهَيَّأ لكي يُسَجِّله التاريخ إلى الأبد..

وأما النجاح فهو مُعَرَّض لأن تنقضه السياسة في مرحلة تالية - وذلك ما جرى! □

محمـــــود عبد الفضيـــل

نحـو تفسـير جـديد
لأزمة السيولة والركود
فى الاقتصاد المصرى

هنـاك أسـواق وفئـات من المتعـاملين تعانى من «أزمة سيولة خانقة»، بينمـا توجد أقسام وأجزاء فى الاقتصـاد المصـرى لديهـا «فائـض سـيولة». وذلك يعكس بدوره «سـوء توزيع السـيولة وإدارتهـا» فى الاقتصـاد المصـرى، الأمـر الـذى يعتبـر نتـاجاً طبيعيـاً لـ«سـوء توزيـع الدخـل والثـروة» فى المجتمـع المصـرى عمـوماً

امتلات الصحف والمجلات وأجهزة الإعلام، خلال الفترة الأخيرة، بكثير من الكتابات والتحليلات حول «أزمة السيولة والركود فى الاقتصاد المصرى». بل أصبحت تلك القضية على رأس جدول أعمال مجلس الوزراء. وبدا للبعض وكأن هذه الأزمة قد ظهرت فجأة على السطح فى حياتنا الاقتصادية، وأنه ليس لها مقدمات ومؤشرات منذ بضعة أعوام!

وواقع الأمر، أن أزمتى «السيولة» و«الركود» أصبحت واضحة بشكل ملموس خلال عامى ١٩٩٨ و١٩٩٩، وطغت على حديث الناس فى الأسواق والمجالس والمنتديات. ويكفى لنا أن نلفت الأنظار إلى عدة مؤشرات تعكس أزمتى «السيولة والركود» خلال العامين الأخيرين، إذ نلاحظ أن:

(١) قيمة الكمبيالات المخصومة قد ارتفعت من ٣٣٢ مليون جنيه عام ١٩٩٦ إلى ٨٥٩ مليون جنيه عام ١٩٩٧، ثم قفزت إلى ١٢٧٠ مليون جنيه عام ١٩٩٨. وذلك يشير إلى ضعف وجفاف السيولة النقدية فى المعاملات التجارية خلال تلك الفترة.

(٢) ارتفع معدل الفائدة فى عمليات الإقراض فيما بين البنوك (Inter-Bank Rate) من ٨,٧٪ فى يونيو ١٩٩٧ إلى ١١٪ فى يناير ١٩٩٩، وهو مؤشر يعكس ضعف السيولة فيما بين وحدات القطاع المصرفى فى مصر.

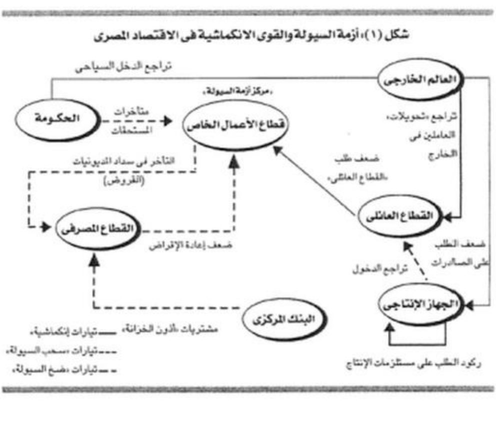
(٣) ارتفاع ظاهرة الشيكات المرتدة: إذ بلغ عدد قضايا جنح إصدار شيكات بدون رصيد مرتدة بدون دفع خلال شهر ديسمبر ١٩٩٩ فقط فى محاكم أسيوط وبورسعيد والإسكندرية ٦٣٢٨٠ جنحة، حيث بلغت قيمة شيكاتها بدون دفع - مرتدة - حوالى ٤٨ مليون جنيه مصرى.

(٤) تراجع حجم الودائع لدى الجهاز المركزى: حيث تراجعت الودائع بالعملة المحلية لدى الجهاز المصرفى بمقدار ١,٧ مليار جنيه خلال شهر ديسمبر ١٩٩٩.

(٥) ارتفاع عدد أحكام الإفلاس التجارى: إذ ارتفعت مديونية التجار المتعثرين إلى ١,٦ مليار جنيه عام ١٩٩٩. وسجلت إجمالى مبالغ «البروتستو» الإفلاس التجارى الصادر بشأنها أحكام إفلاس ارتفاعاً بنسبة ٧٩٪ مقارنة بعام ١٩٩٨.

وتشير نتائج دراسة عينة مكونة من ٦١ من الشركات التى يجرى تداول أوراقها المالية بنشاط فى البورصة إلى انخفاض حجم الإنفاق على السلع المعمرة خلال عام ١٩٩٩ مقارنة بعام ١٩٩٨، حيث سجلت مبيعات عينة الشركات انخفاضاً مقداره ١٠٪، بينما سجل حجم أرباحها نمواً بمقدار ٦٪ فقط. وفى المقابل ارتفع حجم مخزون تلك الشركات بنحو ٥٣٪.

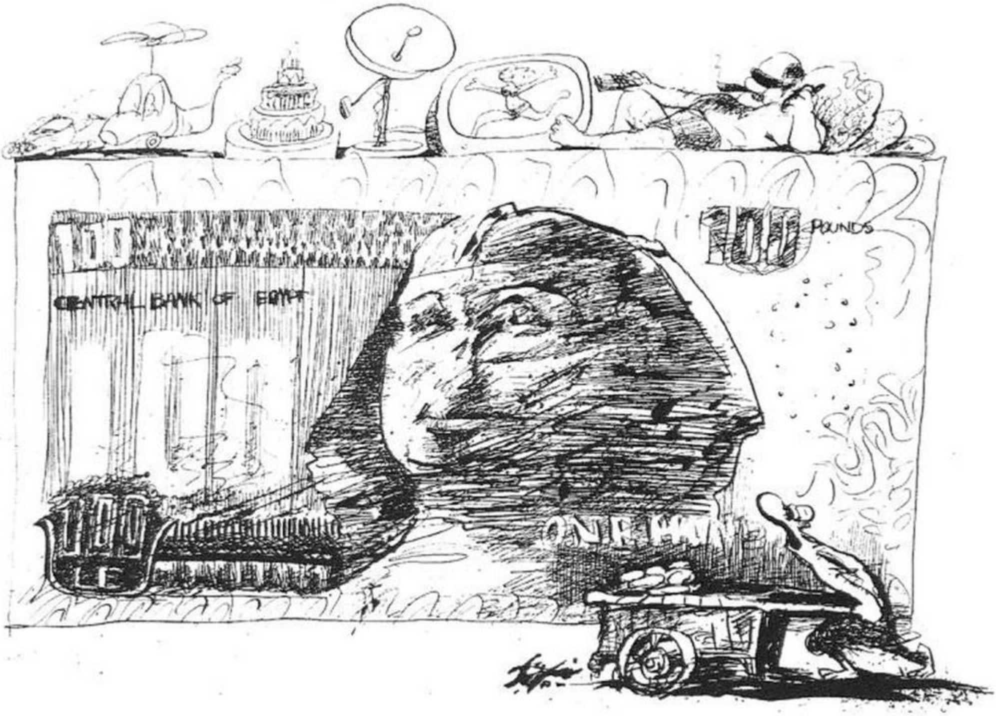
شكل (١)، أزمة السيولة والقوى الانكماشية فى الاقتصاد المصرى



هذا بالإضافة إلى العديد من المؤشرات الأخرى التى تشير بوضوح إلى تراكم المديونيات، وجفاف السيولة فيما بين المتعاملين فى الاقتصاد المصرى منذ عام ١٩٩٧.

ولكن القضية الجديرة بالعناية هى التفرقة بين وجود «أزمة سيولة» فى مجمل الاقتصاد المصرى، من ناحية، وبين وجود «أزمة سوء توزيع وإدارة السيولة المتوافرة» فى الاقتصاد الوطنى، من ناحية أخرى. إذ إن «أزمة السيولة» ليست موجودة بشكل متماثل عبر الأجزاء المختلفة للاقتصاد المصرى. فهناك أسواق وفئات من المتعاملين تعانى من «أزمة سيولة خانقة»، بينما توجد أقسام وأجزاء فى الاقتصاد المصرى لديها «فائض سيولة». وذلك يعكس بدوره «سوء توزيع السيولة وإدارتها» فى الاقتصاد المصرى، الأمر الذى يعتبر نتاجاً طبيعياً لـ«سوء توزيع الدخل والثروة» فى المجتمع المصرى عموماً.

ولعل أهم ما يلفت النظر فى العديد من الكتابات التى امتلأت بها الصحف والمجلات لتفسير «أزمة السيولة»، هو إلقاء اللوم (بالدرجة الأولى) على المتأخرات الحكومية المستحقة لصالح قطاع الأعمال الخاص التى قدّرت بنحو ١٢ مليار جنيه مصرى. ولكن إذا ما دققنا فى الأمر ملياً، نجد أن «أزمة السيولة» التى يجرى الحديث عنها، يمكن إرجاعها إلى عناصر عديدة ومتشابكة، ساهم كل منها فى تغذية الأزمة ومضاعفاتها، خلال الفترة ١٩٩٨-٢٠٠٠.



من خلال الإطار التحليلي للمحاسبة القومية، يمكن الإشارة إلى أهم العناصر المسببة للأزمة، على النحو التالي:

أولاً: السلوك الإنفاقي للقطاع العائلي:

إذ اتسم «السلوك الإنفاقي» للفئات عالية الدخل بسوء توزيع السيولة بين أنشطة استهلاكية ذات «كثافة استيرادية عالية»، حيث تتسرب الآثار الإنفاقية إلى الخارج، أو توجيهها نحو أنشطة ذات آثار انتشارية محدودة، أى تضاؤل قيمة ما يعرف «بمضاعف الإنفاق». ومثال ذلك الإنفاق المكثف على «التليفون المحمول»، والإفراط فى الإنفاق على «الدروس الخصوصية»، و«الوجبات الجاهزة»، وغيرها من بنود الإنفاق المماثلة.

ثانياً: سلوك قطاع الأعمال الخاص:

حيث اتسم هذا السلوك «بالمغالاة فى الاستثمار العقارى»، وخاصة فى مجال الإسكان الفاخر فى المدن الجديدة مما أدى إلى وجود مخزون عقارى كبير راكد غير قابل للتسويق. وتسبب ذلك فى سحب جانب كبير من السيولة(١) المتاحة لدى «قطاع الأعمال الخاص»، ولدى «القطاع المصرفى». ونتج عن ذلك تجميد الأموال «القابلة للإقراض» (و«القابلة للاستثمار») فى هذا الفرع من فروع النشاط الاقتصادى، الذى اتسم «بالتشبع» وبطء الدورة الاقتصادية.

ونفس الشىء ينطبق على سياسة التجار والموردين الذين توسعوا فى شراء السلع المعمرة من بلدان جنوب شرق آسيا، بشكل يفوق طاقة استيعاب السوق المصرية، مما أدى إلى تراكم مخزون سلعى كبير يصعب تسويقه دون «حرق الأسعار»، وبالتبعية «حرق هوامش الربح». الأمر الذى ساهم فى تفاقم أزمتى «السيولة» و«الركود» فى الاقتصاد المصرى.

وقد نتج عن كل هذه الاعتبارات أن عدداً كبيراً من رجال الأعمال المقترضين من البنوك لم يسددوا مديونياتهم للبنوك خلال السنوات الثلاث الأخيرة، مما أدى إلى صعوبة «إعادة الإقراض» بواسطة هذه البنوك للمقترضين الجدد.

ثالثاً: سياسة الإنفاق الحكومى:

حيث تم الاندفاع نحو تنفيذ عدد من المشروعات القومية الكبرى فى آن واحد، دون دراسة كافية للجوانب المالية والأعباء النقدية المباشرة وغير المباشرة لتلك المشروعات. وقد أدى هذا بدوره إلى امتصاص جانب مهم من السيولة المتوافرة لدى الحكومة والخزانة العامة للدولة. وتسرب جانب مهم منها للخارج سداداً لثمن المهمات والمعدات المستوردة لإنجاز تلك المشروعات. ولقد نتج عن ذلك تسرب جانب كبير من «آثار المضاعف الإنفاقى» إلى العالم الخارجى، دون أن يساهم ذلك الإنفاق الكبير فى تنشيط الدورة الاقتصادية المحلية.

رابعاً: السياسات المالية والضريبية المرتبطة بخزانة الدولة:

إذ تم الحديث، بشكل متكرر، عن المتأخرات الحكومية التى وصلت إلى نحو ١٢ مليار جنيه مصرى، باعتبارها أحد مسببات الركود وأزمة السيولة (وهذا صحيح فى تفسير جانب من المشكلة)، ولكن لم يهتم أحد بالنظر إلى الوجه الآخر للعملة، حيث بلغت المتأخرات الضريبية للدولة نحو ١٧ مليار جنيه، حسب تصريحات وزير المالية، وهو رقم يفوق رقم المتأخرات الحكومية.

وتلك القضية تستحق وقفة تأملية حول نظام الإدارة الاقتصادية والمالية فى الاقتصاد المصرى. إذ إن المستحقات المتأخرة على الحكومة لها مقابل تمويلى محدد هو المتأخرات الضريبية المتراكمة. ولكن المشكلة تكمن فى وجود خلل جسيم فى نظام الإدارة المالية ينتج عنه تراكم و«عدم تزامن» كلٌ من «المتأخرات الضريبية» و«المستحقات الحكومية» واجبة السداد، رغم وجود مقاصة محاسبية واضحة فيما بينهما. وذلك يقتضى تطوير نظام «المعلوماتية الاقتصادية» لدى وزارة المالية، من حيث حجم المستحقات الضريبية، والالتزامات المالية، على أساس شهرى، إن لم يكن يوميًا، بحيث يكون الموقف المالى واضحاً، بصورة شفافة، و On-line.

خامساً: سلوك القطاع المصرفى:

إذ اتسم هذا السلوك بالإفراط فى الإقراض دون ضمانات كافية، ودون التناسب مع «قاعدة الودائع» لديه (راجع الجدول رقم ١). وكما تشير بيانات الجدول، فإن نسب «إجمالى الإقراض إلى إجمالى الودائع» تجاوزت لدى العديد من البنوك الحدود المعتادة التى تتراوح بين ٦٥٪-٧٥٪. وقد أدى ذلك بدوره إلى تضخم حجم الالتزامات لدى قطاع الأعمال الخاص إزاء القطاع المصرفى نتيجة التوسع فى الاقتراض، والمغالاة فى النشاط التجارى (Over trading)، دون دراسة جيدة لأوضاع السوق المحلية.

ولقد بلغت نسبة جملة الالتزامات إلى إجمالى أصول بعض الشركات العقارية نحو ٧٠-٩٠٪ عند منتصف عام١٩٩٨. كما بلغت نسبة الالتزامات إلى جملة «حقوق الملكية» فى بعض الشركات العقارية الكبرى مابين ٢٥٠٪ - ١٠٠٠٪، عند نفس التاريخ.

وهذا يشير بوضوح إلى خلل جسيم فى «الهياكل التمويلية» لتلك الشركات، وينبئ باحتمالات كبيرة للتعثر عن سداد تلك المديونيات وكمحصلة لكل هذه السلوكيات، ارتفعت «مخصصات الديون الرديئة» لدى القطاع المصرفى خلال عام ١٩٩٩، كما يوضح ذلك الجدول (٢)، وهكذا

(١) يقدّر حجم السيولة التى تمتصها تلك البنود، من الميزانية الإنفاقية للقطاع العائلى، بنحو ١٩-٢٠ مليار جنيه فى السنة، تم تقديرها على النحو التالى:

البند	القيمة (بالجنيه)	المسار
(أ) دروس خصوصية	١٢ مليار جنيه	اكتناز (أو تسرب لسوق العقار)
(ب) الفراخ ومستلزماتها	١ مليار	استيراد من الخارج (أو تسرب لسوق العقارات
(ج) تليفون محمول	٢,٧ مليار	(الجانب الأكثر يتسرب إلى الخارج)
(د) حج وعمرة + سياحة وعلاج فى الخارج	٣,٥ مليار	تسرب للخارج

هذا ناهيك عن الأموال المنفقة على استيراد السلع الترفيهية المستوردة، بواسطة القطاع العائلى.



جدول (١)
نسبة إجمالى القروض إلى قاعدة الودائع فى القطاع المصرفى (١٩٩٧ - ١٩٩٩)

م	البنك	١٩٩٧	١٩٩٨	١٩٩٩
	أولاً: البنوك التجارية			
	(١) بنوك القطاع العام:			
١	بنك مصر	٪٥٠,١	٪٤٨,٨	٪٥٣,٣
٢	البنك الأهلى المصرى	٪٦٨,٩	٪٧٠,٣	٪٨٠,٥
٣	بنك القاهرة	٪٦٨,٠	٪٧٠,٣	٪٧٩,١
٤	بنك الإسكندرية	٪٦٩,٣	٪٧٥,٦	٪٧٩,٥
	(٢) البنوك المشتركة والخاصة			
٥	بنك الإسكندرية التجارى والبحرى	٪٨٩,١	٪٩١,٥	...
٦	بنك الدلتا الدولى	٪٨١,٦	٪٩٩,٢	٪١٠٠,١
٧	بنك القاهرة وباريس	٪١٠٣,٥	٪٩١,٧	٪٧٨,٤
٨	بنك التمويل المصرى السعودى	٪١٢٠	٪١٠٠,٦	٪٨٠,٣
٩	بنك مصر أمريكا الدولى	٪٧٣,٤	٪٧٦,٠	٪٧٩,١
١٠	بنك المهندس	٪٨٣,٤	٪٩٠,٩	...
١١	البنك المصرى التجارى	٪٧٨,٢	٪٧٨,٦	٪٧٦,٦
١٢	البنك الوطنى للتنمية	٪٨٧,٥	٪٨٣,٧	٪٨٨,٨
١٣	بنك العمال المصرى	٪٩٣,٢	٪١١١,٢	...
١٤	بنك مصر إكستريور	٪٦٠,٨	٪٦٠,٧	...
١٥	البنك التجارى الدولى	٪٩٥,٠	٪١١٣,٣	...
١٦	البنك المصرى المتحد	٪١٠٩,٧	٪١١٢,٨	٪١٢١,٥
١٧	بنك مصر الدولى	٪٦٢,٧	٪٧٣,٣	٪٧٢,٤
١٨	البنك المصرى الامريكى	٪٧١	٪٧٤,٧	٪٧٦,٥
١٩	البنك الوطنى المصرى	٪٩١,٣	٪٩٤,٥	٪٩٢,٠
٢٠	البنك المصرى الخليجى	٪٧٨,٠	٪٩١,٤	٪٨٧,٣
٢١	البنك المصرى البريطانى	٪٧٤,٠	٪٩٦,٠	٪٨٢,٥
٢٢	بنك مصر رومانيا	٪١٠٢,٩	٪١٣٣,٣	٪١٤٩,٠
٢٣	بنك قناة السويس	٪٨٤,١	٪٨١,٦	٪٨٧,٥
	ثانيا: بنوك الاستثمار والأعمال			
٢٤	البنك الأهلى سوستيه جنرال	٪٩٦,٨	٪٩٦,٩	٪٨٨,٠
٢٥	بنك الائتمان الدولى - مصر	٪١٢٢	٪١١٦,٠	٪١٤٠,٤
٢٦	بنك مصر إيران للتنمية	٪١٣٩,٨	٪١٢٩,٣	٪١١٩,٢
٢٧	بنك التعمير والإسكان	٪١٩٨,٦	٪٢١٣,٦	٪٢٢٥,٠
٢٨	بنك مصر العربى الأفريقى	٪٩٩,٦	٪١١٣,٢	...
٢٩	بنك كايرو باركليز	٪٩٣,٢	٪٩٨,٣	٪٧٤,٧
	بنوك منشأة بقوانين خاصة:			
٣٠	بنك فيصل الإسلامى المصرى	٪١١٣,٧	٪١١٠,٦	٪١١٠,١
٣١	البنك المصرى لتنمية الصادرات	٪١٧٩,٢	٪١٤٤,٥	٪١٢٧,٤
٣٢	البنك العربى الافريقى الدولى	٪٨١,٨	٪٨٧,٩	٪٧٧,٤
	ثالثا: البنوك المتخصصة			
٣٣	بنك التنمية الصناعية المصرى	٪٩٨٢,٢	٪٩٨١,٦	٪٧٢٠,٦
٣٤	البنك الرئيسى للتنمية والائتمان الزراعى وبنوكه فى المحافظات	٪١٩٤,٦	٪١٩٩,٥	٪١٩١,٠
٣٥	بنك بورسعيد الوطنى للتنمية	٪٩٠,٨	٪١٠١,٥	٪٨٥,٥
٣٦	البنك العقارى العربى	٪٣١٠,٤	٪١٩١,٤	...
٣٧	البنك العقارى المصرى	٪٨٩٧,٦	٪٩٩٣,١	...

المصدر: بيانات تم حسابها من واقع تحليل ميزانيات البنوك التجارية.

تشابكت كل العناصر السابقة لتصنع «أزمة السيولة والركود» خلال العامين الأخيرين. إذ إن سلوكيات «الفاعلين الاقتصاديين الأساسيين» فى الاقتصاد المصرى (القطاع العائلى، قطاع الأعمال الخاص، الحكومة، الخزانة، القطاع المصرفى) قد شارك بدرجة أو بأخرى فى صناعة تلك الأزمة وتفاقمها (راجع الشكل رقم ١).

وبالتالى فإن ما نشهده من أزمتى «سيولة» و«ركود» ليس سوى أعراض لأزمة أكثر عمقاً تتعلق بمجمل السياسات التوزيعية والاستهلاكية والاستثمارية فى الاقتصاد المصرى. ولذا فإن السياسات التصحيحية يجب أن تبدأ بمعالجة تلك المشاكل من جذورها حتى لا نخرج من أزمة سيولة لنواجه «أزمات بنيوية» أكثر عمقاً.

٩٩ ٣ ٠٠

لعل من بين القضايا المهمة التى أثارها الحوار الدائر حول «أزمتى السيولة والركود» فى الاقتصاد المصرى، هو وجود مؤشرات لنمو وتوافر السيولة على صعيد مجمل الاقتصاد الوطنى، بينما يوجد ركود وجفاف للسيولة فى أقسام وأجزاء كبيرة من الاقتصاد الوطنى. ولعل تفسير تلك «المفارقة» يكمن فى أن الاقتصاد المصرى، يعانى من «ثنائية» عميقة فى هيكل الدخول والثروات وبالتالى فى هيكل الطلب. وفى تقديرنا، أن «ثنائية» الاقتصاد الوطنى قد تعمقت بشدة فى ظل سياسات «التصحيح الهيكلى»، التى تم تطبيقها خلال التسعينيات.

فإذا ما قسمنا «الاقتصاد الوطنى» إلى نوعين من الأنشطة :

(أ) قطاعات صاعدة وأنشطة مزدهرة.

(ب) قطاعات هابطة وأنشطة مصابة بالركود والانكماش.

نجد أننا شهدنا خلال التسعينيات انتعاشاً وازدهاراً لبعض الأنشطة التى يجرى الطلب عليها من جانب الفئات «عالية الدخل»: إذ إن حصة العشرين فى المائة فى قمة التوزيع، من جملة إنفاق القطاع العائلى فى مصر تصل إلى نحو ٤١٪، بينما يصل النصيب النسبى للأربعين فى المائة الذين يقعون فى أعلى «السلم التوزيعى» نحو ثلثى إنفاق القطاع العائلى (راجع الجدول «٣»).

ومن ناحية أخرى، نجد أن الركود والانكماش قد أصاب بقية الأنشطة التى تتوجه للجمهور العريض ذى القوة الشرائية المحدودة: «الطبقة الوسطى الصغرى والطبقات الشعبية» (التى تشكل نحو ٦٠٪ من جملة السكان). حيث يصل «النصيب النسبى» لهؤلاء نحو ٣٧,٧٪ من جملة إنفاق القطاع العائلى. هذا بينما يبلغ النصيب النسبى للعشرين فى المائة، الذين يمثلون قاع «السلم التوزيعى»، ٣,٩٪ فقط من جملة إنفاق القطاع العائلى.

وخير دليل على ذلك ما جاء فى جريدة الأهرام بتاريخ ١٢ مارس ٢٠٠٠ تحت عنوان: «الركود يضرب أطول أوكازيون»، إنه لم يكتب النجاح لأطول أوكازيون شتوى، امتد منذ الأول من فبراير ٢٠٠٠، حتى ١٠ مارس ٢٠٠٠ وأضافت الصحيفة أن الأوكازيون شهد هذا العام منافسة شديدة بين محلات القطاع الخاص، حيث تراوحت «نسب الخصم» فيها ما بين ٤٥٪ و٧٠٪ على «السلع المعمرة»، بينما تراوحت نسبة الخصم على «الأقمشة» و«المفروشات» ما بين ٤٥٪ و٥٠٪.

ومن ناحية أخرى، أشار بعض العملاء المترددين على المحال، إلى أن «الدروس الخصوصية» كانت هى العامل الرئيسى وراء إحجام المستهلك عن الشراء من الأوكازيون الشتوى، حيث يتم إحلال الإنفاق على «الدروس الخصوصية» محل الإنفاق على السلع الضرورية والمعمرة، فى «الميزانيات الإنفاقية» لأسر الفئات الوسطى محدودة الدخل والفقيرة. وهذا يدل على حجم الضغوط المالية التى تشكلها كتلة الإنفاق على الدروس الخصوصية (نحو ١١ - ١٢ مليار جنيه مصرى فى السنة)، بالنسبة لأسر «الطبقة الوسطى» المصرية الصغيرة منها والكبيرة.

وعلى الجانب الآخر من الصورة، نجد أن عدد بطاقات الفيزا، قد بلغ حوالى ٢٠٤ آلاف بطاقة فى ديسمبر ١٩٩٩، وأن حجم المبيعات التى تمت من خلال هذه البطاقات بلغ ٨٢١ مليون جنيه مصرى، بالنسبة للفئات «عالية الدخل». كما بلغ حجم المبيعات التى تمت من خلال الأجانب «حاملى الفيزا» فى مصر نحو ٣٢٥,٥ مليون دولار. هذا رغم أن عدد التجار الذين يقبلون التعامل بالفيزا لا يتجاوز ١٥ ألف تاجر فى الاقتصاد المصرى. ومن المتوقع أن يكون جانب مهم من إنفاق «حاملى» «بطاقات الائتمان» ينصب على سلع وخدمات «مستوردة»، أو على الأقل «ذات مكون استيرادى» مرتفع. وبالتالى لا تساعد على إنعاش الدورة الاقتصادية داخل الاقتصاد المحلى.

ونتيجة لذلك، نجد أن العديد من الأنشطة الإنتاجية والحرفية والخدمية فى القطاعين «النظامى» و«غير النظامى»، يعانى من ركود وتدهور حاد فى حجم النشاط يتمثل فى انخفاض مستويات استغلال الطاقات الإنتاجية، والتوظف، والربحية. بل إن بعض تلك المنشآت أصبح مهدداً بالإفلاس والتوقف عن النشاط، نتيجة ازدياد درجة سوء توزيع الدخل وانخفاض القوة الشرائية لدى قطاعات واسعة من السكان، (وخاصة الثلاثين فى المائة فى وسط توزيع الدخل الذين يشكلون عصب «الطبقة الوسطى فى مصر»).

وكنتيجة لتلك الأوضاع الهيكلية، لا يجرى نمو وتقدم الاقتصاد الوطنى بوتيرة واحدة، بل ينمو ويتقدم بسرعتين مختلفتين:

* سرعة عالية لأجزاء الاقتصاد المرتبطة باحتياجات وأنشطة فئات المجتمع «الأعلى دخلاً» من رجال الأعمال وكبار المهنيين والتكنوقراط والاستشاريين، باختصار «العشرون فى المائة الأعلى دخلاً».

* سرعة بطيئة، و«قد تكون سالبة» للأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالسوق المحلية (Non-tradable)، وبقية فئات المجتمع «ذات الدخول الأجرية» وذات الدخول الحرة «الكفافية» و«الهامشية».

وهكذا، تصبح عمليات النمو والتوسع



والازدهار متمحورة حول أنشطة بعينها لا تلبى سوى حاجات المجموعات «عالية الدخل» ذات الطلب الفعال والنشط، ويجرى إهمال السوق الواسعة، «ولكن الراكدة»، التى تلبى حاجات غالبية السكان، ولكن «بهوامش ربح» ضعيفة ومنخفضة.

وتدريجياً تصبح عملية «المساكنة» بين «اقتصادين» بل «مجتمعين» منفصمين، أكثر صعوبة مع مرور الزمن، مما يزيد من حدة التوترات الاجتماعية وعدم الاستقرار الاقتصادى والسياسى.

وهكذا يتضح أن أزمة «الركود»، ليست مجرد ظاهرة نقدية تعود إلى «نقص السيولة»، بل هى «أزمة هيكلية» تتعلق ببنية الاقتصاد ذاته، ونمط توزيع الدخول والثروات السائد منذ منتصف الثمانينيات. إذ إن الذى ينقص الاقتصاد المصرى ليس مجرد الزيوت والشحوم (أى «السيولة النقدية») لتسيير عجلات الاقتصاد الوطنى، بل المشكلة الأكبر والأهم هى أن «التروس» التى تحرك تلك «العجلات» ليست «راكبة» بالشكل الصحيح. وأن «الدورة الدموية الداخلية» للاقتصاد الوطنى، هى دورة «غير صحية»، وتحتاج لضخ «الدماء السليمة» فى المسارات الصحيحة.

* * *

تقاس عادة كفاءة السياسة الاقتصادية، فى أى بلد، بقدرتها على التعامل مباشرة، وأولاً بأول، مع المشاكل الاقتصادية التى تطرأ على الساحة حتى لا تتراكم المشاكل ويصعب العلاج. ففى أحيان كثيرة، تكون إجراءات المعالجة سليمة فى ذاتها، ولكنها قد تجئ متأخرة، فتفقد جزءاً كبيراً من فاعليتها.

ولقد حفلت التصريحات الرسمية بالعديد من الحلول والمقترحات للخروج من الأزمة. ورغم أن هناك نوعاً من الإجماع على أن «نقطة البدء» فى كسر دورة الركود وحل «أزمة السيولة» هى عن طريق أن تقوم الخزانة العامة للدولة بتسوية جانب من المدفوعات المتأخرة عليها لصالح قطاع الأعمال الخاص. إلا أن السؤال الجوهرى يظل يدور حول سبل تمويل هذه المستحقات المتأخرة على الحكومة دون طبع بنكنوت جديد. وبهذا الصدد، فإن لدينا العديد من التحفظات على المصادر التمويلية المقترحة:

١ ـ ليس من حسن الإدارة أن يتم تمويل «السيولة قصيرة الأجل» لتسديد المستحقات المتأخرة على الحكومة من عائدات الخصخصة. إذ إن المبادئ الاقتصادية السليمة تقتضى مبادلة «أصل» بـ «أصل»، وليس تبديد «عائدات الخصخصة» فى حل مشاكل سيولة قصيرة الأجل. لأنه من المستقر علمياً أن عمليات «الخصخصة» تنطوى على «تسييل» أصل حقيقى من أصول المجتمع الإنتاجية، ولابد من استخدامها فى تكوين «أصل إنتاجى» بديل ينفع الناس فى الأرض.

٢ ـ إصدار سندات حكومية بالنقد الأجنبى فى أسواق النقد العالمية لحل مشكلة السيولة، لا يعتبر حلاً مواتياً، فى ظروف الاقتصاد المصرى الحالية. إذ إنه يرتب التزامات بالنقد الأجنبى على الاقتصاد المصرى فى وقت تتراجع فيه الاحتياطيات الرسمية بالنقد الأجنبى. كما أنه يرتب على الخزانة أعباء خدمة هذه السندات بالنقد الأجنبى فى المستقبل، لصالح حملة هذه السندات فى الخارج.

٣ ـ بالنسبة لاستخدام الزيادة فى «حصيلة عائدات البترول» ، فإن القاعدة الاقتصادية الأصولية، تقتضى استخدام تلك الزيادة فى تمويل استثمارات حكومية جديدة، وليس فى حل أزمة سيولة قصيرة الأجل. نظراً لأن العائدات من صادرات البترول هى أيضاً مقابل تسييل مورد ناضب من موارد المجتمع، ويجب عدم استخدامها فى تمويل نفقات جارية.

وفى تقديرنا أن الحل الأمثل لتجاوز «أزمة السيولة والركود فى الاقتصاد المصرى» يتمثل فى نوعين من الحلول، حلول «قصيرة الأجل»، وحلول «طويلة الأجل».

(١) حلول قصيرة الأجل: تتمثل فى:

(أ) تنشيط تحصيل الضرائب المتأخرة على الممولين المختلفين، بمعدل لا يقل عن نصف مليار جنيه شهرياً، فتلك حقوق ثابتة لخزانة الدولة.

(ب) إعادة توجيه أوجه الإنفاق الحكومى الجارى والاستثمارى فى موازنة الدولة الجديدة (٢٠٠٠ / ٢٠٠١) بما يساعد على تنشيط الدورة الاقتصادية المحلية وعدم تجميد السيولة فى أنشطة بطيئة الدورة أو متسربة للخارج.

(ج) إعادة النظر فى السياسة الاستيرادية لتخفيف الضغط على ميزان المدفوعات والسيولة بالنقد الأجنبى فى الاقتصاد المصرى.

(د) ضبط التوسع فى الائتمان لقطاع الأعمال الخاص ، بما يساعد فى تمويل أنشطة إنتاجية واستثمارية ذات عائد حقيقى ودائم يساعد على توسيع فرص التوظف والتصدير.

(هـ) تصحيح أوضاع توزيع الدخل فى الاقتصاد المصرى من خلال مجموعة من الأدوات المالية (الأجور والمرتبات والضرائب والتحويلات).

(٢) حلول طويلة الأجل:

(أ) استخدام عائدات الخصخصة وحصيلة عائدات البترول فى تمويل استثمارات حكومية جديدة تنشط الدورة الاقتصادية، وتبنى أصولاً إنتاجية جديدة تساهم فى دعم القدرة التنافسية للاقتصاد المصرى، وبما يساعد على ارتفاع معدلات التوظف وحل مشكلات البطالة.

(ب) ترشيد السياسات الاستثمارية لقطاع الأعمال الخاص بحيث يبتعد عن القطاعات «غير القابلة للاتجار دولياً» (Non-tradable) (الاستثمار العقارى، الأنشطة التجارية المضاربية) والتوجه نحو الأنشطة الإنتاجية الحقيقية ذات القيمة المضافة العالية وذات الإمكانات التصديرية العالية.

(ج) تنشيط دور قطاع السياحة فى الاقتصاد المصرى، بعيداً عن سياسة «حرق الأسعار»، للتعويض عن انخفاض تحويلات المصريين العاملين بالخارج وعائدات قناة السويس، بما يساعد على تنشيط الدورة الاقتصادية المحلية، وذلك من خلال مضاعف الإنفاق السياحى.

وغنى عن القول، أنّ الترابط بين الحلول «قصيرة الأجل» والحلول «طويلة الأجل»، فى إطار سياسة إنمائية نشطة هو الطريق الوحيد للخروج من حالة «اللاتوازن الركودى» التى يعيشها الاقتصاد المصرى فى الأونة الراهنة. ■

جدول (٢)

تطور نسبة مخصص القروض الرديئة إلى إجمالى محفظة القروض فى القطاع المصرفى (١٩٩٧ - ١٩٩٩) (٪)

م	البنك	١٩٩٧	١٩٩٨	١٩٩٩
	أولاً: البنوك التجارية			
	(١) بنوك القطاع العام:			
١	بنك مصر	٦٫٩٪	٧٫٤٪	٧٫٢٪
٢	البنك الأهلى المصرى	١١٫٩٪	١١٫٤٪	١٠٫٢٪
٣	بنك القاهرة	١٢٫٥٪	١٢٫٦٪	١٢٫١٪
٤	بنك الإسكندرية	١٣٫٢٪	١٣٫٨٪	١١٫٩٪
	(٢) البنوك المشتركة والخاصة			
٥	بنك الإسكندرية التجارى والبحرى	١١٫٤٪	٩٫٩٪	...
٦	بنك الدلتا الدولى	١٢٫١٪	١٩٫٠٪	١٦٫٩٪
٧	بنك القاهرة وباريس	١٠٫٠٪	١٣٫٤٪	١٥٫٧٪
٨	بنك التمويل المصرى السعودى	٣٫٢٪	٣٫٨٪	٥٫١٪
٩	بنك مصر أمريكا الدولى	١٦٫٣٪	١٥٫١٪	١٤٫٣٪
١٠	بنك المهندس	٩٫٥٪	١١٫٣٪	٧٫٦٪
١١	البنك المصرى التجارى	٩٫٨٪	٨٫٣٪	١١٫٥٪
١٢	البنك الوطنى للتنمية	١١٫٩٪	١٢٫٣٪	...
١٣	بنك العمال المصرى	١٢٫٥٪	١١٫٥٪	...
١٤	بنك مصر إكستريور	٣٫٢٪	٣٫٧٪	...
١٥	البنك التجارى الدولى	٣٫٥٪	٣٫٥٪	...
١٦	البنك المصرى المتحد	٧٫٤٪	٩٫٠٪	٧٫٥٪
١٧	بنك مصر الدولى	٧٫٠٪	٥٫٩٪	٥٫٧٪
١٨	البنك المصرى الأمريكى	١٫٨٪	١٫٧٪	٩٫١٪
١٩	البنك الوطنى المصرى	٥٫٥٪	٤٫٨٪	٤٫٣٪
٢٠	البنك المصرى الخليجى	٤٫٩٪	٤٫٦٪	٨٫٣٪
٢١	البنك المصرى البريطانى	٣٫٥٪	٣٫٦٪	٤٫٤٪
٢٢	بنك مصر رومانيا	١٠٫٨٪	١١٫٤٪	١١٫٨٪
٢٣	بنك قناة السويس	١٠٫٤٪	١٠٫٠٪	٩٫٩٪
	ثانيا: بنوك الاستثمار والأعمال			
٢٤	البنك الأهلى سوستيه جنرال	٥٫٣٪	٥٫٤٪	٤٫٩٪
٢٥	بنك الائتمان الدولى ـ مصر	٣٫٤٪	٤٫٦٪	٧٫٣٪
٢٦	بنك مصر إيران للتنمية	٢٢٫٥٪	٢١٫٢٪	٢٠٫٥٪
٢٧	بنك التعمير والإسكان	١٫٩٪	٣٫٠٪	٣٫٥٪
٢٨	بنك مصر العربى الأفريقى	١٤٫٠٪	١٤٫٦٪	...
٢٩	بنك كايرو باركليز	١١٫٧٪	١٢٫٤٪	١٠٫٦٪
	بنوك منشأة بقوانين خاصة:			
٣٠	بنك فيصل الإسلامى المصرى	٧٫٧٪	٧٫٧٪	٧٫٤٪
٣١	البنك المصرى لتنمية الصادرات	٨٫٤٪	٧٫١٪	٥٫٤٪
٣٢	البنك العربى الافريقى الدولى	٨٫١٪	١٠٫١٪	١٠٫٧٪
	ثالثا: البنوك المتخصصة			
٣٣	بنك التنمية الصناعية المصرى	١٨٫٠٪	١٨٫١٪	١٨٫٠٪
٣٤	البنك الرئيسى للتنمية والائتمان الزراعى وبنوكه فى المحافظات	٨٫١٪	٨٫٩٢٪	٨٫٩٨٪
٣٥	بنك بورسعيد الوطنى للتنمية	٧٫١٪	٧٫١٪	٦٫٩٪
٣٦	البنك العقارى العربى	٣٫٨٪	٣٫٨٪	...
٣٧	البنك العقارى المصرى	٧٫١٪	٧٫١٪	...

المصدر: كما جاء فى الجدول (١).

جدول (٣)

هيكل توزيع إنفاق القطاع العائلى فى مصر (عام ١٩٩٨)

فئات الدخل	النسبة من الإنفاق
أعلى ١٠٪	٣٦٫٧٪
أعلى ٢٠٪	٤١٫١٪
ثان ٢٠٪	٢١٫٤٪
ثالث ٢٠٪	١٦٫٣٪
رابع ٢٠٪	١٢٫٥٪
أقل ٢٠٪	٨٫٧٪
أقل ١٠٪	٣٫٩٪

المصدر: البنك المركزى المصرى، وزارة التخطيط، البنك الدولى.

يحـــيى الرخـــاوى

"طلبَ الغنى شقفة كسَر الفقير زيره"

مخـاطر استيراد الأفكار والمناهج والمشاكل

خطورة اسـتـيـراد الأفكار، والمناهج، بل والمشاكل، أخطر بكثير من الإفراط فى استيراد حاجاتنا الاستهلاكية. لن أتكلم عن عجز ميزان مدفوعات التبادل الفكرى لصالحهم، لأن أغلبنا يتصور أنه ليس عندنا ما نصدّره إليهم أصلا، (إلا ما لا يحتاجونه، مثل الفخر بالماضى، والزعم بأخلاق أحسن، وما شابه)، مع أنهم أحوج ما يكونون إلى ما يمكن أن نضيفه إليهم، وإلى المسيرة البشرية عامة، رغم ما نحن فيه من فقر وبدائية.

سوف أكتفى بالتحذير من ظاهرة استيراد واجتزاء الأفكار، تلك الظاهرة التى تستنزف جهدنا ووقتنا ومالنا (أو مالهم الذى يمنحوننا إياه لنفعل ذلك). ثم إنها تخدعنا فى النهاية، إذ نتوهم من خلالها أننا نبحث، وأننا نفكر، وأننا نتكلم لغة حديثة ما دمنا نتبادل رطانا له نفس أصوات – لا مضمون – لغتهم.

بدايةً أود توضيح ما أعنى بهذا المدخل: استيراد الأفكار غير الإلمام بفكر الغير، وغير الاطلاع عليه، وغير ترجمته، وغير الحوار معه. أعنى بالاستيراد: اقتناء فكرة من عندهم، سابقة التجهيز، كاملة المعالم، نشغل بها وعينا، ووقتنا، فتحل تماما محل ما يمكن أن يتفتق فى أذهاننا بما هو نحن.

يختلف استيراد الأفكار اختلافا جذريا عن مواجهة فكر الغير لاستيعابه، وتحريك ما يقابله أويعارضه أو يكمله أو يعدّله. نحن عادة ما نستورد الأفكار والمشاكل دون تمحيص. نستوردها ليس بما هى وإنما: (١) بما شاع عنها، أو (٢) بما ذاع منها، أو (٣) بما اقتُطف منها، أو (٤) من خلال شجبها بما ليس فيها، أو (٥) بما نتصوره نحن عنها إذ نعيد صياغتها (حسب التساهيل)، أو (٦) بما يحقق لنا الغرض من استيرادها، (سدا لنقص، أو إيهاما بحداثة)، أو بكل ذلك، دون الرجوع إلى أصلها.

أغلبنا يعرف عن الشيوعية ما طبّقه ستالين لا ما كتبه ماركس ولا حتى ما كتبه ستالين نفسه (فماكُتب غير ما جرى)، ويعرف عن التفكيكية ما شاع من اللفظ وما ذاع عن دريدا لا ما قاله وكتبه وعدّل عنه وطوّره، ويعرف عن فرويد ما تقوله مسلسلات التليفزيون وأحيانا من هجوم خطباء المساجد أو فتاوى بعض الأطباء وهواة التحليل، لا ما ذهب إليه فرويد وعدل عنه، وتجاوزه. ويعرف عن داروين ما كُفِّر به لا ما «كانه». و يعرف عن بيولوجية المرض النفسى ما نقبله يقينا سَبَبَيا، وهو مازال فرضا تحت الفحص.

ثم إن أغلبنا يجتزئ من الديمقراطية ما يفيد اختيار الأقرب والأجهز للخدمات الخاصة والمجاملات، دون معنى المشاركة فى صنع القرار واحتمال تبادل السلطة. كما يجتزئ من الاقتصاد الحر سعار التنافس والجمع التراكمى دون الالتزام الاجتماعى. وفى النقد الأدبى قد تبهرنا ملامح من التفكيكية بعد البنيوية، فنستغنى بهما عن إعادة إبداع النص من خلال قراءة مسئولة. وفى الأمراض النفسية نجتزئ من فكر التحليل النفسى الفرويدى فكر التبرير دون إزالة الوقفة للانطلاق.

استيراد المشاكل (أيضا)

لن أحاول أن أتوقف عند هذا المستوى من اختزال الأفكار أو قصّ بعضها دون الإحاطة بها، لأن ثمة مستويات أخطر للاستيراد ومنها استيراد المشاكل التى لا تعنينا فى شىء حتى لو كانت الأهم لديهم.

إن الأفكار والمدارس والفروض التى يعلنونها ويبحثون فيها وبها إنما نشأت عندهم نتيجة لتطور طبيعى، فى مواجهة مشاكل قائمة عندهم فعلا. هذه المشاكل عادة كانت مرتبطة بحلول (وأفكار) كانت مطروحة من قبل، وفشلت تلك الحلول فى التعامل معها، فتحرّك الوعى وغامر بمخاطرة الإبداع من واقع الممارسة، فخلّق لهم، من واقعهم، هذه الأفكار المتجاوزة أو الفروض الواعدة.

ولكى نوهم أنفسنا بأن ما استوردناه من أفكار ورؤى هو صالح لاستعمالنا الخاص («الاستعمال الآدمى» بلغة الاستيراد) نقوم باصطناع مشاكل مثل التى كانت سببا فى بزوغ هذه الأفكار عندهم، ثم نقوم بحشرها جاهزة فى خيالنا باعتبارها منا، بل إن الاهتمام المتكلّف بها، وكثرة الحديث عنها قد ينقلها من هامش هى جديرة به إلى بؤرة انتباه لا تستحقها، لتصبح مشاكلنا نحن دون تمحيص، أو إعادة نظر.

نحن نبتدع اهتماما بمشاكل لم تصدمنا، أو تتواتر لدينا، بالقدر الذى يبرر ما نوليها من أهمية لمجرد أنها أصبحت بدعة مكررة لها ما يبررها لديهم، مشاكل يتواتر ذكرها أكثر فأكثر فى دورياتهم، مما لا يعنى بالضرورة أنها لا بد أن تعنينا فى قليل أو كثير، أو لعلها لا تعنينا أصلا.

يدخل فى مسألة استيراد المشاكل هذه عوامل كثيرة غير مجرد التقليد وادعاء التحديث والرغبة فى الحصول على رضاهم السامى بالسماح لنا بالنشر عندهم بلغتهم، وإنما قد يساهم فى ذلك موقفهم هم من نوعية الدعم المتاح، والتوجيه المباشر وغير المباشر، والفرص التى تتاح لمن يتكلم بلغتهم، وينحو نحوهم، حتى لو ضاع عمره وجهده ووقته فيما يخصهم دون ما يخصه أو يخص ناسه الأقربين.

قد توجد عندنا نفس المشكلة، لكنّها ليست بنفس الأهمية ولا بنفس الحجم ولا بنفس المضاعفات التى تجعلنا نترك كل مشاكلنا لنولى هذه المشكلة كل الاهتمام الذى يولونه إياها.

يبدأ الإعلام عندهم بالتنبيه إلى خطورة مشكلة ما، وتفاقمها، وتزايدها، ثم تتبع ذلك الأبحاثَ العلمية (وشبه العلمية !!)، وهات ياتمويل، وهات يا تخطيط، ثم تمتلئ الدوريات العلمية بالحديث عن الموضوع، ثم ينتقل التسويق للدوريات العامة، ويصل الأمر إلى تفصيل التفصيل، أو ما يسمَى لديهم «شق الشعرة».

يقرأ الحاذق منا، المتابع المطلع، كل هذا، فينتبه، وينبهر، ومادام يريد أن يتكلم اللغة الحديثة، ويشارك فى الوليمة الجديدة، وأن يرى اسمه بين أسماء هؤلاء الثقات، فهو يندفع إلى ما اندفعوا إليه، بغض النظر عن قيمة ما



يراودنى. مستعيذا بالله من التفكير التآمرى. ظن سيىء يقول: إن بعض خبثائهم قد يطلبون «شقفتنا» المتواضعة، مقابل أن يمولوا الجهد المبذول للحصول عليها، وهم يعلمون أننا سوف نسارع بكسر الزير إرضاء لهم

يفعل فى مجتمعنا هذا، فى وقتنا هذا. على حساب ماذا (؟!!).

ثم إن السادة الذين قد يموّلون الأبحاث هم الذين يجيزون النشر المُحكّم، وهم الخصم والحكم، (ليس الخصم بمعنى الخصام، ربما بمعنى الاختصام!!) وهم مشغولون بما يشغلهم، وهم يرحبون، أو يوعزون لنا، أن ننشغل معهم بما يشغلهم، ربما من باب اللياقة أو الوجاهة، ثم لعلنا نضيف لهم معلومة شاردة يحتاجونها لتكملة الصورة أوتزيينها، «شقفة» صغيرة تسند زيرهم الملىء بما يهمهم، (الشُقفُ الخزف، أو مُكَسّره، الواحدة شَقَفة. الوسيط). لكننا ونحن نعطيهم هذه الشقفة يسندون بها زيرهم، نكسر من أجل ذلك «زيرنا» الذى نشرب منه، (طَلَبَ الغَنى شَقَفَةً كَسَرْ الفقيرْ زِيرُه، كاتَ الفَقيرْ وَكَنسَهْ، يا سَوّ تدبيرُه). ويا ليتهم يأخذون منا الشقفة (نتائج أبحاثنا) ليسدوا بها حاجة حقيقية، فهم يعلمون تمام العلم أن الاختلافات الثقافية والحضارية لا تسمح بنقل النتائج بما هى، كما أنهم يعلمون - بوعى أو بدون وعى- خطأ نقطة بدايتنا التى تجعل جهدنا مهما بلغ لا يستاهل إلا الطبطبة، وأنه «برافو»، وقد يولوننا بعض المناصب الشرفية أو الدورية من باب الديكور العوْلَمى.

إنهم لا يطلبون منا -عادة- أن ندرس مشاكلهم، لكننا نحن الذين نندفع لاختلاق مشاكل مثل مشاكلهم، ونتصور أنها على نفس درجة الأهمية، حتى نضمن أن يسمعوا لنا.

يراودنى - مستعيذا بالله من التفكير التآمرى - ظن سيىء يقول: إن بعض خبثائهم قد يطلبون «شقفتنا» المتواضعة، مقابل أن يمولوا الجهد المبذول للحصول عليها، وهم يعلمون أننا سوف نسارع بكسر الزير إرضاء لهم. فنحصل على منحهم، ورضاهم، وجوائزهم، ثم نموت نحن من العطش والتبعية. بعد أن يُسكب على الأرض وقتنا، ووعينا، وفكرنا، وهمومنا بالمرة (فوّت هذه الفقرة فهى تآمرية بوضوح!! أو أنت حر).

يمكن التخفيف من هذا التحذير المندفع برد يقول إن العالَم أصبح قرية واحدة (مع الشكر)، وبالتالى فإن أى مشكلة فى أى مكان هى مشكلة الإنسان فى كل مكان. هذا الرد فى حد ذاته هو نوع من استيراد الأفكار، فلا العالَم أصبح قرية واحدة، مهما تعددت الاتصالات وتسارعت المواصلات، وحتى إذا أصبح قرية واحدة فإن ذلك لا يعنى بالضرورة أن المشاكل واحدة. وحتى لو توحدت المشاكل عبر العالم فإن طبيعتها تختلف، وكذا موقعها على سلم الأولويات.

مشكلة الشذوذ الجنسى -مثلا- ما زالت تمثل قلقا عندنا، وعارا، ورفضا اجتماعيا، ومازلنا نسُبُ بعضنا البعض بألفاظ تشجب ممارستها، فى حين أنها - والحمد لعلمهم الأحدث وللديمقراطية - لم تعد مشكلة أصلا لديهم، بل إن من يستحق السب والنبذ عندهم هو من يجرؤ أن يتدخل بتعليق عابر على اثنين من نفس النوع يتبادلان الحب والنظرات والهمسات علانية، إن هذا المتوحش الذى يجرؤ أن ينظر إليهما «شذرا»، أو حتى يرفضهما على مستوى النية، لا يستحق إلا الرفض والاتهام بالتخلف وعدم احترام حرية الآخرين وقلة حقوق الإنسان، وقلة الحياء بالمرة.

ثمة مشاكل لم تظهر عندنا أصلا، بالقدر الذى يحتاج أن تصعد إلى قائمة اهتمامنا، نندفع نحوها بكل ما نملك من جهد ووقت ومال (عادة نستدينه من صاحب المشكلة الأصلى، أو يمنحنا إياه بشروطه مع أنه هو الذى طلب الشقفة)، وهات يا بحث، وهات يا صرف، وهات يا نشر،ثم نكتشف، أو لا نكتشف (عادة لا نكتشف ما داموا نشروها) أن الأمر لا يخصنا، أوعلى أحسن الأحوال: هو لا يخصنا إلى هذه الدرجة.

لماذا الطفولة؟

هناك أمثلة بلا حصر توضح ما أردت التنبيه إليه فى مسألة «دراسة جدوى البحث والنظر»، لكننى سأكتفى بالإشارة إلى بعض ما يتعلق بالطفولة بوجه خاص، ذلك لأن مستقبلنا إنما يتحدد بمفهومنا عن الطفولة، وبالتالى بموقفنا منها، وما نقدمه لها. ثم إن الأطفال بوجه خاص يمتصون الثقافة المحيطة بشكل طبيعى وراسخ، فمسئوليتنا عن إحاطتهم بما ينفع ويبقى هى مسئولية مضاعفة. وعلى الرغم من ذلك فإن ما نقدمه لأطفالنا هو مجموعة من المزاعم الأخلاقية المسطحة، والخيال الموصى عليه، والمعلومات المستوردة المنفصلة عن ثقافتنا، حلّ كل ذلك محل تلقائية وعينا الشعبى والخيال الحر المغامرْ.وأخيرا، فقيما يتعلق بتخصصى، أنبه أننا قد استُدْرجنا إلى البحث فى مشاكل ليست هى الأوْلى بالبحث.



الذاتوية الرضيعية (الأوتزم)

قبل أن أدخل فى المثال الذى اخترته لتوضيح فكرتى تفصيلا، وهو «ضرار الأطفال» أعرج فى عجالة إلى ظاهرة أخرى تسمّى «الذاتوية الرضيعية» (Infantile Autism) بعد أن تزايد الحديث عنها مؤخرا.

الذاتوية الرضيعية متلازمة (زملة= Syndrome) تصف نوعا من الانغلاق على الذات منذ الولادة، حيث يعجز الطفل حديث الولادة عن التواصل مع الآخرين (بدءا من أمه) وإن كان ينجح فى عمل علاقات جزئية (تبدو كأنها سرية رمزية) مع أجزاء الأشياء المادية، وبالتالى يعاق نموه اللغوى والاجتماعى والمعرفى، ومما يميز هذا الانغلاق تلك النظرة الذكية (من تحت لتحت) التى قد يلقيها أحيانا هذا الطفل من طرف عينه.

فى بداية تعرّفى على هذا الاضطراب فرِحتُ به باعتبار أن كثيرا مما يشخص على أنه تخلف عقلى هو ذاتوية، وبالتالى هكذا كنت أظن آملاً مغرورا - فإنى قادر على التعامل غير اللفظى مع مثل هذا الطفل، مثلما أفعل مع بعض مرضاى الفصاميين خاصة، أو فى العلاج الجمعى، وكان مدخلى إلى هؤلاء الأطفال من باب تلك النظرة «الذكية» التى يتنافى وصفها بالذكاء مع التخلف المعرفى السائد فى كافة قدرات الأوتيزمى. رحتُ أبذل مع أطفال هذا التشخيص جهدا فائقا أملا فى أن يمتد ذكاء هذه النظرة (بالصبر، والتدريب، واللعب، والزمن، والرعاية) إلى مجالات القدرات المعرفية الأخرى. لكن النتائج لم تأت كما تصورنا. تابعتُ بعد ذلك ما ينشر عن التكهن بمسار هذه المتلازمة ومآلها، ففوجئت أنها ليست أفضل من التخلف العقلى بصفة عامة، إن لم تكن أسوأ. لكن الأمل ما زال يراودنى رغم المزاعم التى راحت تفسر سوء المآل بأصل هذه المتلازمة العضوى والوراثى. ثم عاد البندول يتحرك فى الاتجاه الآخر نتيجة لبعض النتائج الواعدة من خلال برامج تعديل السلوك وعلاج اللعب، جنبا إلى جنب مع العوامل العلاجية الأخرى. رحت أتساءل: هل وقع الناس (والعلماء) فيما وقعتُ فيه باكرا؟ لماذا عاد الحديث عن هذا الانغلاق الذاتوى هكذا الآن؟ خطر لى تفسير يقول:

إن من يُمْتَحن بإنجاب مثل هذا الطفل يفضل أن يتصبّر بأى وسيلة، ولو بلافتة خادعة، على قضاء الله، فبدل أن يوصم طفله بالتخلف، أصبح يرحّبُ أن يوصف بأنه ذاتوى (أوتيزمى) كأنه - بذلك- ينفى ضمنا أنه متخلف. التقط الأطباء (والإعلام) هذه الحاجة، فاستجابوا لها بسطحية أو حسن نية، ليخففوا عن الأهل آلام المواجهة. من حقّ الوالدين أن يأملوا ما برح بهم الألم، أو طاب لهم الأمل، لكن ليس من حقّ مختص أو عالم أو إعلامى أن يعد بما لا يكون، مهما حسُنت نيته.

أين نحن من مشكلة الطفل «الأوتيزمى» هذا؟ إن من يصابون بهذا الاضطراب عندنا، وعموما،-هم قلّة نادرة، بالقياس إلى نسبة التخلف العقلى. ثم إن ما تمثله عموم الإعاقة نتيجة للذاتوية الرضيعية (الأوتيزم) بالنسبة لمجموع الإعاقات عندنا صغارا وكبارا، (بسبب مرض نفسى أو عقلى، أو بدون سبب!!)، هى نسبة قليلة تكاد لا تذكر. فما هو الأولى بوقتنا وجهدنا ومالنا؟ أن نعطيهم فى الشمال والغرب «شقفة» لمجرد أن يستعملونها «ديكورا» يتوهمون به، أو نوهمُهم به أن ثم حوارا، حتى على حساب كسر زيرنا، أم أن نحافظ على زيرنا سليما نغترف منه لنقوم بمسئوليتنا فى محاولة حل إشكال إعاقة الأسوياء، فضلا عن مسئوليتنا تجاه الرعاية الباكرة للمرضى النفسيين قبل أن يُزْمنوا، ناهيك عن تنمية قدرات الإبداع فالانطلاق. ثم بعد ذلك، وربما أثناء ذلك، متى بقى فى «الزير» طاقة، لن ننسى أن نبذل ما نستطيع ونحن نرعى إعاقة المتخلفين والذاتويين؟ (أعلم أن مثل هذا التفكير قد يُتّهم بالنتشوية، لكن نيتشه لم يكن شرا كله)، ثم ننتقل إلى المثال التفصيلى:

ضرار الأطفال

المقصود بضرار الأطفال هو إلحاق الأذى بالطفل من ذويه عادة- بالانتهاك أو الإيذاء أو الاعتداء الجنسى أو الإهمال. (فضلت أن أضع هذه الترجمة لتحل محل تعبير«انتهاك الأطفال»، وأيضا«سوء استعمال الأطفال»،لأن مجرد الاستعمال هو ضرار، وقد استلهمتها من القاعدة الفقهية: لا ضرر ولا ضرار). مرة أخرى نتساءل أى المشاكل عندنا أكثر تواترا، وأكثر خطرا، وأكثر حاجة إلى البحث والنظر؟ ضرار الأطفال هذا أم «حرمان الأطفال» من مطالب الحياة الأساسية لا لتقصير من جانب الوالدين، لكن لأننا فقراء. كم طفلا ينام فى حجرة ليس لها سقف؟ وكم والدين ما زالا فى طور الإنجاب النشط ينامان فى نفس حجرة أطفالهم، لأنهم لا يملكون غيرها، لا لأنهم لا يعرفون أن فى ذلك ما يضر أطفالهم، وكم أسرة تعيش معا (اثنا عشر طفلا لثلاث أسرات مثلا) تستعمل دورة مياه مشتركة ليس فيها طارد !!، مرة أخرى: كل ذلك يحدث دون أى إضرار مقصود أو عفوى من الوالدين، إن الضرار يقع من الدولة، والقدر، والعالم.

ثم ماذا عن ترتيب منظومة القيم عندنا وعندهم فيما يتعلق بما يصل إلى الأطفال والتى بناء عليها نقيّم الضرار؟ إن منظومة القيم ليست مسألة أخلاقية فحسب. إن الضرر والضرار قد يقاس بمدى الاتساق أوالبعد عن ترتيب معيّن لمنظومة القيم فى ثقافة بذاتها فى وقت بذاته.

خذ مثلا قيمة ملتبِسة مثل قيمة «الحرية»، أين تقع على سلم منْظومة القيم عندهم، وعندنا، وكيف يتدخّل المسئول (طبيبا كان أم ضابطا أم قاضيا) إذا أضير طفل عندهم من خلال حرمانه من هذه القيمة (الحرية)، بغض النظر عن مصداقيتها ومضمونها؟ هل ثم فرق بيننا وبينهم فى هذا الصدد؟

وعلى الجانب الآخر خذ قيمة مثل قيمة الغش، (وليس مجرد الكذب حتى)، ألا يعرف الباحثون والباحثات فى مجال الطفولة والتربية والطب النفسى فى مصر أن هذه القيمة قد انتشرت فى مجتمعنا مؤخرا(بعد أن انعكس مضمونها) بما يحتاج معه إلى كل وقتهم وجهدهم قبل أن نستورد من المشاكل ما لا يعنينا أصلا؟

جاءنى شاب نجح فى الإعدادية، نجح بمجموع خمسين فى المائة، وهذا الرقم بالذات، فى الأقاليم بالذات يدعو إلى الشك الشديد. (اسألوا مديرية التعليم

إن الدولة عندنا أضعف من أن تدير شئون الدولة، فما بالك بتولى شئون الأطفال نيابة عن ذويهم إذا هم أضروا بهم. وبالنسبة للغالبية الغالبة فإن أقسى والد هو أرحم من أخصائية فى مؤسسة

وتعليماتها حول نسب النجاح المطلوبة من الوزارة لتفريغ الفصول، ورشوة الإعلام، بغض النظر عن ملء العقول). كان هذا الشاب من الصعيد الجميل المشهور بقيم الشهامة والنخوة والكرم إلخ. شككتُ فى ذكائه واستبعدت نجاحه بالطريق الطبيعى. قلت أُجرى له اختبار ذكاء. أجرتْ له زميلتنا النفسية الاختبار بعد أن أوصيتها أن تتأنى وتعيده لظروف تشككى فى تناسب ذكائه مع دروس الشهادة الإعدادية. جاءت النتيجة شديدة التواضع. أعدتُ الاختبارات بنفسى. جاءت نفس النتيجة التى لا تسمح له أن يجتاز الابتدائية لا الإعدادية. طلبت منه أن يقرأ صحيفة فلم يستطع. سألت والده عن حالته منذ طفولته فأجاب بأمانة بما يفيد أنه كان طول عمره «هكذا». قبلتُ الوضع ونصحت الأب أن يوفر نقوده، وألا يتردد على الأطباء أكثر من ذلك، وأن يركز على تدريبه على صنعة متواضعة تحت إشراف، وألا يأمل فى فعلٍ عقاقير لا تفعل شيئا فى الذكاء إلى آخر هذه النصائح التقليدية الموضوعية. شكرنى الرجل وابتسم الشاب، وانصرفا. ترددا علىّ مرة أو أكثر خلال شهور حتى اقتنعا أنه ليس عندى ما أضيفه. علمت أن الوالد لم يأخذ بنصيحتى وجعل ابنه يكمل باسم الله حارسه وضامنه.

بعد أربع سنوات زارنى الرجل فرحا يشكرنى جدا. على ماذا؟ على أن ابنه أخذ الدبلوم (ثانوى زراعى) والحمد لله. فزعتُ وتصورت أن ثم خطأ فى تقديرى، وفى تقدير زميلتى، وفى اختبار الذكاء إلخ. حاولت أن أحاور الشاب لأعرف كيف تحسن ذكاؤه هكذا ضد كل حسابات العلم، فوجدته كما هو تماما، لم يتغير إن لم يكن قد قلّ قليلا. سألت والده: هل استطاع أن يحصّل دروسه رغم كل شيء، فأجاب دون دهشة أنه لم يحصل دروسه ولا حاجة، وحين سألته : كيف نجح إذن؟ قال ببساطة وعرفان: «بالتزكية». وحين استفسرت منه أكثر، قال كلاما موجزه أن البركة فى سعادتى وسعادة البك الناظر الذى رأف بحالته، وأنه (الوالد) لا ينسى فضلى، أو فضل حضرة الناظر، وكلام من هذا. قاله بمنتهى العرفان والطيبة دون أى خجل، وابنه ينظر إليه فى فخر مناسب.

من هذا المثال وخاصة بعد تيقنى من تكراره على مستوى القطر بالسلامة، يتضح للقارئ أن من البديهى أن تكون أولى المشاكل بالدراسة عندنا فى هذه المرحلة من تطورنا هى معرفة القيم التى توصلها السلطة التعليمية للمربين، ثم يوصلها هؤلاء المربون للكبار، ثم يوصلها الكبار للأطفال. وهى هى القيم التى سادت بشكل أو بآخر فى مجالات كثيرة أخرى . من أول الغش التجارى، حتى البحث العلمى . مرورا بتنويعات مناسبة على مسلسل الانتخابات فى مختلف المواقع والمناسبات.

هيا نفترض أن باحثا من عندنا آلمه ذلك بالرغم مما يقرأ من اهتماماتهم هم فى دورياتهم، ثم إنه رأى أنها ظاهرة قد تخرّب النفوس والعقول والأخلاق جميعا، الآن ومستقبلا، للكبار والصغار على حد سواء. هذا الباحث حاول وضع فرض يقول «إن قيمة الغش» قد أصبحت قيمة إيجابية، وأن من لا يمارسها علانية قد يوصف بالأنانية أو بالعبط، وأنها أصبحت أساسا فى التعامل منذ الطفولة إلى النضج، فى هذه الفترة من حياتنا. ثم إن هذا الباحث المنتمى فصّل الفرض ليربط بين هذه القيمة وبين اختلال الحالة الاقتصادية، واهتزاز الأداء عامة، وتفاهة التحصيل الجامعى، وسطحية الأبحاث العلمية (وتزوير بعضها). ثم إنه وضع خطة بحث منضبطة للتحقق من هذا الارتباط.

من ضمن تفاصيل هذا البحث فرض فرعى يقول : إن هذا الذى يحدث فى أطفالنا مبكرا هكذا هو أخطر علينا من أن يضربَ أبٌ طفله لأنه تأخر فى العودة إلى المنزل بعد العاشرة، وهو أيضا أخطر من تشغيل الطفل (بلية) فى ورشة ميكانيكا فى سن العاشرة . لو أن هذا الباحث تقدم لأهل الحل والربط فى بلاد الخواجات يطلب منحة تدعم هذا البحث، أو أنه قام بالإنفاق عليه هو (وهذا مستحيل) ثم حاول نشره، هل سيوافقون على تمويل بحثه؟ أوعلى نشره أسوة بما ينشر عن «ضرار الأطفال»؟ أو عن الطفل الذاتوى؟

إن دراسة جدوى الوقت، وجدوى الجهد، وأولويات المشاكل تتطلب

أولا: تحديد حجم المشكلة، وليس مجرد حداثتها أو شيوع الحديث عنها فى ثقافة أخرى فى ظروف أخرى. (هذا ونحن لا نعرف حجم المشكلة مما ينشر فى الصحف فى صفحات الحوادث)

وثانيا:تحديد أولوية هذه الظاهرة بالمقارنة بظواهر أخرى، موجودة أكثر أو أقل، أخطر أو أخف، ثم :

ثالثا: تحديد أدوات دراستها، وإمكانات دراستها.



أجد مناسبا أن أنبه هنا أن إشكالة المنهج (العلمى) بالنسبة للعلوم الإنسانية لم تُحَل، ولن تحل فى القريب. وأن عدم الدراسة أصلا هو أفضل من الدراسة الزائفة، وأن منهج السؤال والجواب هو من أضعف المناهج بالنسبة للعلوم الإنسانية والاجتماعية خاصة، ويصبح هذا المنهج أكثر زيفا، وأشد كذبا حين يطبق فى بلد متخلف، ثم إنه يصبح جريمة مع سبق الإصرار إذا طبق فى بلد «قيمة الغش» فيه كما ذكرنا.

إننا نسينا مصداقية المنهج الحكائى مع أننا عشنا (كما عاشت البشرية) قرونا عددا بفضله. كذلك أهملنا مصداقية منهج دراسة المحتوى، ولم يعد يبهرنا إلا الأرقام والجداول .

إن مشاكلنا الخاصة جدا لا تتجلى فى مشاهدات العلماء وتقليد السابقين الأولين فى الشمال والغرب. إنها تتجلى فى الواقع المحيط، بكل أشكاله. هذا الواقع ليس فقط واقع الحياة العيانية، ولكنه ينبغى أن يشمل واقع الخيال، وواقع تشكيل هذا الخيال فيما هو إبداع، وواقع الوعى الشعبى الشفاهى. إن والد هذا الشاب الذى حكيت عنه حالا حين قال إن ابنه نجح «بالتزكية»، لم يكن مخطئا تماما، لكنه كان يعلن واقعا ينبغى الوقوف عنده، والبحث عن أدوات تليق بسبر غوره.

فى محاولة لتفسير هذا الاهتمام بظاهرة «ضرار الأطفال» عندهم هكذا ، نتبين أن الدولة هناك كادت تحل محل الأسرة، ثم إن حقوق الراشد قد استُكملت أو كادت (على الورق على الأقل، للأغلبية على الأرجح)، فانتقلوا للفئات الأضعف. كما أن فساد الشباب وانحراف المراهقين (بما فى ذلك الإدمان) قد دق ناقوس الخطر، فراحوا يجتهدون فى تقصّى الأسباب (الأخرى) فى الطفولة الباكرة. كل هذا لا يتفق مع ما عندنا كما يلى:

إن الدولة عندنا أضعف من أن تدير شئون الدولة، فما بالك بتولى شئون الأطفال نيابة عن ذويهم إذا هم أضروا بهم. وبالنسبة للغالبية الغالبة فإن أقسى والد هو أرحم من أخصائية فى مؤسسة. (غالبا). ثم إن حقوق الراشد عندنا غير مستوفاة بأى درجة، فما بالك بحقوق الطفل؟. وأيضا نعرف حساسية التدخل بين الوالد وطفله بالصورة التى نسمع عنها عندهم (أول رقم تليفون يحفظه الطفل فى مدارس رياض أطفالهم، أو الابتدائى، هوالرقم الذى يستدعى به الطفلُ السلطات إذا ما نهره والده -جدا- بالسلامة!!!). هذا أمر مرفوض وخطير فى بلد يقدس «السلطة»، و«الستر» طول الوقت، سرا وعلانية.

مصادر المعرفة الأخرى

انتبهت من خلال اهتماماتى الأخرى إلى أن ثمة مصادر للمعرفة، تعرفنا ماهية الطفولة وأبعادها، مصادر لا تقل مصداقية ولا فائدة عن هذه المصادر شبه العلمية، الملتبسة والمستوردة، ومن ذلك:

أولاً: الوعى الشعبى الذى يقوم بأبحاثه بشكل تلقائى، وهو يصدر نتائجه وأحكامه بطريقة يتم المصادقة عليها من مدى انتشار هذه الأحكام وطول مدة بقائها متداولة فاعلة نافعة، صحيح أن هذا الوعى الشعبى قد تراجع عن النمو التلقائى بعد تدخل الإعلام الرسمى والخاص بين الناس وبين خبراتهم، إلا أن النظر فيما وصل إليه هذا الوعى الشعبى فيما مضى ينبغى أن يكون نموذجا نحترم به هذا الوعى وما يفرزه من نتائج.

مثلا : أفرز الوعى الشعبى نتائجه التى تقول : (١) ابن الديب ما يتربّاش، أو (٢) إضرب ابنك واحسن أدبه ما يموت إلا إن فرغ أجله. وأيضا (٣)إكسر للبنت ضلع يطلعلها اتنين. وفى نفس الوقت: (٤) إن كبر ابنك خاويه، ثم على الجانب الآخر (٥) إن جاك النيل طوفان خد ابنك تحت رجليك. لكن أيضا: (٧) لا زرْعك ولا ولدك تغضب عليه.

هذه الأمثلة ليست متناقضة، رغم أن ظاهرها يبدو كذلك: لأن لكلٍّ منها سياقه، ولكل منها دلالات تختلف باختلاف موقف وموقع ظهورها وانتشارها. أنا لا أذكرها هنا لأستشهد بها، أو لأدافع عن بعضها، وأشجب الآخر. أنا أريد أن أعلن أن هذه الأمثلة هى خلاصة تجارب غير مُعَلْنَنة المنهج، لكنها حاسمة النتيجة.

ثانياً: الإبداع (الروائى خاصة) إذ لا يوجد إبداع من فراغ، ولا يصب إبداع فى فراغ، والنص الأدبى هو فى نفس الوقت وثيقة معرفية بطريقتها الخاصة، وهى لا تقاس بعدد ما تعرض من حالات، بل بمدى ما تكشف من طبيعة نوعية.

تتجلى الطفولة بشكل مباشر فيما يسمّى أدب السيرة الذاتية، وفى شكل غير مباشر فى كثير من أعمال المبدعين، وسوف أعدد فيما يلى بعض ذلك كأمثلة: أيام الطفولة (إبراهيم عبد الحليم) حكايات حارتنا (نجيب محفوظ) السقا مات (يوسف السباعى) الأيام (طه حسين) خالتى صفيّة والدير: (بهاء طاهر).

ولا يقتصر الأدب فى عطائه وكشفه عما هو طفولة على عصر بذاته، فإن المبدع الذى يكشف عن ماهية الطفولة بتحذير خاص، قد يصل إلى غور يسمح له بكشف الطبيعة البشرية فى كل زمان، بل إن التقاء مبدعين مختلفين من ثقافات مختلفة فى زمن مختلف، التقاءهم على رؤية تسبر غور الطفولة وتكشف عن أبعادها ومتطلباتها ومشاكلها، هذا الالتقاء يمثل نوعا مما أسميته «المصداقية بالاتفاق طوليا».

ديستويفسكى يتناول رسم أبعاد الطفولة بكل التفاصيل والعمق: فى البطل الصغير ثم الطفلة نللى فى مُذَلّون مهانون، ثم الأبله، والطفل «فلالى» فى قرية ستيباتشكوفو وسكانها، وتتجلى أستاذيته فى قصته (روايته) غير الكاملة نيتوتشكا نزفانوفنا (التى تناولتُها بالنقد تفصيلا فى مكان آخر) وهو يرسم الطفلة الأم، الطفلة الدمية، الطفلة الحِكْمة، إلى غير ذلك.

وبالنسبة لنجيب محفوظ فإنه كان من أكثر المبدعين أمانة حين أعلن أنه حاول أن يكتب قصصا للأطفال، وأنه وجد صعوبة بالغة أوقفته بعد محاولة واحدة أو بضع محاولات، إلا أن حضور الأطفال فى كل إبداعاته كان شديد الحساسية شديد الدلالة. ولعل من أروع تجليات ذلك ما جاء فى وصف طفولة كمال أحمد عبد الجواد فى «بين القصرين»، ولعل المتتبع لنمو كمال أحمد عبد الجواد وتطور أحواله يتعجّب – لأول وهلة– مما صار إليه هذا الطفل الظريف الجميل الولع بالغناء المتجرئ حتى على والده بما تيسر، كيف آل هذا الطفل إلى ذلك الشاب الانطوائى الكثير الفكر البالغ الحياء، لكن هذا التطور هو من عظمة الفن. وقد كنت دائما أخشى أن يُستدرج المبدعون ليستشيروا أهل علم النفس فيما يخطر لهم، أو أن يغالوا فى تصديق ما يُكتب فى التربية وعلم النفس والتحليل النفسى، لأن محفوظ لو كان قد فعل ذلك مثلا فى حالة كمال أحمد عبد الجواد لكان لزاما عليه أن يرسمه طفلا «نموذجيا» مطيعا إلى آخر ما تقوله كتب علم النفس فى وصف «الطفل النموذجى» كيف يتطور إلى الحيىّ الانطوائى.

فإذا حددنا الحديث عن أعماله التى فيها رائحة السيرة الذاتية (وكلها تكاد تكون كذلك)

فإننا نركز خاصة على حكايات حارتنا. (أكثر من المرايا)، «والباقي من الزمن ساعة»، «حديث الصباح والمساء»: كلها زاخرة بما أريد إيضاحه هنا. وهو أن هذا الكاتب يعرف هذه المنطقة - منطقة الطفولة - أعمق ما تكون المعرفة. ثم فجأة تطل علينا طفولته في أصداء سيرته الذاتية بإضافات معرفية دالة تقول: إن الطفولة ليست مرحلة تاريخية نعيشها ثم ننتقل منها إلى ما بعدها، وإنما هي مرحلة بنْيَة تتطور فينا وبنا حيث تتداخل فيما بعدها متكاملة في النضج السوى، أو تختفي مُنْكَرة أو منسية. وأصداء محفوظ تعلمنا أيضا أن مرحلة الطفولة قد تظهر مستقلة-الآن- في الحلم أساسا، أو قد تُقبرك إذا زيّفناها بذاكرتنا. كذلك نرى في الأصداء كيف أن الطفولة تظل نشطة نابضة عند المبدعين خاصة، لكنها لا تنشط مستقلة، وإنما تتكامل في النشاط الناضج الراصد القادر، فيتخلّق الناتج الإبداعي الأصيل (وقد نشرت تفاصيل ذلك في موقع آخر).

أختم هذا المقال بعودة توضيحية تبيّن لنا كيف يمكن أن يضار الأطفال من اهتزاز منظومة القيم أو تشويهها أكثر مما يضارون من الضرب أو ما شابه. أشرتُ في مدخلي إلى هذه النقطة إلى قيمتين هما الحرية عندهم (بما لها وما عليها)، والغش عندنا (وكيف أصبح قيمة إيجابية !!). فهل يتصوّر أحد أن قيمة «العدل» يمكن أن تكون قيمة تتكون عند الطفل منذ سنيْه الأولى؟ وهل طُرِح هذا الفرض على وعى العلماء باعتبار أنه يمكن أن يغيّر العالم؟ ألا تحتاج نحن، مع كل مستضعفي العالم، أن نبحث في هذه النقطة بشكل قد يلوح بوعد تغيير جذرى في طرق التربية؟ أم أن علينا أن نكتفي بما يلقون به إلينا من بعض الشظايا المتناثرة من امتحانات القدر لبضعة آلاف من الأطفال المعاقين. (الأوتيزم مثلا).

هل يوجد منهج عند العلماء التقليديين يستدلون به على كيفية التعامل مع قيمة العدل أغلى قيمة عند الإنسان طفلا ويافعا؟ ثم ما تأثير التنبيه على أن تصب نتائج مثل هذا الاستقصاء في تعديل طرق تربية الأطفال عبر العالم؟ وهل يمكن أن نأمل أن تكون نتائج مثل هذاالبحث نافعة في ترسيخ هذه القيمة (العدل) فيكون هذا هو السبيل الواعد بمواجهة أشكال التعصب والاستعلاء والغرور، وإشعال الحروب تحت مزاعم إرساء السلام، كذا الكيل بعدة مكاييل ببجاحة غير مسبوقة.

إن الأقوياء قد أصبحوا يبررون الظلم من جانبهم باعتباره عدلا خصوصيا، عدلا يستعمل بشفرة سرية، يمارسونه بقواعد ولغة ليس في مقدور المظلوم أن يفهمها (يمكن العودة إلى ذلك تفصيلا في الحديث عن فلسطين، وكوزوفو، والبوسنة، وحتى حملات الناتو على صربيا، وكذا حملات أمريكا وإنجلترا على العراق).

ننظر أخيرا في عينات محدودة تظهر كيف التقط ديستويفسكي حضور قيمة العدل عند أطفال إبداعه:

* نيتوتشكا نزفانوفنا يقول واصفا موقف «كاتيا» الطفلة: «فما كان مسموحا به أمس يصبح اليوم ممنوعا»... وهكذا الشعور بالعدل يفسد لدى هذه الطفلة بلا انقطاع».

أو على لسان نيتوتشكا: «كان الحزن يمزقني تمزيقا، ثم أخذت فكرة العدالة تذُر قرنها في نفسي الجريحة، وأخذ يجتاحني شعور بالاستياء والاستنكار».

ولم ينس ديستويفسكي، وهو يعرج إلى الإشارة كيف تتكون قيمة العدل عند الأطفال، أن يشير بطرافة إلى تعرية قيم أخرى زائفة، مثل الإفراط في تقبيل الأطفال (على العمّال على البطال)، و كان هذا هو الحب، يقول، في طرافة، على لسان البطل الصغير: «وهن يضرعن إليّ بصوت واحد أن أفتح لهن الباب حالفات أنهن لا يردن بي سوءا وأنهن لا يرغبن إلا في إغراقي بالقبل، وهل هنالك تهديد أشد هولا من هذا التهديد؟».

هذا الطفل وهو يتلقى هذا التهديد «بالإغراق في القبل» أين يوضع في ما هو «ضرار الأطفال» (نكتة!).

أنا لا أقول أن هذه المصادر الأدبية هي بديلة عما يسمّى البحث العلمي، لكنني أؤكد أنها تعطى بعدا نوعيا آخر لمسائل ومشاكل لا ينبغي أن تغيب عن وعى الباحث عن المعرفة تحت كل الظروف.

خلاصة القول:

إن مشاكل «ضرار الأطفال» لا يمكن أن تدرس بعيدا عن الثقافة التي تجرى فيها، كما أنها لا يمكن أن توضع على سلم الأولويات إلا من خلال معرفة أبعاد وطبيعة وماهية الطفولة ومشاكلها بصفة عامة.

عندنا مثلا في مصر، لاحظنا في الممارسة الإكلينيكية أن كثيرا من أمراض وأعراض الأطفال ليست إلا إسقاطا لاضطرابات أعمق لما تحمله الأم بالذات، والوالد بدرجة أقل، على أطفالهما ليمرضوا نيابة عنهما، كذلك لاحظنا أن الضرار الخفي هو أصعب وأخطر على الطفل من الضرار البدني المعلن. خذ مثلا: استعمال الأطفال كأدوات تبرر استمرار الحياة الزوجية التعيسة لا أكثر، أو تعوّض النقص الذى يعانيه الوالد باعتبارالطفل مجرد مشروع استثمارى (هذا يظهر عادة في صورة رعاية فائقة مشكورة اجتماعيا بشكل أو بآخر، ولكن ....)

إن أبسط ما نحتاجه مما استقرأناه من الممارسة الإكلينيكية والملاحظات الموضوعية داخل وخارج العيادة النفسية، يمكن أن يفرخ فروضا واعدة بما لا يقاس، فروضا يجدر بنا فحصها من خلال مناهل المعرفة مجتمعة دون الاقتصار على منهج إحصائي محدود.

لابد أن نحذر التورط في لعبة الإلهاء في الانشغال بدراسة فتات المسائل التي تقع مصادفة تحت موائد ولائمهم الدسمة شبه العلمية.

نحن لم نعد نجرؤ أن نتعرّف على مشاكلنا بعيدا عن وصايتهم، ناهيك عن البحث فيها، واحتمال تصدير نتائجها إليهم، تلك النتائج التي قد تساعدهم في إثراء مسارهم، بدلا من أن نواصل لعبة ترديد الصدى، وكأنه صوتنا نحن. ■

كتاب الزاوية

رسالة الغفران

أبوالعلاء المعرى

هو الشاعر والأديب أحمد عبدالله بن سليمان المعرى وكنيته أبوالعلاء. ولد في بلدة «معرة النعمان» شمال سوريا سنة ٣٦٣ هجرية (٩٧٣ ميلادية)، أصيب بالجدرى في عامه الرابع، ولم يغادره حتى ذهب بعينه اليسرى، وغشى اليمنى بالبياض ثم بالعمى. انتفع أبوالعلاء بعلماء الدين ورجال الأدب في حلب ثم سافر إلى أنطاكية وبغداد لتلقى العلم ثم عاد إلى بلدته عام ٣٩٨ هجرية، وتوفى عن ٨٠ عامًا. مؤلفاته عديدة لكن أكثرها فُقد ولم يبق منها إلا «سقط الزند» وكتاب «اللزوميات». و«رسالة الغفران» عمل أدبي يصور مقابلة الشاعر لبعض الأشخاص في العالم الآخر ممن نعموا بالغفران أو حرموا منه في تصوره، وتعد الرسالة آية الأدب العربى المنثور من حيث التفكير والخيال والسخرية والحرية، كما ذكر الدكتور طه حسين في تقديمه للنص الأصلى الذى أعده كامل الكيلانى في عشرينيات القرن الماضى.

١ ـ حواره مع رضوان

فلما صرت إلى باب الجنة، قال لى رضوان: «هل معك من جواز؟» فقلت: «لا» فقال: «لا سبيل إلى الدخول إلا به».

فبعلت (تحيرت) بالأمر، وعلى باب الجنة ـ من داخل ـ شجرة صفصاف. فقلت «أعطنى ورقة من هذه الصفصافة، حتى أرجع إلى الموقف، فآخذ عليها جوازًا» فقال: «لا أخرج شيئًا من الجنة إلا بإذن من العلى الأعلى ـ تقدس وتبارك».

فلما دجرت (حرت) بالنازلة قلت: «إنا لله وإنا إليه راجعون! لو أن للأمير أبى المرجّى خازنًا مثلك لما وصلت أنا ولا غيرى إلى درهم من خزانته».

قصة الصدام بين المنظمات الصهيونية

محمد حقى

■■ كل قصص الصدام بين المنظمات اليهودية والإدارة الأمريكية تبدأ بقصة الصدام بين هذه المنظمات والرئيس الأسبق جورج بوش. فهناك تاريخ محدد يعد علامة على الطريق. قصة تحول ليس فى تاريخ المنظمات اليهودية وحدها، وإنما فى تاريخ اليهود نفسه. هكذا جعلوها، وأصبحت مقياسًا لمدى صلابة رؤساء أمريكا أمام الضغوط اليهودية، ومدى سطوة وهيمنة هذه المنظمات على مقدرات أمريكا كلها.

هذا التاريخ هو ١٢ سبتمبر سنة ١٩٩١، عندما وقف الرئيس جورج بوش خلف منصة فى البيت الأبيض أثناء مؤتمر صحفى يتعلق بالشرق الأوسط. وكانت سياسة الرئيس بوش الخارجية كلها بعد انتهاء الحرب الباردة ومصداقيته ليس أمام العرب وحدهم، وإنما أمام العالم والشعب الأمريكى نفسه، تعتمد على بدء عملية السلام فى الشرق الأوسط بعد أن وقفت الولايات المتحدة ومعظم الدول العربية فى خندق واحد خلال حرب الخليج، وإذا بإسرائيل تطلب فى الأسبوع السابق لهذا المؤتمر ضمانًا بقرض قيمته ١٠ مليارات دولار لتوطين اليهود السوفييت الذين هاجروا إلى إسرائيل.

ولم يكن بوش أحد المعارضين لهجرة هؤلاء اليهود إلى إسرائيل، بالرغم من أن إسرائيل والمنظمات اليهودية دفعوا حكومة الولايات المتحدة إلى الموافقة على محاصرة اليهود، ومنعهم من أحد الحقوق الأساسية للإنسان وهو حرية اختيار المكان الذى يريد أن ينزح إليه، وساقوهم كالأغنام من الاتحاد السوفيتى إلى إسرائيل مباشرة، ومنعوهم من الهبوط سواء فى فيينا ـ كما كانت الحال فى البداية لعدة شهور إلى أن أدركوا أن بعضهم يذهب إلى فيينا ثم يهرب إما إلى أمريكا أو كندا ـ أو فى روما، ويفرضون عليهم توقيع تعهد بألا يغادروا إسرائيل لخمس سنوات على الأقل كشرط لهجرتهم إليها!

بل إن الرئيس بوش لم يكن بين المعارضين للمعونة الأمريكية إلى إسرائيل. وهى أكبر رقم للمعونة لأى دولة فى العالم، إذ تزيد على ٣٫٢ مليار دولار سنويًا .

وبالرغم من أن بوش كان أحد المتحمسين لهجرة اليهود من روسيا إلى إسرائيل، إلا أنه كان يعتقد أن توقيت طلب هذا القرض الإضافى خاطئ، وبدأ بوش مؤتمره الصحفى بمقدمة يشرح فيها أنه بصدد عقد مؤتمر للسلام بين العرب وإسرائيل فى مدريد، لم يسبق له مثيل، خلال الأسابيع التى تلت ذلك، وكان يعتقد أن الوقت أصبح مناسبًا لعقد هذا المؤتمر بعد أن اثبتت حكومته أن أمريكا ستحاول أن تلعب دور السمسار النزيه أو الوسيط المتوازن، ولاسيما أن المناخ كان ملائمًا بعد حرب الخليج، ولكن إسرائيل التى كان يرأس حكومتها إسحق شامير، الليكودى اليمينى الذى بدأ حياته إرهابيًا قاتلاً، أرادت أن تفسد عليه ذلك، فطلبت هذا القرض لتفسد العلاقة بينه وبين العرب من ناحية، وتفسد فرص عقد مؤتمر السلام الذى كان شامير يعارضه معارضة قوية من ناحية أخرى.

وأعلن بوش أنه سيطلب من الكونجرس أن يؤجل قراره ١٢٠ يومًا، فإذا بشامير يتحداه أن يقف فى وجه إرادة إسرائيل، معتبرًا أن الكونجرس أداة فى جيبه، ولكى يثبت ذلك لبوش أى أنه يستطيع أن يهزمه فى عقر داره، طلب شامير من المنظمات اليهودية أن «تزحف» على الكونجرس لكى يلقن الرئيس الأمريكى درسًا حول من الذى يستطيع أن يحصل على تأييد الكونجرس، وأعلنت المنظمات اليهودية واللوبى الإسرائيلى أنها ستبعث بألف ناشط يهودى إلى مكاتب وأروقة الكونجرس لإقناع الشيوخ والنواب بتمرير القرض فوق رأس الرئيس ورغم أنفه. وهنا نطق بوش بست كلمات أصبحت كالرصاصة التى دوت وسمعت فى أنحاء العالم كله، ودخلت القاموس اليهودى على أنها «صيحة الحرب» التى قال فيها: «أنني أقف أمام قوى سياسية قوية» تريد أن تغير من سياسة الولايات المتحدة وأن تلغى إرادته بالقوة. وقال بوش: «لقد سمعت اليوم أن هناك نحو ألف عضو فى اللوبى يعملون فى الكونجرس، بينما أتيت أنا وحدى بمفردى هنا أحاول أن أنفذ سياستى».

وكان بوش يقف يومًا أمام كاميرات التليفزيون وشاهده ـ يومها وبعد ذلك عشرات المرات ـ وهو يقول هذه العبارة بهدوء، حتى وإن كان غاضبًا، ولكن الكتاب اليهود الذين تناولوا هذه العبارة، مثل كاتبنا اليوم وهو «جيه جيه جولدبرج» J.J. Goldberg، وهو ابن آرثر جولدبرج سفير الولايات المتحدة الشهير الذى كان سفيرًا لدى الأمم المتحدة، وصاغ قرار ٢٤٢ الشهير سنة ١٩٦٧، وحذف منه حرفى «ال» قبل كلمة الأراضى، لتصبح: أن تنسحب إسرائيل من أراض احتلتها فى حرب الأيام الستة، بدلاً من «الأراضى» ـ وكان ذلك فى النص الإنجليزى وحده، نقول إن كل الكتاب اليهود مثل جولدبرج قالوا إن بوش كان يصرخ ويدق المنصة بقبضته مثل أباطرة الدول الديكتاتورية.

ويمضى جولدبرج فى كتابه «النفوذ اليهودى» (Jewish Power) أو القوة أوالسلطة الإسرائيلية يقول مغالطًا: «إن هذه القوى السياسية العاتية التى أشار إليها بوش بأنها تواجهه، لم تكن سوى ألف وثلاثمائة زعيم من زعماء المنظمات اليهودية، وهم عبارة عن خليط من الحاخامات والمدرسين والمحامين والخبراء الاجتماعيين ورجال الأعمال، ونسى جولدبرج أن يضيف كلمة «المغلوبين على أمرهم» الذين جاءوا إلى واشنطن لقضاء يوم يتحدثون فيه إلى ممثليهم فى الكونجرس عن هذا القرض الذى يهدف لغرض إنسانى.

غير أن الكاتب اعترف بأن خبراء بوش فى شئون الشرق الأوسط، ومعظمهم من اليهود، أصروا على أن إقرار السلام فى الشرق الأوسط له نفس القيمة الإنسانية مثل تهجير اليهود السوفييت إلى إسرائيل، ولكن أعضاء الكونجرس كانوا متحدين مع اللوبى اليهودى(!) وكانت هذه المعركة تتويجًا لحملة إعلامية استمرت أربعة أشهر من أجل تمرير القرض لحوت الكونجرس تحت جناحها، إلى حد أن اللوبى كان متأكدًا من أن الأغلبية التى يتمتعون بها فى الكونجرس لا تكفى لتمرير القرض فقط، ولكنها كانت تكفى لفرض رأى الكونجرس على الرئيس ضد الفيتو الرئاسى المحتمل، وهو من حق الرئيس، إلا فى حالة حصول القرار على أغلبية ثلثى أصوات أعضاء الكونجرس.

وهنا عدت إلى أوراقى لأراجع ما قاله بوش، فوجدت تذكيره لإسرائيل والكونجرس أنه طالما كافح وهو نائب للرئيس، ثم عندما تولى الرئاسة، من أجل تهجير يهود أثيوبيا والاتحاد السوفيتى، وأن الفضل فى هجرة مئات الآلاف إلى إسرائيل، هو «أن أمريكا أعطت إسرائيل هذه السنة وحدها ٤ مليارات دولار ـ أى ما يعادل ١٠٠٠ دولار لكل رجل وامرأة وطفل فى إسرائيل، بالإضافة إلى ٤٠٠ مليون دولار أخرى لتسهيل استيعاب المهاجرين السوفييت». وكانت هذه أول مرة يستخدم فيها الرئيس الأمريكى هذه الأرقام علنًا، والتى لا تدركها غالبية أفراد الشعب الأمريكى، بقدر ما يبدو فى هذا الأمر من غرابة. وقد كانت هذه اللهجة وعبارة القوى السياسية العاتية بمثابة عبارات «شفرة» يفهمها اليهود ويفهمها الشعب الأمريكى كله، ثم هدد بوش باستخدام الفيتو صراحة، الأمر الذى لم يفعله أى رئيس قبله سوى الرئيس دوايت أيزنهاور قبله بـ ٣٤ عامًا، وهدد بأن يذهب إلى الشعب الأمريكى مباشرة الذى يؤيده تمامًا ويفهم ما يقوله، وقال: «إن من واجبى أن أشرح لهم بأقصى ما أوتيت من قوة أن مناقشة هذا القرض تتعارض مع مصلحة السلام»، وقال بوش شاكيًا للشعب الأمريكى: إننى أواجه قوى سياسية عاتية، وإننى أقف فى مواجهتها وحدى، وواجبى أن أعبر للشعب الأمريكى عما أشعر به بكل صلابة بشأن تأجيل مناقشة القرض، وقال إن الذين يؤيدون إسرائيل يخطئون تمامًا فى قراءة مزاج الشعب الأمريكى، وعليهم أن يراجعوا أولوياتهم، وتحدى بوش الحكومة الإسرائيلية قائلاً: إن غالبية الشعب الإسرائيلى معه فى تأييد عملية السلام، ويعتقد أن الشعب الإسرائيلى والشعب الأمريكى سيستجيبان له. وأضاف محذرًا: إننى لا أريد أن يخاطر الكونجرس باتخاذ موقف ضد الرئيس الأمريكى لمصلحة طرف آخر. وهو اتهام لم يسبق أن وجهه أى رئيس أمريكى ضد الكونجرس فى تاريخ أمريكا كله منذ الحرب الأهلية!

والجدير بالذكر أن وسائل الإعلام الرئيسية فرضت حظرًا على حديث بوش، فلم تذكره «النيويورك تايمز» على الإطلاق، ونشرت

طلب شامير من المنظمات اليهودية أن «تزحف» على الكونجرس لكى تلقن الرئيس الأمريكى درسًا حول من الذى يستطيع أن يحصل على تأييد الكونجرس، وأعلنت المنظمات اليهودية واللوبى الإسرائيلى أنها ستبعث بألف ناشط يهودى إلى مكاتب وأروقة الكونجرس لإقناع الشيوخ والنواب بتمرير القرض فوق رأس الرئيس ورغم أنفه

Jewish Power

القوة اليهودية

J.J. Goldberg

Perseus pr., $12, 1997

«واشنطن بوست» على صفحة رقم ٢٩، وقالت إنه كان في حالة من الغضب والهياج وأنه كان «يجز على أسنانه».

ونعود إلى رواية جولدبرج، فيقول: «وعندما تخطى بوش الكونجرس وذهب فوق رأسه إلى الشعب الأمريكي مباشرة، شاكيًا لهم سطوة هذا اللوبي، تغير موقف الكونجرس فورًا، وتبخر تأييد إسرائيل مباشرة ووافقت قيادات المجلسين على طلب بوش تأجيل القرض أربعة أشهر.

والواقع أن هذه الواقعة تثبت رأيًا رددناه في مقالات سابقة، وهو أن اللوبي اليهودي يستطيع أن يضيّع أو يحطم كل شخصية سياسية في الولايات المتحدة، ولكنه لا يستطيع تحدى رئيس الجمهورية، ذلك أنه مازالت هناك بعض المقدسات في أمريكا مثل العلم، والنشيد القومي، واحترام الشعب الأمريكي لمنصب رئيس الجمهورية، مادام لم يخرق القانون، ولا يطيقون أن يتطاول عليه أي أجنبي، ولكن ذلك طبعًا لا يروق للوبي اليهودي.

يقول جولدبرج: ولكن الرئيس بوش، رغم أنه انتصر، فإنه دفع الثمن.

ويمضي جولدبرج في وصف انتقام المنظمات اليهودية من بوش، فيقول إن شوشانا كاردن، رئيسة اتحاد المنظمات اليهودية الكبرى استمعت إلى خطاب بوش على الراديو، فقررت أن تصرف اليهود لم يكن عليه غبار، وإنما تصرف الرئيس هو الذي يجب النظر إليه على أنه غير مقبول.

هنا تتلون الرواية بالمنظار اليهودي، ولكنها مهمة في كل الأحوال لأنها تشرح دقائق الصراع بين المنظمات اليهودية وأي رئيس أمريكي، إذ يمضي الكاتب في شرح المواجهة على النحو التالي:

كان بوش يسعى إلى ضمان مكانه في التاريخ لتحقيق أغلى هدف في السياسة الخارجية على صعيد الدبلوماسية العالمية وهو حل الصراع العربي الإسرائيلي، ويحس بأن الوقت مناسب لذلك، فقد كان العرب منقسمين وحائرين بسبب ميل صدام للمغامرات، فضلاً عن أنهم لم يعودوا يتمتعون بتأييد الاتحاد السوفيتي لسياستهم العنيدة في رفض إسرائيل، وكان بوش يعتقد أنهم قد يمكن إغراؤهم بصناعة السلام إذا ما وافقت إسرائيل على إعادة الأراضي «العازلة المتنازع عليها» - طبقًا لتعبير الكاتب الذي لا يعترف بأنها أراض محتلة طبقًا للقانون الدولي بعد أن خدع والده العالم كله بحذف حرفي الألف واللام من قرار ٢٤٢ - والتي استولت عليها إسرائيل بعد حرب ١٩٦٧.

ولكن إسحق شامير رئيس وزراء إسرائيل حينئذ رفض أن يناقش فكرة مبادلة الأرض بالسلام لأنه اعتبر أن الأراضي المحتلة كلها هي أرض إسرائيل الكبرى، وكان مشغولاً بتوطين الإسرائيليين في هذه الأراضي المحتلة ذاتها، وكان يحتاج إلى مزيد من الأرض لاستيعاب مليون مهاجر جديد من الاتحاد السوفيتي، أي ما يعادل خمس سكان إسرائيل، الأمر الذي كان سيكلفه ٧٠ مليار دولار أي ضعف الناتج القومي العام لإسرائيل، و«توهّم» بوش(!) أن حل مشكلة الضفة الغربية أقل أهمية في نظر إسرائيل من حل مشكلة توطين اللاجئين السوفييت.

وهنا كلمة أخرى مهمة عن هذه المنظمات، التي اتحدت مع اللوبي الإسرائيلي الرسمي لتأييد إسرائيل، فهذه المنظمات كلها كانت تتعمد وتخشى المواجهة مع الإدارات الأمريكية، لأنها جميعًا منظمات معفاة من الضرائب على أساس أنها منظمات دينية خيرية ممنوعة من الاشتغال بالسياسة، وإلاّ فقدت هذه الميزة.

وبالرغم من أن شوشانا كاردن كانت ليبرالية ولا تكاد تطيق سياسات شامير، فإن الجماعات اليهودية كان يتحتم أن تدافع عن إسرائيل، فقررت ألاّ تسمح لأحد بأن يضغط على أو «يبهدل» إسرائيل، فجمعت قيادات المنظمات اليهودية في نيويورك ودعت إلى مؤتمر صحفي أعلنت فيه أنه بالرغم من تقديرهم لجهود بوش المتعددة في تهجير اليهود السوفييت فإن عباراته في اليوم السابق «يمكن أن تخضع إلى تفسيرات مقلقة».. وهي إشارة خفية إلى أنها قد تثير موجة تعاطف مع الرئيس وتفجر طاقات خامدة من كراهية اليهود أو ما يسمونه بمعاداة السامية، وكانت هذه مثل صيحة الحرب للمواطنين اليهود ليهبوا ضد عبارة «القوى اليهودية العاتية»، ذلك أن بوش - والكلام مازال للكاتب جولد برج - يبدو أنه لمس وترًا لم يتوقعه أحد في أعماق الأمة الأمريكية فبدأت البرقيات والمكالمات التليفونية منذ يوم الجمعة التالي لمؤتمره الصحفي تتدفق على البيت الأبيض تهنئه على «هجومه على اليهود» وهو مالم يكن يهدف إليه.

والواقع أن البرقيات والرسائل والمكالمات كانت بالأطنان بشكل لم يكن يتوقعه مخلوق، بحيث أفزع اليهود - بل والرئيس بوش معًا - وبالرغم من اعتراف شوشانا كاردن بعد ذلك بأن بوش ربما لم يقصد التهجم على اليهود وإنما كان يثير معركة سياسية مع مجلس الشيوخ لإثبات حقه في صناعة السياسة الخارجية، وأنه اعتذر لها بعد أسبوع بخطاب رقيق يعلن فيه أنه لم يقصد قط أن يثير هذا الجزع بين «الجالية اليهودية» فقد كانت هذه المنظمات قد قررت التخلص من بوش.

وبالرغم من أن ثلثي

☛

والإدارة الأمريكية



قال بوش شاكيًا للشعب الأمريكي: إنني أواجه قوى سياسية عاتية، وإنني أقف في مواجهتها وحدي، وواجبي أن أعبر للشعب الأمريكي عما أشعر به بكل صلابة بشأن تأجيل مناقشة القرض، وقال إن الذين يؤيدون إسرائيل يخطئون تمامًا في قراءة مزاج الشعب الأمريكي، وعليهم أن يراجعوا أولوياتهم

اليهود، وعددهم ستة ملايين، صوتوا ضد بوش في انتخابات ١٩٩٨، فقد كان نفوذهم أكبر بكثير من أعدادهم لأنهم يتركزون في الولايات التي تقرر نصف أصوات المجمع الانتخابي، وأنهم يمولون أكثر من نصف أموال الحملة الانتخابية للحزب الديمقراطي، وكانوا نادرًا ما يؤيدون المرشحين الجمهوريين، إذ أعطى ١٠ في المائة فقط أصواتهم لباري جولدووتر، و٤٠ في المائة لرونالد ريجان. ولما كان خطاب ١٢ سبتمبر له وقع الصاعقة على اليهود، واعتبروه «يوم الخيانة» الكبرى في تاريخ اليهود.. حسب كلام الكاتب.

وحاول بوش كل شيء لإرضاء اليهود وكسب ودهم مرة ثانية، واجتمع برؤساء المنظمات اليهودية أثناء حملته الانتخابية، ودعا لأن تضغط أمريكا على الأمم المتحدة في ديسمبر لسحب القرار الذي يقول إن الصهيونية عنصرية بعد عشرين سنة من الكفاح الإسرائيلي، وضغط على سوريا لتهجير اليهود السوريين.

ونشط اليهود ضد بوش، فهزموا كل أنصاره من الجمهوريين مثل ريتشارد ثورنبرج حاكم ولاية بنسلفانيا السابق، وساعدهم على تحطيمه أن الاقتصاد دخل في مرحلة من الركود الطفيف، فأجهزوا عليه!



وفي عبارة بالغة المعاني، قال الكاتب: «والواقع أن اليهود قوة سياسية لا يستهان بها بلا نزاع، ولكن غلطة بوش أنه صرّح بذلك علنًا»!

كانت قصة الصراع بين الرئيس السابق بوش واليهود هي مقدمة كتاب جولدبرج فقط، ونظرًا لأهمية الكتاب، فسنختار بضع «لقطات» أخرى لها دلالات عميقة على نفوذ وسيطرة وهيمنة هذه الجالية المتناهية في صغر حجمها على المقدرات السياسية كلها. ذلك أنه باستثناء نعوم تشومسكي، وستيفن إيزاكس، عندما كتب الأول عن «التحالف الثلاثي القدري» والثاني عن «اليهود في السياسة الأمريكية»، فإن معظم الكتّاب الأمريكيين الذين تعرضوا للنفوذ اليهودي على السياسة الأمريكية كانوا من غير اليهود، ومنهم ستيفن جرين الذي كتب كتابًا بعنوان «الانحياز» سنة ١٩٨٤، وعضو الكونجرس بول فيندلي الذي كتب عن: «الذين تجرأوا وتكلموا بصراحة» سنة ١٩٨٥ (والذي ترجم إلى العربية) وإدوارد تيفنان «اللوبي» سنة ١٩٨٧، وأندرو وليزلي كوبرن عن «العلاقة الخطيرة» سنة ١٩٩١، وجورج بول وهو أعلى سياسي أمريكي تعرّض لهذا الموضوع في كتاب «التعلق العاطفي» الذي كتبه مع ابنه دوجلاس سنة ١٩٩٢.

ومرد أهمية كتاب جولدبرج، فضلاً عن أن الكاتب يهودي، فهو أن النفوذ اليهودي داخل المؤسسات الأمريكية يتعرض لأقل القليل من التحليل والكتابة داخل الولايات المتحدة، بالرغم من كل ما يكتب خارجها، فنحن لا نتحدث هنا عن الكتابات التي تتعرض للمسألة اليهودية ككل في العالم أجمع، أو المشروع الصهيوني، مثل كتابات المفكر الفرنسي روجيه جارودي، أو أي من الكتّاب البريطانيين الذين تشككوا في حجم وحقيقة أبعاد المحرقة اليهودية على يد ألمانيا النازية، فهذه من الممنوعات تمامًا، ولكن حتى الكتب التي ذكرناها سابقًا، مثل كتاب بول فيندلي مثلاً، فإنك لن تجده في أي مكتبة من المكتبات الكبرى، وحتى إذا طلبته سيقال لك أن المورّد الخاص بنا لا يذكره ولا يتعامل معه، وستجد أن هناك من الكتّاب مثل المؤرخ أرنولد توينبي لا يلقى نفس القدر من الاحترام أو العناية التي يلقاها في أنحاء العالم كله، لأنه كانت له آراء مناهضة لإسرائيل، ومن ثم فقد نفيت آراؤه كما أبعدت أية محاولة للتحليل العلمي الهادئ والمتجرد والعقلاني لخشية كل من يتعرض لها على رزقه وأمنه الشخصي.

يقول جولدبرج إن التاريخ سوف يسجل أنه عندما اقترب القرن العشرون من نهايته، كان يهود أمريكا يواجهون أزمة سياسية عصيبة لم يسبق لها مثيل، فمنذ بدأ تاريخهم في أمريكا منذ ثلاثة قرون ونصف قرن، وربما منذ فجر تاريخهم في الشتات، فإن اليهود لا يواجهون عدوًا أكبر من أنفسهم!

وليس معنى هذا أن كراهية اليهود قد اختفت، بل إن الكثيرين من زعماء اليهود وحاخاماتهم في أمريكا وإسرائيل قالوا إن نهاية القرن العشرين شهدت صعودًا في تيار معاداة السامية مثيرًا للقلق، وإن أعداء إسرائيل بقيادة إيران الإسلامية على وشك الحصول على أسلحة نووية تمكنهم من القضاء عليها بمجرد الضغط على الزر.

ولكن ينبغي للمراقبين المحايدين أيضًا أن يدركوا أن اليهود قد قلبوا هذا التيار كله إلى صالحهم، لاسيما أن واحدة من أعتى الدول الصناعية حاولت أن تقتل كل اليهود بماكينة الحرب، ووقف يهود أمريكا جانبًا عاجزين، وحتى ذلك الوقت كان إنقاذ يهود أوروبا كشيء عارض أو جانبي ولم يكن هدفًا أساسيًا للحلفاء.

وحتى بعد إنشاء دولة إسرائيل كدولة ذات سيادة صغيرة ولها قدرات عسكرية أكبر من حجمها، عندما كان الصحفيون والدبلوماسيون يتحدثون عن القوة اليهودية فإنهم كانوا يتحدثون عادة عن الجالية اليهودية الأمريكية، حيث برزوا كقوة يشهد لها الناس في شتى أنحاء العالم، وأصبح هناك في العديد من السفارات الأجنبية في واشنطن دبلوماسيون متخصصون في الشئون اليهودية أو قسم خاص بشئونهم لإقامة علاقات طيبة معهم.

وبدأ الناس يشاهدون كيف يجهز اليهود على معارضيهم حتى من الشيوخ والنواب، مثلما تخلصوا من السناتور تشارلز بيرسي والنائب بول فيندلي، بل إنهم أخضعوا التجارة مع الاتحاد السوفيتي لمصلحتهم باستصدار قانون جاكسون - فانيك، وظل هذا القانون قائمًا إلى أن تحطم الاتحاد السوفيتي وانهار، إذ احتفظت الجالية اليهودية بحق الفيتو على كل ما يتعلق بالعلاقات مع الاتحاد السوفيتي.

وبالرغم من أن معاداة السامية اليوم أقل من أي يوم آخر، فإن معظم قياسات الرأي التي أجريت بين أفراد هذه الجالية كشفت عن أن نسبة اليهود الذين يقولون أن تيار معاداة السامية في صعود يتزايد كل يوم، بعد أن كان ٤٥٪ فقط من اليهود سنة ١٩٨٠، يؤمنون بذلك أصبحت نسبتهم سنة ١٩٩٠ - ٨٥٪.

هنا يتخذ الكاتب هذه النقطة ليدحض وجهة نظر هذه الكتب التي ذكرناها جميعًا وهي أن سيطرة اليهود على سياسة أمريكا الخارجية، لاسيما تجاه الشرق الأوسط، لها جانب آخر ربما خفي على غالبية الأمريكيين، وإن لم يغب عن بعض المحللين العرب وهو أن التحالف الأمريكي الإسرائيلي وراءه طرف آخر وهو تجار السلاح.

إذ يقول جولدبرج: إن كل ما يقوله جورج بول صحيح، وهو أن الجالية اليهودية تتمتع بهذا النفوذ كله على سياسات أمريكا بما يزيد من أعدادهم بنسبة هائلة، فهم أولاً يهتمون بالشئون العامة وعلى استعداد لبذل كل جهد في سبيل قضيتهم، وهم يفهمون فهمًا دقيقًا الأسلوب الذي تجري به الانتخابات، ومن ثم فهم ينظمون أنفسهم بقوة لبسط نفوذهم عليه، فضلاً عن أنهم أسخياء في الإنفاق على المشروعات الخيرية، وحاجتهم إلى التكتل مع بعضهم البعض لمواجهة التمييز ضدهم الذي يمارس في كثير من أوجه الحياة في المجتمع الأمريكي، واستطاع قادة إسرائيل استغلال كل ذلك لمصلحتهم.

غير أن هناك وجهًا آخر لهذا التحالف بدأ مع ريتشارد نيكسون، وهو رئيس جمهوري لم ينجح بسبب تأييد اليهود (يعود جولدبرج إلى هذه النقطة فيما بعد ليشرح كيف أن كيسنجر هو الذي وضع القاعدة الخرسانية لهذا التحالف الأمريكي الإسرائيلي) الذي بدأ بصفقة بملايين الدولارات من السلاح، بعد أن كان كل القادة من قبله يحاولون الحفاظ على التوازن بين العرب وإسرائيل، وأسقط نيكسون ذلك كله عندما أعلن أن إسرائيل «رصيد إستراتيجي» في الحرب الباردة، وأخذت أمريكا في عهده مكان فرنسا كمورد أول للسلاح إلى إسرائيل، وقفزت أرقام مساعداتها العسكرية من ٣٠٠ مليون دولار كل عام إلى ٢,٢ مليار دولار، بحيث أصبحت إسرائيل تحصل على أكبر قدر من المساعدات الأجنبية، وأصبح حلفاء إسرائيل وأصدقاؤها في أمريكا لاعبين أساسيين على المسرح السياسي.

والنقطة التي حاول الكاتب إثباتها هي: هل كانت السلطة اليهودية هي التي خلقت التحالف الاستراتيجي أم العكس؟ بمعنى هل يمكن أن نقول «إن هذا التحالف الاستراتيجي هو الذي أعطى ليهود أمريكا هذه السطوة كلها، بما خلقته من تحالف مع كل غلاة الحرب الباردة في أمريكا بما في ذلك الجناح الليبرالي في السياسة الأمريكية.

وهذه لها قصة أخرى تستحق الذكر، عدت إليها بين أوراقي حتى أنقلها بحذافيرها.. ففي مايو سنة ١٩٩٢ عقد مجلس الكنائس من أجل سلام الشرق الأوسط، وهو مجلس حديث النشأة نسبيًا، ندوة مهمة في مجلس النواب الأمريكي، تحدث فيها السفير جيمي ايكنز، سفير الولايات المتحدة السابق لدى المملكة العربية السعودية، والجنرال ماتيتياهو بيليد، أحد قادة حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣ بين إسرائيل والعرب، ثم أصبح

عضواً في جماعة «السلام الآن» وكانت الندوة بعنوان: «سباق التسلح في الشرق الأوسط والحاجة إلى إعادة مفهوم الأمن».

وركز السفير ايكنز على أن الحرب الباردة أدت في النهاية إلى استنزاف موارد الاتحاد السوفيتي وأنهكته إلى حد أنها فتتته، ولكن أعباء هذه الحرب الباردة على البنية الأساسية للاقتصاد الأمريكي لم تكن هينة كذلك، ودلائل ذلك واضحة من خلال المشاكل الهائلة التي تواجهها المدن الأمريكية، وتضاعف الدين القومي بنحو أربعة أضعاف ما كان عليه منذ اثنى عشر عاماً.

وقال ايكنز إن الشعب الأمريكي كان يعتقد أن انتهاء الحرب الباردة سوف يعود عليه بعوائد كبيرة، وأن أمريكا ستحول صناعاتها الحربية كما فعلت في أعقاب النصر الذي أحرزته في الحرب العالمية الثانية، وأنها ستوفر مئات المليارات لإعادة بناء أمريكا وتسديد دينها العام. غير أن الحكومة ـ يومها ـ قررت تخفيض الإنفاق العسكري بنسبة ثلاثة في المائة على خمس سنوات، ولم يختلف الديمقراطيون عن ذلك كثيراً، إذ اقترحوا تخفيض هذا الإنفاق بنسبة تصل إلى ثمانية في المائة، ولم يتمكن الرئيس بوش يومها من كسب الأصوات الكافية في الكونجرس ليستخدم حق الفيتو المخول له، وقال ايكنز إنه عندما قيل للشعب الأمريكي أنه لا ينبغي أن يتوقع أي عائد اقتصادي من السلام، واستمرار الحكومة في محاولة الإصرار على عدم تخفيض ميزانية التسلح، فقد كان ذلك أحد الأسباب القوية وراء «قرف» الشعب الأمريكي من البيت الأبيض والكونجرس والعملية السياسية برمتها.

إن اللوبي اليهودي يستطيع أن يضيع أو يحطم كل شخصية سياسية في الولايات المتحدة، ولكنه لا يستطيع تحدي رئيس الجمهورية، ذلك أنه مازالت هناك بعض المقدسات في أمريكا مثل العلم، والنشيد القومي، واحترام الشعب الأمريكي لمنصب رئيس الجمهورية، مادام لم يخرق القانون، ولا يطيقون أن يتطاول عليه أي أجنبي، ولكن ذلك طبعاً لا يروق للوبي



وقال إيكنز إن سباق التسلح ينطبق على الشرق الأوسط كذلك، فقد واكب هذا السباق، السباق الآخر بين الدولتين العظميين، ولكن آثاره على الشرق الأوسط كانت أكثر دماراً وتخريباً لاقتصادياته كلها، ذلك أن الشرق الأوسط في مجموعه عبارة عن منطقة فقيرة باستثناء بعض الجزر الغنية نسبياً بينها وهي دول النفط، واستمر إيكنز في محاضرته وقال إنه حتى بعد أن غيّرت حرب ١٩٧٣ كل المفاهيم السابقة بعد أن خطط العرب لها وخاضوها بكفاءة واستعادوا شرفهم وغيّروا من تفكيرهم وأصبح السلام ممكناً لأول مرة، فمازال الإنفاق العسكري ينهك كل دول المنطقة لاسيما دول الطوق المحيطة بإسرائيل مباشرة.

ولكن الجنرال ماتيتياهو بيليد وضع أصبعه على نفس النقطة التي أثارها جولدبرج بعد خمس سنوات تقريباً، وهي أن أمريكا هي التي قررت حجم المعونة العسكرية لإسرائيل لمصلحتها هي، إذ بدأ حديثه بأن الرئيس بوش أعلن أنه مصمم على تخفيض تدفق السلاح على منطقة الشرق الأوسط. وبناء عليه اتفقت الدول الخمس المصدِّرة للسلاح وهي الولايات المتحدة وروسيا وفرنسا وبريطانيا والصين، في يوليو ١٩٩١ على «ضرورة ضبط النفس» بالنسبة لتصدير السلاح إلى دول الشرق الأوسط، غير أن الواقع كان غير هذا تماماً، وما حدث هو أن زاد تدفق السلاح، ولم تبذل هذه الدول أي مجهود منسق للحد من ذلك، وقال إن مبيعات السلاح لدول المنطقة في الفترة التي أعقبت حرب الخليج مباشرة، كان نصيب الولايات المتحدة منها وحدها ١٥ مليار دولار في سنة واحدة، ولا تختلف أوروبا عن ذلك كثيراً.

ورد بيليد المشكلة كلها إلى المعونة الأمريكية التي تمنحها أمريكا «كهبة» إلى إسرائيل في كل عام، فقال: «إنه في خلال الثماني عشرة سنة الماضية، تلقت إسرائيل منحة سنوية قدرها ١.٨ مليار دولار لتشتري ما تشاء من السلاح».

وقال إنه لا يعرف كيف ولماذا أمكن التوصل إلى هذا الرقم الذي لم تحدده إسرائيل بل ولم تطلبه ولم تكن تحلم به، ولكنه أصبح منحة سنوية إلى إسرائيل، أشبه بالحساب المفتوح، تستطيع إسرائيل أن تشتري بموجبه ما يروق لها من الأسلحة الأمريكية المتطورة، وبمقتضى هذه المنحة، فإنه يتعين على إسرائيل أن تخصص دولارين من عندها مقابل كل دولار تمنحه أمريكا لها، فإذا حسبنا ذلك كان معناه أن إسرائيل تشتري أو تنفق ما قيمته ٥ أو ٦ مليارات دولار من السلاح كل عام، وهي ميزانية الدفاع الإسرائيلية.

وقال الجنرال الإسرائيلي بيليد أنه بالنسبة لشركات السلاح في أمريكا، فإن هذا يمثل استثماراً عظيماً، لأن مقابل منح إسرائيل ١.٨ مليار دولار معناه أن تنفق الدول العربية ما يقرب من ١٠ مليارات من السلاح سنوياً، وهذه مسألة محسوبة بغاية الدقة والذكاء لشراء السلاح من الولايات المتحدة!

وبعد ثماني سنوات، عاد مفكر إسرائيلي آخر هو ماكسيم جيلان، وهو واحد من حفنة صغيرة للغاية تعد على أصابع اليد الواحدة التي تشعر بالقلق على مستقبل إسرائيل إذا لم تعترف بحقوق الفلسطينيين وبدأت في الإعداد للعيش في سلام مع العرب.

فقد قال جيلان في محاضرة ألقاها في شهر أكتوبر في مركز تحليل السياسات الفلسطينية في واشنطن إن معاهدة فرساي رسّبت عند الألمان مشاعر الخوف والإحباط والأيديولوجية. فذهبت ألمانيا إلى حروب خططت لها مسبقاً، واندفعت في عمليات القتل والإبادة الجماعية، ودفع الشعب الألماني ثمناً باهظاً. ونفس الشيء ينطبق على أي أمة ـ مثل إسرائيل ـ تعاني من هذه العناصر، أو قل المخاطر الثلاثة: الخوف والإحباط والأيديولوجية. وعندما يتحدث شيمون بيريز عن شرق أوسط جديد، فإنه يعرف ما يقوله، وهو: أيها القادة العرب الذين لا تسمحون بأي ديمقراطية بين شعوبكم، دعونا نتعاون ونخلق نظاماً نساعدكم فيه على إبقاء الوضع على ما هو عليه، حيث لا تشارك الشعوب بأي شكل في حكم نفسها، وهناك قسم من الإسرائيليين يريدون أن يعيشوا مع العرب بشرط أن يبقى العرب تحت سيطرتهم، أما الباقون فلا يريدون حتى هذا، ومستعدون لأن يعيشوا بمفردهم وفي عزلة حتى لو كلفهم ذلك اقتصادياً.

ثم ينتقل مباشرة إلى العلاقة التي يصفها «بالعلاقة اللصيقة» بين المؤسسة العسكرية الصناعية الأمريكية، والمؤسسة العسكرية الإسرائيلية، التي تعطي أمريكا بموجبها الآن ٣.١ مليار دولار سنوياً إلى إسرائيل تستخدم ٩٩٪ منها لشراء طائرات وأسلحة وتكنولوجيا أمريكية متطورة تعود تكاليفها كلها إلى أمريكا، وإلى شركات السلاح ورجال البنتاجون السابقين الذين يديرون هذه الشركات، ورجال الصناعات الإسرائيلية، ومادامت هذه العلاقة باقية فإن أمريكا لن تتخلى أبداً عن إسرائيل، لأنه ليس أمامها أي سبب يدفعها لذلك، فهذه العلاقة تخلق وظائف وعمالة وترفع سعر الدولار.

وبالرغم من أن جيلان خصص محاضرته عن فكرة طرد الفلسطينيين تماماً من إسرائيل نفسها ومعظم أراضي الضفة، وميله إلى تحبيذ فكرة توجيه كل هذا الإنفاق العسكري إلى تحلية مياه البحر فقد عاد مرة أخرى إلى فكرة أن أمريكا خلقت وسيلة في الشرق الأوسط وليس حليفاً، وسيلة مفيدة لها، وأنه لا يرى أي «مبرر لأمريكا أن تغير موقفها ولاسيما أن جزءاً من الناخبين يهود، ومن ثم فهم يناصرون إسرائيل مائة في المائة، ولم يكن ذلك صحيحاً منذ ٤٠ عاماً، لكنه صحيح اليوم، فقد كان هناك يهود ليبراليون مثل ناحوم جولدمان، أما اليوم فإن ٩٠٪ من اليهود وراء أي حكومة في إسرائيل مهما كانت ميولها.

واللافت أن جيلان ـ اليساري الماركسي ـ يقول: إن اليهود يمولون الحملات الانتخابية خصوصاً لصالح الديمقراطيين، وأنه ـ برغم انتمائه لليسار ـ يفضل أن يكسب بوش الابن في الانتخابات، لأنه أفضل من جور ولو بفارق ضئيل بالنسبة للشرق الأوسط، لأنه أقل ارتباطاً بالحكومة الإسرائيلية عن جور، ذلك أن جور يريد أن يفرض إرادة أمريكا على كل الدول باستثناء إسرائيل، ويريد استخدام إسرائيل في فرض هذه السيطرة على المنطقة، ففي استطاعة أمريكا أن تفعل شيئاً في سبيل حل الأزمة لكنها لا تفعل، ولن تفعل، لأنها قامت «بخيار استراتيجي» على حد تعبير عرفات ـ وهذا مازال كلام جيلان ـ وهو خطير بالنسبة لأمريكا، وخطير بالنسبة للتعاون بين العرب والأقلية اليهودية التي تسعى إلى السلام في أمريكا، لأنني لاشك عندي في أن التيار الحالي سوف يؤدي إلى موجة من معاداة السامية في النهاية.

وقال إن نمو الجيش الإسرائيلي ليس في مصلحة المؤسسة الصناعية العسكرية في أمريكا، ذلك أن النواحي التي تطورت فيها التكنولوجيا العسكرية في أمريكا ليست نفس النواحي التي تتصل بإسرائيل، وهناك انقسام داخل المؤسسة العسكرية في أمريكا حول جدوى هذا التعاون، لأن بعض العناصر في الجيش الذين يريدون تطوير صواريخ وتكنولوجيا أكثر تقدماً، يقولون إنه لا ينبغي أن نضع كل أموالنا في دعم هؤلاء الذين قلّت فائدتهم بالنسبة لنا، ومن هنا تستخدم إسرائيل سلاح الصراخ الهستيري أنهم وحدهم يواجهون العالم كله ـ الأمر الذي لا علاقة له بالواقع ـ وواضح أن فريق التكنولوجيا هو الذي سيكسب في النهاية لأن إسرائيل تكلفهم كثيراً بلا فائدة منهم، وأصبحت أمريكا تستطيع السيطرة على الشرق الأوسط كله بالأقمار الصناعية، ومن ثم فهي لا تحتاج إلى دبابات أو طائرات، وتكفيها بعض المروحيات لتنفيذ السيطرة التي تريدها.

الرقم الصعب في

معادلة الانتخابات الإسرائيلية

محمد العرابى(*)

الحياة السياسية الإسرائيلية تتحرك في ظل غياب دستور من المفترض أن يمثل الوثيقة التى تنظم آليات العملية السياسية بصفة عامة، مما يجعل عناصر كثيرة عرضة للتغيير وفقا لتغير موازين القوى وصراع المصالح

كلما اقترب موعد انتخابات رئاسة الحكومة الإسرائيلية تزداد صعوبة التنبؤ بنتائجها بأى قدر من اليقين أو طبقًا لحسابات المكسب والخسارة للأطراف المختلفة، وهى عملية متواصلة ومتكررة سواء فى كل انتخابات أو حتى فى الفترات ما بين الانتخابات داخل إسرائيل، ولسنا هنا فى موضع الحديث عن تحليل وقائع العملية الانتخابية أو مسارها أو الخطاب السياسى لأطرافها من خلال حملاتهم الدعائية وبرامجهم الانتخابية.

وما يعنينا هنا هو الصلة بين عملية السلام الجارية حاليًا، خاصة على مسارها الفلسطينى، وبين الانتخابات القادمة فى إسرائيل.

وننوه بداية أن الحياة السياسية الإسرائيلية تتحرك فى ظل غياب دستور من المفترض أن يمثل الوثيقة التى تنظم آليات العملية السياسية بصفة عامة، والديمقراطية على وجه الخصوص، مما يجعل عناصر كثيرة عرضة للتغيير وفقًا لتغير موازين القوى وصراع المصالح.

كما نشير هنا إلى أنه لا توجد انتخابات إسرائيلية تم حسمها بتفوق حاسم لطرف على آخر منذ حوالى ربع قرن من الزمان، فالنتائج دائمًا متقاربة ـ خاصة منذ ابتداع انتخابات مباشرة لرئاسة الحكومة فى عهد رابين ـ حيث يفوز المرشح لرئاسة الحكومة بالمنصب بفارق ضئيل، وهو ما يشكل عنصر تهديد دائم لاستمرار واستقرار الحكومة الإسرائيلية. ويتصل بذلك أن الانتخابات فى إسرائيل صارت بشكل متزايد توظف أحيانًا كحجة وأحيانًا أخرى كمخرج لتجنب الخضوع لضغوط خارجية للتحرك نحو السلام، والتلويح بمخاطر سقوط الحكومة باعتبار ذلك نمطًا تكتيكيًا متكررًا للتهرب من استحقاقات يترتب عليها اتخاذ قرارات بشأن تحقيق التقدم فى عملية السلام.

ويتعين علينا أولاً إبراز أنه فى الأحوال العادية فإن الانتخابات العامة فى أى دولة تكمن محدداتها فى تنافس يتركز على مجالات الأوضاع الداخلية من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية. وتمثل الحالة الإسرائيلية ـ بصفة عامة منذ معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية الموقعة فى ٢٦ مارس ١٩٧٩، أو بشكل خاص منذ انتخابات ١٩٩٦ ـ استثناء من هذه القاعدة.

فأولاً: تعتبر الانتخابات الإسرائيلية حدثًا يتجاوز حدود الدولة وتتخطى تداعياته المستوى القطرى وصولاً إلى المحيطين الإقليمى والدولى، سواء بسبب وجود يهود الشتات عبر العالم بتأثيرها الضخم سياسيًا واقتصاديًا وإعلاميًا، أو بفضل ارتباطات دولة إسرائيل ذاتها بدوائر متشابكة من العلاقات والمصالح خارج الحدود.

وثانيًا: ففى إسرائيل ذاتها، كانت القضايا الداخلية هى الأكثر إلحاحًا فى الماضى وشكلت معيار التفاضل والاختيار، بل إن البعض فسر انتخاب بنيامين نتنياهو لرئاسة الحكومة الإسرائيلية عام ١٩٩٦ باعتباره دليلاً على وجود نزعة توافق وطنى داخل المجتمع الإسرائيلى ترغب فى تجاوز محنة اغتيال إسحق رابين ولعق الجراح التى خلفتها، ومنح أولوية لتحقيق الوئام الداخلى دون اكتراث كبير بانعكاسات انتخاب نتنياهو الخارجية، خاصة فيما يتصل بتعطيل مسيرة السلام التى بدأت فى مدريد عام ١٩٩١.

أما انتخابات فبراير ٢٠٠١ على مقعد رئيس الحكومة فهى مختلفة نوعيًا وتتجه فى مسار متباين عما عرفته إسرائيل منذ نشأتها، فلم يعد التحدى هو بناء الدولة أو تعزيز وحدتها الوطنية أو تماسكها الاجتماعى أو تحديد طبيعة هويتها أو التغلب على مشكلاتها الاقتصادية وتحقيق الانطلاقة العلمية والتكنولوجية أو غير ذلك. بل إن العنوان الرئيسى فى الحملة الانتخابية الراهنة ـ وإن لم يكن الوحيد ـ هو عملية السلام، خاصة على المسار الفلسطينى، ومدى تقدم المفاوضات بشأن تسوية سواء مرحلية انتقالية مؤقتة أو نهائية، وهى بدورها قد تكون إطارية أو تفصيلية. وسيكون الموقف إزاء عملية السلام هو المؤثر فى رأى الناخب الإسرائيلى ونمط تصويته يمينًا أو يسارًا.

ويمكن فى هذا السياق أن نفهم تحذير رئيس الوزراء المستقيل ايهود باراك من احتمال اندلاع جولة جديدة من الحرب العربية الإسرائيلية فى حالة فوز شارون برئاسة الحكومة، وهو تحذير لا تقتصر بواعثه على اعتبارات التنافس الانتخابى بل يعكس هواجس حقيقية لدى قطاعات لها وزنها فى المجتمع الإسرائيلى ونخبته السياسية والثقافية تتخوف من احتمالات انهيار عملية السلام، لما لذلك من تداعيات سلبية على أوضاع الأمن الداخلى والاستقرار الإقليمى وما يرتبط بهما من هروب رءوس الأموال والاستثمارات وتراجع معدلات النمو الاقتصادى.

ولكى نفهم جوهر ما تقدم بشكل أكثر عمقًا، نوضح أنه بالرغم من أن حكومة باراك حققت خلال عام ٢٠٠٠ أعلى معدل نمو اقتصادى وأقل معدل بطالة عرفتهما إسرائيل منذ سنوات طوال، فإن الشعب الإسرائيلى أدرك بوضوح أن اندلاع انتفاضة الأقصى وما ارتبط بها من استخدام إسرائيلى مفرط للقوة ضد المدنيين الفلسطينيين وعزل للمناطق الفلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة، كل هذا أدى إلى تدنى معدل النمو فى الاقتصاد الإسرائيلى بنسبة ٨٪ فى الربع الأخير من عام ٢٠٠٠ مقارنة بالربع الأخير من عام ١٩٩٩، مما يعنى بوضوح أن هناك علاقة عضوية غير قابلة للانفصام بين تحقيق تقدم فى اتجاه السلام مع «الجيران» الفلسطينيين شركاء الزمان والمكان وبين استعادة عافية الاقتصاد الإسرائيلى ومواصلة انطلاقه إلى آفاق أكثر وعدًا ورحابة فى إطار السعى لتميز إسرائيل وريادتها الاقتصادية التكنولوجية فى المنطقة.

ومن المهم أن نتعرف على سيناريوهات الانتخابات القادمة، ليس من حيث من يفوز بمنصب رئيس الحكومة، وهو سؤال لم تتعد إجابته حدود التكهنات والرجم بالغيب، بل الأهم هو معرفة خريطة القوى السياسية وأنماط تحالفاتها وثقلها النسبى فى الشارع السياسى الإسرائيلى. ويمكن أن نضع أيدينا على خمس كتل سياسية لكل منها وزنها وتأثيرها فى الانتخابات القادمة، وهى تتراوح بين اليمين الليكودى، والأحزاب الدينية التى فى معظمها يمينية الهوى والتوجه، ثم يسار الوسط ممثلاً فى كتلة «إسرائيل واحدة» وعلى يسارها حزب ميريتس، ثم اليسار الشيوعى، وأخيرًا عرب ١٩٤٨، ولكل من هذه الكتل حساباتها السياسية واعتباراتها التكتيكية.

ويمكن أن نتناول كلاً من هذه الكتل فى عجالة، فالأهم هى الأصوات العربية وأهميتها فى الانتخابات وهم يقتربون من سدس سكان إسرائيل، إلا أن المرشح لمنصب رئيس الوزراء ـ أيًا كان لونه الفكرى أو السياسى ـ يتحاشى أن يذكر أنه وصل إلى مقعد رئاسة الحكومة بفضل الأصوات العربية. كما يسعى شارون جاهدًا إلى تفتيت الصوت العربى المشارك فى صناديق الاقتراع، ومن تكتيكاته السياسية لهذا الغرض إعلانه أنه لا يمانع فى تعيين وزير عربى فى حكومته. كما أن انتفاضة الأقصى وفشل كامب ديفيد الثانية عمقا من شكوك عرب ١٩٤٨ تجاه باراك، تمامًا كما فعلت حملة «عناقيد الغضب» فى جنوب لبنان تجاه مشاعرهم نحو بيريز خلال انتخابات ١٩٩٦.

وعلى الجانب الآخر، فإن عودة الصوت الروسى إلى أحضان اليمين الليكودى بعد انشقاق حزب «إسرائيل بعاليه» عن الائتلاف الحاكم بزعامة باراك يعنى إعادة خلط لأوراق اللعبة السياسية فى إسرائيل ويزيد صعوبة حسم التوقعات بشأن رئيس الوزراء القادم. كما أنه يجعل من موقف معسكر السلام وقوى اليسار أكثر صعوبة فى ضوء تفكك هذا المعسكر وتصاعد تماسك اليمين وتعزيز قدراته التعبوية، ويتزامن مع هذه التطورات معاودة الأحزاب الدينية ـ خاصة حزب شاس ـ اقترابها من اليمين الليكودى.

ولكن هل يعنى ما تقدم حسمًا للتوقعات وقفزًا نحو التنبؤ بفوز شارون مرشح اليمين؟ إن هذا الاستنتاج يمكن أن يكون بعيدًا عن الدقة، نظرًا لأن الانتماءات الحزبية للمواطن الإسرائيلى قد تتلاشى ـ خاصة فى حالة انتخابات مقصورة على منصب رئيس الحكومة ـ ويكون التصويت لمرشح معين ناتجًا عن موقف من عملية السلام مع الفلسطينيين ومدى الرغبة فى التقدم فيها وبأى شروط، أى أن الانتماء هنا يكون لموقف ولالتزام بنتيجة أكثر منه انعكاسًا للهوية الأيديولوجية والانحياز السياسى للناخب. وقد يصبح الموقف من عملية السلام مدخلاً للتأثير على المعايير المحددة للحياة السياسية ومجمل العملية الديمقراطية فى إسرائيل، بحيث يصبح معيار التصنيف الأساسى هو الموقف من قضية السلام أكثر من أى معيار آخر.

وأخيرًا، نذكر هنا أنه يجب عدم استبعاد العنصر الشخصى فى الاختيار فيما بين المرشحين لرئاسة الحكومة الإسرائيلية. بمعنى أنه فى حالة بقاء احتمال ولو ضئيل فى أن تكون المفاضلة ليست بين باراك وشارون بل بين بيريز وشارون بما يحمله هذا التغير من دلالات فى ضوء ما أظهرته استطلاعات الرأى العام فى إسرائيل من أنه بينما يتقدم شارون على باراك بنقاط كثيرة فإن المنافسة بين شارون وبيريز ستكون حامية الوطيس مع فرص جيدة لتقدم بيريز غير المرتبط بتعثر عملية السلام ـ خاصة فى الفترة الأخيرة ـ فإنه سيبقى أمر اتخاذ حزب «إسرائيل أولاً» قرار تغيير مرشحه لرئاسة الحكومة من عدمه مرهونًا باعتبارات تتصل بتحالفات سياسية وحزبية وتوازنات قوى سواء داخل الحزب أو على صعيد المجتمع الإسرائيلى بأسره، ولا تنحصر تلك الاعتبارات فى مجرد الرغبة فى الاحتفاظ بمقعد رئاسة الحكومة فى صفوف الحزب، ناهيكم على أن تكون تلك الاعتبارات مقصورة على هدف إنجاح عملية السلام والتوصل إلى تسوية نهائية، خاصة مع الطرف الفلسطينى. ■

(*) عمل فى السفارة المصرية بتل أبيب

قصة حياة عادية



نشرت دار الهلال خلال عام ٢٠٠٠، كتابين في السيرة الذاتية لا يفصل بين ظهوريهما إلا شهور قليلة، أحدهما بعنوان «قصة حياة عادية» للدكتور يحيى الجمل والثاني بعنوان «رحلة عمر: ثروات مصر بين عبد الناصر والسادات». والكتابان متقاربان في الحجم، والمؤلفان متقاربان في الشهرة، على الأقل في مصر والعالم العربي، يعرفهما المثقفون المصريون جيدًا، والمهتمون بالشئون المصرية من المثقفين العرب، وإن كان ثانيهما (رشدى سعيد) له من القراء في خارج العالم العربي أكثر مما للآخر، بحكم ما ألفه من كتب ومقالات بالإنجليزية عن جيولوجية مصر وعن نهر النيل.

لا يسع قارئ الكتابين إلا أن يلاحظ أيضًا أن كلا من المؤلفين يحمل درجة لا يستهان بها من الاعتزاز بإنجازاته، إذ لولا ذلك ما جلس كل منهما لكتابة سيرته الذاتية. فضلاً عن أن العبارات التي تنم عن هذا الاعتزاز كثيرة في صفحات الكتابين.

فيما عدا هذه الأشياء البسيطة لا يكاد أن يكون ثمة شبه بين الكتابين أو بين المؤلفين. والواقع أن ما بين الكتابين والمؤلفين من فوارق شاسعة، فضلاً عن صدور السيرتين في نفس الوقت، هو ما جعل لديّ ميلاً لم أستطع مقاومته للمقارنة. يبدأ القارئ في ملاحظة هذه الفوارق من أول صفحة ويستمر إلى آخر صفحة، بل ويشعر به القارئ حتى ابتداء من رؤيته لغلاف كل من الكتابين، إذا تأمل هذين الغلافين جيدًا.

فالدكتور يحيى الجمل يسمى كتابه «قصة حياة عادية»، وهو عنوان يوحى برأى معين للمؤلف في سيرته الذاتية لا يتمشى تمامًا مع ما يرد في داخل الكتاب من اعتزاز بإنجازاته وجوانب تفوقه.

وصورة المؤلف المنشورة على الغلاف صورة يشع منها الذكاء، ولكنه ذكاء يختلط بدرجة لا يستهان بها من الدهاء تتضح من أن الابتسامة التي ترتسم على الوجه ليست ابتسامة كاملة، بل هي نصف ابتسامة. أما الدكتور رشدى سعيد فيعطى كتابه عنوانًا أبسط «رحلة عمر: ثروات مصر بين عبد الناصر والسادات»، وهو بالضبط ما تجده داخل الكتاب. كما يحمل الغلاف صورة بديعة له تعكس حبا غامرًا للحياة ورضا تامًا عن النفس تجد لهما أيضًا صدى في كل صفحة من صفحات الكتاب.

والكتابان، على تقاربهما في الحجم، يغطيان فترتين متفاوتتين كثيرًا في الطول. فكتاب يحيى الجمل ينتهي بحصول المؤلف على الدكتوراه في ١٩٦٢، وهو في نحو الثلاثين من العمر، بينما لا ينتهي كتاب رشدى سعيد إلا بانتهاء القرن، عندما بلغ الثمانين من عمره. ومن الواضح من نهاية كتاب يحيى الجمل أن المؤلف ينوى كتابة جزء آخر على الأقل، إذ ينهيه بقوله: «وبدأ مرحلة جديدة في حياته». والأرجح أنه سوف يشجعه على هذا كثرة ما كتب من ثناء على الكتاب في بعض الصحف والمجلات السيارة، بل ومن جانب بعض الكتاب المرموقين. وقد كان هذا الاعتبار الأخير سببًا آخر حفزني على كتابة هذا المقال، عسى أن يجد المؤلف فيه من الملاحظات ما قد يؤدى إلى اتخاذ درجة أكبر من الحيطة أثناء كتابة الأجزاء التالية.

مما يشعر به القارئ أيضًا أن د. يحيى الجمل يكتب قصة حياته آملاً أن يقدم لنا في هذا الكتاب عملاً أدبيًا.

أما رشدى سعيد فإن من الواضح أن كتابه عمل أدبي لم يخطر له على بال وأنه لم يرد من كتابته إلا أن يروى ما حدث له، على أمل أن يتضمن بعض الحقائق المهمة عن السياسة المصرية والمجتمع المصرى التي عرفها خلال حياته ولمسها بيده، ويشفق من أن يطويها النسيان، فتغيب إلى الأبد عن الأجيال اللاحقة من المصريين. ليس لدى رشدى سعيد إذن أى رغبة في أن يعرض علينا مقدرة أدبية من أى نوع، فهو يستخدم لغة مباشرة وصريحة، ويروى قصته بلسانه، أنا فعلت وأنا قلت. بينما يجتهد يحيى الجمل خاصة في الفصول الأولى، في تجميل أسلوبه واختيار عباراته، وهو لا يشير إلى نفسه بلفظ «أنا» (ربما أيضًا من باب التواضع)، بل بلفظ «الفتى» مرة أو «صاحبنا» مرة أخرى. المدهش أن النتيجة كانت عكسية تمامًا (على الأقل فيما يبدو لي) فبينما كاد أن يبلغ أثر كتاب رشدى سعيد في نفسي ما يتركه في النفس العمل الأدبي، مثلما وجدت مثلاً لدى قراءة وصفه لشخصية أنور السادات وتصرفاته، أو وصفه لمعاناته الشخصية هو وزوجته بسبب معاملة السادات له، وبسبب انفضاض الناس عنه خوفًا من غضب السادات، أو وصفه لما حدث للواحات الخارجة ولموارد مصر بصفة عامة وما تعرضت له من إهمال وذبول عندما وقعت في أيدى أشخاص ضعيفي الإحساس بالمسئولية، بينما تأثرت تأثرًا عميقًا بكل هذا، لم ينجح أسلوب يحيى الجمل الأكثر لمعانًا في أن يترك في نفسي أثرًا مشابهًا، مما أكد لي مرة أخرى أن لمعان الأسلوب وبريقه لا يكفيان، وأن اللغة في حد ذاتها لا تصنع أدبًا جميلاً، وإن كانت اللغة الركيكة تخرّبه.

كل الحقيقة أم بعضها؟!

لا يجوز أن يطلب أحد من كاتب السيرة الذاتية أن يقول كل الحقيقة، ففي حياة كل منا أحداث ومواقف ومشاعر لا بد أن يخجل منها ويشعر بالندم عليها، ومن حقه أن يخفيها. ولكن من المؤكد أيضًا أن من حقنا على كاتب السيرة الذاتية ألا يقول لنا «أنصاف حقائق»، وأقصد «بأنصاف الحقائق» تلك الأقوال التي لا تناقض الحقيقة، ولكنها قد توحى للقارئ بعكس الحقيقة. وقد صادفت أثناء قراءتي لكتاب د. يحيى الجمل بضعة مواضع مما قد ينطبق عليه هذا الوصف، حتى فيما يتعلق بأمور لم يكن هناك أى بأس ولا ثمة ما ينقص قدر الكاتب لو قال لنا ما الذى حدث بالضبط. من ذلك مثلاً ما قاله عن التقدير (أو الدرجة) التي حصل عليها عند تخرجه من كلية الحقوق. فمن الواضح أنه لم يكن راضيًا عن هذه الدرجة، وهي على أى حال أمر تافه كان من الأجدر ألا يشغل باله به بعد أن حقق كل هذا النجاح في حياته العملية. ولكنه بدلاً من أن يقول لنا ما هي تلك الدرجة التي حصل عليها وأصابه الحزن بسببها، يمتنع عن ذكرها ثم يحاول أن يفسرها تفسيرًا لا أجده مقنعًا تمامًا. فهو يقول: «يبدو أن اللجنة قد أخطأت خطأ ماديًا إذ رصدت درجة صاحبنا لزميل لم يحصل قط في حياته الجامعية على درجة امتياز في أى علم من العلوم». وقد يظن القارئ أن هذا الخطأ المادى يمكن تصحيحه بقليل من الجهد مما لا يعجز عنه رجل له تصميم وعناد د. يحيى الجمل، ولكنه يقول «إنه لم يكن إلى إصلاح هذا الخطأ من سبيل»، ويذكر بعد ذلك

قصة حياة عادية
يحيى الجمل
القاهرة . دار الهلال، ٢٠٠٠

رحلة عمر: ثروات مصر بين عبدالناصر والسادات
رشدى سعيد
القاهرة . دار الهلال، ٢٠٠٠

وأخرى فذّة



مباشرة ما يوحى للقارئ بأن سبب استحالة تصحيح هذا الخطأ هو أن النتيجة أعلنت يوم ٢٣ يوليو، وهو نفس اليوم الذى قامت فيه الثورة وتوفى فيه عميد الكلية، مما يفهم منه أنه فى هذه الظروف لم يكن من الممكن أن يحصل الطالب يحيى الجمل على الدرجة التى يستحقها.

على العكس من ذلك لا يجد رشدى سعيد غضاضة فى أن يقول لنا إنه فى السنة الأولى من المدرسة الثانوية كانت نتيجة آخر العام «سيئة للغاية، فقد رسبت فى كل المواد، بما فى ذلك مادة الرسم، ومازلت أذكر وحتى اليوم شهادتى وهى مليئة بالدوائر الحمراء التى لفّت درجاتى فى كل المواد، واضطررت لإعادة السنة. إلا أن هذا الرسوب كان بدء التحدى، فقد عايرنى الأشقاء والأقارب ونبهونى إلى أنى لو رسبت مرة أخرى للحق بى شقيقى الأصغر كمال الذى كان يصغرنى بسنتين وكان ناجحًا على طول الخط. وهكذا أفقت من التوهان الذى عشت خلاله ذلك العام».

بين السياسة والعلم:

يربط د. رشدى سعيد فى سيرته الذاتية ربطًا وثيقًا بين حياته الخاصة والتطور السياسى فى مصر، فهما متداخلان تداخلاً قويًا كما يدل على ذلك عنوان الكتاب. هذا الترابط والتداخل يبدأ من أول صفحة فى الكتاب ويستمر إلى آخره. فبمجرد أن يذكر فى مقدمة الكتاب أنه ولد فى القاهرة فى سنة ١٩٢٠ يتعرض للمناخ السياسى والاجتماعى الذى ساد مصر فى أعقاب ثورة ١٩١٩، وهو فى خاتمة الكتاب، التى تحمل عنوان «العيش فى الغربة» يجد من المهم أن يصف حال المصريين المهاجرين إلى أمريكا ومدى تعلقهم بمصر واهتمامهم بشئونها، وشعورهم بأنهم «فى مأزق كبير لأن سياسة وطنهم الجديد تجاه منطقة الشرق الأوسط تتناقض ومصلحة وطنهم الأم، وهم عاجزون عن تغيير هذه السياسة والتأثير فيها». ورشدى سعيد لا يخفى تحيزه لجمال عبد الناصر ومشاعره السلبية نحو السادات، ويذكر فى مدح الأول ونقد الثانى أسبابًا تتعلق بالسياسة العامة أكثر مما تتعلق بحياته الشخصية.

لا تظهر السياسة فى كتاب يحيى الجمل على هذا النحو، فالكتاب يبدأ بداية شخصية بحتة ويستمر كذلك حتى صفحة ٦٥، عندما يأتى ذكر علاقة أخيه سعيد بحركة الإخوان المسلمين، وتردد بعض شبابها المتحمسين لهذه الحركة على أخيه «وكان الفتى (أى يحيى الجمل) يسمع ذلك كله ويعجب به وينفعل معه، ولكنه لم يفكر فى الانخراط فى الجمعية رغم أنه تردد أحيانًا على بعض شعبها. ورغم أنه لم يكن بعيدًا نفسيًا عما تنادى به، ولكن الفتى كان قد اتخذ طريقًا آخر من طرق العمل العام» (ص٦٧). إنه لا يفصح لنا ما هو هذا الطريق الآخر، ولكن القارئ يكتشفه بالتدريج مع استمراره فى القراءة.

فعندما كان طالبًا فى السنة الثالثة بكلية الحقوق كانت هناك مجموعة من شباب الحزب الوطنى تحالفت مع الإخوان المسلمين وتريد أن تخوض معركة انتخابية داخل الجامعة، ضد الوفد. وكان هناك «غزل متبادل» بين التيارين السياسيين، تيار الحزب الوطنى وتيار الإخوان المسلمين، وكان بعض شباب الحزب الوطنى يؤيد هذا التقارب وبعضه يرفضه. أما صاحبنا فإنه «هو والعدد الأكبر من شباب الحزب الوطنى كانوا يرون أن هذه هى الفرصة الوحيدة للبقاء والاستمرار والوجود الفاعل فى الحياة السياسية» (ص٩٠).

ثم حدث فى السنة التالية، أن بدأت حركة الفدائيين ضد القوات الإنجليزية الرابضة على طول قناة السويس، وأخذ بعض شباب الحزب الوطنى فى إعداد كتيبة خاصة بهم.

وعن هذا القول يقول د. يحيى الجمل «ورغم أن صاحبنا كان قريبًا القرب كله من الحركة الوطنية إلا أن اهتمامه كان موزعًا بين الحركة وكتائب الفدائيين من جهة، ودراسته من جهة أخرى، التى كان حريصًا ألا تتأثر وهو فى السنة النهائية، وبين قلبه الذى لم يفتأ ينبض بين الحين والحين متعطشًا دائمًا إلى الحب وإلى الأحلام الرومانسية (ص ١٠٠).

وعندما اشتدت حركة الفدائيين ووقفت أحداث التل الكبير التى استشهد فيها عدد من الفدائيين «لم يكن صاحبنا يهدأ ليلاً ونهارًا وكان ممزقًا بين رغبته فى الحفاظ على تفوقه العلمى من ناحية، واندفاعه للقيام بدور ولو محدود فى الحركة الطلابية وفى الكفاح ضد قوات الاحتلال من ناحية أخرى» (ص١١٦).

فى العشر سنوات التالية لقيام ثورة ١٩٥٢، وحتى انتهاء الكتاب بحصوله على الدكتوراه فى القانون من جامعة القاهرة، لا يحتوى الكتاب على أية إشارة إلى موضوع سياسى، إذ يبدو أن يحيى الجمل قد انصرف فى هذه الفترة من الاهتمام بالسياسة إلى اهتمامات أخرى، أهمها العلم والحب. ويبدو أن رشدى سعيد خلال هذه العشر سنوات قد انشغل بدوره عن السياسة بالعلم والحب. فبعد حصوله على الدكتوراه من جامعة هارفارد فى سنة ١٩٥٠، تزوج فى ١٩٥٣ من زميلته المصرية وداد سعيد، التى كانت قد جاءت إلى هارفارد لتستمع إلى محاضرات أحد أساتذة الفلسفة. ثم عاد رشدى سعيد إلى كلية العلوم مدرسًا بقسم الجيولوجيا، ثم انشغل بتعريب محاضراته فى الجيولوجيا التى كان يلقيها حتى سنة ١٩٥٥ بالإنجليزية، فأعاد كتابتها بالعربية تحت إلحاح وزير التعليم فى ذلك الوقت (كمال الدين حسين) الذى كان يؤمن بضرورة تعريب تدريس العلوم. فكانت هذه أول محاولة لتعريب الجيولوجيا فى مصر. ثم انشغل رشدى سعيد بكتابة كتاب «جيولوجية مصر» الذى أصبح مرجعًا مهمًا فى هذا العلم وترجم إلى عدة لغات.

يبدو أن انشغال كل من كاتبى السيرة الذاتية عن السياسة بأمور أخرى فى العشر سنوات التالية لثورة ١٩٥٢، كان أمرًا طبيعيًا ومفهومًا. فقد كان الاثنان فى بداية حياتهما العملية وفى مقتبل الشباب، فمن الطبيعى أن ينشغلا بترسيخ أقدامهما فى الحياة الأكاديمية من ناحية، وبالحب من ناحية أخرى. ولكن يبدو أن هناك سببًا آخر يتعلق بطبيعة الحياة السياسية فى مصر فى ذلك الوقت (٥٢ ـ ٦٢) إذ كانت هذه الفترة فترة صراع بين قائدى الثورة من الضباط وبين الإنجليز من ناحية، وبين الضباط بعضهم البعض من ناحية أخرى. وقد أبدت الثورة فى تلك الفترة قلة صبر إزاء كل الأحزاب السياسية التى كان يحيى الجمل يتعاطف مع بعضها، وكذلك قلة صبر إزاء أساتذة الجامعة من ذوى الاتجاهات اليسارية، التى كان يتعاطف معها رشدى سعيد.

وإنما بدأ نشاط رشدى سعيد السياسى فى منتصف الستينيات عندما اختير واحدًا من الأعضاء المعينين بمجلس الشعب فى ١٩٦٤، ويتضمن كتابه فصلاً مهمًا عن تجربته كعضو فى مجلس الشعب طوال العشرين سنة التالية (٦٤ ـ ١٩٧٣)، ويرسم فيه صورة قاتمة للغاية، ولكنها للأسف صادقة تمامًا فى رأيى، للحياة البرلمانية



يحيى الجمل

لا يسع من يقرأ كتاب يحيى الجمل إلا أن يلاحظ أنه شديد التقدير لمظاهر العظمة والأبهة والرخاء، سواء تعلقت بالسلوك الإنسانى أو بالأشياء المادية البحتة. والظاهر أن هذا التقدير قد بدأ معه مبكراً جداً

فى مصر خلال الجزء الأخير من حياة عبد الناصر والنصف الأول من حكم السادات. وهو يلاحظ بحق أيضًا أن دور البرلمان لم يختلف اختلافًا مهمًا فى إحدى الحقبتين عن الأخرى. ففى كلتا الحقبتين لم يكن للبرلمان دور يذكر لا من حيث التشريع ولا من حيث الرقابة على السلطة التنفيذية. ففى التشريع كان دور البرلمان مجرد الموافقة على ما تعرضه عليه الحكومة من قوانين، وفى الرقابة لم يتجاوز دور البرلمان نقد وزارات الخدمات دون أن يكون له حق المساس بوزارات ومؤسسات الخارجية والجيش والرئاسة. «ولم يحدث أبدًا أن سُمح للبرلمان بأن يدين وزيرًا أو مسئولاً أو أن يتسبب حتى فى إحراجه فضلاً عن دفعه للاستقالة أو تعريضه للإقالة» (ص١٣٢).

كما يرسم هذا الفصل صورة قاتمة أيضًا لتصاعد قوة التيار السلفى فى السبعينيات، ولتدهور صورة الأقباط فى أذهان المسلمين، وصورة المسلمين فى أذهان الأقباط. وهو ما أتيح له رؤيته عندما عُيِّنَ فى لجنة تقصى الحقائق فى ١٩٧٢، فى أعقاب الأحداث الطائفية التى حدثت بمدينة الخانكة فى تلك السنة. إنه يصف صورة الأقباط عند المسلمين كما لمسها من عدة لقاءات قام بها كعضو فى هذه اللجنة (التى كان يرأسها الدكتور جمال العطيفى) مع عناصر مختلفة من الشعب من سوهاج وحتى الإسكندرية. فهو يقول إن صورة الأقباط عند المسلمين كما لمسها هى أنهم «أثرياء، كنائسهم وأديرتهم مليئة بالذهب، وهم بخلاء يديرون الاقتصاد المصرى من تحت ستار، عددهم كبير فى الوظائف، وهم متعصبون ولديهم خطط بعيدة المدى لتنصير مصر وبناء كنائس فى كل مكان فيها... وهم يدخلون كليات الطب والصيدلة والتربية للاستيلاء على مهن التطبيب وبيع الدواء والتعليم. ولا تختلف كثيرًا صورة المسلمين عند الأقباط، وإن كان الكلام هنا يتزايد عن الاضطهاد الذى يتعرضون له، والخطط التى تعد لإفقارهم وإذلالهم ومنعهم من ممارسة شعائرهم الدينية أو الحصول على الوظائف» (ص١٣٤).

ولا أظن أن هذه الصورة أو تلك مع كل ما تعكسانه من مرارة، تبعدان كثيرًا عن الصحة، وخاصة أنه يضيف التحفظ الآتى: «إن الصورة التى رسمتها فى السطور السابقة عن (الآخر) الدينى، هى الصورة التى خرجنا بها من مقابلاتنا مع من كانت لهم علاقة بالفتنة، أو ممن كانوا يعيشون فى بؤر التوتر الطائفى، وهى فى الأغلب غير الصورة التى يرى بها المصريون عامة (الآخر) الدينى. فمعظم الناس ممن لم يتعرضوا للمدرسة أو الجامعة التى وقعت فى قبضة المتطرفين الدينيين، أو انضم لهم، أو استمع لدروسهم، يحمل تراثًا عريقًا من التسامح وقبول الآخر واحترام الأديان السماوية وأماكن عبادتها والقائمين عليها. وقد قصدت من تسجيل ما سمعته فى ميدان العلاقات الطائفية تنبيه المسئولين عن التربية والتعليم والقائمين على مؤسسات المجتمع المدنى، لمواجهة هذا الموقف الجديد قبل أن يستفحل، خاصة وأنى لاحظت أن الكثير من التوجسات التى ذكرتها والتى تبدو سخيفة وبلا أساس، كان لها صدى وصل حتى إلى آذان صانع القرار نفسه» (ص ١٣٤).

ويفرد الدكتور رشدى سعيد فصلاً طويلاً لفترة رئاسته لمؤسسة التعدين والأبحاث الجيولوجية لمدة عشر سنوات (٦٨ ـ ١٩٧٧) وهى تجربة فذة تعكس من ناحية إرادة هذا الرجل الصلبة وحبه للإصلاح وتصميمه عليه، ومن ناحية أخرى تعكس ظروفًا سياسية مرّة فى فترة كانت من أحلك فترات التطور الاقتصادى والسياسى المصرى فى القرن العشرين.

ولكن القصة التى يرويها د. رشدى سعيد عن هذه التجربة هى أيضًا قصة محزنة للغاية. فها هو رجل جاد ونشيط ونزيه وطموح ومحب لبلده، يتسلم مسئولية قطاع مهم من قطاعات الاقتصاد القومى، وهى مسئولية هو جدير بها بحكم هذه الصفات، وبحكم خبرته العلمية ودراسته، وهو يتولى هذه المسئولية فى ظروف اقتصادية وسياسية بالغة الصعوبة، فالهيئة التى عهد إليه بإدارتها تدير هيئة للأبحاث الجيولوجية وتشرف على تسع شركات للتعدين معظمها كان فى حالة يرثى لها عندما تسلمها فى أعقاب حرب ١٩٦٧، «فقد أدى احتلال إسرائيل لسيناء إلى أن تفقد الجزء الأكبر من مناجمها التى كانت تقع فيها وإلى أن يُجبر أكثر من ثلاثين ألف عامل ممن كانوا يعملون (بهذه المناجم) على العودة إلى مصر.. كان الجو كئيبًا حقًا: مؤسسة انهارت معظم مقوماتها المادية وعاملون فى حالة اكتئاب وشكوى مستمرة دون أن يجدوا أحدًا ليهتم بأمورهم أو يستمع إليهم.

كانت هناك أرامل المفقودين فى الحرب واللواتى قطعت عنهن المرتبات ولم تحل مشكلة معاشاتهن، وكان هناك مديرو المصانع الذين كانوا يعتمدون على الخامات التى تصلهم من سيناء والذين جاءوا إلىّ يستغيثون من أن مصانعهم قد توقفت، وكان هناك آلاف الموظفين الذين لم يرقوا لسنوات طوال وكان لكل منهم شكوى ووراء كل واحد مأساة. كما كان هناك آلاف العمال المؤقتين الذين عينوا على مكافآت يعيشون وهم خائفون من الفصل. ولم يكن لهيئة الأبحاث الجيولوجية هيكل تنظيمى أو حتى سجل بأسماء العاملين طبقًا لتخصصاتهم. وفوق كل ذلك كانت المخازن مكدّسة دون أى نظام فى صناديق لم تكن قد فتحت ومكومة فى منطقة خلاء.. وكانت الخرائط والكتب والملفات والعدد فى كل مكان فوق الأسطح وفى الطرقات والأحواش..» .. إلخ.

بدأ رشدى سعيد فى إصلاح كل هذا ووضع مشروعات جديدة لتطوير المناجم القائمة وتحديث وسائل استغلالها، واستغلال مناجم جديدة ودراسة ربطها بطريق جديد يصل إلى ميناء الحمراوين، الذى يقع شمال مدينة القصير، وتطويره لكى يصبح صالحاً لاستقبال السفن ذات الغاطس الكبير وقام بدراسة إمكانيات حقل جديد من الفوسفات فى أبوطرطور يقع بين الواحات الخارجة والداخلة. فأسفرت عن إمكانية «بناء منجم هائل ينقل صناعة التعدين إلى مستوى العصر وينقل العمران إلى قلب الصحراء» (ص١٠٢).

كل هذه الآمال أصيبت بضربة قاصمة فى أوائل السبعينيات، وأخذت آثارها فى التفاقم حتى اضطر رشدى سعيد إلى تقديم استقالته فى سنة ١٩٧٧ إلى وزير الصناعة «فقبلها فى الحال وبعودة البريد وحتى قبل أن يرفعها إلى رئيس الوزراء كما كانت تقضى القوانين» (ص١١٩).

ذلك أنه «توافد على وزارة الصناعة فى هذه الفترة وزراء كانوا يتخذون القرارات الخاصة بشئون الثروة المعدنية دون الرجوع إلينا أو إلى أى شخص من المختصين بشئونها. ومن الوزراء من كان لا يعرف شيئاً فى شئونها، إلا أنهم كانوا يعملون وفقًا لجدول أعمال خاص أُملى عليهم من الأجهزة ومن أصحاب المصالح الخاصة الذين ارتفع نجمهم فى سبعينيات القرن العشرين، وجاء من هؤلاء وزير قام، وفى سرية تامة، بنقل تبعية مشروع فوسفات أبوطرطور من إشراف الهيئة التى أرأسها إلى الجهاز التنفيذى لمجمع الحديد والصلب الذى لم يكن فيه واحد يعرف شيئًا عن التعدين.

واتخذ هذا الوزير ذلك القرار دون إبلاغنا وعلى الرغم من قرار مجلس إدارة الهيئة المختصة بضرورة بقاء المشروع تحت إشرافها حتى تتم دراسة خاماته وجدواه، بل وحتى يتقرر أنسب موقع لاستخراج الخام الذى كان يوجد على طول الهضبة الممتدة بين الواحتين الخارجة والداخلة.

وفى ظنى أن هذا الوزير قد جئ به تحت ضغط رجال المقاولات الذين كانوا يدبرون للبدء فى تنفيذ أعمال المشروع الإنشائية والتى كنت أرفض القيام بها قبل الانتهاء من دراستنا للمشروع ومعرفة جدواه. ومما يؤكد ظنى هذا أن المقاولين كانوا أكبر المستفيدين من نقل المشروع، والذى ما كاد يخرج من إشرافنا حتى ارتفعت على أرضه المبانى الشاهقة وبدئ فى مدّ خطوط الكهرباء والسكك الحديدية وشق الطرق ولما يكن له دراسة للجدوى، كما أنهم كانوا أول من التقط الوزير بعد خروجه من الوزارة وعيّنوه فى خدمتهم.. وفى خلال هذه السنوات الاثنتين والعشرين (حتى سنة ١٩٩٦) أنفق ما يزيد على سبعة مليارات من الجنيهات بُعثرت على المقاولين وبيوت الخبرة الأجنبية التى جئ بها من كل أركان الأرض.. وانتهت بإغلاقه» (ص١١٠-١١١).

لم تتح للدكتور يحيى الجمل هذه الدرجة من الاقتراب من العمل السياسى، على الأقل حتى ١٩٦٢ التى ينتهى عندها كتابه. نحن نعرف أنه اعتلى منصب الوزارة فى منتصف السبعينيات ومن ثم فنحن ننتظر منه فى الجزء التالى من سيرته الذاتية أن يزوّدنا بحصيلة خبرته فى هذا المجال، ونرجو أن يقص هذه التجربة بنفس الدرجة من الصراحة التى اتسمت بها رواية د. رشدى سعيد لتجربته.

النساء فى حياة الرجلين:

لا يكثر رشدى سعيد فى الكلام عن النساء فى حياته، فهن لا يظهرن فى الكتاب إلا لمامًا ويختفين بسرعة. إنه يهدى الكتاب إلى بضعة أشخاص من بينهم شقيقته وداد وزوجها قائلاً أنهما: «أضافا الكثير من البهجة والأمل إلى حياتى»، وهو تعبير يمثل طريقة التعبير فى الكتاب بأكمله، بسيط ولكنه رقيق، ومن ثم فهو مؤثر. وهو يذكر أمه فى فقرة قصيرة نعرف منها أنها كانت من أسرة أكثر ثراء بكثير من أسرة أبيه، مما سمح لها بإرسال البنات إلى مدرسة الأمريكان بالأزبكية التى تخرجت منها أمه فى ١٨٩٩» ولم يكن بالدفعة التى تخرّجت فيها أمى غير عشرين فتاة يمثلن كل أو معظم فتيات مصر اللواتى أتيحت لهن فرصة الذهاب إلى المدرسة وكانت معظم الفتيات من الأرمن والشوام، ولم يكن من المصريات الخالصات غير ثلاث». ويذكر أخته إنعام التى أفادت من النهضة التعليمية التى أعقبت حصول مصر على الاستقلال فى ١٩٢٢، فقد اختيرت أخته ضمن بعثة حكومية من ست عشرة فتاة من خريجات المدرسة السنيّة بالقاهرة أوفدتهن الحكومة المصرية إلى إنجلترا، والتحقت هذه الأخت بمعهد للفن التشكيلى لتتعلم الرسم، وعندما عادت بعد سبع سنوات كان لها تأثير كبير فى حياة الأسرة، فقد «تغيّر بيتنا تحت تأثيرها، فأعادت تنظيم غرفه، وأضافت عليها لمسة جمالية وملأتها بالرسوم واللوحات، والتى كانت قد رسمتها بنفسها أو اقتنتها، وبالتماثيل التى صبّتها أو نحتتها خلال دراستها بالبعثة.

كما قامت بتغيير الطريقة التى نتناول بها طعامنا الذى أصبحت له ساعات محددة، نتناوله ونحن جلوس فى نظام وبعد أن نرتب المائدة ونضع الشوكة والسكين فى المكان الذى ينبغى أن توضعا فيه، ودون أن يسبق واحد منا الآخر فى الطعام. وأصبح لنا نحن صغار العائلة ميعاد مبكر للنوم..».

كما قامت هذه الأخت بإلحاق أخيها رشدى سعيد بقسم الصبيان بجمعية الشبان المسيحية بالقاهرة، ويقول إن التحاقه بهذه الجمعية كان من أهم ما أثر فى تكوينه إذ كان قسم الصبيان تحت رعاية مرب كبير (يعقوب فام)، صاحب أفكار رائدة فى التربية طبقها فى هذا القسم، فكان الأولاد الذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والسادسة عشرة «ينتظمون فى فرق كانت تسمى أندية، كل منها يدير أموره



ورشدي سعيد

كل هذه الآمال أصيبت بضربة قاصمة فى أوائل السبعينيات، وأخذت آثارها فى التفاقم حتى اضطر رشدى سعيد إلى تقديم استقالته فى سنة ١٩٧٧ إلى وزير الصناعة «فقبلها فى الحال وبعودة البريد وحتى قبل أن يرفعها إلى رئيس الوزراء كما كانت تقضى القوانين»

بنفسه، ينتخب من بين أعضائه رئيسًا وأمينًا عامًا ويقرر برامجه الرياضية والثقافية والترفيهية، ويدخل فى مسابقات مع غيره من الأندية. وشملت هذه البرامج بالإضافة إلى الرياضة البدنية مسابقات القراءة والمناظرات العامة والرحلات والتمثيل والهوايات على اختلافها، والاستماع إلى الموسيقى العالمية والزيارات المنظمة للمتاحف العامة..» (ص٣٦-٣٧).

ثم يصف تعرّفه بوداد التى أصبحت زوجته بقوله «وحدث فى أيام دراستى بجامعة هارفارد أحد أهم وأسعد الأحداث التى غيّرت حياتى وجعلتها أكثر إشراقًا. فقد تقابلت خلالها بوداد الفتاة المصرية التى حملتها الأقدار لتجىء ولعام واحد استقطعته من بعثتها بجامعة برن مور بالولايات المتحدة.. وأعجبت بهذه الفتاة المصرية وبادلتنى الإعجاب والحب وتعاهدنا على الزواج بعد عودتنا إلى مصر وقد تم ذلك بالفعل فى سنة ١٩٥٣». ولا يأتى ذكر الزوجة بعد هذا كثيرًا فى الكتاب، ولكنك تشعر من المرات القليلة التى يذكرها فيها أنها دائمًا معه. وكأنهما قد أصبحا شخصًا واحدًا.

أما عن النساء فى حياة الدكتور يحيى الجمل فإنه يذكر عن أمه أنها كانت لا تقرأ ولا تكتب ولكنها كانت حادة الذكاء قوية الشكيمة «وكانت أقرب إلى القسوة على نفسها وعلى أولادها لا تكاد تترك خطأ صغيرًا دون أن تعنّف مرتكبه من الأولاد أو من الغير أشد التعنيف. وكانت متحفظة فى عواطفها لا تكاد تعبر عنها أو تبديها».. (ص ٣١) وذلك بعكس أبيه الذى كان «الحنان مجسّمًا فى رجل، كان رجلاً طيبًا بكل ما تعنيه هذه الكلمة عند المصرى العادى من أمور منها الإيجابى ومنها السلبى عند هواة تحليل الألفاظ» (ص٢٧). ولا يخفى الكاتب أنه كان يحس بتعاطف أكثر مع أبيه وبتقدير أكبر لأمه (ص٣٣).

يذكر أيضًا حبه الأول وهو فى الثانية عشرة من عمره، وهو لايزال فى القرية وكان بينه وبين محبوبته قرابة، ثم ضربه أخوها عندما علم بهذا الحب، ولكن سرعان ما أصيبت بالحمى وماتت فلم يطل الحب الأول كثيرًا.

تظهر النساء مرة أخرى أثناء دراسته فى كلية الحقوق، عندما رشح نفسه فى انتخابات اتحاد الطلبة عن طلاب السنة الثالثة، ونجح فعلاً فى هذه الانتخابات. وهو يقول إن أحد أسباب فوزه استعانته بفتيات الدفعة اللاتى كن «رغم قلة عددهن آنذاك يلعبن دورا مؤثرا فى الأغلبية الصامتة. كان عدد الطالبات لا يزيد كثيرًا على عشر طالبات، ولكن هؤلاء الطالبات العشرة كنّ محط أنظار طلبة الدفعة كلها والتى كانت تزيد قليلاً على خمسمائة طالب.. وقد تعاهدت الطالبات على مساعدته والدعاية له وسط أبناء الدفعة» وهو يشير بوجه خاص إلى مساعدة «تلك الفتاة الأخرى التى كان أبوها وكيلاً لمحكمة النقض» (ص٩٢-٩٣).

أما أقوى علاقة يشير إليها بينه وبين امرأة، فهى تلك التى نشأت بينه، عندما كان فى الخامسة والعشرين، وبين امرأة أمريكية تكبره بعشر سنوات، أثناء عمله فى ليبيا، وكانت تقيم هى وزوجها الأمريكى فى طرابلس، بينما يعمل هو فى فزان، فكان يلتقى بها كلما ذهب إلى طرابلس. وهو يصفها بأنها كانت «شعنونة» وقليلة الحظ من الجمال، وإن كانت «مثقفة وحادة الذكاء» (ص٢٢٥). ويصف علاقته بها بأنها كانت «رحلة وعرة وإن كانت قصيرة. وتكررت اللقاءات وأحس أن براكين الشباب المكبوتة قد تفجرت فجأة فى أعماقه. وعاش تجربة لم يعرفها من قبل وغرق فى تجربته تلك حتى أذنيه» (ص٢٤٨).

الكتاب لا يتكلم عن زواجه وأسرته، فهو ينتهى فى ١٩٦٢ والمؤلف لم يتجاوز الثانية والثلاثين من العمر، وإن كان الكتاب يحتوى على إشارة سريعة ربما كانت هى المقدمة لما حدث بعد هذا من زواج. ففى أثناء عمله فى ليبيا قرر فجأة أن يعود إلى القاهرة فى رحلة سريعة لا يذكر سببها. وفعلاً لم تتجاوز الرحلة أربعة أيام «وكان يريد فى هذه الأيام القليلة أن يرى كل الأصدقاء، وأن يرى كل الأماكن ولكنه أدرك أنه ليس إلى ذلك من سبيل. وعندما استيقظ فى الصباح وجد نفسه يتجه إلى المكتب الذى عمل فيه لمدة أسبوع قبل تعيينه فى النيابة العامة والذى يعمل فيه الآن اثنان من أعز أصدقائه».

كان هذا المكتب، مكتب مزراحى باشا وصفوت باشا، من أكبر مكاتب المحاماة فى مصر فى ذلك الوقت ويتولى قضايا بعض من أكبر الشركات والبنوك الأجنبية العاملة فى مصر. وأثناء حديثه فى المكتب مع زميليه القديمين «إذا بفتاة صغيرة تدلف إلى حجرة والدها (صفوت باشا) لكى تصحبه إلى حيث تنتظرهم الأم فى السيارة لكى يذهبوا إلى منزلهم فى ضاحية المعادى». ويصف الجمل هذه الفتاة التى كان يفكر فى التقدم لخطبتها بقوله:

«إن الفتاة ناضجة ويبدو أنها على قدر من الحياء والخفر وبها ملاحة، حقًا إنها ليست بيضاء وهو يحب البشرة البيضاء، ولكن البشرة لا أهمية لها. المهم هو (الجوهر) ولكن ما يدريه بالجوهر، إنه لا يعرف عنها شيئًا» (ص٢٣٦).

شخصيات تحظى بالإعجاب وأخرى بالسخط

كان لابد أن يصادف كل من المؤلفين خلال حياته العامة، بعض الشخصيات المهمة التى لعبت دورًا ملموسًا فى تاريخ مصر السياسى أو الفكرى أو العلمى، مما يظفر بإعجاب الكاتب أو سخطه.

أما الدكتور رشدى سعيد فيحظى بإعجابه الشديد من بين العلماء المصريين د. محمد عبدالفتاح القصاص، وإليه يهدى رشدى سعيد كتابه (بالإضافة إلى أخته وداد وزوجها وصديق آخر) ويصفه بأنه «صديق العمر».

وهو يتكلم أيضًا بمودة واحترام بالغين عن المرحوم د. جمال العطيفى، القانونى الكبير ووزير الإعلام فى عصر السادات الذى فقد منصبه لأنه، فيما يروى، صدّق الزعم بأن نظام السادات يمكن أن يسمح بجرعة كبيرة من الحرية فى التعبير عن الرأى. ورشدى سعيد يحمل ذكريات عطرة لأستاذه وعميد كليته د. على مشرفة. أما من المفكرين المصريين فيعبر رشدى سعيد عن تقديره الخاص لسلامة موسى.

يعبّر الدكتور يحيى الجمل بدوره عن إعجابه وامتنانه لبعض العظماء الذين التقى بهم فى حياته. من هؤلاء عباس العقاد، الذى حضر يحيى الجمل بعض الجلسات فى صالونه الشهير ولكنه لا يذكر لنا شيئًا مهمًا عن طبيعة المناقشات التى استمع إليها أو عن شخصية العقاد، وإنما يكتفى بالقول بأن صالون العقاد «كان فرصة رائعة للتعرف والقرب من عدد من القيادات الفكرية التى لم يكن يحلم أن يلتقى بها وهو فى تلك المرحلة من العمر» (ص٧٨).

وممن يحتفظ لهم د. الجمل بعاطفة خاصة من أساتذته فى كلية الحقوق الشيخ الجليل عبدالوهاب خلاف، وهو يذكر له قوة منطقه واستنارته وشدة ثقته بنفسه وتيسيره لمادة صعبة (أصول الفقه) حتى تصبح فى مستوى فهم الطلاب، واستطراده أثناء المحاضرة إلى مناقشة موضوعات خارج المادة التى يدرسها وتتعلق بالحياة العامة. ويذكر له أيضًا أنه كان يركب وسائل المواصلات العامة بينما كان كثير من الأساتذة يركبون سياراتهم الخاصة. كما يذكر له رأيه فى الربا، إذ لم يجد الشيخ «خلاف» غضاضة فى أن يتقاضى البنك فائدة من المقترضين وكثير منهم من الأغنياء (مثل عبود باشا) الذين يحققون أرباحًا طائلة من استثمار ما يقترضون، وأن يعطى البنك جزءًا من هذه الفائدة لمن أودعوا أموالهم فى البنك وقد لا يكونون من الأغنياء، وقال إن هذا لا يمكن أن يعتبر من قبيل الربا الذى حرّمه الإسلام. ولكن د. يحيى الجمل يذكر أيضاً ما رواه عن الشيخ خلاف أحد الحاضرين فى صالون العقاد، إذ قال هذا الراوى مستنكرًا أنه رأى الشيخ «خلاف» وهو يسير فى الطريق إلى منزله وفى يده حزمة من الفجل أو الجرجير، فانبرى الأستاذ العقاد يدافع عن الشيخ وقال إنه لا يرى عيبًا فى أن الشيخ «أراد أن يأكل جرجيرًا فاشترى جرجيرا» (ص١٠٥).

يذكر الكاتب أيضًا بإجلال وتبجيل الدكتور حامد سلطان أستاذ القانون الدولى الذى قبل أن يشرف على رسالته للدكتوراة فى موضوع «الاعتراف بالدولة» يبدو أن امتنانه للأستاذ المشرف كان كبيرًا لدرجة أنه عندما أعلن عن حصوله على الدكتوراة «اختلط الفرح بالدموع وأمسك يد أستاذه حامد سلطان، رحمه الله، يريد أن يقبلها فمنعه من ذلك بشدة ومودة فى آن معًا» (ص٣٠٨).

أما الشخصيات التى حظيت بالسخط الشديد من جانب د. رشدى سعيد فأهمها شخصية أنور السادات، الذى وجد فيه أكثر من سبب لإثارة حنقه ونفوره، يقول عنه «على الرغم من أن الرئيس (السادات) كان فى العلن كثير الكلام عن الشعب المعلم صانع الحضارة التى يعود تاريخها إلى سبعة آلاف سنة، إلا أنه كان فى الخفاء غير مؤمن بقدرات هذا الشعب، مفتونًا بالأجنبى...» ويقول أيضًا عنه: «لم يكن للرئيس السادات خلال حياته كلها أية صلة بأى عمل منتج، ويبدو أن الرئيس عبدالناصر عرف عنه هذا القصور فلم يولّه أية وزارة تنفيذية، ولم يكن لأى من الأعمال التى تولاها قبل أن يصبح رئيسًا للجمهورية أية علاقة بالإنتاج» (ص١٨٦).

ويقول رشدى سعيد: «روى لى أحد رجال الإعلام الأمريكيين بأن هنرى كيسنجر كان يتعمد إلقاء كلمات المديح عن حكمة الرئيس ورؤيته الاستراتيجية فى البرامج التليفزيونية، فى الوقت الذى كان يعرف أن الرئيس يشاهد فيه التليفزيون. وقد فعلت هذه الهالة الإعلانية فعلها وعادت للرئيس الثقة وأخذ يعاير الصحفيين المصريين بأنهم لم يكتشفوا عبقريته كما فعل زملاؤهم من الإفرنج» (ص١٨٨).

لا تجد مثل هذا النقد اللاذع لأية شخصية عامة فى كتاب د. يحيى الجمل.

ظواهر الأمور وبواطنها:

لا يسع من يقرأ كتاب د. يحيى الجمل إلا أن يلاحظ أنه شديد التقدير لمظاهر العظمة والأبهة والرخاء، سواء تعلقت بالسلوك الإنسانى أو بالأشياء المادية البحتة. والظاهر أن هذا التقدير قد بدأ معه مبكرًا جدًا، فهو يذكر مثلاً أنه وهو لايزال طالبا فى المدرسة الابتدائية، دخل المستشفى لمرض ألمّ به ووُضع «فى حجرة فيها سريران فقط»، ولكنه عندما بدأ يقترب من الشفاء وسمح له أن يتحرك قليلاً فى المستشفى «لاحظ أن العنبر الذى كان فيه توجد به حجرة ليس بها إلا سرير واحد. وكان معنى قبول أحد المرضى فى تلك الحجرة أنه صاحب حظوة ومكان كبير، وحرص الفتى أن يعرف من يحتل هذه الحجرة وحده» (ص٤٧) ويقول أيضًا أنه عندما دخل المدرسة الثانوية «ذهب مع والده إلى محلات (عمرافندى) ليشترى تلك البدلة ذات اللون الكحلى التى كان من يراها من أقارب الفتى يثنى عليها وعليه ثناء مستطابًا. وكان الفتى يسر

لذلك سرورًا شديدًا. ومازال حتى يومنا هذا يحب عندما يلبس شيئًا جديدًا أن يسمع رضا عليه أو ثناء ممن حــوله». (ص٥٠ـ٥١). وهو يصف نفسه وهو فى سنوات دراسته الثانوية بأنه «كان من علاماته المميزة ذلك الطربوش الذى يلبسه دائما والذى يزيحه إلى الخلف قليلاً على جبهته ويميل به قليلا نحو اليمين. وكانت رقبته أيضًا وهو يسير فيها انحناءة يسيرة. وكلها من علامات الاهتمام بالذات والدوران حولها. وكان والد صديقه يقول دائمًا من باب المزاح إنه يأسى لرقبة الفتى من تلك الانحناءة التى لابد أن دوامها يسبب له ألمًا. ولكن الفتى يتحمله راضيًا لأن ذلك يظهره بالمظهر الذى يريده لنفسه من أنفة واعتداد واعتزاز» (ص٧٥).

بعد ذلك بسنوات، وأثناء تحضيره للدكتوراة، ذهب مرة لزيارة الدكتور حامد سلطان فى بيته، لمناقشة ما كتبه من فصول الرسالة. ويصف د. الجمل هذه الرسالة على النحو التالى:

«أخذته رجفة خفيفة. ما يظن أنه رأى فى حياته مسكنًا مثل هذا المسكن فى تنسيقه وجماله. كل شىء فيه مرتب وكل شىء فيه جميل.. والحيطان تغطيها لوحات جميلة أصيلة والأرض تكسوها أنواع من السجاد الإيرانى الأصيل.. ومازال منذ يومه ذاك إلى اليوم يحب اللوحات ويسعى لاقتنائها ما استطاع إلى ذلك من سبيل. ومازال تعلقه بالسجاد الإيرانى واضحًا. وزواره يدركون ذلك منذ أن يطأوا عتبات البيت وهو لا يخفى سعادته عندما يبدون تعليقًا جميلاً على البيت...» (ص٢٩٤).

يحيى الجمل ورشدى سعيد

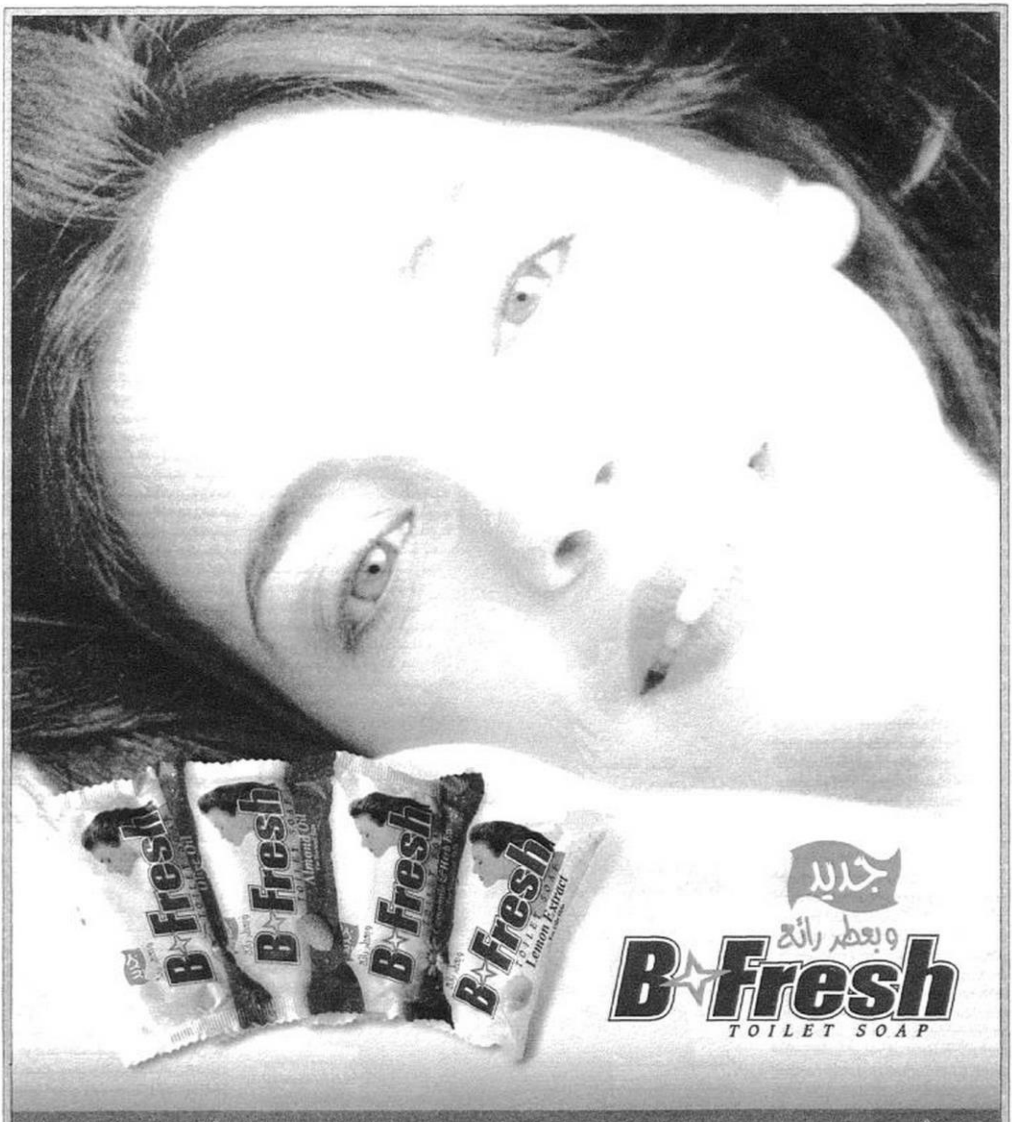




لا يجد قارىء كتاب د. رشدى سعيد مثل هذا الاحتفال بمظاهر الثراء والأبهة. بل إن من الطريف حقًا أن نلاحظ هذا الفارق الصارخ فى هذا الصدد بين الكتابين. إن صاحب «قصة حياة عادية». مفتون بظواهر الأشياء وما يبدو منها على السطح، سواء تعلق بجمال الملبس أو فخامة الأثاث أو جلال المنصب أو لون بشرة من يحب، بينما نجد صاحب «رحلة عمر: ثروات مصر بين عبدالناصر والسادات» دائم الغوص إلى ما تحت السطح، بحثًا عن حقيقة الشىء وجوهره. الأول يدرس القانون ويختار موضوعًا للدكتوراة لا يتعلق بحقيقة العلاقات بين الناس أو بين الدول بل «بالاعتراف بالدولة». أما الثانى فيدرس الجيولوجيا ويقضى بقية حياته مكتشفًا لمنجم لم يكن معروفًا، أو منقبًا عن معدن مدفون فى باطن الأرض.

وكان لابد أن ينعكس هذا الفارق بين الانشغال بظواهر الأمور والانشغال ببواطنها، فى افتتان صاحب «حياة عادية» بعلية القوم ممن بيدهم الحل والعقد والتعيين والنقل والندب والإعارة والترقية، بينما لا يذكرهم صاحب «رحلة عمر» إلا بصدد قضية تتعلق بإصلاح البلد أو تخريبه. ولابد أن يلفت نظر القارىء فى كتاب رشدى سعيد أنه عندما ينشر فى إحدى الصفحات صورة التقطت لأعضاء قسم الجيولوجيا بكلية العلوم فى سنة ١٩٣٩، يذكر تحتها أسماء من ظهروا فى الصورة من الأساتذة المصريين والأجانب، ولكنه يذكر أيضًا اسم «عم عفيفى فرّاش القسم»، وكذلك اسم «محمد القاضى» الفرّاش الآخر الواقف فى الصف الأعلى. وهو لا يجد غضاضة فى أن يكتب وصفًا مطولاً ومؤثرًا للغاية «لعم على»، خادمه المخلص، بمناسبة وفاته فى ١٩٧٨ فيقول عنه:

«واجهتنى أنا وعائلتى أزمة كبيرة بفقدان (عم على) الذى كان يقوم بخدمتنا منذ أكثر من عشرين سنة، إثر حادث بالطريق صدمته فيه سيارة وهو عائد إلى منزله.. كان عم على ـ رحمه الله ـ (على جاد عيسى) أحد أعمدة منزلنا، على الرغم من أنه كان فى وظيفة السفرجى، فقد كنا نعتمد عليه فى إدارة شئون منزلنا، وكان يشرف على نظافته وترتيب حديقته وشراء حاجاته وإعداد طعامه وإرسال بريده وتسلمه وإيداع وسحب الشيكات والنقدية من البنوك، كما كان يحافظ على أولادى عندما كنا نضطر للخروج من المنزل ونتركهم وحيدين فيه.. وكانت أمانته فائقة ومواعيده مضبوطة يستطيع الواحد أن يضبط ساعته عليها.. كنت أنا ووداد والأولاد نتركه وراءنا طيلة النهار وحيدًا فى الفيلا التى أصبحت معروفة باسمه بين سكان المنطقة. وكان عم على طويل القامة أسمر اللون وسيم الشكل حسن الهندام، قفطانه الأبيض يكاد يقطر بياضًا.. وكان بينى وبينه صداقة ومحبة كبيرة، وكنت أقضى الوقت الطويل فى الحديث معه، فقد كان على وعى سياسى يفوق وعى الكثيرين ممن كان علىّ أن أتعامل معهم، وكان يتابع الأخبار عن طريق الراديو، وارتفع قدرى عنده عندما سمع فى إحدى نشرات أخباره عن مقابلاتى مع عبدالناصر، وكان عم على شديد التدّين لا يترك فرضًا، وله احترام كبير للأديان السماوية وأماكن عبادتها والقائمين عليها، كما كان شديد الاحترام والحب لامرأته.. كان بعض زملائه ينعون عليه عمله عند الأقباط، ولكنه كان يصدهم ويأتينى شاكيًا وهو فى حزن شديد على ما آل إليه فهم الدين على أيدى هؤلاء الجهّال.. كان عم على رجلاً نبيلاً، كلمته واحدة لا يعرف اللف والدوران، يحترم عمله ومواعيده والتزاماته، وصادقًا مع نفسه ومع غيره، وحاملاً لتراث عريق من الحضارة لم تفسده مدرسة أو تطلعات لم يكن بالإمكان تحقيقها، وقد وجدنا تعويضه صعبًا» (ص١٧٢ـ١٧٣). ■


جديد
وبعطر رائع
B Fresh
TOILET SOAP
فى قلب الطبيعة زيوت غنية بتنساب بنعومة فى قلب صابون بى فريش لينعش البشرة ويغذيها ويرجع نضارتها ليها .
صابون تواليت
بى فريش
جاذبيتك .. فى نضارة بشرتك

«الأخوان جريم» حكاية الحكايات

تومـــــاس أونيـــــل

■■ منذ زمن بعيد، عاش فى ألمانيا أخوان يحبان القصة الجيدة - تلك التى يختلط فيها السحر بالمخاطرة، والملوك بالأوغاد، وكصبيين، لعبا ودرسا سويا، وقضيا طفولتهما فى مدينة صغيرة، لم يفترقا أبدا. لكن، فجأة وعلى غير انتظار، توفى والدهما، وحل الفقر بالأسرة. اعتلّت صحة أحد الأخوين؛ وشغل الآخر بمتطلبات الحياة. وفى المدرسة، التقيا برجل حكيم قادهما إلى كنز - مكتبة للكتب القديمة تحوى حكايات تفوق كل ماسمعاه سحرا. وبوحى من هذا، شرع الأخوان فى جمع حكاياتهما الخاصة، والحكايات الشعبية ومعظمها على لسان النساء، شابات وعجائز. وسرعان ما أصبح للأخوين كنزهما الخاص - كتاب للحكايات الخرافية التى فتنت الملايين فى أرجاء الأرض على مدار الأجيال التالية.

أطلق الأخوان جريم، جاكوب وويلهلم، على مجموعة قصصهما حكايات الأطفال والأسرة، وصدرت أولى طبعاتها السبع فى ألمانيا عام ١٨١٢. وتضم قائمة المحتويات أسماء العديد من الحكايات الخرافية الشهيرة : سندريللا، الجمال النائم، سنو وايت، رمبلستيلتسكين (وتعرف أيضا باسم القزم وابنة الطحان - المترجم)، ذات الرداء الأحمر، رابونزل، هانزل وجريتل، الضفدع الملك. وفى ثنايا صفحات الكتاب، نلتقى بعشرات الشخصيات الأخرى - حشد من الساحرات، والخادمات، والجنود، وزوجات الأب، والأقزام، والذئاب، والشياطين. وتمثل القصص المائتان والعشر لمجموعة جريم، المستمدة فى معظمها من الروايات الشفهية، أنطولوجيا للحكايات الخرافية وخرافات الحيوان والملح الخرقاء والاستعارات الدينية، التى لايضارعها شىء حتى يومنا هذا.

لقد تغلغلت حكايات جريم الخرافية، كما يطلق عادة على نسختها الإنجليزية، فى ثقافات العالم. يشهد على هذا ترجمة المجموعة إلى مايزيد على ١٦٠ لغة، من الإينوبياتية فى القطب الشمالى إلى السواحلية فى أفريقيا. وفى الولايات المتحدة، يختار القارىء من بين ١٢٠ طبعة. ومجموعة جريم تنافس الإنجيل، من حيث النشر. وقصصها وأبطالها تقفز باستمرار من بين الصفحات إلى كل وسائل التعبير الأخرى : المسرح، الأوبرا، كتب الرسوم الهزلية، الأفلام، اللوحات، موسيقى الروك، الإعلان، الأزياء. وقد شيد اليابانيون، الذين ربما كانوا أكثر المعجبين بالأخوين جريم، حديقتين مستلهمتين من هذه الحكايات. وفى الولايات المتحدة، شكلت المجموعة جانبا كبيرا من المواد الخام التى أسهمت فى تدشين ديزنى كعملاق فى مجاله. ولم تجد سندريللا وسنو وايت صعوبة فى الحفاظ على مكانتهما وسط الأولاد الجدد، سواء كان بيج بيرد أو بارت سيمبسون.

وبالنسبة للأخوين، فإنهما يعتبران روادا فى مجال أبحاث الفولكلور. وقد ترك أسلوبهما المصفى فى القص الخرافى - كان الأخوان جريم



يبذلان جهدا كبيرا فى تحرير وإعادة صياغة مسودات المرويات - أثره على أجيال من كتاب الأطفال، ومهد الطريق أمام أساطين هذا الفن، من هانز كريستيان أندرسون إلى موريس سنداك. لكن قصص الأخوين جريم ليست موجهة للصغار وحدهم. وحسب قول ألفريد كليهانس، راوى القصص المحترف فى ألمانيا، فإن «سن سماع هذه القصص الخرافية هى من ثلاث سنوات وحتى الممات. فعالمنا يبدو تقنيا وباردا. وكلنا بحاجة إلى هذه القصص كى تبعث الدفء فى أرواحنا».

إن مثل تلك الشهرة الجارفة يمكن أن تصدم الأخوين المتواضعين. فخلال حياتهما، حققت المجموعة مبيعات متواضعة فى ألمانيا، حيث لم يزد عدد النسخ المباعة، فى البداية، على عدة مئات سنويا. بل إن الطبعات الأولى لم تكن موجهة للأطفال. فلم يهتم الأخوان بالرسوم، وشغلت الملاحظات العلمية نفس مساحة الحكايات تقريبا.

وكان جاكوب وويلهلم يريان نفسيهما دارسين وطنيين للفولكلور، لا كمرفهين عن الأطفال. وقد بدآ عملهما فى وقت تفسخت فيه ألمانيا، على يد فرنسا نابليون، إلى خليط من الإقطاعيات والإمارات. وكانت نية الحكام الجدد متجهة نحو القضاء على الثقافة المحلية. وكشباب، وباحثين مجدين، تعهد الأخوان جريم مجموعة الحكايات الخرافية كوسيلة لإنقاذ التراث الألمانى الشفاهى المهدد.

وفى الولايات المتحدة، القرن التاسع عشر، كان كثيرون من المدرسين والآباء ورجال الدين يأخذون على المجموعة محتواها الفج وغير المتحضر. ويشجب أحد المعلمين الأمريكيين المجموعة فى ١٨٨٥، بقوله : «تعكس الحكايات الخرافية بإخلاص جلى مجمل منظور وثقافة العصور الوسطى بكل انحيازاتها الجامدة وفجاجتها وبربريتها». كما كانت العقوبات المخيفة الموجهة إلى الشخصيات الشريرة فى القصص موضع غضب ورفض البالغين. ففى النص الأصلى لقصة سنو وايت، تُجبَر زوجة الأب الشريرة على الرقص حتى الموت وهى ترتدى حذاء حديديا أحمر شديد الحرارة. وفى «الخادمة الأوزة»، تُجرد الخادمة الخائنة من ملابسها ويلقى بها فى برميل تتناثر فيه المسامير الحادة، وتُجرجر عبر الشوارع. وحتى يومنا هذا، فإن بعض الآباء الحمائيين يخجلون من حكايات الأخوين بسبب العنف المعروف عنها.

وعلى الرغم من الإقبال الضعيف الذى صادفته فى بعض الأحيان حكايات الأطفال والأسرة، فإن قصصها نجحت فى الرسوخ فى أعماق الجمهور. ولم يكن للأخوين أن يتوقعا أن يتزامن مع ظهور عملهما ازدهار كبير لأدب الأطفال فى أوروبا. وكان الناشرون الإنجليز فى الطليعة، حيث أصدروا كتبا فاخرة مزودة بالرسوم، مثل جاك وساق الفاصوليا ومجموعات أنيقة من الحكايات الفولكلورية،

وكل هذا من أجل إرضاء جمهور حديث التعلم ممن يلتمسون الأفكار النبيلة للأطفال فى سن الحضانة. وعندما رأى الأخوان هذا الجمهور الجديد، شرعا فى العمل من أجل تنقية وتهذيب حكاياتهما، التى ظهرت قبل ذلك بقرون مثلما ينبت زرع الفلاح من الأرض. وعلى يد الأخوين، أصبحت الأمهات القاسيات زوجات أب بغيضات، وصار العشاق غير المتزوجين أطهارا، والآباء مغتصبو الحُرم أعيد تصويرهم فى صورة الشياطين.

وفى القرن العشرين أصبح لحكايات الأخوين جريم الصدارة فوق أرفف غرف نوم الصغار. ولم لا؟ فالقصص تُقرأ مثل أحلام تتحقق : صبية متأنقون وفتيات جميلات، التسلح بالسحر، والانتصار على العمالقة والساحرات والوحوش البرية. إنها كائنات تفوق الكبار المزعجين والأنانيين حيلة ودهاء. ومن المحتم أن يقع الولد والبنت فى غرامها وأن يتعايشا معها بسعادة، حتى بعد الانتهاء من قراءتها، ويعيدا قراءتها مرة بعد أخرى.

ويداوم الآباء على قراءتها لإقرارهم بما تتضمنه القصص من دروس وإرشادات : احفظ وعدك، لاتتحدث إلى الغرباء، اجتهد فى عملك، أطع والديك. وحسب الأخوين، فإن المجموعة تعد «دليلا للسلوك القويم».

وقد وقع الأمريكيون فى غرام حكايات الأخوين جريم عندما قدم والت ديزنى، فى ١٩٣٧، فيلم الرسوم المتحركة سنو وايت والأقزام السبعة، كواحدة من ثلاث معالجات حققت الشعبية لديزنى. وعند تحويل القصة القصيرة إلى فيلم موسيقى مدته ٨٠ دقيقة، لجا ستوديو ديزنى إلى تجميل المادة عن طريق إعطاء الأقزام أسماء مثل sneezy و happy. وفى فيلم سندريللا (١٩٥٠)، صقل ديزنى الحبكة بإضافة مركبة تتحول إلى قرعة عسلية عندما يحين منتصف الليل. وقد تعرضت نصوص الأخوين جريم للعديد من التعديلات والتفسيرات، غالبا بهدف حذف ما قد تحتويه من أمور تثير الاعتراضات مثل العنف الموجه للأشرار، أو جعل الموضوعات أكثر تناسبا مع الذوق المعاصر، وهو ما لانراه إلا فى الطبعات المنقحة. ويتساءل غلاف إحدى الطبعات المعاصرة، بحزن، عما إذا كانت كل محاولات إعادة القراءة لم «تقلل بصورة كبيرة من سطوة الحكايات فى التأثير على مشاعرنا والاستئثار بخيالنا».

وفى الصف الرابع بإحدى مدارس شتيناو بألمانيا، وهى البلدة التى قضى فيها الأخوان جانبا من طفولتهما، استمعت إلى ألفريد كلاينهانز، المعارضة للروايات المتزمتة، تسأل الأولاد والبنات عما فعلت الأميرة لتحول الضفدع إلى أمير فى ذروة «الملك الضفدع»، أول حكاية فى مجموعة الأخوين جريم. وصاح الأطفال : «أعطته قبلة». وقالت كلاينهانز : «لا، إنها قذفت بالضفدع القبيح إلى الحائط بكل قوتها، واستيقظ ليجد نفسه أميرا. هذا ماتقوله القصة الحقيقية». ونظر الأطفال إليها غير مصدقين.

لقد ألقى الباحثون والمتخصصون فى علم النفس، بتعنتهم، بغلالة مضللة على القصص، وذلك بتجاهلهم التساؤل حول مغزاها. هل قذف الضفدع يرمز إلى اليقظة الجنسية



لقد تغلغلت حكايات جريم الخرافية، كما يطلق عادة على نسختها الإنجليزية، فى ثقافات العالم. يشهد على هذا ترجمة المجموعة إلى مايزيد على ١٦٠ لغة، من الإينوبياتية فى القطب الشمالى إلى السواحلية فى أفريقيا. ومجموعة جريم تنافس الإنجيل، من حيث النشر. وقصصها وأبطالها تقفز باستمرار من بين الصفحات إلى كل وسائل التعبير الأخرى : المسرح، الأوبرا، كتب الرسوم الهزلية، الأفلام، اللوحات، موسيقى الروك، الإعلان، الأزياء

للأميرة، كما يؤكد عالم النفس الفرويدى برونو بتلهايم، أم أن الأميرة تقدم نموذجا للدور النسوى، من خلال تحديها للسلطة الأبوية لوالدها الملك، كما يتساءل لوتز روريش الباحث الفولكلورى الألمانى؟. أو - ربما - كان الضفدع مجرد ضفدع.

كذلك، فقد سقطت الحكايات فريسة للمنظرين ورجال الدعاية. فمنظرو الرايخ الثالث حولوا ذات الرداء الأحمر إلى رمز للشعب الألمانى، الذى يُستنقذ من براثن الذئب اليهودى الشرير. وفى نهاية الحرب العالمية الثانية، منع قادة الحلفاء نشر حكايات جريم فى ألمانيا باعتبار أنها تدعم وحشية النازى.

وفى الجامعات الأوروبية والأمريكية، كانت حكايات جريم، خلال السبعينيات، موضع الازدراء على اعتبار أنها تروج لسيادة منظور نسوى للعالم. فعلى الحوائط بألمانيا شوهدت عبارة «الجنون مصدره الحكايات الخرافية». كما أعيدت كتابة بعض القصص بما يتلاءم مع بعض الأذواق السياسية. وفى طبعة منقحة من «سندريللا»، على سبيل المثال، نرى البطلة تنظم نقابة للخادمات المحليات، مما جعل الملك يقبض عليها، وبعد خروجها من السجن تهاجر إلى الولايات المتحدة هربا من طغيان الملوك والملكات. وعندما سئل برنارد لاور، مدير وأمين متحف الأخوين جريم فى كاسل، عن سر هذا الكم من التفسيرات من قبل المحللين النفسيين والباحثين والمنظرين، نظر إلىّ محتجًا بحزن، وقال: «الحكايات تحف فنية! إنها ليست وجبات يومية».

وحيث إن جغرفيا حكايات جريم (الغابات المنذرة بالسوء، والقلاع الحصينة، والأكواخ التى تضيئها النار وشوارع القرى الصاخبة) قد أسرتنى منذ الطفولة، فقد ذهبت إلى ألمانيا لمعرفة ما إذا كان بإمكانى اقتفاء أثر خطوط خريطتى التى تخيلتها، ومحاولة اكتشاف حقيقة هذين الأخوين وكيف أصبحا أبرز رسامى خرائط الوهم الجميل. كانت خطتى تتضمن زيارة بلدات فى هسه حيث عاش الأخوان وسعيا إلى من حكوا لهما القصص، ومعرفة إلى أى مدى حوَّر الأخوان ما سمعا. وكان على أن أتجول فى الطرق الخلفية لأرى ما إذا كانت المناظر التى استحضرتها الحكايات الخرافية لازالت باقية فى ريف هسه.

عندما غادرت فرانكفورت وناطحات سحابها الزجاجية باتجاه الشرق، قاصدا بلدة جريم، كانت الثلوج ترسم خطوطا على الأرض. فباستثناء سنواتهما الأخيرة ببرلين، قضى جاكوب وويلهلم معظم حياتهما فى بلدات صغيرة ومدن إقليمية من مدن ولاية هسه المعاصرة بالقطاع الأوسط من ألمانيا، بالقرب من - ما كان يوما - الحدود مع ألمانيا الشرقية. وباستثناء شريط الطرق الألمانية العريضة والمبانى الأسطوانية المعدنية الجامدة على جانبيه، فإن ريف هسه اليوم يبدو مألوفا للأخوين جريم. القرى ذات الأسقف الحمراء تستكن فى ثنايا التلال، وعلى طول أودية النهر، وترتفع القلاع الحجرية وسط المرتفعات القريبة، والأبراج والحوائط التى تنبت فيها الأعشاب. وتمتد الحقول التى سينضج قمحها وبنجرها قريبا نحو الغابات الكثيفة التى تحيط بالأفق إحاطة الإطار بالكليشيه.

ولد جاكوب وويلهلم، أكبر إخوتهما، يفصل بينهما عام واحد، فى منتصف ثمانينيات القرن السابع عشر فى هاناو، وهى بلدة سوق تبعد عن فرانكفورت مسيرة أقل من يوم بالحافلة. درس أبوهما «فيليب»، ابن رجل الدين، القانون وعمل موظفا ببلدية هاناو، إحدى وظائف الطبقة الوسطى المأمونة. وكان الأب جريم يركز فى وعظه على الإيمان فى الحياة والمثابرة فى العمل والولاء للأسرة. أما أمهما «دوروثيا»، فقد كانت تتيح للأولاد حرية التجوال فى أرجاء البلدة، حيث ربُت فيهما - كما لاحظ ويلهلم فيما بعد - «روح هواة الجمع» بينما هما يطاردان الفراشات والحشرات.

لم يبق أثر لمكان ولادة الأخوين فى هاناو. فقد حل بها الدمار بفعل القصف الجوى خلال الحرب العالمية الثانية، كما هو الحال بالنسبة لمعظم المنازل التى عاشا فيها. وهناك تمثال للأخوين فى مواجهة قاعة المدينة. ويمثل التمثال رجلين بشعر طويل يرتديان الفراك ومستغرقين فى قراءة أحد الكتب. أعظم متعهما. وكثيرا ماترى السائحين وقد تجمعوا عند قاعدة التمثال، وأنوفهم ملتصقة فى كتبهم، التى عادة ماتكون دليلا للسياحة. والتمثال يشير إلى بداية طريق الحكايات الخرافية الألمانى، والذى يبلغ طوله ٣٧٠ ميلا، ويتعرج فى أرجاء وسط ألمانيا إلى مواقع ترتبط بالأخوين أو إلى نماذج لأماكن تدخل السائح فى جو إحدى القصص الخرافية.

بحلول عام ١٧٩١، كانت الأسرة قد انتقلت إلى شتيناو، وهى مركز تجارى صغير آخر فى الشمال الشرقى، حيث تولى الأب منصب قاضى مقاطعة. وقد عاش الأخوان عيشة طيبة فى بيت من الحجر ذى أبراج، تمت توسعته ليصبح مقرا لمحكمة المقاطعة. وهو قائم حتى اليوم كمتحف لمخطوطات الأخوين وتذكاراتهما، إلى جانب معروضات من الرسوم المعاصرة للقصص.

ومثل أبطال الحكايات الخرافية، صادف الأخوان حظا عسرا وعقبات جمة قبل أن يلتقيا بالرجل الحكيم الذى انتشلهما من الظلمات. وقد تم اللقاء فى جامعة ماربورج، حيث التحق بها جاكوب عام ١٨٠٢، لدراسة القانون ولحق به ويلهلم فى العام التالى. وفى محاولتى لاقتفاء أثرهما، طلبت العون من روتروت فيشر، وهى دارسة للحركة الرومانتيكية الألمانية. وقد قادتنى، وهى تتدثر بعباءتها الصوفية وتحمل على كتفها شنطة كتب، عبر شوارع ضيقة منحدرة تعج بالطلبة. وانحرفنا إلى شارع بارفوسر، مرورا بالمبنى نصف الخشبى الذى اتخذه الأخوان مسكنا عندما كانا طالبى قانون فقيرين، وبدأنا فى الصعود نحو مرتفعات ماربورج.

قالت فيشر : «نحن نعرف من خطابات جاكوب أنه سار في هذا الطريق مرات كثيرة. وفي إحدى المرات شكا من أن عدد الدرجات في الشوارع أكثر من سلالم المنازل». وتجاوزنا كنيسة قوطية، ينبعث منها صوت أرغن، إلى منزل حجري ذي طوابق ثلاثة أسفل حصن البلدة تماما. في هذا المكان، تأثر أستاذ قانون أرستقراطي شاب، هو فردريش كارل فون سافيني، لنهم جاكوب للتعلم، وفتح مكتبته الخاصة أمام الأخوين جريم. وكان من شأن هذا تغيير حياة جاكوب. فقد كان يقضي الساعات منكبا على مجموعة سافيني التي تضم مخطوطات نادرة حول ملاحم وحكايات أبطال العصور الوسطى. وقد أيقظت هذه التجربة في جاكوب شغفا لفك غموض الأدب الألماني القديم وحكاياته الفولكلورية وصونها، كما أثرت بدورها في أخيه الأصغر.

لم يكن جاكوب يبدي همة ونشاطا. فقد كان هذا القصير القوي ميالا، بطبعه، إلى العزلة، يكرس كل كيانه للبحث في الكتب. أما ويلهلم، فقد تزوج، في التاسعة والثلاثين من عمره، من دورتشن فيلد إحدى صديقات الطفولة وابنة صيدلي، وأحد المصادر الهامة لقصص المجموعة. وكان جاكوب، الذي عاش حياة العزوبية طويلا، هو الشريك الأبرز من الوجهة الفكرية، حيث تصدى للجانب الأكبر من المبادرة في مشروعاتهما. على أن الأخوين عملا معا على نحو جيد، ووقعا ماتوصلا إليه ببساطة هكذا : «الأخوان جريم».

بدا أول تعاون بينهما، حكايات الأطفال والأسرة، بصورة مرتجلة تقريبا. فخلال انغماسهما في تحرير وترجمة مخطوطات العصور الوسطى، بدأ الأخوان جمع الحكايات الخرافية من أجل صديق لهما يعد لإصدار مجموعة من الأدب الفولكلوري الألماني. وبعد عدة سنوات استطاع الأخوان جمع ٤٩ حكاية، قليل منها من الكتب القديمة والباقي من خلال معارف شخصية في كاسل. لكن عندما أخفق الصديق في نشر المجموعة، قرر الأخوان التوسع في عملهما ونشر كتابهما الخاص.

ولابد أن الظروف المعيشية قد أصابت جهود الأخوين لجمع الحكايات الخرافية بالارتباك. فقد توفيت أمهما في عام ١٨٠٨. وصارت الأموال شحيحة. وعن طريق العمل كأمين مكتبة بمقر الحاكم الفرنسي البغيض، استطاع جاكوب بالكاد أن يرعى أفراد أسرته الخمسة. فقد كان ويلهلم مصابا بالربو وضعيف القلب وغير قادر على العمل. وفي عام ١٨١٢، العام الذي صدرت فيه الحكايات الخرافية للمرة الأولى، كان آل جريم يعيشون على وجبة واحدة في اليوم - وهو ما يمكن أن يفسر لنا لماذا تعاني كثير من شخصيات كتابهما من الجوع.

وعلى الرغم من ظهور طبعات جديدة من الحكايات الخرافية حتى عام ١٨٥٧، أي قبل سنتين من وفاة ويلهلم، فإن جمع كل الحكايات الخرافية الشفاهية تقريبا تم عندما كان الأخوان في عشرينيات عمرهما الحساسة.

وقد بلغ مجموع الأشخاص الذين قصوا الحكايات على الأخوين حوالي العشرين شخصا. وكان كثيرون من رواة القصص يحضرون إلى منزل آل جريم في كاسل. وكان الأخوان يبديان ترحيبا خاصا بزيارات دوروثيا فيهمان، وهي أرملة كانت تذهب إلى البلدة لتبيع بعض حصاد حديقتها. وقد نشأت فيهمان، ابنة مدير الفندق، على سماع القصص من المسافرين المتوجهين إلى فرانكفورت. وكانت سندريللا من بين محتويات كنزها.

وباستثناء فيهمان، فإن الأخوين نادرا ما يحددان مصادرهما. فأسماؤهم والحكايات المنسوبة إليهم لم تُعرف في معظم الحالات إلا بعد الدراسة المتأنية للملاحظات المسجلة على النسخ الشخصية للأخوين من الحكايات.

ولم يكشف النقاب عن الهوية الحقيقية لواحدة من أهم الرواة - تدعى ماري - إلا في منتصف السبعينيات من هذا القرن. وتنسب الملاحظات إلى ماري رواية العديد من أكثر الحكايات شهرة : (ذات الرداء الأحمر)، (سنووايت)، و(الجمال النائم).

وحيث إن أصول كثير من حكايات جريم الخرافية تتجاوز أوروبا إلى الشرق الأوسط والشرق، فإن سؤالا لابد أن يطرح نفسه : إلى أي مدى تعتبر حكايات جريم ألمانية؟ إلى أقصى مدى، هكذا يقول الباحث هاينز رولكه. فحب ضحية الظلم، والبساطة الريفية، والتواضع الجنسي - كلها سمات تيوتونية Teutonic.

كما أن الطابع الخشن للحياة في ألمانيا العصور الوسطى، وهو الزمن الذي دخلت فيه الكثير من الحكايات الموروث الشفاهي، يصبغ الروايات. فمعظم أطفال أوروبا كانوا غالبا مايلقون الإهمال، مثل هانزل وجريتل. وكانت الساحرات المتهمات يعدمن حرقا، مثل زوجة الأب الشريرة في «البجعات الست». فـ «القسوة في القصص لم تكن من نسج خيال الأخوين جريم. إنها تعكس قانون وقواعد نظام الزمن القديم»، كما يرى رولكه.

ولربما كانت أكثر اللمسات ألمانية هي الإلمام غير المحدود بالغابة، وهو المسرح الذي تواجه فوقه بطلات الحكايات الخرافية أعداءهن وتنتصر على الخوف والظلم. والمجتمع الألماني يعتمد تقليديا على الغابة *Wald*. فهناك، يرعى الفلاحون خنازيرهم على الذرة، ويصطاد الملوك الغزلان، ويختار قاطعو الأخشاب زنود الخشب للعوارض الضخمة لكساء الحظائر والمنازل التي لاتزال تُرى في بلدات هسه.

وكان رواة القصص على علم بأن وضع الشخصيات وسط غابات غير مطروقة لابد أن تترتب عليه إثارة مشاعر الخطر والغموض. «لم تكن الغابة تعد مكانا آمنا. وكان على سكان المدن تجنبها. كان هناك خارجون على القانون وصيادون غير مرخصين. وكان الألمان دائما يخافون من الذئاب». هذا ما قاله لي مسئول الغابات هرمان جوزيف راب، ونحن نسير فوق الطرق الرطبة المقطوعة الأشجار عبر رينهاردزفالد، وهي غابة كبيرة فوق تلال هسه الشمالية.

واليوم، تتكاثف في رينهاردزفالد أشجار الزان وتمد ماكينات النشر المحلية بأشجار الصنوبر. لكن إذا أردنا أن نشاهد تلك السنديانات الخالدة التي كانت العملة المفضلة في معظم حكايات جريم الخرافية، فإن علينا زيارة بقايا الغابة القريبة من قلعة سابابورج. قادني راب، الشبيه بجذع إنسان يرتدي سترة خضراء واقية من المطر، إلى تلك الغابة في يوم غزير الأمطار. هنا، ترى أشجار السنديان الكثيفة، التي يعود عمر البعض منها إلى أربعمائة عام أو أكثر، أشبه بمصاب بالتهاب المفاصل، وتبدو مثل أطلال قوطية. أفزعتني الحملقة في الأغصان المقبضة، والطحالب الوحشية الشبيهة بالشعر، والعيون المستديرة، والفجوات المحفورة مثل أفواه فاغرة. كيف طاوع أم «ذات الرداء الأحمر» قلبها كي ترسل هذه الفتاة الرقيقة إلى غابة كهذه؟

وعلى الرغم من المذاق الألماني الطاغي على الحكايات، فإن الإقبال على الطبعة الأولى كان ضعيفا. وفي متحف الأخوين جريم بكاسل، وضع مديره برنارد لاور أمامي النسخة الشخصية للأخوين من الطبعة الأولى. كان يمسك بها كما لو كانت بيضة فابورجيه. قال: «إنها أثمن شيء في المتحف. لم يبق سوى عدد محدود من النسخ التسعمائة الأصلية. كان الورق من نوع رديء للغاية».

ولم تحقق المجموعة نجاحا تجاريا معقولا إلا في عام ١٨٢٥، عندما أصدر الأخوان الطبعة الصغيرة، وهي طبعة مكلفة تحوي ٥٠ قصة مع رسوم لأخيهما لودفيج. وطبعة ١٨٢٥، التي طبع منها ١٥٠٠ نسخة، أكثر ندرة حتى من طبعة ١٨١٢؛ فلم يبق بالمكتبات سوى أربع أو خمس نسخ. ومع أول ظهور لـ الطبعة الصغيرة الرخيصة الثمن، استطاع الأخوان أخيرا التعرف على جمهورهما الحقيقي : الأطفال.

ومع الطبعة الثانية، في عام ١٨١٩، أصبح ويلهلم المسئول الأول عن الحكايات الخرافية، بعد أن تحول اهتمام جاكوب إلى قواعد اللغة الألمانية. وقد أثبت ويلهلم أنه محرر ملهم. فعن طريق تحقيق انسيابية الحبكة لتأكيد الحركة، ونسج القص بالحكم القديمة والأشعار الفولكلورية، واستخدام لغة شعرية في بناء المشهد، استطاع ويلهلم خلق قالب جديد لايزال مثالا يحتذى في كتابة الحكاية الخرافية.

وقد واصل ويلهلم صقل وإعادة صياغة الحكايات حتى الطبعة الأخيرة في ١٨٥٧. ومقارنة الطبعات المتعددة يكشف عن أنه في سبيل جعل القصص أكثر قبولا عند الأطفال وآبائهم من المنتمين إلى الطبقة الوسطى، اتجه ويلهلم إلى استبعاد أي مسحة من الأفعال الجنسية، مثل علاقات رابونزل قبل الزواج والأمير الذي كان يتسلق قلعتها. كما أضاف مفردات مسيحية، توضح الدروس التربوية للحكايات وتؤكد على دور الجنس. وعلى الرغم من أن الأخوين يلمحان إلى أنهما كانا مجرد مسجلين للحكايات، فإن إعادة الصياغة الأدبية والأخلاقية لتلك المرويات كان لها أثرها البالغ في جعل الحكايات تتماشى مع الاتجاه



ألقى الباحثون والمتخصصون في علم النفس، بتعنتهم، بغلالة مضللة على القصص، وذلك بتجاهلهم التساؤل حول مغزاها. هل قذف الضفدع يرمز إلى اليقظة الجنسية للأميرة، كما يؤكد عالم النفس الفرويدي برونو بتلهايم، أم أن الأميرة تقدم نموذجا للدور النسوي، من خلال تحديها للسلطة الأبوية لوالدها الملك؟ فمنظرو الرايخ الثالث حولوا ذات الرداء الأحمر إلى رمز للشعب الألماني، الذي يُستنقذ من براثن الذئب اليهودي الشرير

السائد. «لكن بالرغم من كل ما أضافه ويلهلم، فإن جوهر الحكايات لم يمس». كما يقول رولكه.

إن البصمات التحريرية التي تركها الأخوان تعد خيانة للقيم المحددة للمجتمع الألماني، في القرن التاسع عشر، المسيحي البرجوازي. لكن هذا لم يحل دون استقبالها استقبالا حسنا من قبل كل ثقافات وقوميات العالم تقريبا. فما سر هذا الانتشار العالمي والشعبية الطاغية؟ برنارد لاور يشير إلى «الطابع الكوني» للكتابة. «فليس هناك وصف محدد للأرض، أو الملابس، أو الغابة، أو القلاع. وهو ما يجعل القصص بلا زمان أومكان».

والحكايات تسمح لنا بالتعبير عن «أشواقنا الطوباوية»، كما يقول جاك زيبس من جامعة مينسوتا، الذى استطاع في ترجمته للمجموعة الكاملة من الحكايات الخرافية (١٩٨٧) أن يضع يده على الروح الريفية للنص الأصلي. «إنها تعرض للنضال من أجل السعادة التي لايعرفها أي منا، وإن كنا نشعر بإمكان الوصول إليها. إننا قد نجد أنفسنا في أبطال الحكايات ويترسخون في ذهننا كسادة وسيدات لأقدارنا».

إن الحكايات الخرافية تعد تدريبا للاوعي، ووقاية للمحللين النفسيين. وبرونو بتلهايم، المعروف بإعلائه للقيمة العلاجية لحكايات جريم، يطلق على الحكايات الخرافية «المطمئنات العظام» "great comforters". فعن طريق مواجهة الخوف وأشكال الإرهاب، المتجسدة في الساحرات وزوجات الأب القاسيات والذئاب الجائعة، يتمكن الأطفال من التحكم في قلقهم. ولاتزال نظرية بتلهايم موضع جدل حاد، لكن معظم القراء الصغار لايهتمون بتدريب لاوعيهم. فابنتي لوسي (١١عاما)، تنظر بفتور إلى هزيمة رقيات الساحرات وفوز البطلات دائما برجلهن. وهناك أولاد أعرفهم يهاجمون ترهات مثل العباءة التي تجعل البطل غير منظور والبندقية التي لاتخطىء الهدف أبدا.

إن حكايات جريم تحقق المتعة بطرق لاتحصى. وفيها شيء ما يبدو وكأنه يعكس مزاجنا أو اهتماماتنا على قراءتنا لها. وهذه المرونة في القراءة تجعلها تتلاءم مع كل زمان وأي ثقافة.

لقد ترك جاكوب وويلهلم عملهما كأميني مكتبات في كاسل وتوجها للتعليم بالجامعات في جوتنجن وبرلين. واشتركا في إصدار أكثر من ٣٥ كتابا. كما سجل الأخوان اسميهما في سجل الوطنيين، مضحيين بروحيهما في سبيل الإصلاح الديموقراطي. لكن في سنواتهما الأخيرة، ابتعدا عن السياسة والتدريس كي ينجزا عملهما في وضع قاموس الألمانية، وهو واحد من أكثر المشروعات العلمية طموحا في أوروبا القرن التاسع عشر.

ولم يعش الأخوان حتى يتما القاموس أو ليشهدا تحقق حلمهما الأثير: قيام الأمة الألمانية في عام ١٨٧١. فقد توفي ويلهلم في ١٨٥٩، عن عمر يناهز الثالثة والسبعين. وفي تأبينه، نعته جاكوب بـ «أخ الحكاية الخرافية»، وتوفي بعده بأربع سنوات. وكان قد فرغ لتوه من كتابة مادة «فاكهة» بالقاموس، فجاءت نهاية مناسبة لحياة خصبة.

لقد اختار الأخوان لختام مجموعتهما من الحكايات الخرافية قصة رمزية قصيرة بعنوان: «المفتاح الذهبي». صبي فقير يذهب إلى غابة شتوية لجمع الخشب على زلاجة، وبين الثلوج، يعثر على مفتاح صغير وبالقرب منه صندوق حديدي. أدخل الولد المفتاح في الصندوق، أداره، رفع الغطاء.

وهنا تنتهي القصة. ولمرة واحدة يبتعد الأخوان عن النهايات المرضية. وبدلا من ذلك، وجها دعوة ذهبية، يقبل بها منذ ذلك الحين أعداد لاتحصى من القراء، لفتح كتب الأخوين بمفتاح الخيال. وهي وحدها الحالة التي يمكن للقراء فيها أن يكتشفوا ما ينتظرهم من أشياء مثيرة. ■

ترجمة: بدر الرفاعي
عن مجلة الناشيونال جيوجرافيك

عندما باحت الأرض بأسرارها ..

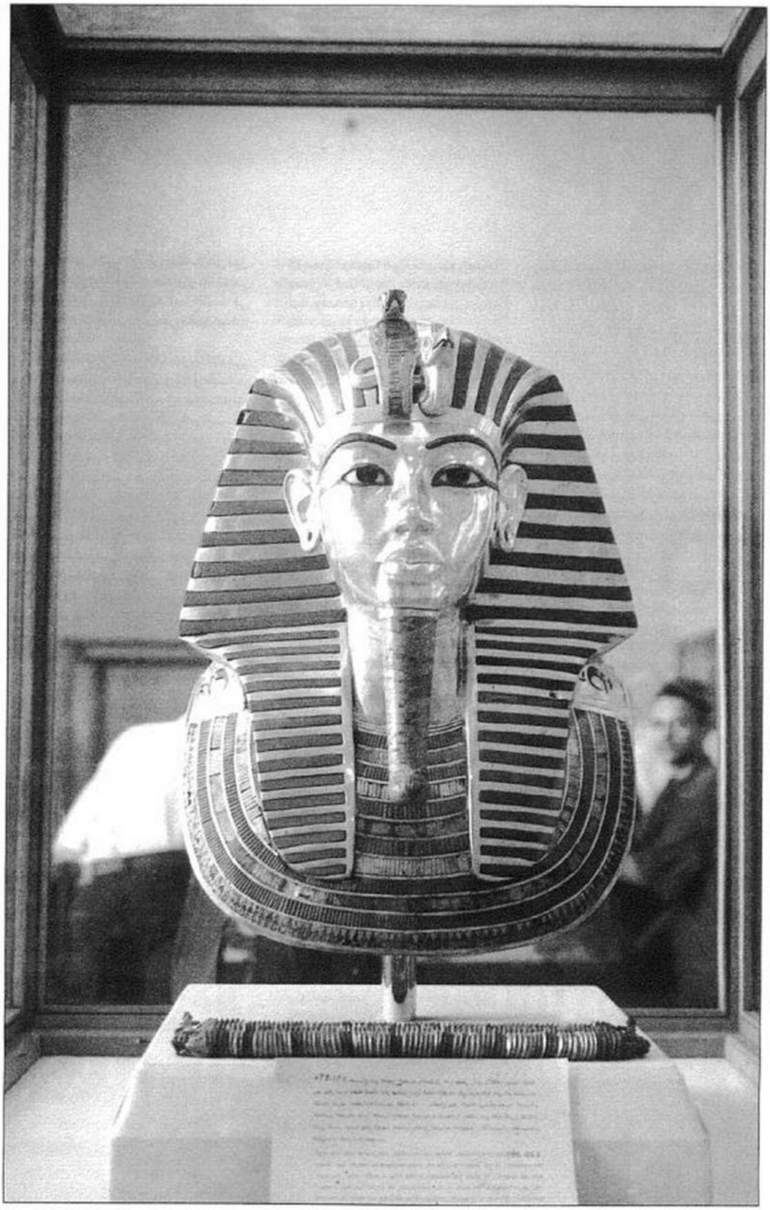
حسين عبدالبصير

خطا القرن العشرون خطوات واسعة فى حقل الآثار فى العالم كله، واتسعت دائرة نطاقه لتشمل اكتشافات اثرية عديدة هزت العالم أجمع منذ لحظة اكتشافها إلى الآن. وإذا نظرنا إلى القرن العشرين نظرة أثرية فاحصة : لوجدنا أنه أعظم القرون قاطبة فى تاريخ البشرية من ناحية الاكتشافات الأثرية. ففيه باحت الأرض باسرارها وحدثت أخبارها، وأخرجت العديد من الروائع الأثرية المدهشة، والتى لم نكن نعرف عنها شيئا من قبل، ونتج كل هذا بفضل التقدم العلمى المذهل وتطور علم الحفائر والبحث والتنقيب عن الآثار واستقلال منهجه عن العلوم الأخرى، وتفرغ رجال بحث ذوى مستوى رفيع كرسوا حياتهم لشيء واحد فقط هو: البحث عن الآثار المفقودة والمدفونة فى باطن الأرض : ففى بحثهم هذا، اللذة والمتعة اللتان لا يعادلهما أى شيء آخر. فضلا عن أنهم يبحثهم عن الماضى لا يبحثون عنه فحسب: بل يبحثون عن الإنسان وعن أسلافه الأقدمين وبالتالى عن أنفسهم وتاريخهم القديم وأصولهم المنصرمة، وإمكانية تتبع كيف كانت كينونته ومعيشته فضلاً عن رصد التطور التقنى والحياتى منذ البداية وإلى وقتنا الراهن.

وأوضح لنا هذا القرن الفريد كيفية انتقال اسلافنا الأقدمين من «حياة الكهف» ومن بشر متوحشين إلى فنانين عظام، صنعوا وأبدعوا رسوما أقل ما توصف به أنها بالغة الروعة، تشهد بذلك جدران كهوف فرنسا. وهو أيضا الزمن الذى تعمقت فيه معرفتنا بجذور البشرية بشكل مثير للدهشة لم يسبق له مثيل فى عمق التربة الأفريقية العريقة، وأجاب عن تساؤلات عديدة كانت تشغل اذهاننا لفترة طويلة من الزمن .وفى عقوده الأولى وأعنى العقد الثانى منه تحديدا،اكتشفت مقبرة الفرعون الذهبى الأشهر «توت عنخ آمون»، واتضح أمامنا كوضوح الشمس كيف كانت الثروة، وكيف كان الجمال متجسدا فى آثار مصر القديمة، وهذه آثار ملك لم يحكم طويلا ومات صغيرا فى أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد وهوما يزال بعد فى الثامنة عشر من عمره الجد قصير، فما بالنا بآثار ملوك عظماء أمثال «تحوتمس الثالث»، و«أمنحتب الثالث»، و«أخناتون» و«رمسيس الثانى» العظيم! وساهم هذا الاكتشاف فى تزايد حمى «الإيجيبتومانيا» (الولع أوالهوس بمصر) فى جميع أنحاء العالم خصوصا فى فرنسا، بل وفى تعلق الغرب بالشرق وسحره، على اعتباره الملهم وصاحب العديد من الرؤى السحرية التى يفتقدها الغرب العقلانى فى الغالب.

وفى هذه المائة عام الأخيرة التى تشكل صلب هذا القرن المنصرم، تغيرت معارفنا تماما باهل الماضى الذين صاغوا ماضينا التليد، وكنا نعدهم أقل تقدمنا مما كنا نتخيل. فقد اكتشفت حضارات عديدة،ومقابر فريدة،وأشياء رائعة جديدة عن أسلاف البشرية الأوائل.

ففى شهر مارس من عام ١٩٠٠م، نجح الإنجليزى السير «أرثر إيفانس» فى العثور على مدينة «كنوسوس» فى جزيرة كريت عاصمة الحضارة المينوية العريقة، وحل لغز هذه الحضارة الإغريقية المفقودة التى بحث عنها طويلا. وفى عقد العشرينيات ما بين ١٩٢٠- ١٩٣٠م، اكتشف الإنجليزى السير «ليونارد وولى» مدينة «أور» السومرية الشهيرة، واستطاع بعثها من الماضى على نحو جديد



قناع الفرعون الذهبى الملك «توت عنخ آمون»

مضفيا صفحة مشرقة جديدة فى تاريخ العراق القديم شديد الروعة والدهشة . وساهم اكتشاف مقبرة الفرعون الذهبى «توت عنخ آمون» على يد المغامر الإنجليزى «هوارد كارتر» فى ازدياد والتهاب الحماس والتوجه إلى الشرق، خصوصا أنها اكتشفت فى توقيت متزامن - عام ١٩٢٢م - مع اكتشاف «وولى» لمدينة «أور». وفى أثناء سنوات الثلاثينيات، نجح الأثرى الإنجليزى الشاب «جراهام كلارك» فى العثور على عظام وأدوات حجرية فى بحيرة جليدية فى منطقة «ستار كار» فى شمال شرق إنجلترا، وأرجع هذه الآثار المكتشفة إلى «العصر الحجرى» معطيا إياها تاريخا يرجع إلى حوالى عشرة آلاف عام قبل الآن. ثم كانت المفاجأة الكبرى التى فجرها لويس ليكى وزوجته مارى ليكى عام ١٩٥٩ م، بالعثور على بقايا إنسان «أوسترالوبيتكوس» (الإنسان الأول المبكر) فى أخدود «أولدفاى» فى شمال شرق تنزانيا فى أفريقيا، وأرخت هذه البقايا بـ«١,٧٥٠,٠٠٠» سنة.

ويحفل القرن العشرون بأسماء العديد من الأثريين والعلماء الذين صنعوا مجده وبهاءه العلمى عبر إنجازاتهم واكتشافاتهم الفريدة، وإضافة إلى ما ذكرنا، نذكر جورج باص «أبا الآثار البحرية»، ودونالد جوهانسون، وموتيمر ويلر، ولويس بنفورد، ووليام فلندرز بترى صاحب الاكتشافات الكبيرة فى مصر ومحيطنا العربى و«أبا المدرسة الحديثة فى علم المصريات»، و ويلارد ليبى . وحققوا نجاحات هائلة فى حقل الآثار ؛ونظراً لكثرة الاكتشافات والمكتشفين، فإننا نذكر أهم هذه الاكتشافات التى غيرت مجرى تاريخ البشرية منذ لحظة اكتشافها، على سبيل المراجعة وإلقاء الضوء عليها بعد أن فارقنا القرن العشرون.

اكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون» قبل ضياع آخر فرصة !

فى الرابع من شهر نوفمبر عام ١٩٢٢م، كان المغامر الإنجليزى «هوارد كارتر» على موعد مع الرمال المصرية لتمن عليه وتكشف له عن واحد من أهم أسرارها الدفينة واستطاع أن يحقق حلم حياته بعد طول عناء وتعب بالكشف عن مقبرة الفرعون الذهبى الأشهر «توت عنخ آمون»؛ ذلك الأثر الفريد من نوعه الذى أذهل العالم منذ وقت اكتشافه إلى هذه اللحظة، والذى طغى على كل الاكتشافات الأثرية الأخرى فى العالم أجمع، وأصبح بحق أهم اكتشاف أثرى فى القرن العشرين دون أدنى مبالغة.

وانطلقت أسطورة الملك «توت» لتغزو أرجاء العالم كله، وأصبح الفرعون الشاب الذى لم يجلس على العرش أكثر من تسع سنوات، بين عشية وضحاها، أشهر ملك فى تاريخ الإنسانية وكتب لاسمه الخلود.

ولقد ثبت من دراسة مقتنيات مقبرة الملك «توت» التى بهرت العالم أجمع :أنها لم تكن تخص وحده، بل كان أغلبها من مقتنيات سلفيه الملكين: والده «أخناتون» العظيم وشقيقه «سمنخ كارع» وتم تجميعها على عجل لإتمام



«كبش فى أجمة» من آثار مدينة «أور» العراقية

عشرة اكتشافات أثرية فى القرن العشرين

اكتشافات أثرية فى القرن العشرين

مراسم دفن الملك الشاب الذى راح ضحية مؤامرة حيكت ضده من قبل أعدائه فى القصر الملكى وكبار رجال البلاط آنذاك أمثال الكاهن الحكيم «آى» وقائد الجيش «حور محب». ولقد ألهبت هذه المقتنيات والطريقة التى اكتشفت بها خيال الباحثين والمولعين بالآثار وأساطيرها على السواء. فنسجوا العديد من القصص والحكايات حول حياة الملك ووفاته: ومن هنا نشأت أسطورة الملك «توت».

تعتبر مقبرة الملك «توت عنخ آمون» هى المقبرة الملكية الوحيدة التى وصلت إلى أيدينا كاملة إلى الآن. فبعد وفاة الملك «توت» بمائتى عام تقريباً، قام عمال الملك «رمسيس السادس»، من ملوك الأسرة العشرين، دون قصد، برمى الأحجار والرمال المستخرجة من حفر مقبرته فوق مدخل مقبرة الملك «توت عنخ آمون»، بل وشيدوا أكواخهم فوق هذا الرديم. ولولا هذه المصادفة العجيبة، لما نجت مقبرة الفرعون الشاب من أيدى لصوص المقابر فى كل زمان، ولما وجدها «كارتر» فى صبيحة الرابع من نوفمبر عام ١٩٢٢م بعد بحث مضن دام خمس سنوات طوال.

وفى عام ١٩١٧م، حصل اللورد «هربرت إيرل كار نافون الخامس» (١٨٦٦ـ١٩٢٣م) على موافقة مصلحة الآثار المصرية بالتنقيب فى وادى الملوك. وكان حلم «هوارد كارتر» (١٨٧٣ـ١٩٣٩م) هو العثور على مقبرة الفرعون الصغير «توت عنخ آمون» بين مقابر وادى الملوك. فطلب اللورد «كار نافون» من «كارتر» أن يجرى الحفائر لحسابه فى الوادى. وكان «كارتر» يتمتع بسمعة أثرية كبيرة : فقد سبق له اكتشاف مقبرة الملك «تحتمس الرابع» عام ١٩٠٣م، بمساعدة الأمريكى «تيودور ديفيز».

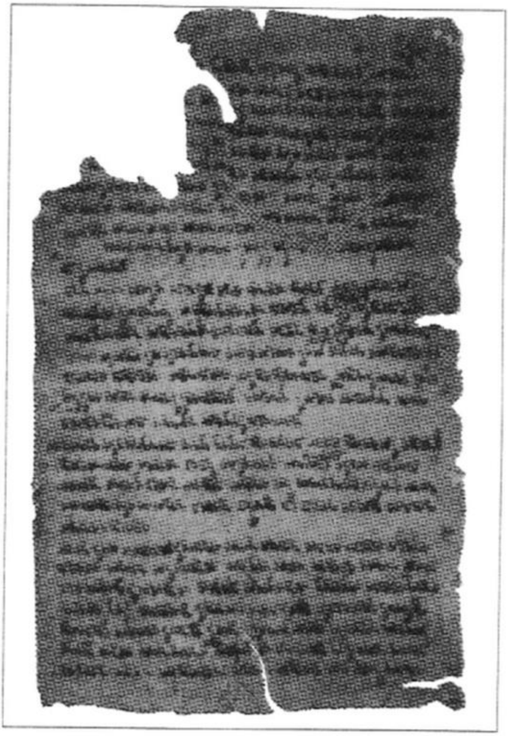
وبدأت الحفائر فى العام نفسه، ومضى دون أية نتائج مشجعة. وتذكر «كارتر» كل ما قاله أسلافه علماء الآثار السابقون أمثال «جان ـ فرانسوا شامبوليون»، و«جاستون ماسبيرو»، و«جيوفانى بلزونى»، من أن الوادى قد لفظ كل ما بداخله. لم ييأس «كارتر» وواصل العمل . فقد كانت ثقة «كار نافون» تدفعه وحبه وصبره يشدان من أزره الذى لا يلين. واستمر الحفر خمس سنوات أخرى دون نتائج مرجوة. ومر صيف عام ١٩٢٢م. كان إيمان «كارتر» كبيرا بانه سوف يعثر على مقبرة الملك الصغير ذات يوم. وبدأ اللورد «كار نافون» يقنط ويهمل الأمر كلية ويدعه جانبا. فطلب «كارتر» منه أن يمنحه فرصة أخيرة: هذا الموسم الذى يبدأ فى أول نوفمبر ١٩٢٢م. واستمر الحفر فى مساحة صغيرة مثلثة الشكل أمام مقبرة الملك «رمسيس السادس» لم يسبق الحفر فيها. لقد كان «كارتر» فى مازق حقيقى إن لم يعثر هذا الموسم الأخير على هذه المقبرة، فسوف يرحل اللورد إلى إنجلترا ويفقد بذلك التمويل المادى وتذهب جهوده المضنية لسنوات طوال وأحلامه أدراج الرياح.

لم يكن «كارتر» يعلم أن صباح الرابع من نوفمبر هو يوم مجده الحقيقى. يقول «كارتر» فى كتابه الممتع عن مقبرة الملك «توت عنخ آمون» فى معرض حديثه عن ظروف الاكتشاف: «هذا هو بالتقريب الموسم الأخير لنا فى هذا الوادى بعد تنقيب دام ستة مواسم كاملة. وقف الحفارون فى الموسم الماضى عند الركن الشمالى الشرقى من مقبرة الملك «رمسيس السادس». وبدأت هذا الموسم بالحفر فى هذا الجزء متجها نحو الجنوب. كان فى هذه المساحة عدد من الأكواخ البسيطة التى استعملها كمساكن، العمال الذين كانوا يعملون فى مقبرة الملك «رمسيس السادس». واستمر الحفر حتى اكتشف أحد العمال درجة منقورة فى الصخر تحت أحد الأكواخ. وبعد فترة بسيطة من العمل، وصلنا إلى مدخل منحوت فى الصخر على بعد ١٣ قدما أسفل مهبط المقبرة. كانت الشكوك وراءه بالمرصاد من كثرة المحاولات السابقة الفاشلة، فربما كانت مقبرة لم تتم بعد، أو أنها لم تستخدم، وإن استخدمت فربما نهبت فى الأزمان الغابرة، أو يحتمل أنها مقبرة لم تمس أو تنهب بعد. كان ذلك فى يوم ٤ نوفمبر ١٩٢٢».

ثم أرسل «كارتر» برقية سريعة إلى اللورد «كار نافون» يقول فيها: «أخيرا، اكتشاف هائل فى الوادى، مقبرة كاملة باختامها، كل شىء مغلق لحين وصولك. تهانينا».

وهكذا سقطت مزاعم علماء الآثار السابقين أمثال «بلزونى»، و«ماسبيرو»، و«شامبوليون» ممن عملوا فى وادى الملوك وزعموا أنه لم يعد هناك شىء فى بطنه. وهكذا تاكد ويتاكد للعالم أن الرمال المصرية لم تبح بكل أسرارها بعد ومازال تحتفظ بالكثير من الآثار الرائعة فى بطنها لأجيال عديدة قادمة حتى تظل مثيرة للدهشة إلى أقصى درجة ممكنة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ثم توالت بعد ذلك مراحل الكشف الأخرى إلى أن تم نقل محتويات المقبرة إلى المتحف المصرى فى القاهرة بينما بقيت مومياء الملك «توت عنخ آمون» فى المقبرة : لتظل شاهدة على حضارة لم ولن تندثر أبدا. وفى النهاية نردد مع «كارتر» قوله: «مازال الغموض فى حياة الملك «توت عنخ آمون» يلقى بظلاله علينا، فعلى الرغم من أن تلك الظلال تتقشع أحيانا، فإن الظلمة لا تختفى من الأفق أبدا». وهذا هو شأن من شؤون الحضارة المصرية القديمة العريقة فى الحقيقة.

إحدى لفائف البحر الميت



مجد «أور» المنسى يضاهى ويسحر الجميع!

نجح السير «ليونارد وولى» فى الكشف عن مدينة «أور» السومرية القديمة، فى العراق، والتى تعد الموطن الأصلى لأحد آباء التوراة المؤسسين وأعنى أبا الأنبياء سيدنا «إبراهيم» الخليل، عليه السلام، وفقا لما أشار إليه «سفر التكوين: ١١». وقد ألهب هذا الكشف خيال الجميع، على الرغم من الاكتشافات الأخرى التى تمت فى المائة والخمسين عاما الماضية فى حقل الآثار فى هذه المنطقة الفريدة فى العالم بآثارها خصوصا الدينية منها، والتى تعد أيضا مهد الحضارات البشرية قاطبة.

وعلى مدار أكثر من ١٢ موسما من الحفائر المتصلة، فى ما بين الأعوام ١٩٢٢ ـ ١٩٣٤م، طيرت صحف العالم مقالات لا تعد ولا تحصى حول اكتشاف «وولى» فى العراق. ووصفته جريدة «لندن المصورة» ـ عين إنجلترا على العالم آنذاك ـ فى ما لا يقل عن ثلاثين مقالة مصورة فى صدر صفحاتها الرئيسية. وجاء هذا الكشف ليؤكد أسبقية الشرق فى إرساء مذاهب ومدارس علم الجمال وتاسيس حضارات عظيمة الثراء. وكشفت أطلال هذه المدينة عن روعة ذلك الشرق الساحر. واكتملت أهمية حفائر «وولى» بالعثور على مقبرة الفرعون الذهبى الأشهر «توت عنخ آمون» فى مصر.

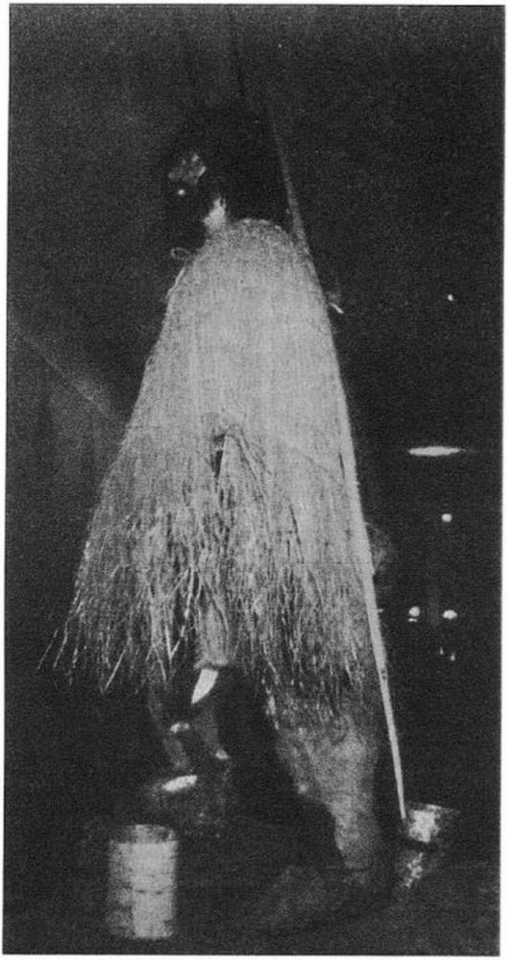
وكان قد اختبر موقع هذا الاكتشاف المهم من قبل، نائب القنصل البريطانى فى البصرة المدعو «جون تايلور» فى ما بين العامين ١٨٥٣ ـ ١٨٥٤م. وعلى الرغم من أنه لم ينجح تماما فى العثور على آثار هذه المدينة كاملة، فقد نجح بعض الشىء فى العثور على الألواح الطينية المنقوشة بالكتابة المسمارية، التى أشارت إلى مدينة «أور» على أنها «أور الكلدانيين» المذكورة فى سفر التكوين فى التوراة.

ثم جرت أحداث سياسية عالمية، كان من أفدح آثارها إغلاق الموقع الأثرى فى وجه أعمال الحفائر، إلى أن وقع فى قبضة البريطانيين فى الحرب العالمية الأولى. فأجريت حفائر قليلة سريعة إلى أن جاء عام ١٩٢٢م، عندما وافق المتحف البريطانى فى لندن ومتحف جامعة بنسلفانيا الأمريكية على إرسال بعثة حفائر مشتركة. وتولى إدارة الحفائر «ليونارد وولى» الذى كان أثريا وضابطا ذكيا للغاية قضى سنتين فى السجن كسجين حرب! وجاءت بداية الحفائر بسيطة ولم تلفت إليها الأنظار. إلى أن جاء موسم ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧م، حيث عثر على ٦٠٠ مقبرة. ثم توالت الاكتشافات المذهلة بسرعة كبيرة فاقت الخيال وكل تصور.

وانتاب «وولى» وفريقه شعور فياض بالدهشة عندما أخذ الذهب يخرج من الأرض تحت ضربات معاولهم، وعندما ظهرت إلى الوجود المعجزات الفنية الواحدة تلو الأخرى. وعثر «وولى» على عدد كبير من المقابر، قدر باكثر من ٢٠٠٠ مقبرة، ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وكان بعضها على قدر كبير من

الثراء؛ مما دفع «وولي» إلى الاعتقاد بأن جميعها مقابر ملكية. وعلى الرغم من أن معظم المقابر قد سرقت، فقد عثر على مقبرة كاملة رائعة تخص السيدة «بو - آبا»، ترجع إلى الفترة التى اصطلح الأثريون على تسميتها بـ «عصر الأسرات المبكر» (٢٦٠٠ - ٢٥٠٠ قبل الميلاد) عندما كانت «أور» ضمن «دويلات المدن» المستقلة على السهل الفيضى الجنوبى لنهر الفرات. واحتوت المقابر آثارا فى غاية الفرادة والروعة مثل القيثارات ذات الزخارف الذهبية، والأوانى والحلى المصنوع من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، والأسلحة التى كانت ترافق الموتى فى رحلتهم إلى العالم الآخر والأوعية والخناجر الذهبية، والتمثال الذهبى المطعم باللازورد لـ «الكبش المصيد فى الأجمة» - حاول «وولى» تفسيره تفسيرات دينية توراتية، حين وصفه بأنه يشبه الذى جاء فى «سفر التكوين ١٣:٢٢» على أنه «كبش يعلق بشجرة»! - ورؤوس الحيوانات المصوغة من الذهب والفضة التى زينت القيثارات الموسيقية، ووشاح الرأس الذهبى الخاص بالسيدة «بو - آبا»، وفوق كل هذا، الخوذة الذهبية الرائعة الخاصة بالسيد «مس - كلام - دوك»، كذلك المواكب الجنائزية الغريبة التى ضمت الموسيقيين مع قيثاراتهم، والجنود بكامل أسلحتهم، وحاشية نساء القصر بملابسهم البهية، كل بمحض إرادته يتجه فى اتجاه حفر الموت الأعظم حيث يتعاطون السم الزعاف المفضى إلى الموت: ليدفنوا فى صحبة سيدهم بعد وفاته مباشرة، حتى يخدموه فى العالم الآخر، فى ما يعرف بعادة «التضحية البشرية» فى المجتمعات القديمة.

سيبقى اسم «أور» مرتبطا عند علماء الآثار بشكل خاص، وإلى الأبد، بـ «الزقورات» أو الأبراج المدرجة التى أقيمت فى «أور»، وبقيت إلى الآن من أكثر نصب ومعالم «أور» إثارة للدهشة والإعجاب المزدوجين. وأضافت هذه الاكتشافات العظيمة فصلا جديدا فى تاريخ العراق القديم، وأوضحت حجم العلاقات التجارية الكبيرة التى تمتعت بها مدينة «أور» العراقية القديمة الشهيرة. ولا يمكن للذاكرة أن تنسى هذه المدينة الفريدة من نوعها، وسوف تبقى قصة اكتشافات «ليونارد وولى» لهذه المدينة، قصة جديرة بالبقاء ومصدر فخر وسعادة للعلماء فى العالم أجمع لسنوات طوال قادمة، وإن كان «وولى» قد أخذ مكافاته بالعثور على الجبانة الملكية الفخمة فى «أور»، فإن أسرار هذه المدينة لم تعلن عن نفسها كلية؛ فهى إنجاز حضارى متواصل العطاء لم تسبر أغواره بعد.



شكل متخيل لإنسان الجليد «أوتسي»

أسرار التوراة المقدسة فى جوف الصحراء القاحلة!

لقد أعادت «لفائف البحر الميت» كتابة التاريخ فى عهد السيد المسيح عليه السلام، وغيرت الرؤية إلى التوراة والدراسات التوراتية عموما، وقادت الباحثين إلى فهم جديد للتاريخ، والآثار، والدين. وتوضح هذه اللفائف التى تحوى أقدم المخطوطات المهمة للتوراة العبرية، حقيقة بزوغ اليهودية والمسيحية كديانات قوية.

فى ربيع عام ١٩٤٧م، وفى كهف قريب من البحر الميت، عثر الصبى محمد الديب، أحد رعاة الأغنام من البدو، على مجموعة من الجرار تحتوى لفائف مخطوطات قديمة. وقد أدى العثور على هذه المخطوطات إلى سجال علمى استمر ما يقرب من نصف قرن، وأصبحت مثار اهتمام القراء ووسائل الإعلام فى كل مكان من العالم. وعثر البدو على المجموعة الأولى من مخطوطات البحر الميت وقدرت بسبع مخطوطات. واتضح معنى هذه المخطوطات وأهميتها بعد عام أويزيد من العثور عليها. وبيعت إلى تاجر عاديات فى «بيت لحم» يدعى «كاندو»، فباع منها ثلاثة إلى الجامعة العبرية فى القدس، والأربعة الأخرى إلى «أثاناسيوس صموئيل» رئيس دير «سانت مارك» للكاثوليك السوريين، فباعها الأخير بدوره فى الولايات المتحدة الأمريكية، وانتهى المطاف بها فى المدارس الأمريكية للدراسات الشرقية. وأخذ اهتمام الدارسين الأمريكيين والأوروبيين يتزايد بها. وعثر الدارسون بين هذه المخطوطات على نسخة من «سفر أشعياء» التوراتي أقدم من النسخة العبرية الأصلية. وساهم هذا الاكتشاف فى خلق صرعة فى وسائل الإعلام وجذب انتباه معظم الباحثين فى العالم.

وانتشرت حمى البحث عن مثل هذه المخطوطات بين البدو وتجار العاديات، واحتوت المخطوطات التى وجدت أجزاءً من نصوص كل كتاب من التوراة العبرية على الأقل. ويرجع تاريخها إلى ما بين عام ٢٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٦٨ الميلادى، وتخص طائفة «العيسويين» نسبة إلى سيدنا عيسى عليه السلام. وهى طائفة إسرائيلية متشددة فى رعاية الأحكام الدينية، وتنتظر الخلاص القريب بظهور المسيح الموعود، وهى أقرب الطوائف الإسرائيلية إلى التطهر من أدران المطامع والشهوات. وقد جعلوا تعاليم الأنبياء جزءاً مهماً من اعتقاداتهم، وعندما أدى هذا العصيان إلى محاربة الكهنة الرسميين لهم، تركوا المدن الكبيرة وخرجوا للحياة بعيدا فى البرية والمدن الصغيرة، وأصبحوا يمارسون عباداتهم سرا حتى لا يبطش بهم الكهنة، وإن كانوا يعتبرون يهودا. فقد كانوا مختلفين عن باقى اليهود فى كونهم يؤمنون بخلود الروح والحساب فى الآخرة. ولا يشتركون فى تقديم الذبائح فى المعبد، ولم يزد عددهم عن أربعة آلاف فرد عند بداية التاريخ الميلادى.

وأصر البعض على أن هذه المخطوطات سوف تبرهن على وجود وألوهية السيد المسيح. فيما أعتقد البعض الآخر أنها احتوت سرا مدمرا للمسيحية على اعتبار محتوياتها الحقيقية تشير بوضوح إلى روح القمع. وتشمل المخطوطات حوالى ٨٠٠ نص، منها حوالى ٢٠٠ نص من التوراة العبرية، أغنت الفهم عن الديانة اليهودية المبكرة، والأصول الأدبية للتوراة، والتبشير بميلاد المسيحية. وكتب معظم المخطوطات أوالبقايا على الرق، والقليل منها على البردى، وواحدة فقط على رقائق نحاسية. وبالإضافة إلى النصوص التوراتية، ضمت تعليقات غير معروفة على التوراة، والأشكال الأخيرة للعهد القديم التوراتي، وقوائم الطقوس والقواعد، والنصائح أوالتعاليم الخاصة بـ «سفر الرؤيا»، وقائمة من الكنوز الدفينة، ومعظمها كتب بالعبرية، والقليل بالآرامية أوالإغريقية.

وتثير لغة ومحتويات هذه المخطوطات بعض الشك فى كون كتابها من اليهود. ويوضح بعض الوثائق أن مجتمعهم كان معارضا نشطا فى مواجهة كهانة يهودية مسيطرة. وعلى الرغم من أن هذه المخطوطات أخذت عقودا من الدراسة، وطبع معظمها فى شكل ما من الأشكال، فإنها ما تزال تمثل التحدى الأكبر أمام الأجيال الجديدة القادمة: لتكشف سرها وتميط اللثام عن معلومات كثيرة مجهولة فى تاريخ اليهودية والتبشير بالمسيحية فى عصرها الأول. خصوصا أنها لم تنشر كلها، فقد أخفت إسرائيل كثيرا منها لغرض ما فى نفس يعقوب قضاها، وادعت فى تمثيلية ساذجة وفجة أنها أخرجت كل ما لديها من هذه الوثائق النادرة التى لا تخصها وحدها، وإنما تخص العالم أجمع، ومن حقه أن يعرف أسرار هذه الطائفة اليهودية المنشقة عن الديانة اليهودية الرسمية السائدة آنذاك.

أنقذت سفينة غارقة فنشأ علم الآثار الغارقة!

عندما غرقت السفينة الأسطورية «تيتانك» فى عام ١٩١٢م، وعلى متنها حوالى ١،٥٢٢ راكبا، واستقرت فى قاع المحيط على مسافة تبلغ أربعة كيلومترات، ظن بعض الناس فى العالم أن هذه أول سفينة تغرق بهذه الضخامة فى مياه المحيطات أوالبحار، لكن الحقيقة غير ذلك تماماً.

فقد غرقت من قبل سفن بحرية عديدة، ومن عصور أقدم، فعلى سبيل المثال غرقت إحدى السفن الكنعانية فى حوالى عام ١٣٠٠ قبل الميلاد؛ أى ترجع إلى ما يطلق عليه مؤرخو الشرق الأدنى القديم «عصر البرونز المتأخر»، وكانت تحوى

العديد من الكنوز الأثرية من الذهب والفضة والأبنوس وعاج الأفيال وأقراس النهر، فى منطقة «أولوبورون» فى جنوب غرب تركيا، ونجح غواصو معهد الآثار البحرية من خلال ٢٢,٥٠٠ غطسة منفردة، فى رفع عشرين طنا من آثار هذه السفينة الغارقة فى أعماق تصل من ٤٤ إلى ٦١ مترا،أثناء أصياف الأعوام ١٩٨٤ ـ ١٩٩٤م.

وكان أبو الآثار البحرية «جورج باص» قد قام بتجربة مماثلة فى عام ١٩٦٠م، عندما كشف عن سفينة غارقة تعود إلى عصر البرونز المتأخر فى تركيا أيضا، وكانت قد غرقت حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد فى «كاب جليدونيا» شرق منطقة «أولوبورون». وكانت أول وأقدم سفينة تكشف كلية فى قاع البحر الأبيض المتوسط. وعثروا على أشياء عديدة تفيد الدراسات الهوميرية (نسبة إلى شاعر الإغريق الأعظم هوميروس)، وعلماء المصريات (إذ عثر على أول جعران ذهبى يصور ملكة مصر الشهيرة الجميلة «نفرتيتى» زوجة الملك الفيلسوف «أخناتون» العظيم)، ودارسى تاريخ الموسيقى، والتكنولوجيا، وتاريخ الفن، وتاريخ الكتابة، وتاريخ الاقتصاديات. وعندما قام «جورج باص» بهذا الاكتشاف المهم، كان طالبا ما يزال يخطو خطواته الأولى نحو تأسيس «علم الآثار البحرية»، أو ما يعرف بـ «آثار تحت الماء» الذى كرس له حياته،وأصبح المؤسس الأول له، وأسس «معهد الآثار البحرية» فى تكساس فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وبالرجوع إلى الحديث عن السفينة الكنعانية الغارقة فى منطقة «أولوبورون» التى أنقذها «جورج باص» وفريقه فى الفترة من ١٩٨٤ ـ ١٩٩٤م،نجد أنها كانت تحمل العديد من التجار المسافرين بتجاراتهم المتنوعة على ظهرها، وتشير آثارها المكتشفة إلى أنها ذات أصول شرقية. واحتوت السفينة مراسى حديدية ذات أصول شرقية أيضا، ومناضد خشبية للكتابة كالموصوفة فى نصوص الشرق الأدنى القديم، وتمثالا كنعانيا من البرونز لسيدة، مطليا بالذهب، قد يمثل الإلهة الحامية للسفينة؟

وأظهرت هذه السفينة حجم شبكة العلاقات التجارية الضخمة التى كانت عليها حال الشرق الأدنى القديم فى هذه الفترة، ويتضح هذا بوضوح من خلال الآثار المكتشفة : فقد عثر على مواد تجارية كثيرة مثل منتجات أفريقيا الاستوائية، وخرز الكهرمان القادم من شمال أوروبا، والبرونز الإيطالى،ورأس حجرية من ساحل البحر الأسود لرومانيا، والختم الأسطوانى المنحوت فى العراق القديم، وجعارين تذكارية من مصر، وفخار ونحاس من قبرص، وسيراميك وخرز وأختام من اليونان، وقصدير من أفغانستان، وأدوات فخارية وأختام وأسلحة من الساحل السورى ـ الفلسطينى، ومعظم هذه الآثار فى حال جيدة من الحفظ .

وهكذا، قام الرائد «جورج باص» بتأسيس «علم الآثار البحرية» الذى ظل يحلم ويعمل به طيلة حياته المديدة، واستمرت المدارس من بعده فى فتح الآفاق نحو العثور على العديد من الآثار الغارقة والسفن التى غابت فى جوف المحيطات والبحار الصاخبة والهادئة على السواء منذ زمن بعيد، وكان اكتشاف واسترجاع آثار السفينة الكنعانية التى غرقت فى منطقة «أولوبورون» منذ عام ١٣٠٠ قبل الميلاد، هو الدافع الأساسى نحو البحث عن هذه الآثار الغارقة، ومن هنا تجىء أهمية «باص» : باعتباره الأول على رأس قائمة طويلة عريضة من علماء وكشاف الآثار الغارقة التى أنقذت فى القرن العشرين من مياه المحيطات والبحار بأنواعها.

عظام بشرية بسيطة تكشف أسرار حضارات أمريكا المدهشة!

يعد البحث عن بقايا سكان أمريكا الأوائل من الموضوعات المثيرة للاهتمام والجدال. ففى بداية عام ١٩٠٠م، وجدت لقية أثرية فريدة بالقرب من «نيومكسيكو»، وأضافت حوالى ٧٠٠٠ عام إلى تاريخ الإنسان فى العالم الجديد.إنها قصة رعاة البقر العزل الذين ولدوا عبيدا. وبدأت أحداث قصتنا فى «رد هورس أرويو»، بالقرب من شمال شرق «نيومكسيكو»، فى بلدة «فولسوم»، وتحديدا فى شهر أغسطس من علم ١٩٠٨م، حينما لاحظ «جورج ماك جونكين» وجود كومة من العظام على ضفة «أرويو». ولما تقصى فى البحث، وجد حفرا مصنوعة بمهارة فائقة، وبها مجموعة من الأدوات الحجرية المصنوعة من الظران (الزلط) ،منفذة بدقة متناهية.كان الإنسان القديم يستخدمها فى هذا العصر لقتل وصيد الحيوانات المفترسة والأليفة، دفاعاً عن نفسه وجلباً لطعامه. ولم يستطع «جونكين» لفت أنظار الآخرين إلى أهمية العظام القديمة التى عثر عليها.فاهتم بها «كارل شافاخهايم» الذى زار الموقع، وجمع العظام فى عام ١٩٢٢م. وفى عام ١٩٢٦م، ذهب إلى مدينة «دنفر» الأمريكية، وعرضها على «جس فجنس» مدير متحف «كولورادو» للتاريخ الطبيعى.

ومنذ ذلك التاريخ، توالت الاكتشافات الأثرية فى العالم الجديد، وأوضحت «تاريخ ما قبل التاريخ» فى هذه المنطقة من العالم التى كانت جد مجهولة من قبل، ولم يكن العلماء يعتقدون فى وجود حضارات فى هذه المنطقة من العالم الجديد قبل سكانها الأصليين من الهنود الحمر، وتعدد الحضارات داخل الأرض الأمريكية بأقسامها الثلاثة : أمريكا الشمالية، وأمريكا الوسطى، وأمريكا الجنوبية أو اللاتينية. وعرفنا أشياء كثيرة عن حضارة «الصحراء» وآثارها الموجودة فى نيفادا وأريزونا، وحضارة «فولسوم» وآثارها فى تكساس وكلورادو ونيومكسيكو، وحضارة «كلوفس» وآثارها فى نيومكسيكو وكلورادو وأريزونا وأوكلاهوما. ثم تعدى الأمر ذلك وامتد البحث إلى حضارات أمريكا الجنوبية، و أزاحت تلك الكشوف الستار عن حضارات بالغة الروعة لم يكن من المتخيل وجودها مثل المايا،والإنكا، والأزتيك، وصنّاع السلال وغيرها . وكانت هذه العظام القديمة البسيطة هى السبب الرئيس فى العثور على هذه الحضارات التى فتح الطريق إليها «كريستوفر كولومبس» بدخوله الأرض الأمريكية عام ١٤٩٣م،واكتشاف العالم الجديد آنذاك.

عاش «أوتسى» فى نهر الجليد ٥٠٠٠ سنة متواصلة!

عندما عثر على جثة قديمة محنطة، تعود إلى خمسة آلاف عام، فى نهر جليدى فى جبال الألب على الحدود الإيطالية ـ النمساوية، منذ حوالى تسع سنوات مضت،تغير مفهومنا عن أسلافنا تماما. فلم يعد العصر الحجرى القديم المتأخر، مجرد حفائر ومكتشفات فقط. فقد أعطى إنسان الجليد هذا العصر وجها جديدا ودهشة ممزوجة بالحلم والمتعة.

وتبدأ أحداث قصته التراجيدية بموته متجمدا فى العراء وحيدا. ثم تكاثرت عليه الثلوج إلى أن أخفت جثته عن أعين وأنوف آكلى الجيف. وساهم الجليد البارد فى الحفاظ على جثته. ثم جاء صيف شديد الدفء بعد أن غاب فترة طويلة تقدر بخمسة آلاف عام، فاكتشف رجل الجليد «أوتسى»، وأعاد باكتشافه الحياة إلى الأوروبيين القدماء. وقد اكتشفه اثنان من السياح الألمان فى يوم ١٩سبتمبر عام ١٩٩١م، فى طبقة متجمدة يبلغ ارتفاعها ٣,٢١٠متر على الحدود بين النمسا وإيطاليا ـ كما سلف الذكر ـ فى المقاطعة المستقلة «بولزانو» (جنوب تيرول). ولم يحفظ الجسد فحسب، بل حفظت أدواته وأسلحته وملابسه كاملة، التى تكون نادرة البقاء عادة: ليختبرها الأثريون. جاءت تسميته بـ«أوتسى» نسبة إلى وادى«أوتس» الذى عثر عليه فيه. وظن البعض عندما عثر عليه فى البداية، أنه واحد من متسلقى الجبال العديدين الذين اختفوا فى جبال الألب فى العقود القليلة الماضية، وقد أحدث اكتشافه صدمة لدى البوليس النمساوى وأهل الجبال المستقلين ؛ لأنهم غير أثريين أو متخصصين فى الحفائر الأثرية، ولم يخطر ذلك على بالهم مطلقا. ولقد عانت الجثة بعض الشىء قبل أن تحدد طبيعتها الأثرية وتأخذ طريقها إلى معامل البحث والدراسة العلمية الجادة.

وعلى الفور، حرر «أوتسى» من الجليد المتراكم عليه، وحفظ فى مخزن بارد يلائم طبيعة البيئة التى جاء منها، وهكذا واجه هذا الإنسان القديم العلم الحديث بكل سلطانه الكبير! واختبر، وقيس، ووجدت طبقة من الغبار على ملابسه. وأرخت خمسة تقارير خاصة بمعامل تاريخ راديو ـ كربون المتطورة، وفاة «أوتسى» بين ٥,٣٥٠ ـ ٥,١٠٠ عام قبل الآن. وكان طول رجل الجليد فى حياته حوالى ١٦٠,٥سم، وعاش ما بين ٤٠ ـ ٤٥ عاما من ناحية العمر. وحمل جسده عددا من الأوشام فى شكل خطين متوازيين حول الرسغ الأيسر، أو على هيئة خطوط طولية أو متقاطعة على كل من جانبى منطقة العمود الفقرى، والركبة اليمنى، وربلتى الساقين، ورسغى القدمين.ولم تكن هذه الأوشام وسيلة سحرية أو لروابط من نوع ما، فقد أوضحت أشعة «X إكس» أنه كان هناك التهاب فى المفاصل والعظام،ويثبت هذا أنها كانت وسيلة علاجية على نحو من الأنحاء. ولعل الكنز الحقيقى الذى عثر عليه علاوة على ما تقدم، هو ملابس هذا الإنسان وطبقة الغبار التى تعلوها. ويبدو أن «أوتسى» كان إنساناً متآلفاً مع حياة الجبال ومعداً إعداداً جيداً للتعامل معها. وتتكون ملابسه من رداء من الحشائش مما يجلب له أكبر قدر من الدفء والراحة فى الحركة. وحذاؤه مدهش للغاية: فهو ضد الماء ويصده،وواسع تماما وطويل، وصمم بحيث يتناسب مع المشى فى الثلوج. وصنع نعلاه من فرو الدب، أما الأجزاء العليا فصنعت من جلد الغزال، ووجدت حشائش ناعمة حول القدمين وفى الحذاء، وشكلت لتشبه الجوارب فى عصرنا الحالى، وكان الهدف من ورائها هو تدفئة قدميه وساقيه، وكان يحيط جسمه بشبكة مصنوعة من لحاء الأشجار.

ومن خلال دراسة أسلحته، وأدواته، ومخزونه من الأدوات البديلة، اتضح أنها سمحت له بالبقاء فى قريته الأصلية دون الحاجة إلى إمدادات إضافية منتظمة. وقد وجدت معه فأس لها نصل نحاسى، وخنجر ظرانى له جراب مصنوع من الألياف النباتية. وأوضحت البقايا النباتية التى عثر عليها فى أدواته، وملابسه، وأسلحته، أنه عاش فى تجمع سكانى حصد لتوه محصول القمح فى وقت قصير قبل أن توافيه المنية مباشرة. وكانت أدواته فقيرة من ناحية الشكل، ومنها قوسان بسهمين، و١٢ سهماً غير جيد الصنع. ويبدو أنه غادر المكان مضطراً، تحت ضغط ما، دون أن يأخذ معه كل أدواته،وهرب متخذاً طريقه فوق سلسلة جبال الألب الرئيسية. وفشل فى الهرب؛ فأعطته وفاته خلوداً أبدياً مضاعفاً لم يمنح لأحد من أفراد قريته الكثر. وأصبح خير سفير للماضى، وألقى الضوء على أحد أسلاف البشرية

إن الرمال المصرية لم تبح بكل أسرارها بعد وماتزال تحتفظ بالكثير من الآثار الرائعة فى بطنها لأجيال عديدة قادمة حتى تظل مثيرة للدهشة إلى أقصى درجة ممكنة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها



من رسوم كهوف «لاسكو» الشهيرة

العظام، وغير نظرتنا تماما عن أهل عصور ما قبل التاريخ. ويحوى متحف «بولزانو» في إيطاليا نموذجاً متخيلاً لهذا الإنسان، فيما بقيت جثته محل دراسة العلماء المختصين إلى الآن.

بعد طول صمت حضارة «المايا» تتكلم أخيراً !

حاولت أجيال عديدة من العلماء فك طلاسم حضارة «المايا» وحل رموزها السحرية مثل «أهرام الشمس»، والرياضيات،والفلك، والعلوم، والفن. وحاولت كذلك فك شفرة نقوشها السحرية المغلقة، وتعد اللغة الوحيدة المكتوبة في ما قبل العالم الكولومبي الجديد. وعلى مدار ٤٥٠ عاما، فشلت كل الجهود والمحاولات. ثم انكسر الطلسم وانفتح سحر هذه الحضارة العريقة التي تعد واحدة من أكثر حضارات العالم إثارة وتأثيراً، وأصبحت حضارة حية،وخرجت إلى الوجود لتبهر العالم بعد أن نطقت لغتها الخاصة، وتوقف الوسطاء عن الحديث بلسانها.

لقد مضت عصور طويلة على هؤلاء الذين درسوا حضارة أمريكا الوسطى المعروفة بـ«المايا» دون معرفة حقيقية واضحة. ثم أصبح انهمار المعلومات والمعرفة بهذه الحضارة أشبه بالفيضان الهادر،خصوصا في العقدين الأخيرين من القرن العشرين. فقد فكت نقوش«المايا» وانتجت لغة مكتوبة، لم يعد يقرؤها أحد منذ القرن السادس عشر الميلادي.ويعد هذا الاكتشاف أعظم الاكتشافات الأثرية الأخيرة الجديرة بالاحترام والتقدير. ونستطيع الآن بكل سهولة معرفة كل شيء كان غامضا عن حضارة «المايا» القديمة، وتستطيع من خلالها لغتها الخاصة أن تخبرنا بقصتها، فقد فتحت أبوابها على قلب التاريخ النابض بأقصى سعتها،وازدهر الدين المشكل لهذه الحضارة، واستمرت حية في الفترة من عام ٢٠٠ ـ ١٫٥٠٠ ميلادية.

وللوهلة الأولى،تبدو نقوش «المايا» المكتوبة أشبه بشكل الباروك للصورة المكتوبة. واستخدم أهل «المايا» في كتابتهم أشكالاً ورموزاً عديدة مثل رؤوس الحيوانات، وأجزاء الجسم البشري، وأشكال الآلهة، وأشياء أخرى عديدة مكتملة الفاعلية السحرية، ورتبت كلها في كتل كي تكوّن النص المكتوب الأساسي.وكان من الشائع من قبل، ولعقود عديدة طويلة،أن هذه النقوش لا تعني شيئاً على الإطلاق أكثر من كونها نظام كتابة تصويرية فقط، من خلاله تمثل كل صورة كلمة رئيسية أوفكرة ما.وثبت خطأ هذه الفكرة تماماً: وثبت أن كتابة «المايا»ليست كتابة تصويرية فقط بل كتابة صوتية أيضاً، استخدمت مجموعة من العلامات، كل منها يمثل مقاطع ساكنة أومتحركة : لنطق الكلمات.

ولقد درس بعض المناطق القليلة في حضارة «المايا» مثل «كوبان»، و«بالنك»، في بداية القرن العشرين، كذلك بعض النصوص القليلة المنقوشة على لوحات حجرية غالبا. وكان معظم كلمات «المايا» القديمة، متفرقاً، إلى أن جاء عام ١٩٥٠م، عندما أقدم اثنان من الدارسين المهمين وعملا باستقلالية تامة وتحرر في الرؤية مع خلفية كبيرة مسبقة عن هذه الحضارة المهمة، وحققا نجاحاً عظيماً في إماطة اللثام عن هذه الحضارة ذات الأسرار الدفينة، وعوضا ما فشل فيه الآخرون لسنوات طوال.

الأول هوالباحث الروسي الشاب آنذاك «يوري كنوروسوف»، الذي كان له اهتمام كبير باللغات وتعلم الكتابة. وزار أرض حضارة «المايا» أثناء الحرب العالمية الثانية لدراسة لغتها؛مدفوعاً بقراءة نسخة طبق الأصل مكونة من ٧٤ صفحة مميزة من«كتاب المايا» المحفوظ في المكتبة الملكية في «درسدن» في ألمانيا، والذي أحضر إلى أوروبا من المكسيك في بداية القرن السادس عشر الميلادي.

وشرع«كنوروسوف» بعينيه الثاقبتين وخبرته الطويلة بالكتابة الهيروغليفية المصرية القديمة، وكتابات أخرى عديدة ـ في دراسة نقوش«المايا» عن طريق بعض الأفكار المسبقة التي ادعاها الباحثون الغربيون، ثم كرر الزيارة بعد ذلك. ودرس «ألفبائية لاندا»، سيئة السمعة، التي كتبها في سنوات ١٥٦٠م، الراهب الإسباني «ديجودي لاندا»، الذي حطم عدداً كبيراً من كتب «المايا» المكتوبة على لحاء الأشجار؛ باعتبارها مدنسة في رأي قداسته ! وفي صفحات قليلة قصيرة، وصفها «لاندا» قائلاً: «فصول مؤكدة، أو رسائل كتبوها في كتبهم، وأمورهم القديمة وعلومهم».وأصر في دراسته غير العلمية أن «المايا» استخدموا «ألفبائية حروفية» مثلما فعل الأوروبيون تماماً! بل وزود النقوش برسوم؛ ليجعلها ممثلة لألفبائية «المايا». وكانت هذه الرسوم المضيفة غير ناضجة بالمرة، ومن الصعب إلحاقها بالنصوص القديمة نفسها. وأقر معظم الدارسين أن الألفبائية لايمكن أن تكون مكونة من مئات الرموز أوالعلامات التي استخدمت في نصوص «المايا» القديمة.

وغاص «كنوروسوف» عميقاً، واستنتج أن فشل الراهب «لاندا» الأساسي، يرجع إلى أنه أساء فهم معنى كتابة «المايا»ب، وأنه أخضع هذه الكتابة إلى النطق الإسباني، فضلاً عن اعتقاده أن النقوش تمثل حروفاً. وتحقق«كنوروسوف» من أن هذه النقوش لا تمثل حروفاً، بل مقاطع كتابية. واختبر فكرته عن طريق نسخة مكتبة«درسدن»التي في حوزته، وبسرعة جاءت النتائج مبشرة، ونشر رؤيته هذه في عام ١٩٥٢م؛ونظراً لأنه نشر هذه الدراسة الأولية بشكل أساسي في بلده الاتحاد السوفيتي، فأخذت سنوات عديدة حتى اعترف بها الغرب. ومع مرور الزمن أصبحت نظرية الشاب الروسي«كنور وسوف» هي الصائبة، خصوصاً تفسيره طبيعة هذه النقوش.

ومن بين الدارسين الذين تعلقوا بدراسة «كنور وسوف»، الباحثة الروسية المولد «تاتنيانا بروسكورياكوف» من متحف هارفارد الأمريكي. فقد أعجبت بأفكار مواطنها «كنوروسوف»، وطبعت بحثها حول لغة «المايا» في عام ١٩٦٠م،وذكرت فيه أن نقوش مدينة«بيدراس نجراس» ـ إحدى مدن حضارة «المايا» ـ احتوت على نماذج من تواريخ اتبعها مؤرخون معاصرون لهذه الحضارة، مثل الميلاد، وتولي العرش، وموت الملوك وأقاربهم.وهكذا، أوضحت الدلالة التاريخية لهذه النقوش، فيما انصب عمل مواطنها «كنوروسوف» على إيجاد قيمة صوتية وقرائية هجائية لهذه النقوش: أي أن عملهما أكمل بعضه البعض.

وفي العقود التالية، تزايد الاهتمام بأدلة «كنوروسوف»اللغوية، وأدلة «بروسكورياكوف» التاريخية. ويدين العديد من الباحثين في أنحاء العالم من المهتمين بدراسة حضارة «المايا»، لهذين الباحثين الروسيين الدءوبين بالفضل في الكشف عن أسرار هذه الحضارة التي كانت غامضة زمناً طويلاً، وبفضل جهودهما أصبح أكثر من ٨٠٪ من نقوش «المايا» مقروءاً اليوم، فضلاً عن المعرفة التامة بنظام الكتابة الذي اتبعه أهل هذه الحضارة العريقة الغامضة المثيرة.

عائلة «ليكي» تعثر على جد للبشرية في أخدود أفريقي !

يعد واحداً من أعظم الاكتشافات الأثرية في القرن العشرين، في أصول علم الإنسان، ذلك الكشف الذي قامت به عائلة«ليكي» في شرق أفريقيا؛والمكونة من الأب «لويس ليكي»، والأم العالمة وأستاذة الحفريات «ماري ليكي»، والابن «ريتشارد ليكي»، وزوجته«ميف ليكي»، فقد استمروا في الحفر سنوات طولا، أثمرت في عام ١٩٥٩ عن الكشف عن واحد من آباء البشرية الأوائل؛وأسسوا بذلك آثار علم الإنسان،وأحدثوا ثورة في تاريخ الإنسان على الأرض،ورجعوا بالفضل إلى صاحبة الفضل: أفريقيا القارة السوداء، أصل الحضارات في العالم كله،ونجحت هذه الأسرة الفريدة في تاريخ العالم والحفر الأثري في كتابة تاريخ أصول البشرية.

وحباً في هذا الهيكل البشري المكتشف الخاص بأحد أنواع الإنسان الأول، أطلق «لويس» و«ماري» عليه «ولدنا» : لأنهما قضيا ثلاثين عاماً تقريباً في البحث عن هذا الولد المفتقد الذي اعتبراه مثل ابنيهما الحقيقيين، وأطلقا عليه رسمياً «زنجانثروبس بويزيَ»، أو«زنج»، الذي أدخل تاريخ علم الإنسان في طور جديد من أطواره العديدة.

وقبل عام ١٩٢٥م، كانت الأدلة الحفرية تشير إلى أن إنسان ما قبل التاريخ جاء من أوروبا وآسيا، فهناك بقايا إنسان «نياندرتال» الأولية من أوروبا، وبقايا إنسان «هوموإركتوس» من الصين. ولم يكن لأفريقيا أي دور يذكر في تاريخ علم الإنسان. وفي عام ١٩٢٥م، أعلن الباحث «ريموند دارت» اكتشافه إنساناً في جنوب أفريقيا يعتبر سلفاً مبكراً للبشرية. وأطلق عليه «إسترالوبثكوس أفريكانوس»،

واشتهر بـ«طفل تاونج». ثم تم اكتشاف حفريات شبيهة فى جنوب أفريقيا أيضاً فى عقود تالية من القرن العشرين. لقد فضّل الأوروبيون أن تكون أصول الإنسان فى أوروبا أوبالقرب منها، ولم يجهدوا أنفسهم فى البحث عن أصول الإنسان فى أفريقيا: حتى أن إنسان «بلتدون» الشهير الذى عثر عليه فى جنوب إنجلترا عام ١٩١٢م وظل معترفا به إلى أن جاء ١٩٥٣م، وفيه اكتشفت حقيقته : وأنه ليس إلا رجلا إنجليزيا عاديا، وأنها قصة مختلقة :الهدف من ورائها رد فضل السبق إلى أوروبا فى تاريخ علم الإنسان وإقرار هبوط الإنسان الأول بها:كما يسعى الخطاب الاستشراقى الاستعلائى الذى يجهد نفسه دائما فى التكريس لسيادة وتفوق الجنس الأبيض الغربى عموما والأوروبى خصوصا على غيره من بقية الأجناس الأخرى.

لكن «لويس ليكى» المولود فى قلب «كينيا» الأفريقية السوداء من والدين بريطانيين : أى أنه ينتمى إلى الجنس المسيطر والمتفوق حضارياً كما كان يزعم أصحاب هذه النظرية لأنفسهم آنذاك، لكنه كان متحرراً فكرياً ومن أشد أنصار مذهب الانتخاب الطبيعى والمنهج العلمى اللذين يقران ويرجعان الفضل إلى أصحابه مهما كان الاختلاف أوالاتفاق معهم:فلم يشك مطلقاً فى مقولة «تشارلز دارون» فى كتابه الأشهر«أصل الأنواع» (١٨٧١م) من أن بدايات البشرية نبعت من أفريقيا. واستهل أول أبحاثه الأثرية فى عام ١٩٢٦م، عندما كان فى الثالثة والعشرين من عمره،وكرس لهذا العمل حياته كلها.وشاركته فى ذلك رفيقة كفاحه الطويل زوجته «مارى».وقد وقع وزوجته على أعظم اكتشافاته فى أخدود «أولدفاى» فى «تنزانيا» فى شرق أفريقيا السوداء، عام ١٩٥٩م.ووصف هذا الكشف فى حينه بأنه أقدم جد للبشرية.

وتبدأ أحداث هذه القصة، عندما عثر الزوجان على العديد من الأدوات الحجرية المقدرة بالمئات، لكن صانع هذه الأدوات حيرهما لعقود طوال. وفى يوم ١٧ من شهر يوليومن عام ١٩٥٩م، مرض «لويس»:فقضى بقية يومه فى معسكر الراحة ولم يخرج إلى العمل. وذهبت زوجته«مارى» إلى العمل بمفردها ولم يشاركها «لويس» الذهاب للمرة الأولى فى حياتهما العلمية العملية المشتركة. فلاحظت حفرة عظام مثيرة، فانحنت عليها لتنظفها: فوجدت أسناناً آدمية ضخمة ! فرجعت إلى المعسكر ثانية لتخبر زوجها «لويس» بما عثرت عليه.وبعد مرور يوم سجل فيه المصور الحفرية فى الموقع، اكتشف الزوجان العالمان الفك العلوى كاملاً ومئات من البقايا التى جمعتها الزوجة «مارى».

وأحدث اكتشاف«إنسان الزنج» أو «زنجانثروبس بويزى» ضجة كبرى، وأطلقت عليه الصحافة العالمية «الرجل كسار البندق»: بسبب أسنانه الضخمة. وأرجعت عائلة «ليكى» تاريخه إلى حوالى ٦٠٠,٠٠٠ سنة مضت، وأطلق عليه «لويس ليكى»: «أقدم إنسان فى العالم». واتضح بعد ذلك، من خلال دراسة علماء جامعة «كاليفورنيا» الأمريكية من الجيوفيزيقيين، مستخدمين وسائل تاريخية حديثة، أن عمر «إنسان الزنج» تقريبا هو١,٧٥٠,٠٠٠ سنة مضت. ومن ثم دخلت أثرية علم الإنسان مرحلة جديدة، وكان محل الميلاد : أفريقيا السوداء.ولا يمكن إطلاق صفة «إنسان» على «إنسان الزنج» الذى يطلق عليه «إنسان» تجاوزاً للتقريب إلى الأفهام والوقوف على أرضية فهم مشتركة بين المختصين والعامة على السواء : لأن هناك أسباباً كثيرة تحول دون ذلك ليس هذا مقام ذكرها.

وكان الابن «ريتشارد ليكى»، يجرى أبحاثاً كبيرة فى الآثار والأحافير النباتية والحيوانية عند الطرف الشمالى الشرقى من بحيرة«رودلف»، فاكتشف برهاناً ساطعاً على وجود جنس «الإنسان العاقل» (الهوموسابينس) ممثلاً فى عدد من العينات التى كانت معاصرة تماماً لحفريات الحيوان. ثم عثر الأب«لويس ليكى» على أولى الحفريات الجزئية لما يعرف الآن باسم «الإنسان الصانع» (هوموهابليس) فى رواسب تعود إلى الحقبة التى ينتمى إليه «إنسان الزنج» الذى عثر عليه،ويشترك النوعان فى ثقافة واحدة :وهذا الإنسان الصانع هو الذى صنع الأدوات الموجودة فى رواسب أخدود «أولدفاى»، ويعد السلف المباشر للإنسان : لذا أطلقت عليه صفة «الصانع».

ومن الجدير بالذكر، أنه فى ٣٠ من شهر نوفمبر عام ١٩٧٤، عثر على إنسان آخر فى شرق أفريقيا أيضا، أطلق عليه اسم «لوسى»، وعاملته وسائل الإعلام على أنه «شخصية مهمة جداً قادمة من الماضى».واكتشفه الباحث «دونالد جوهانسون» فى منطقة «هدار» فى أثيوبيا، وهيكله العظمى كامل بنسبة ٤٠٪، وهو لأنثى كان ارتفاعها حوالى متر، ويؤرخ بحوالى ٣,١٨٠,٠٠٠سنة مضت، وأطلق عليه «أسترالوبيثكس أفرانسيس»، وهوسلف مبكر لـ«الإنسان العاقل» (الهوموسابينس)،ويشبه الطائفة الإنسانية المعاصرة.ولم يوجد أى دليل على استخدامه للأدوات. وفى عام ١٩٧٥م،عثر «جوهانسون» على ما عرف بـ«العائلة الأولى فى تاريخ البشرية»،وهى مئات من البقايا المتحفرة، العائدة إلى عصر«لوسى»،وربما مات أصحاب هذه البقايا فى كارثة ما معاً: مثل فيضان غادر قاتل أوما شابه، مما يوضح ترابطهم فى هذا التاريخ المبكر من عمر الإنسانية الأزلى الطويل.

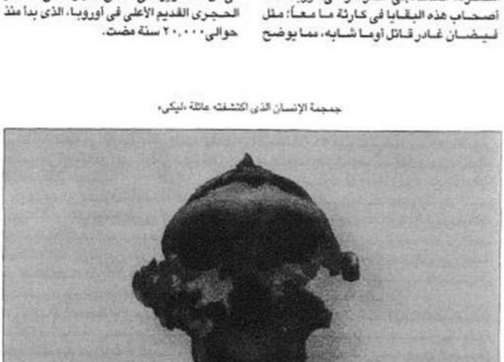
كلب يكشف أسرار فنانى كهف «لاسكو» مصادفة !

عندما شاهد العالم رسوم كهف «لاسكو» فى فرنسا، أذهلت هذه الرسوم ذات الطبيعة البدائية الخاصة بإنسان الكهف، خياله، فقد كان هؤلاء البشر الذين رسموا هذه الرسوم الرائعة، منذ أكثر من ١٧,٠٠٠ سنة مضت، فنانين على درجة عالية من المهارة والاحتراف، وتعد أعمالهم هذه أفضل كثيراً من أعمال فنية عديدة تعود إلى زماننا المعاصر وتمتلئ بها متاحفنا الشهيرة !

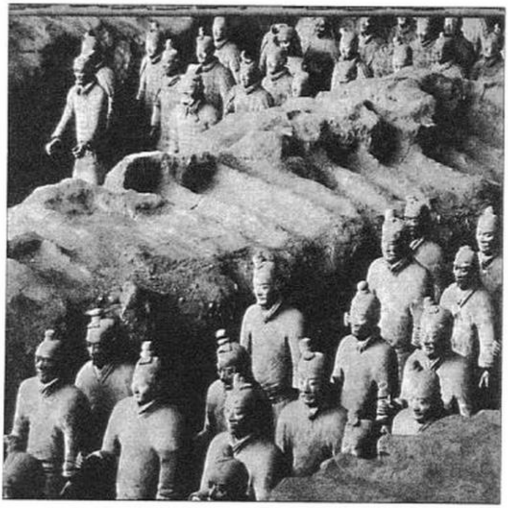
وتعود قصة هذا الاكتشاف الذى جاء بمحض المصادفة البحتة،إلى يوم ١٢ من شهر سبتمبر من عام ١٩٤٠م، حين جرى الكلب الخاص بالصبى الفرنسى «مارسيل رافيدات» مطارداً أرنباً برياً، فسقط فى فتحة فى مرتفعات «لاسكو»، فى «مونتنياناك» فى إقليم«الدردونى»، فى فرنسا.ومن حسن الحظ أن «مارسيل» وثلاثة من أصدقائه كانوا فى أثر الكلب، فاستخدموا سكيناً منزلياً كان معهم لتوسيع الحفرة، وأخذوا شموعاً معهم ليشاهدوا ما بالداخل.وعقدت الدهشة ألسنة الصغار وأزاغت أبصارهم فنون الإنسان القديم التى وقعت عليها أعينهم: فهذه رسوم لخيول وأبقار منفذة بأسلوب فنى بديع ذى تفاصيل عديدة،بالألوان،وتبدو هذه الحيوانات المصورة وكأنها حية فى حركتها، وتعددت أساليب التصوير داخل هذا الكهف المثير،واستخدمت أسطحه فى إكمال العديد من المناظر الفنية المصورة. ويبلغ عدد صور الحيوانات الملونة حوالى ٦٠٠ صورة قائمة بذاتها،ويعد هذا الفن المصور على أسطح هذا الكهف مرحلة مهمة جداً فى فن التصوير على أسطح الكهوف فى العصر الحجرى القديم الأعلى فى أوروبا، الذى بدأ منذ حوالى ٢٠,٠٠٠ سنة مضت.

وفى اليوم التالى، عاد الصبيان بالمصابيح وفحصوا الكهف كله، ثم أخبروا ناظر مدرستهم السابق «ليون لافال»، وطلبوا منه أن يدخل معهم إلى الكهف المدهش . ثم ذاع سر هذا الاكتشاف المدوى، وتوافد أساتذة كبار فى مجالات الفنون والعمارة والآثار لزيارة الكهف الفريد من نوعه. واحتوى الكهف ستة ممرات أو صالات مزينة بحوالى ٦٠٠ صورة و١,٥٠٠ نقش. وليس معروفاً عدد الرسامين الذين زينوا جدران هذا الكهف، وأرخت هذه الرسوم والنقوش ما بين ١٨,٥٠٠ ـ ١٧,٠٠٠ عام مضى، وتسارع الجميع إلى الحفاظ على هذا الكهف الثمين.وفتح للزيارة عام ١٩٤٨م، وبحلول عام ١٩٦٢م، كان عدد زواره ١٠٠,٠٠٠ زائر فى العام، مما أثر على رسومه التى لا تقدر بثمن: فأغلق فى وجه الزيارة منذ عام ١٩٦٣ م إلى الآن،وصنعت نسخة طبق الأصل منه فى السنوات التالية، وافتتحت للزيارة فى عام ١٩٨٣م،يزورها حوالى ٣٠٠,٠٠٠ زائر فى العام.وليس هذا أول ولا أقدم كهف ملىء بالرسوم أوالنقوش يكتشف فى أوروبا: فهناك كهف «ألتاميرا» فى إسبانيا الذى اكتشف فى عام ١٨٧٩م، وكهف «شوفت» فى فرنسا نفسها، الذى عثر عليه فى شهر ديسمبر من عام ١٩٩٤م، ويعود إلى ٣٢,٤٠٠ ـ ٣٠,٣٠٠ عام مضى، ويحوى رسوماً رائعة أيضاً. وهناك أكثر من ٣٠٠ كهف أوماوى تمتلئ برسوم أونقوش من العصر الحجرى القديم، اكتشفت فى كل أنحاء أوروبا من الأندلس فى إسبانيا إلى «أورالس» فى روسيا.لكن أهمية كهف «لاسكو» تكمن فى أنه غنى جداً برسومه وموضوعاته،وفنه المدهش والأخاذ للغاية، وأظهر براعة «الإنسان العاقل أول مبدع الفنون فى العالم» الذى أخرج هذه الرسوم الفنية الرائعة على هذا النحو المذهل، وأوضح أيضاً كيف أن جذور الفن تضرب عميقاً فى أصول البشرية. وتعددت الآراء التفسيرية لهذه الرسوم، فهناك من رأى أن الهدف من وراء هذه الرسوم هوهدف سحرى قصد به الفنان به أن يسيطر على أكبر عدد من هذه الحيوانات بدلاً من البحث عنها ومطاردتها فى أماكن بعيدة، مما يجنبه عناء البحث، أوأن الهدف من ورائها كان دينياً بحتاً قصد به القوم التعبير عن معتقداتهم وآلهتهم البدائية التى يتعبدون إليها : حتى تمن عليهم بالعطاء الوفير من الصيد،وتقيهم الشر وتدرأ عنهم الأذى، وربما عبرت هذه الرسوم عن رغبة ما فى السيطرة والتسلط على هذه الحيوانات بحسبها أقوى وأهم الكائنات فى هذه الفترة والبيئة لدى هؤلاء، ويعنى هذا أن من يسيطر على هذه الحيوانات،يستطيع السيطرة على هؤلاء البشر بالتبعية والضرورة، فالحيوانات هى مصدر الطعام والثياب والثراء، وتعد أفضل الممتلكات فى هذه الفترة وهذا المجتمع البعيد عن زمننا الحالى، فيما قد تكون هذه الرسوم مرتبطة بأساطير قديمة لدى هؤلاء البشر يعبرون من خلالها عن رؤيتهم للعالم ويتذكرون ما مر فى حياتهم من أحداث وذكريات، ويشيرون فيها إلى أسلافهم الأقدمين المبجلين، على الرغم من عدم وجود صور تمثل آدميين سوى صورة واحدة، أو أنها ترمز إلى أشياء ما فى مخيلتهم لم

جمجمة الإنسان الذى اكتشفته عائلة «ليكى»



يستطيعوا التعبير عنها إلا بقوة الرسم،ولم ندر نحن ماهيتها.وفي النهاية،تجدر الإشارة إلى أن هذا الكهف لم يكن مكاناً للسكنى على الإطلاق، بل كان مكاناً مخصصاً للزيارات الموسمية التي يقوم بها سكان هذه المناطق في مناسبات معينة للرسم على جدرانه مزيداً من صور هذه الحيوانات الملغزة، وممارسة طقوسهم،والجلوس في ما بينهم، والتودد إلى بعضهم البعض، ومشاهدة رسومهم السابقة ماثلة أمامهم،وتعديلها إن وجب التعديل،وإضافة ما يرونه مناسباً،إن لزمت الإضافة.



لقطة من جيش التماثيل الذي يحمي امبراطور الصين

جيش من التماثيل يحرس مقبرة الإمبراطور المتوفى ٢٠٠٠ سنة!

في سنوات عقد السبعينيات من القرن العشرين،خرجت الصين من عزلتها الإجبارية التي فرضتها على نفسها بعض الشيء، وانفتحت على الغرب، فأتيح لمشاهدى التليفزيون في العالم أجمع أن يتابعوا مشهداً خارقاً للعادة، تتكون تفاصيله المثيرة التي لا تتكرر كثيراً من جيش قوامه حوالي ٨٠٠٠ جندى من الطمي المحروق (التراكوتا)، وكل جندى بالحجم الطبيعي ولا يشبه أحدهم الأخر على الإطلاق. ويرجع تاريخ الاكتشاف إلى ٢٢٠٠ عام مضى، وكان هؤلاء الجنود في مهمة مقدسة الا وهي حراسة المقبرة الفخمة لإمبراطور الصين العظيم الأول «جين شيهاونج».

وفي مقبرة هذا الإمبراطور الصيني العظيم، أول أباطرة الصين. وجد هذا الجيش الجرار،على أهبة الاستعداد للدفاع عن مجد الإمبراطورية الصينية الممتدة الأرجاء،والذود عن سيده الإمبراطور من أية أخطار قد تحدق به.وحكم هذا الإمبراطور الصين ما بين الأعوام ٢٢١ ـ ٢١٠ قبل الميلاد، أي حوالي ١١ عاماً.ويقف جنوده منذ عام ٢١٠ قبل الميلاد، عام موت الإمبراطور، صامتين في ١١ صفاً.ويبلغ امتداد هذه الصفوف أكثر من مائتي متر في الحجرة السفلية من المقبرة التي قسمت إلى سلسلة من الممرات المتوازية.

واستمرت أسرة هذا الإمبراطور تخلفه في الحكم،وبعد سنوات قليلة من وفاته :حدثت حركة تمرد قام بها الفلاحون واقتحموا مقبرته، وانتقموا من جيشه الجرار الذي لم يحرك ساكناً وأصبح لا حول له ولا قوة، بل زادوا أن سرقوا الأسلحة البرونزية الخاصة بهؤلاء الموتى، أهل العالم الآخر، واستخدموها في حروبهم الدنيوية ضد الأحياء فوق سطح الأرض!

وسوف تاخذ هذه المقبرة، عقوداً عديدة من الأثريين لتكشف كلية : فكل جندى،وكل حصان، وكل عربة حربية بالحجم الطبيعي .ووجد المكتشفون، الجنود ساقطين على الأرض نتيجة ثورة الفلاحين على المقبرة. وصممت أساليب تصفيف الشعر بشكل متقن، وطليت الوجوه بلون أحمر شديد الدموية،ونفذت الأسلحة والسراويل باسلوب رائع،وصنع كل تمثال من الطمي المحروق،وشكل في نمط فريد حتى لا يشبه الأخر:فهو عضو مستقل يرمز إلى أحد أرجاء الإمبراطورية الفسيحة. وقد طلب هذا الإمبراطور جيشاً ليضع حداً لعصر التاريخ الصيني المعروف بـ«دويلات الحرب». وأحضر العديد من الأشياء المطلوبة لفن الحرب: السهام البرونزية التي تقتل على بعد مائتي متر، والعربات الحربية التي يقودها زوجان من الخيول والفرسان بأساليب تصفيف شعورهم الفائقة واردية رؤوسهم المميزة، ورماة السهام، والمشاة،واحتفظ الإمبراطور بكل هذه القوات لحاجته إليها في العالم الآخر. واحتوت إحدى الحفر، الحيوانات المفضلة لدى عظمة الإمبراطور، ونسخة طبق الأصل من عربته الحربية الفريدة ذات الخيول الأربعة المنفذة بنصف الحجم الطبيعي.



أحد فرسان الجيش الصيني مع حصان

ولعل اهم ما عثر عليه في هذه المقبرة، هوالهرم غير المكتشف كاملاً الذي يغطي المقبرة نفسها . وصنعت هذه المقبرة الإمبراطورية من البرونز. وتاخذ شكل مملكة السماء الخاصة بالصين القديمة : ووفقاً لمعتقداتهم فإن الأنهار تجرى فيها والبحار بل والمحيطات. واحتوت المقبرة أيضاً ثروة من المصابيح المملوءة بالزيت وعدداً كبيراً من متعلقات الإمبراطور الشخصية المثيرة والبالغة الأهمية.

وعندما انتهى العمل في هذه المقبرة، وأصبحت معدة أحسن إعداد لاستقبال جثة عظمة الإمبراطور المهيبة، ادخل جسد الإمبراطور إليها وثوى فيها، ودفنت إلى جواره خليلاته الجميلات العديدات اللواتي لم تنجبن أولاداً على الإطلاق. وهكذا قدر لهذا الإمبراطور أن يدفن محاطاً بنسائه وجيشه وعربته الحربية وحيواناته الأليفة. وعمل في بناء وإتمام هذه المقبرة حوالي ٧٠٠,٠٠٠ عامل طيلة فترة حكم هذا الإمبراطور!

هذا ما كشف عنه الأثريون من سطح «مدينة الموتى»، ودون شك، وكما قال مكتشف مقبرة الفرعون الذهبي الأشهر «توت عنخ آمون» المغامر الإنجليزي «هوارد كارتر» : فإن هناك: «أشياء رائعة» ما تزال تنتظر من يكتشفها. وطيرت وكالات الأنباء العالمية أخيراً خبراً يخص هذا الأثر الإمبراطوري الفريد، يرفع الراية الحمراء للفت أنظار الجميع إلى الخطر الذي يتهدد تماثيل جنود الجيش الحراس البواسل : فقد بدأ العفن المكون من ٤٠ سلالة، العدو الحقيقي للتماثيل، ينخر في حوالي ١٤٠٠ تمثال منها، في هجمة شرسة تثير الخوف على مصير هذه التماثيل وغيرها من جنود الجيش العديدين والإمبراطور نفسه ونسائه وعربته وحيواناته الأليفة: وعلى الفور تنبه المسؤولون الصينيون إلى فداحة هذا الخطر، فطلبت سلطات مدينة «شيان» في شمال غرب الصين حيث يوجد أثرنا الفريد، معونة شركة «جانسن فارماكوتيكال» البلجيكية المتخصصة في أبحاث معالجة الفطر للتخلص من العفن الذي يهدد التماثيل الأثرية . وأعلن مؤسس الشركة «بول جانسن»:«أن ٩٠٪ من العفن يمكن معالجته باستخدام الكيماويات». ونتمنى أن تنجو هذه التماثيل الفريدة من الخطر الذي يتهددها حتى لا تفنى مثلها مثل غيرها من آثار البشرية الكثيرة التي كان مصيرها الفناء .

لقد حفر الأثريون للبحث عن «أشياء رائعة» في الأرض، خلال المائة عام الماضية. وأضاف كل اكتشاف وراء الأخر، لبنة سميكة في صرح البشرية الشامخ. ومن ثم ازدادت معرفتنا بماضينا على نحو أكثر دهشة وعمقاً وغنى. ولا تعد بداية القرن الأثرية المعرفية كنهايته على أي نحو من الأنحاء. ويعود بعض الفضل في تحقيق معظم هذه الاكتشافات الكبيرة خلال قرننا العشرين، إلى واحد من الاكتشافات العلمية المهمة في مجال الكيمياء،وأعنى «ثورة راديو ـ كربون» التي أحدثها العالم الكيميائي الكبير «وليارد ليبى»، وحصل عن اكتشافه هذا على جائزة «نوبل» في الكيمياء من ملك السويد«جوستاف» عام ١٩٦٠م. وقد هز هذا الاكتشاف الكبير علم الآثار وزلزل كيانه زلزالاً، وقلب التواريخ رأساً على عقب، وعرفنا كيف يمكن التأريخ عن طريق «راديو ـ كربون» والتحقق من تاريخية الأشياء أو زيفها. وجاء هذا الاكتشاف هذه المرة من العقل البشري وليس من بطن الأرض ككل مرة، وبفضله أمكن معرفة التواريخ الحقيقية لمعظم الأشياء غالباً، ولم يحدث بعد ذلك ما يماثله من ثورة في تاريخ مفردات الآثار والحضارات القديمة. وأصبح الآن معظم الأثريين في العالم يفكرون ويكتبون عن طريق «راديو ـ كربون» الذي يعد دليلاً حقيقياً على مدى قوة وعظم إنجاز «ليبى» العظيم.

وسوف يظل علم الآثار في تطور دائم واكتشاف مستمر: مادام هناك جديد مدهش ومثير، وما تزال الأرض ممتلئة بالعديد من الأشياء والآثار المدهشة التي لم تخرج من بطنها بعد، وسوف يحقق الإثارة والمتعة ويرسم البسمة والفرحة على وجوه الكثيرين في العالم، سواء أكانوا آثاريين مختصين أومجرد هواة عاشقين مهتمين. ■

التاريخ

وكيف يدرسه التلاميذ المصريون

قاسم عبده قاسم



«التاريخ ذاكرة الأمة». عبارة تتردد كثيرًا في صياغات مختلفة الشكل متشابهة المضمون، ويبدو أن كثرة تكرار العبارة قد أوهم البعض أنها من قبيل العبارات «المُعَلَّبة» والصياغات الجاهزة، أو الشعارات التي يمكن إخضاعها للسياسة.

بيد أن الأمر جدّ لا هزل فيه ولا لعب. وبناء «ذاكرة الأمة» يبدأ بتلقين تاريخها لأبنائها وهم في سني الطفولة، ويتصاعد التلقين تدريجيا مع نمو الطفل ودخوله في سن الشباب، بحيث يستوعب الخطوط العامة لتاريخ وطنه وأمته قبل الدخول في معترك الحياة العملية.

والتاريخ ليس مجرد ذاكرة «حافظة» للتاريخ فحسب، وإنما هو ذاكرة «حافظة» و«حافزة» أيضًا، ولعل هذا هو السبب في أن التاريخ كان نمطًا من المعرفة الإنسانية صاحب البشر منذ خطواتهم الأولى على سطح هذا الكوكب، بل إن الرغبة الطبيعية لدى الإنسان في معرفة الماضي لازمت الإنسان بشكل يكاد أن يكون غريزيًا، ومن ناحية أخرى، فإن الإنسان - على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة - به ميل غريزي إلى تخليد نفسه من خلال التاريخ. فقد أدرك الإنسان أن الموت هو الحقيقة الوحيدة المؤكدة في هذا الكون، وعندما عجز عن قهر الموت توسل إلى تحقيق ذلك من خلال تسجيل تاريخه الذي يحمل أعماله ومنجزاته. وما النقوش البدائية على جدران الكهوف سوى برهان ودليل على هذه الرغبة الإنسانية الغريزية في الخلود من خلال التاريخ.

وإذا كان التاريخ هو وسيلة الإنسان لمعرفة الماضي من ناحية، ووسيلة الإنسان في تخليد نفسه من ناحية أخرى، فإن ذلك يعني في التحليل الأخير أن التاريخ هو أداة الإنسان في التعرف على ذاته، وعلى أصول الظواهر والعلاقات والمؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من حوله، وإذا كان التاريخ «ذاكرة الأمة»، فإن معرفة ما تحويه هذه الذاكرة تساعد الإنسان على بناء ثقته بنفسه في الحاضر والمستقبل، ذلك أن معرفة الذات هي أولى خطوات المعرفة الحقة، والمعرفة الحقة هي أولى خطوات التقدم والازدهار ومنذ البداية كانت «قراءة الماضي» (أي فحص ذاكرة الجماعة الإنسانية) هي الطريقة التي يفهم بها الإنسان حاضره، ويستعين بها على التقدم نحو مستقبله، وهذا هو السبب في حرص الجماعات الإنسانية قديمًا على قراءة الماضي لفهم الحاضر، ولما كانت معلوماتهم ناقصة كما كانت وسائلهم العلمية قاصرة، جاءت قراءتهم للماضي من خلال الأساطير ومن خلال شجرات النسب الحقيقية والخرافية تعويضًا للنقص في «ذاكرة الأمة». لكن المثير واللافت للنظر أن الحرص على ذاكرة الجماعة تمثل في أساطير الأصول التي تنسب كل شعب إلى نسب إلهي أو مقدس من ناحية، وتمثل في الملاحم والقصص والحكايات والأيام (عند العرب) التي تجسد المنجزات المجيدة لكل جماعة من ناحية ثانية، كما تمثل في شجرات النسب القبلية التي عرفتها كل شعوب الأرض من ناحية ثالثة.

لقد حرصت القبائل قديمًا على تلقين أنسابها وأمجادها لأبنائها في محاولة منها لبناء ذاكرة الجماعة (القبيلة)، كما تحرص الدول على تلقين تاريخها لأبنائها منذ تفتح زهور طفولتهم بطريقة واعية بقصد بناء «ذاكرة الأمة». ولا يخلو برنامج دراسي في بلد من البلاد من تدريس تاريخ هذا البلد أو ذاك بشكل واع يهدف إلى أن يكون الوعي بالتاريخ

مجموعة المناهج الدراسية في الدراسات الاجتماعية والجغرافية والتاريخ للمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية في مصر.

أحد المكونات الأساسية لثقافة الإنسان، ولهذا السبب كانت كتب التاريخ التى يتم تدريسها بالمدارس من الأهداف الرئيسية لكل الغزاة والمحتلين والمستعمرين، فعلها النازى فى فرنسا، كما فعلها الإسرائيليون فى الأرض المحتلة، وفعلها كثيرون غير النازى والصهاينة.

وقد حدثت فى مجال التعليم المصرى «حوادث» كثيرة متناقضة فى العقدين الأخيرين، وقد حاولنا أن نفهم ملامح الفلسفة الكامنة خلف ما يحدث، لكننا أدركنا أن «الحوادث» لا منطق لها ولا فلسفة. ولكن إحدى هذه «الحوادث» كانت من الجسامة، بحيث طرحت أسئلة كثيرة حول ما يجرى فى مجال التعليم: ذلك أنه مع نظام الثانوية العامة الجديد تم استبعاد التاريخ عمليًا من مواد الدراسة على الرغم من وجوده ضمن المواد الاختيارية. واستدرك المسئولون ذلك بعد أن شعروا بعدم رضى الرأى العام، فجعلوا مادة التاريخ مادة تدرس مرة واحدة فى عامين!

ويقودنا هذا إلى لب موضوع هذه الدراسة - كيف يدرس التلاميذ المصريون تاريخهم؟ (بداية، ينبغى أن نشير إلى أن كل برامج الدراسة الحديثة فى الجامعات الأمريكية، التى يحلو للمسئولين أن يقتدوا بها دائما، تفرض فى برامجها «مقررًا» فى التاريخ على كل طلبة الجامعة يهتم بتاريخ بلادهم. وفى كليات الإنسانيات تكون هناك مقررات إجبارية فى التاريخ بحسب التخصص، والجامعة الأمريكية بالقاهرة تفرض على جميع طلابها مقررًا إجباريًا A Syrvery of Arab History، ثم تتنوع مقررات التاريخ حسب التخصصات فى الإنسانيات والعلوم الاجتماعية).

هذه الدراسة اعتمدت على قراءة الكتب التى قررتها وزارة التربية لتدريس التاريخ فيما بين السنة الرابعة الابتدائية ومرحلة الثانوية العامة. وسوف نقوم بقراءة مضمون كل كتاب وتحليل هذا المضمون ثم نسوق ملاحظاتنا العامة فى نهاية عرض كل كتاب.

أول كتاب يحمل مادة شبه تاريخية هو كتاب السنة الرابعة الابتدائية الذى يحمل عنوان «الدراسات الاجتماعية» وهو يقع فى جزءين، يحمل الجزء الأول عنوانًا فرعيًا هو: «محافظتى جزء من مصر» والجزء الثانى عنوانه الفرعى نفس العنوان. وقد شارك فى التأليف ستة، اثنان منهم يحملان لقب دكتور وأربعة بدون ألقاب علمية. يقع الجزء الأول فى خمس وثلاثين صفحة من القطع المتوسط متضمنة الصور والخرائط والأشكال، وقد تم تقسيم الكتاب إلى خمس وحدات: منها وحدة خُصصت للتاريخ!

يبدأ الكتاب بتمهيد عن معنى الدراسات الاجتماعية، ثم تتوزع الوحدات الخمس على دراسة المحافظة التى تقع فيها المدرسة من النواحى الجغرافية والتاريخية، وما يتوافر فيها من موارد طبيعية وبشرية وبعض النواحى الخاصة بالأعياد والأحداث التاريخية والشخصيات البارزة.

ويحتل التاريخ «الوحدة الرابعة» من وحدات الكتاب (ص٣٧-ص٤٢) تحت عنوان «أحداث وشخصيات»، وتتضمن هذه الصفحات الست الأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية المجيدة فى المحافظة، أما الجزء الثانى من الكتاب، فليس به ذكر عن التاريخ.

وربما تكتمل الصورة إذا قدمنا نماذج لبعض هذه الأحداث المجيدة التى تضمنها جدول بعنوان «الأحداث التاريخية المجيدة فى محافظات جمهورية مصر العربية» مع تنبيه بأن يكتفى التلميذ بدراسة ما يرتبط بمحافظته فقط).

فمن أحداث محافظة القاهرة ثورة ١٩١٩!

ومن الأحداث التاريخية المجيدة فى الشرقية بناء مدينة العاشر من رمضان!

ومن أحداث الإسكندرية خروج الملك فاروق.

هكذا يبدأ بناء ذاكرة الأمة عند التلميذ فى الصف الرابع من خلال نظرة موظف فى الإدارة المحلية يرى الأمور بنظرة جزئية تجعل كل تلميذ فى محافظة ما يتعرف على تاريخ مختلف عن التاريخ الذى يتعرف عليه قرينه فى محافظة أخرى. والمضحك فى الأمر أن نرى حدثًا فى جسامة ثورة ١٩١٩ م وأهميتها جزءًا من تاريخ «محافظة» القاهرة وحدها. على حين أن الموظفين الذين ألفوا هذا الكتاب اعتبروا أن خروج الملك فاروق من مصر حدث تاريخى «اسكندرانى»!

ومن يطالع جدول الأحداث التاريخية فى هذا الكتاب سوف يقع فريسة لنوبة من الضحك ولكنه «ضحك كالبكاء». وتكتمل الصورة بجدول آخر يضم «الشخصيات التاريخية المجيدة» فى محافظات جمهورية مصر العربية مع التنبيه بأن يكتفى التلميذ بدراسة الشخصيات التاريخية فى محافظته فقط». وإذا تأملنا توزيع الشخصيات التاريخية على المحافظات سنجد أننا أمام جماعة مؤلفين يكتبون التاريخ بمنطق موظفى الإدارة المحلية:

ففى هذا الجدول (ص٤٢) نجد:

القاهرة: المعز لدين الله الفاطمى - شجرة الدر - مصطفى كامل - صلاح الدين الأيوبى . وقد خطر ببالى أن توزيع الشخصيات التاريخية على المحافظات قد تم حسب البطاقات الشخصية أو العائلية: ولكنى تذكرت أن هذا «الاختراع» لم يكن معروفا آنذاك.

الإسكندرية: الإسكندر الأكبر - سيد درويش - بيرم التونسى - سيدى أبو العباس المرسى (هكذا).

المنوفية: عبد العزيز فهمى - محمد أنور السادات - محمد حسنى مبارك

أى أن على التلميذ «المنوفى» أن يدرس أن الرئيسين السادات ومبارك من رموز وطنه (محافظة المنوفية) ولا يجوز لأى تلميذ غير منوفى أن يدرس تاريخهما. كما أن الإسكندر الأكبر لا تنبغى دراسته خارج «محافظة» الإسكندرية.

شمال سيناء: أبو الأنبياء إبراهيم.

جنوب سيناء: سيدنا موسى - القديسة سانت كاترين (هكذا)!

هل يمكن أن يكون هناك عبث وعدم إدراك بأهمية التاريخ فى بناء الشخصية الوطنية أكثر من ذلك؟ وهل يمكن أن يبدأ التلميذ فى سن التاسعة أو العاشرة بناء وعيه بوطنه وتاريخ أمته بهذا الشكل الذى يجعل من كل «محافظة» قبيلة تنافس القبائل الأخرى بأحداث تاريخها ورموز هذا التاريخ؟! وأين بناء الوعى بوحدة الأمة وتجانسها الذى تم بناؤه عبر آلاف السنين؟

فى الصف الخامس الابتدائى يدرس التلميذ كتابًا من جزءين بعنوان: (الدراسات الاجتماعية - بيئات وشخصيات مصرية) - الجزء الأول يقع فى ست وأربعين صفحة منها خمس عشرة صفحة للتاريخ تتضمن الصور والرسوم والأشكال.

قامت بتأليف الكتاب مجموعة من ستة مؤلفين هم الذين قاموا بتأليف كتاب الصف الرابع الابتدائى. ولنا أن نتأمل ما حواه الكتاب من مادة تاريخية:

الوحدة الثانية (ص١٢/ص١٨) أهدافها: أن يذكر التلميذ مراحل توحيد مصر، وأن يتعرف على شخصية موحد مصر، وأن يوضح أثر وحدة مصر فى حضارتها، ويلخص جهود أحمس لطرد الهكسوس، وأن يدرك مظاهر سوء معاملة الهكسوس للمصريين.

كلام جميل، ولكن!

ما يتعلق بالملك مينا وتوحيد القطرين مكتوب فى ثلاث صفحات (ص١٤/ص١٦) منها صفحة ونصف للتدريبات وبها أربعة أشكال مصورة تصويرًا رديئًا، أما مضمون هذه الصفحات فيحتاج إلى ما هو أكثر من الدهشة والغضب!

وبقية المادة التاريخية فى هذا الجزء تقع فى الوحدة الرابعة (ص٢٩/ص٣٨) تحت عنوان شخصيات من التاريخ الإسلامى (عمرو بن العاص - صلاح الدين الأيوبى - قطز) وأهداف الوحدة طموحة للغاية، ولكن مضمون الصفحات متواضع للغاية.

إن تركيز التاريخ حول الشخصيات الفردية يرسب فى وعى التلاميذ فكرة الفرد القادر على كل شىء من ناحية، ويطمس الفكرة الأساسية من استخدام التاريخ فى بناء ذاكرة الأمة لأنه يجعل من الشعب كمًا مهملاً، ويرسخ قيم الحكم الفردى والدكتاتورية من ناحية أخرى

المضحك فى الأمر أن نرى حدثا فى جسامة ثورة ١٩١٩ وأهميتها جزءاً من تاريخ «محافظة» القاهرة وحدها، على حين أن الموظفين الذين ألفوا هذا الكتاب اعتبروا أن خروج الملك فاروق من مصر حدث تاريخى «اسكندرانى»!

أما الجزء الثانى فيقدم خمس شخصيات من تاريخ مصر الحديث والمعاصر (محمد على - أحمد عرابى - سعد زغلول - طلعت حرب - جمال عبد الناصر)

والهدف من هذه الوحدة (ص٩/ص٢٦) أن يتعرف التلميذ على حالة مصر أيام الحكم العثمانى - يفسر أسباب الحملة الفرنسية على مصر - يقدر جهود محمد على فى بناء مصر الحديثة - يفسر دور سعد زغلول وثورة ١٩١٩م - يقدر دور طلعت حرب فى بناء اقتصاد مصر - يتعرف على إنجازات ثورة ١٩٥٢م.

أهداف تصلح لطالب جامعى متمرس على استخدام المصادر والمراجع، ولكن تلميذ الصف الخامس عليه أن يحققها من سبع عشرة صفحة مكتوبة بطريقة ساذجة ومملة فى نقاط ملخصة لكى يسهل حفظها واسترجاعها فى الامتحان، ويتخللها حوار ينقصه الذكاء. ومن هذه الصفحات السبع عشرة خصص المؤلفون خمس صفحات لأسئلة وتدريبات تؤكد على الحفظ والاسترجاع.

إن تركيز التاريخ حول الشخصيات الفردية يرسب فى وعى التلاميذ فكرة الفرد القادر على كل شىء من ناحية، ويطمس الفكرة الأساسية من استخدام التاريخ فى بناء ذاكرة الأمة لأنه يجعل من الشعب كمًا مهملاً، ويرسخ قيم الحكم الفردى والدكتاتورية من ناحية أخرى، فضلاً عن أن إغفال تاريخ الأمة ودور أبنائها صناع التاريخ الحقيقيين يقوض ثقة الفرد فى وطنه وأمته، وقد انتهى زمن البطل التاريخى الفرد منذ زمن طويل. ومن ينظر فى كتب التاريخ التى يدرسها التلاميذ فى الأمم الأخرى يجد اهتمامًا واضحًا بتاريخ الأمة والجماعة مع وضع الأبطال والرموز فى سياقهم التاريخى الطبيعى. ومن ثم، فإن ما فعله المؤلفون الستة الذين كتبوا المادة «التاريخية» فى المرحلة

الابتدائية يشي بنقص خطير في إدراكهم لأهمية المعرفة التاريخية في بناء وعي الإنسان من ناحية، وبعدم القدرة على صياغة المدخل المناسب لبناء «ذاكرة» الأمة في عقول أطفالها من ناحية أخرى.

فإذا ما انتقلنا إلى المرحلة الإعدادية وجدنا الكتاب الأول للصف الأول الإعدادي في جزءين بعنوان: «وطني مصر المكان والزمان»، والكتاب من تأليف ثلاثة، وينقسم إلى خمس وحدات، اثنتان منها للتاريخ: الوحدة الرابعة بعنوان «تاريخ مصر في العصر الفرعوني» (ص٥١/ص٧٥)، ويدرس أربعة موضوعات هي: استقرار الإنسان المصري في وادي النيل - عصر الدولة القديمة - عصر الدولة الوسطى - عصر الدولة الحديثة.

والوحدة الخامسة بعنوان: «من مظاهر الحضارة المصرية القديمة» (ص٧٦/ص٨٩) ويدرس التلميذ ثلاثة دروس هي: نظم الحكم والإدارة - الحياة الدينية - الحياة والنظم الاقتصادية وتشغل اللوحات والصور والرسوم مساحة تصل إلى ثلث صفحات الوحدتين اللتين تغطيان أقل من أربعين صفحة.

وعلى الرغم من جودة الاختيار في هذا الكتاب فإن كثرة الموضوعات مع أهميتها جعلت الكتابة عنها أشبه بقفزات الضفادع. فإذا ما أخذنا في اعتبارنا أن على التلميذ أن يدرسها ويؤدي الامتحان فيها في أقل من ثلاثة أشهر (هي المدى الفعلي للفصل الدراسي في ظل نظام الفصلين الذي فُرض على التعليم المصري على الرغم من عدم توافقه مع الأحوال الجوية السائدة في مصر)، ولذلك فإننا نعذر المؤلفين الذين أجادوا اختيار موضوعاتهم، لكنهم اضطروا إلى العمل بمنطق «سد الخانة».

أما الجزء الثاني من الكتاب فيتضمن ما يمكن اعتباره استكمالاً لما ورد في الجزء الأول: ففي الوحدة الثالثة (ص٣٨/ص٥٣) ثلاثة دروس هي: الحياة الاجتماعية - الحياة الفكرية والثقافية - العلاقة بين حضارة مصر وحضارات الشرق، ثم الوحدة الرابعة (ص٥٤-ص٦٦) عن تاريخ مصر وحضارتها في عصر البطالمة والرومان.

وكان من الممكن أن نكتفي بملاحظاتنا عن الجزء الأول من الكتاب لولا الخلل الفادح في بناء موضوعات المادة التاريخية في الجزء الثاني: ففي ثمان وعشرين صفحة (ثلثها ضاع في الصور والرسوم والأشكال ذات الطباعة الرديئة والإخراج الذي يفتقر إلى أي حس جمالي) ينبغي على تلميذ السنة الأولى الإعدادية أن يتعرف على جوانب الحياة الاجتماعية والثقافية والفكرية في مصر القديمة (ص٣٩/ص٥١) وعلى العلاقة بين حضارة مصر الفرعونية وحضارات الشرق القديم (ص٥٢/ص٥٣). هكذا يغلب أسلوب «موظفي» الوزارة فيسد الخانة، والتوقيع بالحضور والانصراف دونما عمل حقيقي فيما بينهما.

كتاب الصف الثاني الإعدادي يحمل عنوان: «جغرافية الوطن العربي ومعالم التاريخ الإسلامي»، ألفته مجموعة الستة التي ألفت كتابي المرحلة الابتدائية بعد تعديل بسيط!

يتضمن الكتاب الجزء التاريخي تحت عنوان: «معالم التاريخ الإنساني» (ص٥٥/ص٩٣) الوحدة الرابعة تحمل عنوان: «ظهور الإسلام»، ويتحدث الدرس الأول عن «العرب قبل الإسلام». ويتصور «المؤلفون» أن العرب هم عرب الحجاز فقط، كما يرددون بعض «الشائعات» التاريخية عن تخلف العرب قبل الإسلام: جاهلين أو متجاهلين، حضارات العرب القديمة في اليمن والخليج والشام وبلاد الرافدين (العراق).



يتصور «المؤلفون» أن العرب هم عرب الحجاز فقط، كما يرددون بعض «الشائعات» التاريخية عن تخلف العرب قبل الإسلام: جاهلين أو متجاهلين، حضارات العرب القديمة في اليمن والخليج والشام وبلاد الرافدين (العراق)

والدرس الثاني بعنوان «البعثة النبوية» (ص٥٩/ص٦٢) وهدفه المعلن «محاربة التعصب»! ولست أدري كيف يمكن تحقيق ذلك بينما الصفحات الثلاث عبارة عن سرد لأعمال الكراهية التي مارستها قريش ضد الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان الأحرى بمن يعلنون أنهم يريدون «محاربة التعصب» أن يتحدثوا عن سلوك الرسول والمؤمنين تجاه الآخر الذي لم يحاربهم.

ويبدو أن هناك أهدافًا مكتبية تم وضعها ومن ثم كانت الرغبة في إرضاء الرؤساء أقوى من القدرة على فهم الموضوع.

والدرس الثالث عنوانه: «قيام الدولة الإسلامية في عهد الرسول» (ص٦٣/ص٧١) وهو عبارة عن عرض لحروب الرسول، وفيه تركيز شديد على الجانب العسكري في السيرة النبوية على نحو يثير العجب.

الوحدة الخامسة عنوانها «الفتوحات الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين (ص٧٣-ص٨٣)، تتضمن هذه الوحدة عرضًا لشخصيات الخلفاء الراشدين بشكل سريع وعرضًا لأهم أعمالهم السياسية والعسكرية، ثم سردا للخطوط العريضة للحرب الأهلية الأولى في تاريخ المسلمين دونما محاولة لشرح أسبابها وتبسيطها أمام عقول التلاميذ الذين يبدأ وعيهم في النضج في هذه السن، ولكن الكتاب يتجاهل هذه الأسباب تماما مما جعل رواية المؤلفين تبدو وكأنها تقول إن المسلمين أهل شغب وعنف وقتال بطبيعتهم!

وفي الحديث عن حركة الفتوحات الإسلامية يحاول الكتاب تبريرها بشكل ساذج ومرتبك يبعث على الشك أكثر مما يزرع اليقين «..عليهم تبليغ الدعوة الإسلامية إلى شعوب البلدان الأخرى.. وحماية دينهم ودولتهم من مؤامرات الفرس والروم» (ص٧٩)، وعند الحديث عن الفتح الإسلامي لمصر يتجاهل الكتاب الحديث عن مساعدة الأقباط للمسلمين في قتالهم ضد الروم ولم يحاول فريق المؤلفين الضخم أن يوضح أن القتال كان ضد الروم بمساعدة الأقباط.

وفي هذا الجزء نرى الاهتمام الأكبر بسرد الأحداث العسكرية، ثم تأتي الأسئلة والتدريبات لتكشف عن أن هدفها الأساسي حشو العقول بالمعلومات المُعلّبة ثم تفريغها في الامتحان.

الوحدة السادسة (بالمناسبة تقسيم الكتاب إلى وحدات بدعة أمريكية نقلتها وزارة التربية والتعليم حديثًا، ولم أستطع أن أفهم جدواها في مجال الدراسات الاجتماعية حتى الآن).

الوحدة السادسة بعنوان «الدولة العربية الإسلامية في عصر الأمويين والعباسيين» (ص٨٤/ص٩٢) أي ثماني صفحات منها صفحة للأسئلة والتدريبات، وقد ركز المؤلفون على الأحداث العسكرية، على حين كتبوا سطرًا واحدًا (نعم سطرًا واحدًا) عن حركة التعريب، واستغرق الحديث عن حركة الفتوحات ثلاث صفحات.

وفضلاً عن ذلك، فإن عيوب الكتابة تتبدى واضحة في الاختصار المُخل والتركيز المكثف، وكثرة الأسماء والأحداث. ولا بد أن نتوقع مثل هذه العيوب عندما يقوم المؤلفون بتغطية فترة تزيد على ستة قرون (٤١هـ/٦٥٦هـ/٦٦١/١٢٥٨م) في سبع صفحات يشغلها عدد كبير من الصور والرسوم والخرائط!

وأسلوب الكتابة بالغ الجفاف ويشبه أسلوب المكاتبات الحكومية، كما يفتقر إلى القدرة على مخاطبة التلاميذ في هذه السن الحساسة.

وتحمل المادة التاريخية في الجزء الثاني من هذا الكتاب عنوان: «الحضارة الإسلامية» (ص٢٩/ص٧٤)، وتدور صفحات هذا الجزء حول دراسة الحضارة العربية والإسلامية من النواحي السياسية والإدارية والاقتصادية والعلمية والأدبية والفنية إلى جانب الأسس التي قامت عليها هذه الحضارة، ثم كيفية انتقال هذه الحضارة إلى أوروبا وأثرها في نهضة أوروبا.

ومن يقرأ هذه الصفحات التي خصص أكثر من ثلثها للصور والأشكال، لا بد أن يشعر للوهلة الأولى أن من ارتكبوا تأليف هذا الكتاب ليسوا من أهل الدراسات التاريخية، وأنهم يتصرفون بمنطق الموظف المصري التقليدي الذي يهمه «سد الخانة» والوفاء الصوري بما هو مطلوب، وسوف يجد القارئ نفسه أمام سؤال يفرض نفسه بإلحاح: هل يمكن بناء فكرة بسيطة في ذهن تلميذ في الثانية عشرة من عمره عن الحضارة التي ينتمي إليها بهذا الأسلوب وفي هذا الحيز الضيق؟ وهل يمكن طرح موضوع أعظم حضارة في تاريخ البشر: سواء من حيث مداها الزمني الذي لا تضارعها فيه حضارة أخرى (أكثر من ألف سنة) أو من حيث امتدادها الجغرافي الذي شمل كل قارات العالم المعروف آنذاك، أو من حيث طابعها الإنساني الذي أتاح لغير المسلمين أن يسهموا في بنائها وأن ينعموا بثمارها - أقول هل يمكن طرح موضوع حضارة مثل هذه على طريقة عناوين نشرات الأخبار، أو «مانشيتات» الصحف؟

ومن ناحية أخرى، فإن تسمية «الحضارة الإسلامية» تغفل حقيقة أن العروبة مكوّن أساسي في هذه الحضارة التي يجب تسميتها «الحضارة العربية الإسلامية». وعلى الرغم من أن الكتاب يقرر أن «الحضارة الإسلامية» قامت على أسس ثلاثة:

١ - الدين الإسلامي
٢ - اللغة العربية
٣ - حضارات الشعوب

فإن الحديث دائمًا عن «الحضارة الإسلامية»، ولست أظن أن هذه مسألة شكلية أو أنها قضية أيديولوجية، ولكنها قضية بناء ذاكرة الأمة ووعي أبنائها، ولا يمكن أن ننتمي إلى «الأمة الإسلامية» بمفهومها الأممي والعالمي قفزًا فوق الانتماء إلى «الأمة العربية الإسلامية» بمعناها القومي، كذلك فإن انتماءنا القومي لا ينفي بأي حال انتماءنا إلى «الأمة المصرية» بمعناها الوطني. وقياسًا على ذلك لا يمكن أن توجد «حضارة إسلامية» تسقط الدور العربي، لغة وبشرًا ودورًا، في بنائها. فهل كان «فريق المؤلفين الضخم» واعيًا وهل يفصل الدور المصري عن الدور العربي ويلحقه بالدور الإسلامي مباشرة؟ أشك كثيرًا.

وهي قضية تعود بنا مرة أخرى إلى تحديد الهوية الحضارية وأسئلتها المطروحة دومًا، ومما يلفت النظر أن مؤلفي الكتاب يزعمون أن هدفهم محاربة التعصب وهم لا يدركون أن تجاهل المكوّن العربي في حضارتنا فيه نوع من التعصب الديني ضد الموروث الثقافي الذي يشترك فيه المسلمون وغير المسلمين من العرب، والعرب وغير العرب من المسلمين.

ويختتم المؤلفون كلامهم بفصل عنوانه: «مظاهر الحضارة الإسلامية في مصر» (ص٤٦-ص٧٤) وهو فصل حافل بالأخطاء التاريخية التي نتجت عن التسرع والاختصار وعدم التخصص.

كتاب الصف الثالث الإعدادي عنوانه: «جغرافية العالم ودراسات في تاريخ مصر الحديث»، ومن تأليف مجموعة الستة التي ألفت كتاب الصف الثاني. الجزء الأول خصص للجزء التاريخي خمسًا وثلاثين صفحة (ص٥٨-ص٩٣) بما في ذلك الصور والخرائط وأسئلة المراجعة.

وتحت عنوان «الدرس الأول - الفتح العثماني لمصر» نجد «الحكمة» التي توخاها المؤلفون من هذا الدرس:

- نشأة الدولة العثمانية.
- كيف فتح العثمانيون مصر؟

- أحوال مصر فى العصر العثمانى.

أما «القضايا المتضمنة» (وأنا أستخدم لغة الكتاب) فهى الصحة الوقائية والعلاجية (صدق أو لا تصدق) والموارد وحسن استخدامها!

أغلب الظن أن المؤلفين غير متخصصين فى التاريخ.

على أية حال، يبدأ الدرس بمقدمة خاطئة ومغلوطة مؤداها أن مصر كانت دولة مستقلة فى رخاء اقتصادى، ولكن «اكتشاف» البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح أدى إلى تدهور الحالة الاقتصادية، ثم «احتلال» العثمانيين وظلت كذلك حتى «فتحها» الفرنسيون، وقد ساعدت الحملة الفرنسية على إيقاظ الوعى القومى المصرى!

لا بد هنا من وقفة، فمصر كانت قد تدهورت قبل الغزو العثمانى بقرن كامل على الأقل، كما أن البرتغاليين لم «يكتشفوا» طريق رأس الرجاء الصالح وإنما دلهم عليه البحار العربى المسلم «أحمد بن ماجد» لأن ذلك الطريق البحرى كان معروفًا تمامًا للسفن العربية، فضلاً عن أن التدهور الاقتصادى فى مصر حدث قبل ذلك بقرن كامل ولأسباب داخلية تتعلق بطبيعة دولة سلاطين المماليك، ومن ناحية أخرى، فإن استخدام مصطلح «الاحتلال» فى وصف الحكم العثمانى، واستخدام مصطلح «الفتح» فى وصف الغزو الفرنسى يؤدى إلى ارتباك فى المفاهيم وسيادة الإحساس بالدونية تجاه الغرب ولاسيما عندما يتحدث «فريق المؤلفين» عن أن الحملة الفرنسية ساعدت على إيقاظ الوعى القومى المصرى.

إن الكتابة للتلاميذ فى سنى الصبا والشباب تحتاج إلى ما هو أكثر من «حنكة» الموظفين وشطارتهم فى تسديد الخانات على طريقة «كله تمام يا أفندم».

المهم أن الكتاب يتحدث عن «نشأة الدولة العثمانية» فى سطرين لا أكثر، ثم يتطرق إلى اصطدامهم بالمماليك مكررًا ما ذكره عن ضعف الدولة المملوكية، وبعد ذلك يذكر زحف السلطان سليم الأول على مصر وتحويلها إلى ولاية من ولايات الدولة العثمانية بأسلوب ركيك يذكرنا بالكلمات المتقاطعة.

بعد ذلك يتحدث الكتاب عن الحالة السياسية لمصر تحت الحكم العثمانى، ويتحدث عن الزراعة فى سطر ونصف، ثم يطرح سؤالاً عن الأسباب التى جعلت العثمانيين يهملون الزراعة! فهل يتوقع فريق المؤلفين أن يجيب المدرس وكيف؟ أم أنهم يتوقعون أن يقدم الطالب بحثًا عن هذا الموضوع؟!

وجاء حديث الصناعة بنفس الطريقة، ويتحدث عن تدهور التجارة فى نصف سطر ويطرح سؤالاً عن أسباب ذلك؟

أما الحديث عن الحالة الاجتماعية فهو كلام ساذج يكرس الإحساس بذل الشعب المصرى عبر التاريخ، وقد شغل الحديث عن الحالة الصحية والعلمية سطرًا ونصف السطر مع أن المؤلفين جعلوا من الصحة الوقائية والعلاجية إحدى «القضايا المتضمنة» فى هذا الدرس.

وفى التدريبات والأنشطة يطلب المؤلفون من التلميذ تفسيرًا للأمور التالية:

١- انصراف الولاة الأتراك عن القيام بالإصلاح فى مصر.

٢- ظهور حركة على بك الاستقلالية.

٣- تدهور الصناعة فى مصر فى العصر العثمانى.

فإذا أعدنا ما كتبه المؤلفون فى صفحاتهم الخمس والثلاثين أدركنا أن الهدف أن يؤلف



حرصت الجماعات الإنسانية قديمًا على قراءة الماضى لفهم الحاضر، ولما كانت معلوماتهم ناقصة كما كانت وسائلهم العلمية قاصرة، جاءت قراءتهم للماضى من خلال الأساطير ومن خلال شجرات النسب الحقيقية والخرافية تعويضًا للنقص فى «ذاكرة الأمة».

التلميذ فى الصف الثالث الإعدادى مادته بنفسه! وهو اتجاه طيب على أية حال إذا ما كانت المادة متاحة للتلميذ من ناحية، وإذا ما كان التلميذ قد لقى تدريبًا تدريجيًا على هذا فى السنوات السابقة، وهو الأمر الذى لم نجد دليلاً إيجابيًا واحدًا عليه فى كتب السنوات السابقة التى قام نفس الفريق السداسى بتأليفها.

يبدو أن الذين وضعوا المناهج كانوا يحسنون الظن بالمؤلفين أكثر مما ينبغى، وربما يكون المؤلفون قد اعتبروا أن الخطوط العامة للمناهج يمكن تحقيقها على الطريقة الإعلامية بدلاً من الطريقة العلمية.

الدرس الثانى «الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨-١٨٠١م» (ص٦٣-٦٩) درس يغص بتفاصيل الأحداث ويورد الكثير من الأسماء لكنه يبدو مناسبًا، ويبدو أن هناك إصرارًا على تأكيد أن الحملة الفرنسية أيقظت الروح القومية فى مصر وهزت الأفكار القديمة فى المجتمع. كنت أتصور أن يركز هذا الدرس على أن المصريين أدركوا مدى خيبة حكامهم بعد أن شاهدوهم يفرون فى تخاذل أمام الفرنسيين، وعرفوا نقاط القوة فى أنفسهم بعد ثورتى القاهرة الأولى والثانية وبروز الزعامات الشعبية.

تأتى الوحدة الخامسة بعنوان «بناء الدولة الحديثة فى مصر» موزعة على أربعة دروس:

١ - محمد على واليًا على مصر.

٢ - سياسة محمد على الداخلية والخارجية.

٣ - المظاهر الحضارية فى عهد إسماعيل.

٤- التدخل الأجنبى فى مصر.

وتشغل هذه الوحدة الصفحات من ٧١ إلى ٩٣؛ أى ثلاثًا وعشرين صفحة.

والملاحظة الرئيسية على هذه الدروس الأربعة أنها محشوة بالتفاصيل والأسماء دون الإشارة إلى أن مشروعات أسرة محمد على لتحديث الدولة والمجتمع قد اصطدمت بأطماع القوى الأوروبية الاستعمارية من جهة، ودور الشعب فى المقاومة من جهة ثانية، ودور المصريين فى بناء النهضة من جهة ثالثة.

ومن الناحية المنهجية نجد هذه الدروس غاصة بالتفاصيل التى لا يربط الشرح فيما بينها، ويبدو أن فريق المؤلفين لا يجد أمامه هدفًا واضحًا أو فلسفة محددة غير الحشو والتلقين؛ إذ تبدو الأحداث التى أوردها الكتاب وكأنها نماذج من «حبوب التاريخ» القابلة للبلع دون أن تترك أثرًا.

الجزء الثانى الذى يتم تدريسه فى الفصل الدراسى الثانى يضم المادة التاريخية فى ثلاث وأربعين صفحة مقسمة على ثلاث وحدات (ص ٣٤- ص٧٧)

الوحدة الرابعة: الحركة الوطنية فى مصر.

الوحدة الخامسة: مصر منذ ثورة ١٩١٩ حتى الحرب العالمية الثانية.

الوحدة السادسة: مصر منذ ثورة ١٩٥٢م.

يبدأ هذا الجزء بدراسة الثورة العرابية (٣٥-٤١) «والقضايا المتضمنة» هى:

- الوحدة الوطنية.
- التلاحم بين عنصرى الأمة.
- حقوق الإنسان.

وحين تبحث عن هذه «القضايا المتضمنة» فى ثنايا الصفحات الست تكتشف أنه مجرد «كلام موظفين» يريدون به الإيهام بأن هناك هدفًا وراء ما كتبوه، فالواقع أن الدرس مجرد عرض مكثف لعناوين الأحداث السياسية وأسماء أبطالها وبشكل لا يناسب عقلية تلميذ فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمره، ولم ينل أى قدر حقيقى من المعلومات التاريخية فى السنوات السابقة بفضل «فريق التأليف السداسى» الذى احتكر «مقاولة» التأليف التاريخى. ولا يبقى أمام التلميذ إلا أن يحفظ هذه المعلبات التاريخية لإفراغها فى ورقة الامتحان!

وقد بحثت عبثًا عن «القضايا المتضمنة» فى هذا الدرس فلم أجد شيئًا عن الوحدة الوطنية أو حقوق الإنسان؛ فهل هى متروكة للمدرس حسب ثقافته ووقته؟ أم أنها متروكة للمصادفة؟ أم أن على التلميذ أن يدركها وحسب؟!

أما التدريبات والأنشطة فلا علاقة لها بهذه القضايا المتضمنة، وإنما تسعى إلى الحفظ والاسترجاع.

الدرس الثانى عنوانه «مقاومة الاحتلال البريطانى» يركز على شخصيات الزعماء (مصطفى كامل - محمدفريد) ويخلو الدرس تمامًا من الحديث عن الناس العاديين والزعماء الثقافيين الذين قدموا الكثير لوطنهم فى النضال ضد الاحتلال.

الوحدة الخامسة: تركز فى الدرس الأول على سعد زغلول وتتجنب الحديث عن وقائع ثورة ١٩١٩م، ودور الشعب فيها، أما الدرس الثانى وعنوانه «مصر بين الحربين»: فهو عرض سخيف لعناوين الأحداث ينتهى بحريق القاهرة، ولا يمكن للقارئ - سواء كان تلميذًا فى الصف الثالث الإعدادى أو أستاذًا جامعيًا أو مثقفًا عامًا.. أو غيرهم - أن يفهم شيئًا أو يخرج بفكرة واحدة واضحة من هذا الحشو العبثى للأحداث.

أما الوحدة السادسة: فلا يمكن اعتبارها درسًا فى التاريخ بأى حال من الأحوال؛ وإنما هى نوع من التعبئة السياسية تروج لموقف سياسى مؤقت (ولا تروج حتى لفكر سياسى أو أيديولوجية سياسية) وتقرأ ما هو مكتوب فيها فتشعر أنك واقع فى شباك وسائل الإعلام الحكومية وكلامها المكرر عن «الفضائل السياسية» لحكام هذا الزمان، وتبريراتها الساذجة عن موقف الحكومة المصرية منذ معاهدة كامب ديفيد ١٩٧٩م حتى الآن.

إن أهم ما يلفت النظر فى «المادة التاريخية» التى يدرسها تلميذ المرحلة الإعدادية أنها تصنع هدفًا طموحًا لتغطية تاريخ مصر والمنطقة العربية منذ أقدم العصور حتى الآن ولكن المدى الزمنى المتاح لتدريس هذا التاريخ ضيق بشكل يبعث على الرثاء، إذ أن تلميذ المرحلة الإعدادية يدرس طوال سنوات ثلاث مائتين وعشرين صفحة تقريبًا - ثلثها للصور والرسوم والخرائط والتدريبات والأسئلة - تاريخ مصر منذ عصر الفراعنة حتى الآن، ويدرس حضارة مصر القديمة وعلاقتها بحضارات المنطقة العربية، ثم يدرس التاريخ الإسلامى وتاريخ الحضارة العربية الإسلامية - فهل يمكن لأحد أن يتصور إمكانية تحقيق ذلك فى الواقع الفعلى؟

إن المرحلة العمرية لتلاميذ المرحلة الإعدادية (١١-١٤ سنة فى المتوسط) تجفل من الوقوف عند التفاصيل والأسماء، وتميل إلى الرؤية الكلية فى صيغة أقرب إلى الرواية، وهنا ينبغى أن نصرح بأننا نرى أن التأليف لتلاميذ المرحلة الابتدائية والإعدادية يجب أن يقوم به كبار الأساتذة المتخصصين على أن يكتب كل منهم فى تخصصه فقط بدلاً من المؤلف الكشكول الذى يكتب فى «المواد الاجتماعية»، أما الصياغة اللغوية والأسلوبية المناسبة لكل مرحلة فيمكن أن يُعهد بها إلى الأدباء الذين تخصصوا فى الكتابة للأطفال والشباب الصغار بشرط أن تكون المراجعة النهائية للأساتذة المتخصصين.

ومن ناحية أخرى، فإن المادة التاريخية تستحق كتابًا مستقلاً لكل صف من صفوف الدراسة الابتدائية والإعدادية، وإذا اتفقنا على أهمية الوعى التاريخى فى بناء المواطن فإن الجدل حول هذه المسألة لن يطول، أما إذا لم نتفق فإن المسألة تستحق نقاشًا واسعًا حولها.

كذلك فإن البرنامج بالغ الطموح للمادة التاريخية لتلاميذ المرحلة الإعدادية يجب أن يتواضع قليلاً؛ إذ إنه سيكون من المفيد تمامًا أن ينهى تلميذ المرحلة الإعدادية دراسته وهو عارف بالخطوط

العريضة لدور بلاده في خدمة الحضارة الإنسانية، وهو عارف أيضًا بانتمائه إلى الحضارة العربية الإسلامية وتجلياتها في صالح البشرية علمًا وفنًا وأدبًا وسياسة واقتصادًا، وهو أمر يمكن تحقيقه بسهولة.

في المرحلة الثانوية نجد أنفسنا في مواجهة موقف صعب، إذ أن طالب المرحلة الثانوية يدرس التاريخ في سنتين دراسيتين فقط ويختفي من السنة الثالثة وهو موقف نتج عن برامج الدراسة التي تم وضعها في نظام الثانوية العامة الجديد، وكان من الممكن - قبل التعديل - أن يتخرج الطالب من المرحلة الثانوية دون أن يدرس التاريخ سوى في الصف الأول الثانوي (صدق أو لا تصدق).

ولهذا السبب فإن المسئولين في الوزارة وجدوا أنفسهم أمام مأزق حقيقي: فكتاب الصف الأول الثانوي عنوانه «مصر وحضارات العالم القديم»، وتم دمج الكتابين اللذين كانا للسنة الثانية والسنة الثالثة الثانوية في كتاب واحد بعنوان «التاريخ للثانوية العامة - المرحلة الثانية (نظام جديد)».

ويحسن بنا أن نفحص كل كتاب من هذين الكتابين على حدة:

كتاب الصف الأول الثانوي يقع في ٢٤٧ صفحة من القطع الكبير، وهو من تأليف ثلاثة من كبار العلماء المتخصصين في هذا المجال، وفي مقدمة الكتاب أوضح المؤلفون هدفهم، كما كشفوا في الوقت نفسه عن مدى فهمهم الصحيح لوظيفة التاريخ: فقد جاء في هذه المقدمة:

أولا: دراسة التاريخ من أهم أدوات تعميق الشعور بالانتماء والارتباط بالوطن.

ثانيا: استحالة فهم الذات والتعرف على القدرات دون التعرف على الماضي الذي صنعناه.

ثالثًا: مسيرة التاريخ تكشف عن أن النكسات كانت ظواهر طارئة في تاريخنا وهو ما يعمق الثقة بالنفس.

رابعًا: إن معرفة الماضي تساعد على تطوير الحاضر وصنع المستقبل المشرق.

خامسًا: الوعي التاريخي هام لاستكمال مقومات الثقافة الوطنية والقومية.

وهذا الكتاب يُعتبر - بحق - نموذجًا لما ينبغي أن يكون عليه التأليف في كتب التاريخ لطلاب المدارس الثانوية، وماقبلها. فقد تمت صياغة الكتاب على هدى من هدف الدراسة التاريخية كما فهمها الأساتذة الذين ألفوا هذا الكتاب (ولا بأس من أن نكرر أن تأليف الكتب المدرسية يجب أن يقوم به كبار الأساتذة المتخصصين بدلاً من أن يعهد به إلى «موظفي الوزارة» الذين نالوا مواقعهم بالأقدمية).

على أية حال، يتناول الكتاب موضوعاته في ثلاثة أبواب موزعة على أحد عشر فصلاً تتلوها خاتمة بعنوان «فضل مصر على حضارة العالم» مدخل الكتاب يتحدث عن موضوعين: «الحضارة الإنسانية ومقوماتها»، «نبذة عن تاريخ مصر القديم وتطورها الحضاري».

يتميز أسلوب الكتاب بالبساطة والعمق في آن معًا، ويقدم للطالب معلومات مهمة في صياغة جميلة وبسيطة عن الموضوعين اللذين حددهما المؤلفون في المدخل، ثم يقدم الكتاب رسمًا توضيحيًا بعنوان «خريطة زمنية لتاريخ مصر القديم» منذ عصر ماقبل التاريخ حتى الفتح الإسلامي لمصر (٣٢٠٠ق.م - ٦٤١م)



هل يمكن أن يبدأ التلميذ في سن التاسعة أو العاشرة بناء وعيه بوطنه وتاريخ أمته بهذا الشكل الذي يجعل من كل «محافظة» قبيلة تنافس القبائل الأخرى بأحداث تاريخها ورموز هذا التاريخ؟! وأين بناء الوعي بوحدة الأمة وتجانسها الذي تم بناؤه عبر آلاف السنين؟

ومن أجمل الأشياء في هذا الكتاب أنه يعرض للتاريخ السياسي، أي تاريخ الحكام، بسرعة شديدة (ص١١/ص١٩) لينتقل في الفصل الأول إلى الحديث عن الحياة الدينية عند المصريين القدماء (ص٢٠/ص٢٩)، وتعقب ذلك صفحتان بعنوان «قراءات تاريخية» بهما نص جميل لنشيد إخناتون لمعبوده آتون، ثم يقدم للطالب مقترحات بالأماكن التي يمكن أن يزورها لمشاهدة آثار إخناتون.

ثم يلخص أفكار الفصل وعناصره ليقدم الأسئلة والتدريبات.

والخلاصة أن طريقة كتابة هذا الفصل بديعة ويمكن اتخاذها نموذجًا لما يجب أن تكون عليه كتابة التاريخ لتلاميذ المدارس المصرية.

الفصل الثاني عن الحياة السياسية يتناول نظام الحكم وحكومات المدن ثم حكومات الأقاليم، فحكومة الشمال وحكومة الجنوب، ثم الوحدة التاريخية.

بعد ذلك يتحدث عن عناصر الحكم (الفرعون ومهامه - الوزير - الإدارة المركزية - الإدارة المحلية - الجيش - الأسلحة... إلخ)، ثم يتحدث عن معركة مجدو والأسطول.

وتعقب هذا قراءة تاريخية من كتاب الدكتور أحمد قدري (المؤسسة العسكرية المصرية في عصر الإمبراطورية، ترجمة مختار السويفي ومحمدالعزب موسى، مراجعة الدكتور محمد جمال الدين مختار، القاهرة ١٩٨٥م).

وقد آثرت الحديث بشيء من التفصيل عن محتويات الفصلين الأول والثاني لكي يتضح للقارئ مدى التوفيق الذي حالف مؤلفي هذا الكتاب في مهمتهم، وربما يكون مفيدًا أن نوضح أن فصول الكتاب التالية تتحدث بالترتيب عن:

الحياة الاقتصادية - الحياةالفكرية - الحياةالاجتماعية، وبذلك ينتهي الباب الأول وقد اقترح المؤلفون قراءات تاريخية بديعة في نهايات تلك الفصول.

وتحت عنوان «كلمة أخيرة» يوجه المؤلفون انتباه الطالب إلى أن المصريين قد نجحوا في تكوين أمة وبناء دولة حوالي سنة ٣٢٠٠ق.م، وأن الوحدة المصرية هي أقدم وحدة لشعب في تاريخ العالم كله، كما أن التقدم كان مرهونًا بالوحدة وقدرة الشعب وقوة الجيش والاهتمام بالعلم والفن، وأن إهمال هذه الجوانب هو الذي أدى إلى الضعف والتدهور.

الباب الثاني في فصلين: أولهما عن حضارات العراق القديمة، وهو مكتوب بشكل جيد وأسلوب سهل سلس، وثانيهما عن حضارة فينيقيا، ثم قراءة تاريخية عن اختراع حروف الهجاء.

الباب الثالث عن حضارة الإغريق وحضارة الرومان: الفصل الأول عن حضارة الإغريق وتجلياتها مع نصوص تاريخية من كتاب (هردوت يتحدث عن مصر للدكتور محمد صقر خفاجة تعليق الدكتور أحمد بدوي، القاهرة١٩٦٦م). الفصل الثاني عنوانه «مصر في عصر البطالمة» مع نصوص تاريخية عن مكتبة الإسكندرية.

وهنا نجد أنفسنا في موقف نختلف فيه مع المؤلفين على الرغم من إعجابنا الشديد بأسلوبهم ومنهجهم في تأليف الكتاب، فقد وضعوا العصر البطلمي في سياق علاقة مصر بالإغريق، والحقيقة أن مصر تحت حكم البطالمة كانت دولة مستقلة تمامًا بعد أن أسس بطليموس الأول - أحد قادة جيش الإسكندر الأكبر - أسرة حاكمة مستقلة غير تابعة لأي حاكم خارج مصر، واستمرت حتى مصرع كليوباترة السابعة في أحداث الغزو الروماني لمصر سنة ٣٤ق.م، ولم تكن المفاهيم السياسية السائدة في العالم آنذاك تحول دون هذا.

إن تاريخ مصر في هذه الفترة يعتبر فصلاً مجيدًا في كتاب تاريخها الطويل، وفي هذا العصر كانت مصر، وعاصمتها الإسكندرية، المعقل الأخير للعلم والفن والثقافة شرق المتوسط قبل قيام الإمبراطورية الرومانية.

الفصل الثالث يتناول حضارة الرومان على حين يتناول الفصل الرابع أحوال مصر تحت الحكم الروماني ومقاومة المصريين للرومان ثم دخول المسيحية إلى مصر وما أعقبه من اضطهاد بيزنطي (الرومان الشرقيين) للأقباط بسبب الاختلاف المذهبي حتى فتح المسلمين لمصر.

وينتهي هذا الفصل الجيد بقراءة تاريخية عن صناعة ورق البردي (الموسوعة المصرية: تاريخ مصر القديم وآثارها - العصر اليوناني/الروماني، جـ٢، القاهرة١٩٧٨م)

خاتمة هذا الكتاب تتحدث عن فضل مصر على حضارة العالم، وهكذا نجد أنفسنا أمام كتاب يصلح مثالاً للكتب المدرسية من حيث مضمونه ومحتواه، ومن حيث منهج التأليف ووضوح هدف المؤلفين، ثم من حيث تشجيعه للطلاب على القراءة ومشاهدة الآثار وزيارة المتاحف بالشكل الذي يحقق فعلاً هدف تنمية الوعي التاريخي لدى الطلاب.

لكن المشكلة أنه الكتاب الوحيد الذي يصادفه التلميذ في حياته قبل الجامعة، فقد رأينا كيف أن «مقاولي» التأليف في المرحلة الابتدائية والإعدادية، كانوا يعملون بمنطق «سد الخانة» وبمفاهيم صغار الموظفين الذين يهمهم الاستيفاء الشكلي للأوراق والمستندات إرضاء لرؤسائهم!

ومن ناحية أخرى، فإن الإخراج الفقير لهذا الكتاب الهام لا بد أن يجعل الطالب ينفر منه: لا سيما إذا وضعنا في اعتبارنا أن «فريق المؤلفين»، أو «متعهدي التأليف» قد نجحوا في زرع كراهية «التاريخ» في وجدانه طوال سني عمره الدراسي السابق.

ويبدو أن المسئولين في الوزارة قد أخفقوا في الإمساك بتلابيب هذا الكتاب الذي نجح الأساتذة المؤلفون في «تهريبه»، فتشددوا في الحصار في السنتين الثانية والثالثة من المرحلة الثانوية: فهناك كتاب عنوانه «التاريخ للثانوية العامة» والمؤلفون ثلاثة من أساتذة الجامعات الذين يعرف الجميع قدراتهم ومكانتهم العلمية الرفيعة، وثلاثة من موظفي الوزارة.

وتفاءلت خيرًا حينما قرأت أسماء المؤلفين، ولكن التفاؤل لم يلبث أن تخلى عن مكانه لخيبة الأمل حين اكتشفت أن الكتاب مجرد ناتج لدمج كتابين: كان أحدهما مخصصًا للسنة الثانوية الثانية، والآخر للسنة الثالثة، وتضاعف إحساسي بالإحباط عندما قرأت في الصفحة الثانية أن خمسة من موظفي الوزارة هم الذين قاموا بالمراجعة النهائية «بناء على تعليمات السيد الأستاذ الدكتور الوزير».

ولأن الكتاب، تقريبا، من «إنجاز» موظفي الوزارة الذين قاموا بالدمج كما قاموا بالمراجعة النهائية، فإن المقدمة مكتوبة لإرضاء الوزير الذي «تفضل بإعطاء توجيهاته» وليست موجهة إلى الطلاب على نحو ما جاء في مقدمة كتاب السنة الأولى الثانوية، وهكذا عاد منطق الموظفين يفرض نفسه على كتاب التاريخ الذي يدرسها لطالب مرة واحدة في عامين دراسيين!

ولنتصفح الكتاب:

القسم الأول بعنوان «الحضارة الإسلامية» (ص٧-ص٩٦): منها عشر صفحات عن الحضارة العربية قبل الإسلام (ص٧-ص١٦) وثمانون صفحة عن تاريخ الحضارة الإسلامية منها عشرون صفحة للصور والخرائط والأسئلة، وكانت تلك هي أولى الثمار المرة «لدمج» الكتابين، و«المراجعة النهائية» التي قام بها موظفو الوزارة.

الفصل الأول «أصول الحضارة الإسلامية: الحضارة العربية قبل الإسلام والحضارات التي تأثرت بها» (ص٧/ص١٥) منها صفحتان للخرائط والأشكال. «أول القصيدة كفر» كما يقولون: إذ يقرر الكتاب «لم يكن لدى

العرب قبل الإسلام تراث حضارى عظيم، وإن كانت بعض مظاهر الحضارة قد قامت فى بلاد اليمن وفى أطراف شبه جزيرة العرب».

ربما لا يعرف الذين تولوا الإخراج النهائى لهذا الكتاب أن حضارات العراق القديم وبلاد الشام القديمة حضارات عربية. أما حضارة اليمن القديمة التى أسهمت فى التجارة العالمية، واستأنست الجبل، وروضت مياه المطر (سد مأرب) فاستحقت أن تسمى «بلاد العرب السعيدة» - هذه الحضارة حولها دمج الكتابين إلى مجرد عناوين باهتة، وبطبيعة الحال لم يرد ذكر حضارة عرب الساحل فى عمان والبحرين القديمة الذين كان إسهامهم فى تجارة العالم وحضارته واضحًا بالقدر الذى كشفت عنه الآثار.

وتحت عنوان مثير للعجب «حضارة دول اليمن» (تأمل!!!) يكتب الكتاب سطرين عن مملكة معين، وعشرة أسطر عن مملكة سبأ، وخمسة عشر سطرًا عن مملكة حمير - أليس هذا هو أسلوب الموظفين فى سد الخانة.

وتحت عنوان «حضارة ممالك الشام والعراق» يرد ذكر الغساسنة والمناذرة!! إن هاتين الإمارتين كانتا من نموذج الدويلة الحاجزة: فقد اتخذ الروم الغساسنة دويلة حاجزة على حدودهم مع شبه جزيرة العرب، على حين فعل الفرس الشىء نفسه مع إمارة المناذرة. فهل يمكن أن تكونا عنوانًا على «حضارة ممالك الشام والعراق»؟

ألم يقرأ الموظفون المؤلفون حتى كتاب السنة الأولى الثانوية ليتعلموا مما كتبه مؤلفوه شيئًا عن حضارات الشام والعراق الحقيقية؟

ويرد ذكر «حضارة الحجاز» فى صفحتين (ص١٢/ص١٣)، ثم يرد ذكر الحضارة الفارسية والحضارة الرومانية باعتبارهما من الحضارات التى أخذت عنها الحضارة الإسلامية، ولا يرد أى ذكر لحضارات اليونان والهند والمصريين القدماء فضلاً عن حضارات الرافدين والشام واليمن.

وإذا ما تذكرنا أن الطلاب يتخذون موقفًا عدائيًا من «كتاب الوزارة» ولا يقرأونه، وإنما يلجأون إلى الكتب الخارجية التى تلخص لهم ما جاء بكتاب الوزارة الذى يقدم نوعًا من «الحبوب والبلابيع» التاريخية، فإن لنا أن نتوقع النتيجة!

الفصل الثانى: عنوانه «نظم الحضارة الإسلامية».

هكذا مباشرة دونما تمهيد عن العوامل التى أدت إلى انصهار مكونات الحضارة العربية سويا، أى ما جاء به الإسلام، واللغة العربية، وموروثات الشعوب التى اعتنقت الإسلام.

أما «نظم الحضارة الإسلامية» التى يتحدث عنها هذا الفصل فهى: (النظم الإسلامية - بيت المال - الخراج - الزكاة ومصادرها ومصارفها - الجزية - الفئ - الغنيمة - المكوس - مصارف بيت المال). هل يمكن تصور مثل هذا الخلط؟ وهل كانت الحضارة العربية الإسلامية مجرد بنك، أو مكتب محاسبة؟!

أين النظم السياسية والإدارية والعسكرية والتعليمية والمالية.. وغيرها؟ وإذا كان المؤلفون والدامجون والمراجعون جميعًا قد ورطوا أنفسهم فى الحديث عن «النظم»، فلماذا اهتم الكتاب بالنواحى المالية دون غيرها؟

الفصل الثالث: «الحياة الاجتماعية فى الإسلام»

العنوان يحمل نفس مفهوم الاستشراق الذى يرى أن الإسلام هو المعادل الموضوعى لمصطلحات مثل أوروبا، الروم، الفرنج - على حين أن الإسلام فى مفهومنا هو الدين الذى يشكل العمود الفقرى للحضارة العربية الإسلامية، ومن ناحية أخرى فإن الحديث فى هذا الفصل يتسم بالعمومية الشديدة.

الفصل الرابع: عن انتشار الإسلام والحضارة الإسلامية (ص٢٨/ص٣٧) منها ست صفحات للصور والخرائط ومع ذلك يتحدث، بجرأة شديدة، عن حضارة المغول بالهند وانتشار الإسلام فى غرب أفريقيا (!!!) فى أربع صفحات بالتمام والكمال.

الفصل الخامس: «الحياة الثقافية وتكوين الفكر العربى الإسلامى» فصل جيد بشكل عام(ص٣٨/ص٦١)

الفصل السادس: «الفنون الإسلامية» (ص٦٦/ص٧٧)ست صفحات من الصور الرديئة التى لا يمكن لأحد أن يتبين منها شيئًا على الرغم من جودة الموضوعات التى يتضمنها الفصل، وكان يمكن التوسع فى هذا الفصل المهم.

والسؤال الذى يطل ملحًا على هذه الصفحات هو: أهكذا تؤخذ الأمور وبمثل هذا الإهمال واللامبالاة؟ ألم يحاول أحدهم أن ينظر فى كتاب للمرحلة الثانوية فى دولة أوروبية أو فى الولايات المتحدة يتحدث عن حضارات العالم ليتعلموا مدى الاهتمام بمثل هذه الكتب؟ طبعًا المؤلفون والمراجعون والدامجون فى مثل هذه الدول ليسوا من موظفى الوزارة الذين يعملون بناء على توجيهات السيد الأستاذ الدكتور الوزير، وإنما يعرفون أن الأمر جد لا هزل فيه، وأنهم يصوغون وجدان الشباب الذين يحملون معهم مستقبل الأمة والوطن.

الفصل السابع بعنوان: «الأخطار التى هددت الحضارة الإسلامية» يفتقر إلى خطة واضحة، كما أنه غير مرتبط منطقيا بما سبقه وبما يليه.



عند الحديث عن الفتح الإسلامى لمصر يتجاهل الكتاب الحديث عن مساعدة الأقباط للمسلمين فى قتالهم ضد الروم ولم يحاول فريق المؤلفين الضخم أن يوضح أن القتال كان ضد الروم بمساعدة الأقباط

هكذا ينتهى الكتاب الأول فجاة بنهاية الجزء الأول (ص٩٥) ليبدأ الكتاب الثانى المدمج تحت عنوان «تاريخ مصر والعرب الحديث» (ص٩٩/ص٢٥٧)، وهنا يبدو عدم توازن المحتوى التاريخى واضحًا، فقد خصص الكتاب أقل من مائة صفحة لتناول تاريخ العرب والمسلمين والحضارة العربية الإسلامية فى مدى أكثر من تسعة قرون، على حين خصص أكثر من مائة وخمسين صفحة لتاريخ مصر والعرب فى قرنين من الزمان، ومن ناحية ترك الكتاب فجوة واسعة يشغلها العصر العثمانى. من الواضح أن الدمج والمراجعة لم تتم على أى أسس علمية أو منهجية وإنما على أساس من القص واللصق.

على أية حال، يقع الجزء الثانى فى سبعة فصول تتحدث عن الحملة الفرنسية على مصر والشام باعتبارها فتحًا حضاريًا وبعثًا لمصر والمنطقة العربية من سباتها الحضارى الطويل - وهو موقف يحتاج إلى مراجعة ومناقشة موسعة. ثم «بناء الدولة الحديثة فى مصر من مطلع القرن ١٩ إلى الثورة العرابية»، وبعد ذلك قصة الثورة العرابية وفجاة يتحدث الفصل الحادى عشر (ص١٨٠-ص٢٠١)عن التوسع الاستعمارى فى البلاد العربية، وهو فصل يبدو التسرع فيه واضحًا، كما تتجلى فيه نزعة «سد الخانة».

فالحديث عن الخليج واتفاقيات ١٨٢٠م(صفحة واحدة) وعُمان (ستة أسطر) والدولة السعودية الثالثة (صفحة واحدة)، ثم صفحتان عن الاستعمار الفرنسى فى شمال أفريقيا، ثم الجزائر وتونس ومراكش وليبيا، وبعد ذلك حديث فى غير سياقه التاريخى عن اليقظة العربية بطريقة «الفلاش باك» السينمائية: إذ يتحدث عن بداية احتلال العثمانيين للمنطقة العربية، ثم حركة القومية العربية وأطوارها الأدبية والسياسية.

الفصل الثانى عشر (ص٢٠٢/ص٢٢٥) سمك لبن تمر هندى ويختلف مضمونه عن عنوانه بشكل مُربك ومضلل.

الفصل الثالث عشر والأخير فصل لا يستحق القراءة لأنه نوع من التعبئة السياسية الساذجة يحمل نزعة شوفونية واضحة، كما يتغنى بأفضال مصر على العالم العربى بشكل فج يحمل الكثير من المن والأذى.

والخلاصة أن الكتاب الوحيد الذى يدرسه طلاب السنتين الثانية والثالثة الثانوية يلفت النظر بمايحمله من الارتباك وانعدام الوحدة الموضوعية، وعدم الترتيب المنطقى والتاريخى لموضوعاته: فضلاً عن مدى التشابك والتعدد فى موضوعاته الذى يجافى عقلية طلاب المرحلة الثانوية الذين ليست لديهم أية خلفية تاريخية بسبب تهافت المادة التاريخية التى درسوها طوال حياتهم. كما أن مسألة «الدمج» التى تمت على عجل شوهت مضمون الكتابين اللذين كانا موجودين بالفعل لطلاب هذه المرحلة. فقد تم تخفيض الصفحات مع الإبقاء على المدى الزمنى والتاريخى الشاسع الذى تتناوله موضوعات الكتاب. وهكذا فشل الكتاب «المدمج» فى تحقيق أى هدف علمى أو دراسى.

ملاحظات ختامية:

• بعد هذا العرض التفصيلى، الممل، للكتب التى تحمل المادة التاريخية التى يدرسها التلميذ المصرى بداية من السنة الرابعة الابتدائية (٩ - ١٠سنوات) حتى المرحلة الثانوية (١٧سنة تقريبًا) - وهى فترة التكوين العقلى والنفسى الحاسمة فى كل إنسان - نجد أن الحقيقة الصادقة الأولى هى غياب أية فلسفة أو غاية تحكم دور كتب التاريخ وتكاملها وتفاعلها التدريجى للوصول إلى هدف ما.

• إن الواضح أن كل جماعة تتولى التأليف حسب قدراتها الخاصة ورؤيتها، بحيث تتوقف النتيجة على هذه القدرات والرؤية دونما خطة تربوية وتعليمية واضحة يعمل الجميع فى إطارها ويهتدون بهديها.

• تدخل موظفى الوزارة، بفضل مناصبهم التى حازوها بالأقدمية السلبية، فى تأليف الكتب من أهم أسباب فساد هذه الكتب، وكتاب الصف الأول الثانوى الذى نجا منهم خير دليل على ذلك.

• الإخراج الردىء والطباعة السيئة، على الرغم من الميزانيات الهائلة للطباعة، تزيد من نفور التلاميذ من كتب الوزارة ولجوئهم إلى الملخصات والكتب الخارجية مما يزيد من سوء الموقف.

• إن هذه الدراسة تطرح المشكلة وتطلب مناقشة واسعة حولها وصولاً إلى ما يحقق الصالح العام، وإذا كانت لغة الدراسة حادة وعنيفة، فإن المشكلة مشكلة وطن وشباب لا يرى طريقه بسبب أخطاء يمكن تداركها، وخطايا يمكن تجنبها.

• إن المقارنة بين كتب التاريخ التى يدرسها طلاب المدارس فى مصر الآن وكتب التاريخ منذ خمس عشرة سنة تكشف للأسف عن أننا تقهقرنا عن موقع كنا نريد أن نتقدم منه إلى الأمام.

• إننى لا أميل إلى نظرية المؤامرة، ولكنى لا أستطيع أن أتصور أن العبث بذاكرة الأمة، وتزييف وعى أبنائها، وبث كراهية التاريخ فى نفوس الصغار والشباب، يمكن أن يكون ثمنًا مناسبًا لتحقيق بعض المكاسب الصغيرة لهذا أو ذاك من «متعهدى التأليف» و«مقاولى التاريخ».

• إن الضجة المثارة فى إسرائيل حول «المؤرخين الجدد»، والمضامين التاريخية التى يدرسها طلاب المدارس فى إسرائيل يجب أن تجعلنا أكثر إدراكًا لأهمية التاريخ، وليس عيبًا أن نتعلم من أعدائنا ما دمنا لا نتعلم من علمائنا.

• مرة أخيرة، هذه دعوة لمناقشة واسعة حول الموضوع. ■

صاحب الكتاب الأشهر عن قراقوش

الأسعد بن مماتى

نسيم مجلى

> **يقول الأسعد فى مقدمة كتابه «الفاشوش فى أحكام قراقوش» إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدى بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، الشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدى لمن صدق، ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يرد كلمته، ويشتط اشتياط الشيطان، ويحكم حكمًا ما أنزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين**

من بين أعمال الأسعد بن مماتى الكاتب والشاعر ورجل الدولة فى عهد الأيوبيين، والتى تربو على العشرين كتابا، لا يعرف القراء له سوى كتابين فقط هما «الفاشوش فى أحكام قراقوش» و«قوانين الدواوين».

وينتمى الكتاب الأول إلى أدب الفكاهة والسخرية والهجاء ويمثل بحق أسلوبًا فنيًا بارعًا فى تصوير الغرابة والشذوذ وإحداث المفارقة. وهذا الكتاب الذى أضحك أجيالاً ولازال يضحكنا، كتبه الأسعد باللغة العامية المصرية، ووصل به إلى أعرض الجماهير، حتى صار قراقوش فى المخيلة الجماعية للشعب مثالاً لكل حاكم أخرق ينحرف عن طريق العقل والمنطق فى سلوكه وتصرفاته.

أما الكتاب الآخر «قوانين الدواوين»، فهو كتاب علمى صرف يتحدث فيه ابن مماتى عن مصر بصفة عامة ونهر النيل ومساحة الأرض وتحقيق أسماء ضياعها وكفورها، وجزائرها وخلجانها، بالإضافة إلى تناوله الأراضى المختلفة، والفصول الزراعية، وأنظمة الرى، وأنواع المزروعات وأوقات غرسها وحصادها وغير ذلك من الأمور المهمة.

كذلك يتصدى الكاتب إلى كثير من المسائل الخاصة بأنظمة الحكم فى عصر بنى أيوب، مثال ذلك «الباب الثامن» الذى استعرض فيه المؤلف وظائف الدولة وشرح اختصاص كل منها، كما أنه أتى فى الأجزاء الأخيرة من الكتاب على شذرات كثيرة طريفة عن بعض الدواوين ودور الحكومة وموارد الدولة.

ويقول العلامة الكبير الراحل الدكتور: عزيز سوريال عطية الذى حقق الكتاب إن قيمته ليست مقصورة على سعة اطلاع المؤلف وغزارة علمه وحدة ذهنه، وإنما ترجع كذلك إلى مكانته الخاصة فى المجتمع المصرى ومركزه السامى فى حكومة البلاد، فابن مماتى ـ كما سيظهر من تاريخ حياته فيما بعد ـ تقلب فى كثير من دواوين الحكومة، وانتهى به الأمر إلى تقلد الوزارة نفسها، وبذلك أصبح كل ما يكتبه ذا صبغة خاصة تجعله وثيقة رسمية صدرت عن قلم وزراء الدولة المسئولين.

كذلك يخبرنا الدكتور عزيز سوريال أن ابن مماتى اعتذر عن تقديم بعض المعلومات لأنه اعتبرها من أسرار الأمن القومى أو من أسرار الدولة التى لا يجوز إذاعتها، هذه الشخصية التى تجمع بين الخيال الأدبى الساخر والدقة العلمية المفرطة إلى جانب الحس الوطنى اليقظ كيف نراها؟

لقد تساءل المستشرق الفرنسى الكبير كازانوفا، الذى حقق كتاب «الفاشوش»، وعلق عليه قائلاً: كيف نوفق بين صورة هذا المؤلف الذى يخوض فى كتابات الفكاهة ويكتب فيها بالعامية، ثم يكتب فى آخر بالفصحى عن الأرض ومساحة المدن ويعزف عن إباحة أسرار الدولة، فيرتفع إحساسه بالمسئولية إلى هذا الحد المتعقل؟

إن الصورتين تتكاملان لو علمنا أن ابن مماتى كان غاضبًا حانقًا بلا شك على القائد قراقوش الذى يقربه صلاح الدين إليه، وهو حانق من وجهة نظر مذهبية كما يذهب كازانوفا، وهو حانق كذلك لأن أمور مصر ساءت على الرغم من الإنجازات التى حققها صلاح الدين فى الخارج من صفحات وضاءة فى الفتوحات وصد الصليبيين، ولكن هذه الصفحات كانت مصابة ببقع الحكم الاستبدادى فى الداخل وإطلاق الشهوة «القراقوشية».

ولعل هذا الوضع قد يبرز من زاوية الحكام باسم المصلحة العامة (باستخدام أسلوب العصر)، ولكنه لا يبرز من زاوية المحكومين دائمًا، كما أننا نتصور أن حنق هذا الاقتصادى أو هذا المالى ابن مماتى على قراقوش هو حنق له ما يبرره لأن الاقتصادى ينظر للأمور نظرة مخالفة لنظرة القائد العسكرى، مما يثير الفرقة فى النظر دون شك.

ويقول الأسعد فى مقدمة كتابه «الفاشوش فى أحكام قراقوش»: «إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزمة فاشوش، قد أتلف الأمة، والله يكشف عنهم كل غمة، لا يقتدى بعالم، ولا يعرف المظلوم من الظالم، الشكية عنده لمن سبق، ولا يهتدى لمن صدق، ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يرد كلمته، ويشتط اشتياط الشيطان، ويحكم حكمًا ما أنزل الله به من سلطان، صنفت هذا الكتاب لصلاح الدين، عسى أن يريح منه المسلمين».

فغرضه من هذا الكتاب تحرير الشعب المصرى وتخليصه من تسلط قراقوش وقهره له الذى سخر الشعب المصرى لبناء أمجاد صلاح الدين وتأكيد سلطانه، فإذا تذكرنا أيضا أن كتاب «قوانين الدواوين» قدم لصلاح الدين أو أحد أبنائه من أجل تحرى الواقعية والعدل فى تقدير الجزية والضرائب على أفراد الشعب بجميع فئاته، فإننا نكتشف البعد الآخر أو الدافع الرئيسى لابن مماتى، وهو مصلحة مصر والشعب المصرى عمومًا، فإذا عرفنا أن صلاح الدين كان كرديًا وأن قراقوش قائد جيشه كان صقليًا من مماليك القوزاق، فى حين كان ابن مماتى مصريًا أبًا عن جد، لمحنا أثر الصراع بين المصريين والحكام الأجانب، ولعل هذا ما جعل كازانوفا يقول: إن ابن مماتى يسعى إلى هز الثقة بقراقوش، وهو قائد صلاح الدين الأيوبى ومن أقرب المقربين إليه، لأنه كان يعهد إليه بأمانة الإشراف على مصر نيابة عنه حين كان يضطر إلى السفر إلى سوريا للقاء الصليبيين، فصلاح الدين لا ينيب عنه مصريًا مهما كان قدره أبدًا، وقد كان ابن مماتى مثلاً رئيسًا لديوان الجيش وديوان المال فى ذلك الوقت، وهو أهم الدواوين ويذكر الدكتور عبد اللطيف حمزة أن «قراقوش كان كثير اللجاجة والخصومة، فلا يقر مبدأ المنافسة فى الأمور، ولا يحتمل الإصغاء إلى جدل من كبير أو صغير، وله رأى فى معاملة السوقة والعامة، هو أخذهم جميعًا بالقهر والقسوة، وهكذا فعل بالأسرى وبالعامة الذين سخرهم فى بناء الأسوار والحصون» (الفاشوش فى أحكام قراقوش ص٦٣).

وكان هذا سببًا فى كراهية ابن مماتى وسخريته منه.

إذن فنحن بإزاء كاتب ومعاصر أيضًا وهو رائد فى أدب الفكاهة والسخرية، ورائد فى دراسة نظم الحكم ومناضل وطنى شريف وضع نفسه فى مهب الأعاصير من أجل أهله ووطنه، وكان من نتيجة ذلك أن انتهت حياته نهاية مأساوية بفعل الاضطهاد والمطاردة التى دفعته إلى الهروب إلى ما وراء الحدود، حيث قضى بقية أيامه بمدينة حلب حتى مات بعد عامين فى ٦٠٦هـ (١٢٠٩م) وعمره اثنتان وستون عامًا.

ومن الأمور المؤسفة أن يضيع تراث هذا الرجل بفعل الزمان أو نتيجة الإهمال، وقد حفزنى هذا للاهتمام بكتاباته والبحث عنها وتحقيقها حتى تكتمل صورتنا عنه، بل وعن عصره ورجاله، ذلك العصر الذى يبدو واضحًا تمامًا فى أذهان بعض الناس بينما هو غامض أشد الغموض عند من يتعمقون النظر فى قراءة التاريخ.

وقد قطعت والحمد لله شوطًا أساسيًا فى التعرف على مصادر هذا الكاتب وترجماته، واستطعت أن أحدد أماكن بعض مخطوطاته، وحصلت على اثنين منها هما: «لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة» الذى لخص فيه كتاب ابن بسام المسمى «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة»، وقمت بتحقيق هذا المخطوط ـ أما المخطوط الثانى فهو «متبلج الأنوار ومتأرج النوار» مما جعله ابن مماتى من رسائل القاضى الفاضل، وقمت بقراءته ونسخه وتصحيحه وتحقيقه أيضًا ـ وأمامى شوط طويل للحصول على بقية المخطوطات الأخرى، وخصوصًا أن له ديوان شعر قال ابن خلكان إنه اطلع عليه بخط ولده، كما أنه ألف «سيرة صلاح الدين» شعرًا ونظم كتاب «كليلة ودمنة» كما أن كتاب «قرقرة الدجاج فى لغة ابن الحجاج» يدل من عنوانه أنه فى أدب السخرية، وربما كان مثل الفاشوش، خصوصًا أن الحجاج كان أحد كبار الموظفين فى دولة بنى أيوب.

والبحث عن هذه الآثار ودراستها يعد مرحلة ضرورية فى دراسة أدبنا وفهم تاريخنا الأدبى فى عصر الدولة الأيوبية، بل وفى العصور الوسطى عمومًا.

وقد كانت نقطة البداية بالنسبة لى هى هذان الكتابان المطبوعان، قوانين الدواوين والفاشوش فى أحكام قراقوش فقرأتهما قراءة متأنية، انتقلت بعدها إلى المراجع المذكورة فى هذه الكتب وجمعت كل ما وقع تحت يدى منها بالعربية والإنجليزية والفرنسية والأسبانية، ولاحظت أن ما كتبه المستشرقون بلغاتهم يتجه إلى دراسة الكتب أو المخطوطات، فى حين يختص أصحاب الموسوعات القديمة من أمثال ياقوت الرومى وابن خلكان والمقريزى والأصبهانى والعينى وغيرهم حتى الأب لويس شيخو اليسوعى بترجمة حياة ابن مماتى، وياقوت هو عمدة هذه المصادر بغير شك، يأتى بعده فى الأهمية والترتيب الزمنى ما ذكره ابن خلكان المتوفى ١٢٨٢م فى كتابه المشهور «وفيات الأعيان» حيث يقول: ـ «القاضى الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبى سعيد مهذب بن مينا بن زكريا أبى قدامة بن أبى مليح مماتى المصرى الكاتب الشاعر، كان ناظر الدواوين بالديار المصرية، وفيه فضائل، وله

١ـ قوانين الدواوين
عزيز سوريال عطية
القاهرة: مطبعة مصر، ١٩٤٣م.

٢ـ إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب «معجم الأدباء»
ياقوت الرومى
طبعة ليدن ولندن، ١٩٢٣م.

مصنفات عديدة، ونظم سيرة السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله تعالى ـ ونظم كتاب كليلة ودمنة، وله ديوان شعر رأيته بخط ولده ونقلت عنه مقاطيع، فمن ذلك قوله:

تعاتبني وتنهى عن أمور
سبيل الناس أن ينهوك عنها
أتقدر أن تكون كمثل عيني
وحقك ما عليّ أضر منها

وكان الأسعد المذكور قد خاف على نفسه من الوزير صفي الدين بن شكر، فهرب من مصر مستخفيًا وقصد مدينة حلب لائذًا بجناب السلطان الملك الظاهر ـ رحمه الله تعالى ـ وأقام بها حتى توفي في جمادى الأولى سنة ست وستمائة من الهجرة يوم الأحد وعمره اثنتان وستون ـ رحمه الله تعالى ـ ودفن في المقبرة المعروفة بالمقام على جانب الطريق بالقرب من مشهد الشيخ على الهروى؛ وتوفي أبوه الخطير في يوم الأربعاء سادس شهر رمضان من سنة سبع وسبعين وخمس مائة.

ومينا بكسر الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح النون وبعدها ألف، ومماتي بفتح الميمين والثانية مشددة وبعد الألف تاء مثناة من فوقها وهي مكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها، وهو لقب أبي مليح المذكور، وكان نصرانيًا، وإنما قيل له مماتي لأنه وقع في مصر غلاء عظيم، وكان كثير الصدقة والإطعام وخصوصًا لصغار المسلمين، فكانوا إذا رأوه نادى كل واحد منهم مماتي فاشتهر به، هكذا أخبرني الشيخ الحافظ زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذرى ـ نفع الله به ـ ثم أنشدني عقيب هذا القول مرثية فيه.

قال المقريزى في خططه:

وأما ابن مماتي فإنه (أسعد) بن مهذب بن زكريا بن قدامة بن نينا (مينا!) شرف الدين مماتي أبي المكارم بن سعيد بن أبي المليح الكاتب المصرى، أصله من نصارى أسيوط من صعيد مصر، واتصل جده أبو المليح بأمير الجيوش بدر الجمالي وزير مصر في أيام الخليفة المستنصر بالله، وكتب في ديوان مصر، وولي استيفاء الديوان.

وقد علق الدكتور عزيز سوريال على ما جاء في كتب المؤرخين بملاحظات عدة نذكر منها:

«إن مؤلف كتاب قوانين الدواوين» لم يكن أول شخص عظم شأنه في دواوين الحكومة من بين أفراد أسرته، إذ نجد أن جده أبا المليح الذي عاش بمصر في العصر الفاطمي عمل في خدمة الوزير بدر الجمالي والخليفة المستنصر حتى بلغ في سلم الترقي إلى وظيفة «مستوفي الديوان» وهي من الوظائف الرئيسية في الدولة الفاطمية؛ وبعد موته تولى ابنه واسمه المهذب بن أبي المليح رئاسة «ديوان الجيش» والدولة الفاطمية تحتضر في وزارة أسد الدين شيركوه السني المذهب، وفي عهده أسلم هو وأولاده: وأما ابنه وهو حفيد أبي المليح واسمه الأسعد، فقد قضى الجزء الأول من حياته في عصر الانتقال من الفاطميين للأيوبيين، وورث في بداية الأمر عن أبيه وجده «ديوان الجيش» الذي احتفظ به في عهد صلاح الدين الأيوبي (٥٦٤ـ٥٨٩هـ/١١٦٩ـ١١٩٣م) وفي سلطنة ابنه العزيز عماد الدين عثمان (٥٨٩ـ٥٩٥هـ/١١٩٣ـ١١٩٨م). ويظهر مما ورد في رواية ياقوت الرومي أنه أضيف إليه أيضًا «ديوان المال» الذي يعتبر في كل عصر من العصور أهم الدواوين والوزارات. ويلوح أنه ظل محتفظًا بوزارته ودواوينه أيضًا خلال سلطنة المنصور محمد (٥٩٥ـ٥٩٦هـ/١١٩٨ـ١١٩٩م)، وشطر من سلطنة العادل سيف الدين أبي بكر (٥٩٦ـ٦١٥هـ/١١٩٩ـ١٢١٨م)، ولكن كثرت عليه المؤامرات في عهد هذا الأخير، وأودت بمركزه وماله، وأدت إلى هروبه فقيرًا ذليلاً إلى ما وراء الحدود المصرية في الشام، حيث قضى بقية أيامه بمدينة حلب، حتى مات بها.

ثانيًا: يلاحظ أن الوزارة لم تشغل الأسعد عن الأدب والتأليف، ونظرة واحدة في أسماء الكتب التي صنفها والتي ذكر أكبر عدد منها ياقوت الرومي تكفي لإيضاح هذه الحقيقة: ولكن الغريب في ذلك هو أنه لم يتحدث عن «كتاب قوانين الدواوين» من بين قدماء المؤرخين سوى المقريزى، وربما كان ذلك راجعًا إلى أن المقريزى من بين هؤلاء المؤرخين هو الوحيد الذي اهتم بمثل ما ورد في ذلك الكتاب من المحتويات، بينما اقتصر الآخرون على الناحية الأدبية البحتة من تأليفه: ورواية المقريزى في هذا الصدد عظيمة الشأن، ويفهم منها أن ابن مماتي ألف الكتاب للملك العزيز، ثم يزيد على ذلك أن الكتاب المتداول في أيدينا إنما هو نسخة مختصرة من الكتاب الأصلي الذي كان يقع في أربعة مجلدات ضخمة.

فإذا صحت نظرية المقريزى، وضح لنا السبب في الاختلافات الكبيرة بين مجموعة المخطوطات الصغرى التي اعتمد عليها ناشر نسخة مطبعة الوطن والمجموعة الكبرى التي اعتمدنا عليها فيما ننشره اليوم في المجلد الحاضر: وبالرغم من أن «كتاب قوانين الدواوين» الذي يظهر في هذه الصفحات من أروع الوثائق التاريخية في عصر الدولة الأيوبية، فإنه لا يسعنا إلا إبداء أسفنا الشديد على ضياع الأصل المطول ذي المجلدات الأربعة والتي لم نعثر عليها في أي مكان توجد فيه مخطوطات عربية في أوروبا، ومن لندن وباريس إلى إستانبول والقاهرة وغيرها من العواصم.

وإذا كان الدكتور عزيز سوريال مهتمًا أساسًا بالناحية العلمية والفكرية لكتاب «قوانين الدواوين»، فإن اهتمامنا الأول هو الجوانب الأدبية كما تبدو في كتبه وأولها «لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة» الذي نتناوله الآن.

محاسن أهل الجزيرة

يتضمن هذا المخطوط تلخيصًا وافيًا لكتاب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» الذي صنفه، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، المتوفى سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م، وهذا الكتاب يتناول تاريخ الأندلس السياسي والأدبي في القرن الخامس الهجري

رائد أدب السخرية





(الثانى عشر الميلادى) وصنف ابن مماتى هذا التلخيص أثناء إقامته بحلب (بين ٦٠٤-٦٠٦)، استجابة لطلب الوزير ذى البلاغتين، محمد بن الحسين، وزير السلطان الأيوبى الملك الظاهر.

وكان هذا الوزير قد أكرم ابن مماتى، وأحسن معاملته، وأطلعه على خزانة كتبه، ومن جملتها كتاب «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» يصفه ابن مماتى قائلاً: هو كتاب جليل المقدار، جميل الآثار، متنظم من عقود الفضلاء، وفصوص فصول الأدباء، ما تغص به الأقطاب والأقطار، ويملأ ساحات ساعات الليل والنهار، وأشار أبقاه الله (يقصد الوزير) إلى أن أختار منه الطائل الطائر، ويقتصر فيه على النادر النادر، فبادرت إلى المرسوم، وثابرت على العمل بالمفهوم.

كذلك يقول ابن مماتى أن الكتاب المشار إليه يشتمل على أربعة أقسام، وأنه لم يلزم قانونًا فى تقديم المقدم وتأخير المؤخر، بل ذكر كل اسم على ما اتفق له من ذكره، وخدم ذلك الاسم بما وجده من أخباره ونظمه ونثره، وألم فى بعض الأشعار بالتنبيه على ما يشاكلها والإشارة إلى ما يماثلها.

فماذا فعل ابن مماتى إذن؟

يواصل كلامه فيقول: فجردت منه خيار ما وجدت فيه، وأظهرت من محاسنه ما كان الإكثار يغمره ويخفيه، وجعلته ثلاثة أجزاء:

الأول: فى المختار من الأشعار على ولاء ما ألف ونسق ما صنف.

الثانى: فيما دل ابتسام نواجذه، على دقائق مآخذه، مما تشاكلت معانيه، وتماثلت مبانيه.

الثالث: فى سحر عيون الأخبار، وما يستدل به على أن وجوه الآثار السنة الأقدار، وسميته «لطائف الذخيرة وطرائف الجزيرة».

ولا يخلو هذا العمل من فائدة كبيرة لمن قراوه قديمًا ولمن يقرأه الآن، وخصوصًا أنه يقدم تحليلاً للأسباب التى أدت إلى زوال دولة الأمويين فى الأندلس، كما يحدثنا عن خراب القيروان وأسبابه، وكذلك عن أفضل ما حوته الذخيرة من أشعار بإيجاز شديد، وفى تنسيق وترتيب ملائم، يساعد على المتابعة والربط بين هذه الأجزاء وعملية الاختيار والتنظيم والتقسيم فى ثلاثة أجزاء، تقدم بغير شك رؤية نقدية تتجلى فى ناحيتين:

أولاهما: تجريد أغلب المختارات الشعرية، مما يدور حولها من مناسبات وكأنه يقول لنا: هل يمكن تذوق هذه الأشعار وفهمها بدون ذكر المناسبة التى قيلت فيها؟

وثانيتهما: المحافظة على أجمل ما فى هذا الأثر من أشعار وأفكار مما سجله هذا الكاتب العظيم ابن بسام فى ذخيرته، وخصوصًا أن ابن بسام توفى فى ٥٤٢هـ وكتب ابن مماتى «لطائف الذخيرة» فى الفترة ما بين ٦٠٤هـ، ٦٠٦هـ تاريخ وفاته، أى بعد وفاة ابن بسام بحوالى ٦٣ عامًا.

كانت أول خطوة فى توصلى إلى هذا المخطوط ما جاء فى كتاب «تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان»، حيث ورد اسم هذا المخطوط ضمن قائمة مؤلفات ابن مماتى مع إشارة إلى كتابات كراتشكوفسكى فى مكتبة لينتجراد، وفى مجلة الأندلس عدد ٣ سنة ١٩٣٤. وانطلقت أبحث عن مؤلفات كراتشكوفسكى فى فهارس الكتب والمكتبات ولحسن الحظ وجدت له ثلاثة كتب مترجمة فى مكتبة جامعة القاهرة وهى:

١- دراسات فى تاريخ الأدب العربى.

٢- «مع المخطوطات العربية»، والذى يتحدث فيه كراتشكوفسكى عن مخطوط لطائف الذخيرة فى صـ ١٦٢ من الكتاب.

٣- حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى، وخصوصًا أنه وجد فى مكتبة هذا الشيخ بلينتجراد مخطوطًا لابن مماتى اسمه «أعلام النصر» وعليه بعض تعليقاته.

ولنعد الآن للنظر فى هذا المخطوط ومحتوياته، ونتساءل إن كان ينطبق عليه هذا الحكم الذى أطلقه ياقوت الرومى، حين قال عن ابن مماتى «وله تصانيف كثيرة يقصد بها قصد التأديب، ويعرضها على الكبراء، لم تكن مفيدة إفادة علمية، إنما كانت شبيهة بتصانيف الثعالبى» وإذا كان مثل هذا الحكم يجعل قيمة هذا المخطوط العلمية محل نقاش، فإن هناك جانبًا لايشك فى قيمته أحد ألا وهو القيمة الوثائقية للمخطوط، حيث يبدأه ابن مماتى بالحديث عن نفسه وعن مأساته، التى انتهت به إلى الهروب من مصر لاجئًا إلى حلب فى حماية ملكها الظاهر، حيث يقول:

فلما عضنى الدهر بنابه، وأغرى بى كل غمر ليس بنابه، رأيت أن الخلاص من شراك مصائده، فالتوقى من سهام مكائده، لا ينال إلا بالأسفار، وهى بارتكاب الأخطار، فخرجت من مصر خائفًا أترقب هائمًا لا أدرى أين أذهب، حتى أدنانى الهرب، إلى مدينة الشهباء حلب، فلجأت إلى جانب سلطانها الملك الظاهر.

حيث قام هناك بتلخيص كتاب «الذخيرة» بناء على توجيه وزيره محمد بن الحسن.

ورغم خلو كلامه من التفاصيل الخاصة بالأسباب والمؤامرات التى حيكت ضده ودفعته للهروب، إلا أنها تعد وثيقة مهمة تؤكد واقعة الهروب وتشير إلى ما تعرض له هذا الكاتب الكبير ورجل الدولة الخطير فى نهاية أيامه.

كان أحد تلاميذى يواصل إعداد فهرس المخطوطات الذى قد بدأت العمل فيه لمجموعة الطنطاوى نفسها، فوجدت صورة مختصرة لمؤلف كبير الأهمية لتاريخ الأدب الأندلسى، وفى رأيى أن هذا المخطوط كان فريدًا بالنسبة للمجموعات الأوروبية.

ثم يضيف إلى ذلك قوله:

ومؤلف هذا المخطوط قريب لى منذ وقت بعيد، فقد كان موظفًا كبيرًا فى الديوان فى عصر المماليك بمصر، وإلى جانب هذا فإنه وجد أيضًا وقتًا لأعماله الأدبية وكنت قد اكتشفت فى المكتبة الجامعية أيضًا مؤلفًا آخر له لم يكن معروفًا من قبل. ■

بدايات طه حسين

من الأزهر



في بداية عهده بالكتابة كان يطيب له أن يهاجم الكتاب المرموقين في عصره طلبًا للشهرة، ولا ننسى في هذا المجال أن طه نظم في نفس الفترة كثيراً من الشعر إلى أن توقف عن قوله في سنة ١٩١٣، بعد أن أدرك فيما يبدو أن حظه من الشاعرية ضئيل

عبد الرشيد الصادق محمودي

اتضح لى من خلال بحث أجريته عن تعليم طه حسين من الأزهر إلى السوربون، أننا لا نعرف الشيء الكثير فى هذا المجال، وأننا نجهل خاصة مرحلة تعليم طه فى الجامعة المصرية الأهلية قبل سفره إلى فرنسا. فمن المعروف أنه التحق بهذه الجامعة فور افتتاحها فى سنة ١٩٠٨، وأنه أتم دراسته فيها فى سنة ١٩١٤ عندما حصل على الدكتوراه عن الرسالة التى أعدها عن أبى العلاء. فماذا نعرف حقًا عن هذه الفترة التى استغرقت ست سنوات تقريبًا من حياته؟ نحن نعرف الكثير عن نشأة الجامعة وتطورها: كما نعرف أن الجامعة دعت عددًا من كبار المستشرقين للتدريس فيها. ولكننا مازلنا نجهل إلى حد بعيد المناخ الفكرى الذى أحاط بالجامعة وماذا تعلم طه فيها وكيف تأثر بأساتذته الأوروبيين. ومرجع هذا الجهل هو أننا لا نعرف الكثير عن مضامين المقررات التى قدمها هؤلاء الأساتذة رغم أن أهمها قد نشر، وأننا لا نعرف إلا القليل عن الكتابات المبكرة لطه حسين، وهى الكتابات التى واكبت دراسته فى الجامعة وسجلت تطوره فى تلك الفترة. وسوف أركز إذن على هذه المرحلة التى ما زال يلفها الضباب وعلى الكتابات التى واكبتها ولم تحظ حتى اليوم بالاهتمام الذى تستحقه.

بدأ طه نشر كتاباته فى سنة ١٩٠٨ وتواصل إنتاجه بغزارة لافتة للنظر حتى سنة ١٩١٤ عندما ألف رسالته السالفة الذكر عن أبى العلاء. وقد حظيت الرسالة عن جدارة باعتزاز صاحبها واهتمام دارسيه؛ ولكن الحظوة التى لقيتها حجبت عن غير حق ما سبقها من كتابات. فقد عنى طه حسين بنشرها فى سنة ١٩١٥، بينما أهمل جمع مقالاته المبكرة وإعادة نشرها. وتابعه فى ذلك الإهمال دارسوه فصاروا يؤرخون لحياته الأدبية بداية من كتابه عن أبى العلاء. فإذا تطرقوا إلى كتاباته الأولى على الإطلاق كان ذلك من قبيل البحث عما قبل تاريخ طه حسين.

وليس من السهل تحديد الأسباب التى دفعت طه حسين إلى إهمال كتاباته الأولى. من الشائع المشهور أن طه حسين نشر بداية من سنة ١٩٠٩ سلسلة من المقالات هاجم فيها كتاب «النظرات» للمنفلوطى وأنه أعرب فيما بعد عن ندمه لكتابتها؛ فقد كانت كما قال فى الجزء الثالث من الأيام طويلة سمجة فضلاً عن أن كاتبها كان «قديم المذهب فى الأدب لا ينظر منه إلا إلى اللفظ ولا يحفل من اللفظ إلا بمكانه من معجمات اللغة». وقد نضيف إلى ذلك أن طه فى بداية عهده بالكتابة كان يطيب له أن يهاجم الكتاب المرموقين فى عصره طلبًا للشهرة، ولا ننسى فى هذا المجال أن طه نظم فى نفس الفترة كثيرًا من الشعر إلى أن توقف عن قوله فى سنة ١٩١٣ بعد أن أدرك فيما يبدو أن حظه من الشاعرية ضئيل. وقد يبدو إذن أن طه قد حجب تلك الكتابات لعيوبها التى ذكرناها.

بيد أن هذا التفسير لا يصمد للنقد، فالكتابات التى حجبها طه لندمه على كتابتها أو لضعف موهبة كاتبها أو لتسلط الرغبة فى الشهرة عليه لا تستوعب كل إنتاجه المبكر. فقد جمعت من هذا الإنتاج مجموعة لا بأس بها من المقالات التى تدور فى معظمها على تاريخ الأدب وتخلو من تلك العيوب وتتسم فى مجملها بطابع إيجابى بناء وإن كانت أحيانًا سجالية المظهر. وقد تحكم فى اختيارى قرار اتخذته منذ بداية البحث، وهو أن أستهدف بصفة أساسية المقالات التى تعنى بالنقد (البناء) أو تاريخ الأدب لأنها هى التى تبشر بمستقبل كاتبها العظيم.

ويبدو إذن أن طه عندما ألف كتابه الأول عن أبى العلاء فقد تقديره لمقالاته الأولى لأسباب أخرى. فقد كان يعوزها ما تحقق فى هذا الكتاب من صقل وتماسك واكتمال. وإذا نظرنا الآن فى تلك المقالات لاحظنا بالفعل أن كاتبها لم يكن قد تمكن بعد من مادته وأنها جاءت فى كثير من الأحيان مجزأة ناقصة عليها طابع التجريب ويعوزها ما عرف عن الكاتب الناضج من طلاوة الأسلوب ورشاقته. ومع ذلك فإن لهذه المقالات أهمية قصوى ترجع على وجه التحديد إلى أنها ترينا كاتبها وهو مازال قيد التكوين، وذلك أن طه وهو قيد التكوين قد أدار عن المنهج التاريخى حديثًا فاحصًا مطولاً لم يأت بمثله فى حياته الناضجة. وكان التكوين فى هذه الحالة ذا طابع تأسيسى كما سأبين فيما يلى.

وتنقسم المقالات التى تمكنت من جمعها ورأيت أن أوليها عناية خاصة إلى مجموعتين: أولاهما ترجع إلى سنة ١٩١١ بينما ترجع الثانية إلى سنة ١٩١٤. وسوف أكتفى هنا بنماذج منها للنظر فيها نظرة تاريخية ناقدة فى سياقها التاريخى، أى فى موقعها من حياة مؤلفها وحياة مصر بصفة عامة، وهو ما يقتضى أولاً استعراض أهم الشخصيات والتيارات التى أحاطت به فى الفترة التى شهدت ظهور كتاباته الأولى.

فى سنة ١٩٠٧ التقى طه بأحمد لطفى السيد وأخذ يتردد على مكتبه فى صحيفة الجريدة (لسان حال حزب الأمة) التى كان يديرها، ثم أصبح طه أحد تلامذته المقربين، وفى سنة ١٩٠٨ بدأ طه ينشر كتاباته فى الجريدة تحت إشراف مديرها مباشرة، ولم يمض وقت طويل حتى اتصل طه بعبد العزيز جاويش، وأخذ هذا الأخير يدربه بدوره على الكتابة وينشر مقالاته فى صحف الحزب الوطنى، وفى السنة المذكورة التحق طه بالجامعة الأهلية دون أن ينصرف تمامًا عن الأزهر، فقد ظل يحضر فيه درسى الأدب

من مقدمة للطبعة العربية (تصدر قريبًا) لكتاب:
Taha Husain's Education From the Azhar to the Sorbonne
(تعليم طه حسين من الأزهر إلى السربون)
Abdelrashid Mahmoudi
(Curzon Press, Richmond 1998).

إلى السوربون!

والبلاغة حتى سنة ١٩١٠ عندما سقط أو أسقط في امتحان العالمية، وعندئذ انفصمت العلاقات بينه وبين الأزهر إلى غير رجعة وانصرف من ثم إلى دراسته الجامعية.

وفي الجامعة تعرف طه على أنواع من العلم لم يكن له بها عهد: وأخذ لأول مرة في حياته يتعرض على نحو مكثف لتأثير العلوم الحديثة والمعارف الغربية التي كان يقدمها أساتذة بعضهم مصري وبعضهم أوروبي. فقد استدعت الجامعة كما قلت عددًا من المستشرقين من بينهم الإيطاليون الثلاثة إغناطيوس جويدي وكارلو ألفونسو نالينو ودافيد سانتلانا والألماني أوتولتمان والفرنسي لويس ماسينيون.

ومن الواضح إذن أننا بإزاء فترة انتقالية حافلة في حياة طه. كان عندئذ يقف في مفترق الطرق: فيما بين الأزهر والجامعة: وفيما بين لطفي السيد وعبد العزيز جاويش: وفيما بين هذين كليهما وبين أساتذته المستشرقين. يضاف إلى ذلك أن طه كان طموحًا نهمًا إلى المعرفة فكان ينتقل من أستاذ إلى آخر ويتقاسم اهتمامه وولاءه أناس كثيرون.

وتظهرنا المقالات التي بين أيدينا على أن طه بدأ في غضون تلك الفترة يكتشف ذاته الحقيقية فيتجه إلى ما هو مؤهل له حقًا: وأعني بذلك التاريخ ولاسيما تاريخ الأدب العربي. لا نعرف متى حدث ذلك على وجه التحديد وإن كان من المرجح على ضوء هذه الوثائق أن التحول إلى التاريخ وقع في سنة ١٩١١، أي بعد التحاقه بالجامعة بثلاث سنوات تقريبًا.

ولم يكن هذا التحول من قبيل المصادفة، فقد كان التاريخ يحتل حيزًا كبيرًا من اهتمام الجامعة، وذلك أن نشأتها اقترنت بوعي أنصارها ومؤسسيها بما لدراسة التاريخ من أهمية للنهضة المصرية، فكان أن أعطيت الأولوية لدراسة الآداب بدلاً من العلوم: وكانت دراسة الآداب تاريخية الطابع بصفة عامة، وكان جميع الأساتذة المستشرقين تقريبًا ذوي نزعة تاريخية واضحة.

ومن علامات اهتمام الجامعة بالتاريخ أنها أعلنت عن مسابقة لتأليف كتاب في تاريخ آداب اللغة العربية ورصدت للمؤلف الفائز جائزة مالية، وقد ألف الرافعي الجزء الأول من كتابه «تاريخ آداب العرب»، بهدف الاشتراك في هذه المسابقة وإن لم يتقدم لها عند صدور الكتاب في سنة ١٩١١، وقد سبقه إلى الصدور بشهر أو شهرين الجزء الأول من كتاب جرجي زيدان «تاريخ آداب اللغة العربية».

وتدل استجابة هذين الكاتبين للدعوة إلى الكتابة في تاريخ الأدب العربي على أن الجو الثقافي خارج نطاق الجامعة لم يكن يخلو من الاهتمام بالتاريخ صراحة أو ضمنًا، سلبًا أو إيجابًا. وعلينا إذن أن نضع خارطة تقريبية مؤقتة لمختلف القوى التي أحاطت بطه وأن نحدد مواقعها على ضوء محاباتها للتاريخ أو عدائها له، ولنبدأ بالقوى التي كانت تناصر التاريخ صراحة والتي يبدو أنها كانت تنحصر في الجامعة الناشئة: فقد كانت الجامعة كما ذكرنا تاريخية المنزع من حيث الفلسفة التي قامت عليها والمواد التي قررتها والأساتذة الذين استقدمتهم للتدريس فيها.

وفي مقابل هذا التيار المحابي للتاريخ كان هناك تيار فكري آخر يتخذ من التاريخ موقفًا عدائيًا على نحو أو آخر. كان هناك أولا مذهب إحيائي محافظ في الدراسة الأدبية يسير سيرة القدماء من علماء الأدب ويضمر العداء للتاريخ. ويمثل هذا التيار أفضل تمثيل الشيخ سيد على المرصفي الذي درس الأدب لطه في الأزهر، وفقا لمنهج لغوي محض في تحليل النصوص الأدبية ونقدها وخاصة من الناحية البلاغية دون اهتمام بتطور اللغة وآدابها وتأثرها بالظروف التي نشأت فيها. يضاف إلى ذلك أن تصور الشيخ لتاريخ الأدب العربي كان ينطوي على إنكار للبعد التاريخي. فقد كان يرى أن الشعر الجاهلي البدوي هو المثل الأعلى للجودة: أما ما تلاه من شعر العرب والمولدين من سكان الحضر فهو جيد بقدر اقترابه من ذلك المثل الأعلى ومحاكاته له، وهو مهجن فاسد بقدر ابتعاده عن ذلك الينبوع النقي. وتاريخ الأدب العربي ينحصر إذن في عصر ذهبي وعصور أخرى تحاكيه أو ينبغي إهمالها.

ولا ينبغي أن ننسى أن حركة الإحياء في نطاق الأدب كانت تستمد الدعم من تيار ديني أصولي يضمر بدوره العداء للتاريخ بحكم أصوليته ذاتها. وأعني بذلك حركة الإصلاح الإسلامي التي كان يتزعمها محمد عبده. فقد كان هذا الأخير يفترض بدوره عصرًا ذهبيًا ومثلاً أعلى ينبغي الرجوع إليهما في استقبال الحضارة والعلوم الحديثة. والعصر الذهبي في هذه الحالة هو صدر الإسلام أو عصر السلف الصالح. فهنالك نجد المصادر الأولى للإسلام وهي القرآن الكريم والسنة الصحيحة. فإذا فسرنا هذه المصادر تفسيرًا يقوم على الاجتهاد اكتشفناها في حالتها الأولى من الصفاء ورأينا فيها عندئذ أن الإسلام دين يتفق مع العقل والمدنية والعلم. وينطوي هذا المذهب على عداء ضمني للنزعة التاريخية لأنه رغم ترحابه من حيث المبدأ بالحضارة والعلوم الحديثة يجعل قبولها رهنا بإثبات اتفاقها مع مبادئ الإسلام عن طريق التفسير. فكأن لا جديد تحت الشمس أو كان الجديد لا يقبل في جدته ووفقًا لمسوغاته الخاصة.

وربما كان مصطفى صادق الرافعي أفضل ممثل لمعسكر المعادين للتاريخ لأنه ينفرد بميزة شديدة الأهمية، وهي قدرته على كشف العداء المضمر وصياغته في حجج صريحة تستوقف النظر، فقد كان يعتقد أن دراسة الأدب العربي دراسة تاريخية أمر مستحيل أصلاً. وذلك أن الأدب العربي يتميز في رأي الرافعي بأن من غير الممكن دراسة تطوره، إما لأننا لا نستطيع تقصي ما وقع فيه من أحداث على مر الزمن أو لأنه لم يخضع للتطور أساسًا، ومما يقوله الرافعي في الباب الأول أن تاريخ الأدب العربي «يمتاز عن كل ما سواه بذهاب الكثير من أصول حوادثه، لانقطاع متن التأليف من أول عهده، واضطراب النسق التاريخي فيما ألف بعد ذلك بحيث يستحيل أن تنضد كل حوادثه في متعاقب أزمانه، أو تنزل على مراتب عصوره». (تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الأول، ص١٩).

أما ما يقوله في الباب الثاني فهو أن اللغة العربية وقد وصلت في الجاهلية إلى أوج فصاحتها وبلغت حد الإعجاز في القرآن لم تتغير أو لم تتغير على أي نحو جدير بالذكر. وذلك لأنها ظلت مرتبطة بالقرآن منطوية على سره. يقول الرافعي: إن «تعاقب ثلاثة عشر قرنًا من تاريخ الأدب الإسلامي لم ينشئ لغة أفصح مما نطقت به العرب قبل ذلك. ولا جاء بشعر يباين أشعارهم في الجملة. ولا جعل لأدبائنا مذاهب متميزة. بل ليس في تعاقب تلك العصور الأدبية على الأغلب إلا موت رجال وقيام رجال» (نفس المصدر، ص ٢٠ ـ ٢١).

وكان هناك فضلاً عن كل ذلك تيار ذو طابع تاريخي سطحي في دراسة الأدب العربي. وقد أسماه الرافعي «تاريخ آداب اللغة العربية» ونسبه إلى دار العلوم وأرجعه في نهاية المطاف إلى المستشرقين. والواقع أنه كان يقصد حسن توفيق العدل الذي درس تاريخ الأدب العربي في دار العلوم بعد عودته من ألمانيا وفقًا لمذهب مستمد من الاستشراق الألماني. وكان المذهب يقوم على تدريس الآداب العربية مقسمة على عصور أو فترات تتحدد بتعاقب نظم الحكم والأسر الحاكمة (العصر الجاهلي، فصدر الإسلام، فالعصر الأموي، فالعصر العباسي، وهلم جرا). أما الأدب الذي يدرس في إطار هذه الفترات فكان يقتصر على نماذج من الشعر والنثر تقدم مع ما يتصل بها من بيانات سطحية دون نقد أو تمحيص أو تعليل.

ولم يقتصر نفوذ المذهب على دار العلوم. فقد شاع في المدارس المصرية وكتب تعليم الأدب العربي. وقد كان طه حسين على وعي به وانتقده ـ كما سنرى ـ تحت عنوان «مدرسة الآداب» ورغم أنه كان يتفق مع الرافعي في اتهام المذهب بالسطحية وافتقاره إلى التحقيق، فإنه كان يعتقد على خلاف هذا الأخير أن دراسة الأدب دراسة علمية تاريخية ممكنة وأن ثمة منهجًا تاريخيًا سليمًا ينبغي أن يلتمس لدى فريق آخر من المستشرقين، ولاسيما نالينو. ففي أي فريق ينبغي أن نصنف مدرسة الآداب: أهي من المحابين للتاريخ أم من المعادين له؟

يبدو أن هذا المذهب الذي يناصر النزعة التاريخية على نحو منقوص ينبغي أن يوضع في مكان وسط بين المعسكرين، وكذلك ينبغي أن نصنف جرجي زيدان، إذا أردنا أن نساير طه حسين فسوف نرى فيما يلي أنه يدرج زيدان في عداد مدرسة الآداب، وهو في تجديد ذكرى أبي العلاء يضع المدرسة في منزلة وسط بين النهج اللغوي كما اتبعه المرصفي وبين المنهج التاريخي كما يمثله نالينو.

ولن تكتمل صورة السياق الذي ظهرت فيه المقالات المبكرة لطه حسين حتى نذكر الرجلين اللذين علماه صنعة الكتابة، أي أحمد لطفي السيد، وعبد العزيز جاويش. فلم يكن أي منهما مؤرخًا ولا صاحب نزعة تاريخية واضحة، ولكن أولهما كان يدفع طه نحو التاريخ بينما يصده ثانيهما عنه. فكيف كان ذلك؟ يروي طه في الأيام أن لطفي كان يحثه على «القصد في العبارة والأناة في التفكير»، إلا أن أستاذه الثاني لم يكن من أصحاب القصد أو الأناة، فقد كان عبدالعزيز جاويش هوالذي أغرى طه بنقد المنفلوطي ذلك النقد اللفظي الجارح وأخذ يستزيده منه. وبناء على ذلك يمكننا أن نقول إن جاويش كان يعمل ـ واعيًا أو غير واع ـ إلى الرجوع بطه فكريًا إلى تيار الفكر الإحيائي المحافظ، فلم يكن النقد اللفظي الذي شجع طه على ممارسته إلا صورة مبسطة فجة من النهج اللغوي لدى المرصفي. يضاف إلى ذلك أن عبد العزيز جاويش كان من أتباع الشيخ محمد عبده مؤمنًا بمذهبه في الإصلاح الإسلامي.

أما لطفي فكان يدفع طه نحو التاريخ بطرق متعددة، ومن ذلك أنه كان يشجع تلميذه على الدراسة في الجامعة، بل ويمهد لهذه الدراسة تمهيدًا حسنًا بما كان يقدمه من دروس. وذلك أن مدير الجريدة كان ينظم لتلاميذه محاضرات لتعليمهم ما لم يتعلموه في مدارسهم. وكان لطفي يعمل على إخراج الإصلاح من الإطار الديني. فكان يدعو إلى الإقبال على الحضارة الغربية دون قيد أو شرط سوى دافع المصلحة والتسلح بأسباب القوة. كما كان يشجع تلاميذه على دراسة الفلسفة ويتعاطف بصفة خاصة مع الاتجاهات العلمية التجريبية والنقدية والوضعية. وليس من قبيل المصادفة أن تفكير طه في مرحلته المبكرة شهد ميلاً متزايدًا نحو الفلسفة وأن المنهج التاريخي كما اعتنقه عند ذاك كان وضعيًا. ولابد أن لطفي السيد كان له دور في ذلك.

أما وقد رسمنا خارطة تقريبية للتيارات التي كانت تحيط بطه في الفترة المبكرة، فإن باستطاعتنا الآن أن نرى كيف تفاعل مع كل منها. وأول ما نلاحظه في هذا الصدد أنه أحس منذ بداية التحاقه بالجامعة أن مصيره مرتبط بدراسة التاريخ. لقد راقت له في الجامعة أشياء كثيرة، ولكنه شعر بأكبر قدر من الدهشة ولذة الكشف عندما تلقى أول دروس له في التاريخ. وكانت هذه البيئة (الجامعة) تتيح له علما يخلق نفسه خلقًا جديدًا لا يتصل بالنحو ولا بالفقه ولا بالمنطق ولا بالتوحيد. وإنما يذهب به مذاهب مختلفة في الأدب وفي ألوان من التاريخ لم يكن يقدر أنه سيعرفها في يوم من الأيام. ولم ينس الفتى يومًا خاصم فيه ابن خالته الذي كان طالبًا في دار العلوم ولج بينهما الخصام، فقال الدرعمي للأزهري:

ما أنت والعلم؟ إنما أنت جاهل لا تعرف إلا النحو والفقه، لم تسمع قط درسًا في تاريخ الفراعنة! أسمعت قط اسم رمسيس أو اخناتون؟

وبهت الفتى حين سمع هذين الاسمين وحين سمع ذكر هذا النوع من التاريخ. واعتقد أن الله قد كتب عليه حياة ضائعة لا غناء فيها.

فما سر هذا الافتتان بالتاريخ؟ لا يكفي لتفسير هذه الظاهرة أن نشير إلى شيوع الاهتمام بالتاريخ في الوسط المحيط وينبغي أن نأخذ في الاعتبار أيضًا شخصية طه. واضح أنه وجد في دراسة التاريخ منفذًا للتحرر من قيود الدراسة الأزهرية ودورانها في نطاق المتون وما تراكم عليها من شروح وحواش وتقريرات. وذلك أن هذه الدراسة أتاحت له ـ هو الكفيف المقيد الحركة ـ وسيلة للانفتاح على العالم أو للإطلال عليه. وقد سبق لطه أن شعر بنشوة مماثلة عندما اكتشف في الأزهر دراسة الأدب على يدي المرصفي. فقد حرره الشيخ من متون الأزهرية وما تراكم عليها من تعليقات متعددة المستويات ووضعه أمام عيون الأدب القديم وجها لوجه. ولكن لذة ذلك الكشف الأول لا يمكن أن تعدل هذا الكشف الثاني. فقد كان درس الأدب على طريقة المرصفي يفتح الباب لمواجهة النصوص بينما يفتح درس الأدب بالطريقة التاريخية نافذة واسعة على الواقع.

غير أن التحول إلى التاريخ على صعيد الفكر والكتابة لم يحدث كما ذكرنا إلا بعد ثلاث سنوات تقريبًا من افتتاح الجامعة، أي في سنة ١٩١١. وقد استمر طه لفترة بعد ذلك الانتشاء الأول على تأثره بالمرصفي وجاويش، وظل يمارس النقد اللفظي وينحو نحوًا محافظًا في أحكامه النقدية وفي فكره بصفة عامة. يضاف إلى ذلك أن حدوث

بدايات



طه حسين

التحول كان يشترط قدرًا من التحصيل والاستيعاب. ولم يكن التحصيل والاستيعاب في هذه الحالة قاصرين على اكتساب المعلومات التاريخية، بل كانا يقتضيان أيضًا النفاذ إلى ما هو أساسي في العلم الجديد، ألا وهو طبيعته وقواعده. وذلك أن طه تخير الطريق الصعب إلى هذا العلم، طريق البحث المنظم الرامي إلى بسط قواعد المنهج التاريخي. وقد يحسن إذن أن أبدأ استعراض المقالات التي انتخبتها بمقالة لم تكتب في تاريخ الأدب ولم تكن أسبق هذه المقالات من حيث تاريخ النشر، ولكنها بمثابة إعلان واضح على أن طه أخذ في تلك السنة يقطع علاقاته بماضيه المحافظ ليدخل مرحلة جديدة شديدة الأهمية في حياته تتميز بالتفكير المنظم والبحث عن القواعد المنهجية. والمقالة التي أعنيها عنوانها «النقد: حقيقته. أثره في الأمم. شروطه ومضار الغلو فيه». (البيان، مجلد سنة ١٩١١، ص ٣٧٧ - ٣٨٨).

تربنا هذه المقالة طه وهو يحاول أن يتحرر من أسر النقد اللفظي وأن يتبين ما هو النقد «الصحيح». وقد ندهش عندما نقرأ المقالة فلا نجد ذكرا للنقد الأدبي إلا في نهايتها حيث يعد المؤلف بأن يستأنف الحديث في مقاله تالية، وهي المقالة التي لم تصلنا أو لم تنشر أصلاً. والمقالة التي بين أيدينا ناقصة إذن، بمعنى أن لها تكملة لا نستطيع الاطلاع عليها. ومع ذلك فإنها مكتملة بمعنى أنها مكتفية بذاتها محققة للمهام التي حددت لها في العنوان، وهي النظر في النقد بمعناه العام: طبيعته والقواعد التي ينبغي أن يخضع لها. وذلك أن البدء بالنقد وفقًا لأعم تعريفاته ليس إلا إحدى العلامات الدالة على أن طه بدأ يمارس التفكير المنهجي. فكان مؤلف المقالة قد قرر ألا يتناول النقد الأدبي حتى يبدأ من البداية ويجلو لنفسه طبيعة النقد في أساسه.

يبدأ طه بتحديد حقيقة النقد أو لنقل ماهيته. والتعريف الذي يقدمه للنقد يسير وفقًا لترتيب منطقي يهبط مما هو عام إلى ما هو خاص. فالنقد أساسًا ووفقًا لأعم تعريفاته أو جنسه الأعلى - كما يقول المناطقة - عملية تمييزية، هو «ميز الخبيث من الطيب واستخلاص الحق من الباطل وفك العقول من إسار التقليد». وعندما يستطرد طه واصفًا النقد بأنه «إعانة الطبيعة على إحياء النافع وتخليد المفيد»، نتبين أن النقد من حيث هو عملية تمييزية ينقسم إلى نوعين رئيسيين: النقد بوصفه «عمل الطبيعة في الحسيات»، والنقد بوصفه نشاطًا يضطلع به العقل في مجال «المعنويات». وذلك أن الطبيعة في رأى طه تمارس نوعًا من الانتقاد أو لنقل «الانتخاب». إن «عمل الطبيعة في تحليل المادة وتركيبها وتحويلها من صورة إلى أخرى ليس إلا نوعًا من النقد الحقيقي، بل هو أصح أنواع الانتقاد، لأن أقرب نتائجه إبقاء النافع وإفناء الفاسد المضر. فالرجل لا يموت إلا إذا حقت عليه كلمة الطبيعة بعد النقد الصحيح وعرفت أنه لم يبق صالحًا للحياة». وعلى هذا الضوء يمكننا أن نفهم قول طه: إن النقد الذي يمارسه الإنسان في مجال المعنويات فيه إعانة لعمل الطبيعة. وذلك أن العقل حينما يؤدي هذه المهمة يساعد الطبيعة في إحياء النافع وتخليد المفيد. وكلا النوعين تمييز وانتخاب يستهدف الإبقاء على الأصلح والقضاء على الفاسد والضار.

غير أن نقد المعنويات ينقسم بدوره أنواعًا عدة، فالنقد الذي يضطلع به العقل فيما يقول طه «ليس مقصورًا على أنواع القول وفنون الكلام من نظيم ونثير، بل هو عام يستطيع أن يتناول كل شيء من صنائع وأعمال وعلوم ونحو ذلك». وهو لا ينهي مقالته إلا وقد حدد نوع النقد الذي يعنيه بصفة أخص، ألا وهو «النقد الأدبي والعلمي أي الذي يتعلق بفنون الكلام» من نظم ونثر. وعند هذه النقطة تنتهي المقالة، ولكننا نستطيع أن نخمن الخطوة التالية التي كان ينوي اتخاذها، وهي أن يزيد مجال البحث تحديدًا فيستبعد النقد العلمي ويستبقي نقد الأقوال الأدبية ليركز عليه.

ورغم أننا نجهل تتمة الحديث عن هذا النوع الأخير من النقد، فإن المقالة كما وصلت إلينا تتضمن بعض الآراء ذات الصلة بالموضوع، فطه يرى مثلاً أن النقد نشاط يستهدف إظهار الحق وأنه ينبغي إذن أن يخضع لشروط أو قواعد من أهمها الإنصاف: «أقول على سبيل الإجمال أن النقد نوع من أنواع المناظرة، فكل ما يشترط في الجدل يشترط فيه، إذ كلاهما لم يصطنع إلا لإظهار الحق وخذلان الباطل. ولا شك في أن الشتم والسب والتقريع والتأنيب ليس منها شيء بطريق الحق، وإنما الحق نتيجة البحث الهادئ المعتدل الذي يبرأ من الاستجابة لعواطف الحب والبغض ونحوهما، فلا يمكن أن يكون الناقد منصفًا إذا استجاب لعاطفة من هذه العواطف، فمالأ خصمه وانحاز إليه وألح عليه وإنما الإنصاف مزاج لا يعتدل إلا بصدق النية وحسن المقصد وتحكيم العقل ورفض الهوى».

هنا نلاحظ أن أقوال المؤلف تنطوي على عملية من النقد الذاتي وتستبعد من نطاق النقد الصحيح ما كتبه ضد المنفلوطي أو غيره من الكتاب الذين هاجمهم طلبًا للشهرة، كما نلاحظ أن بعض العبارات والأفكار الواردة في المقالة تدل على تأثير لطفي السيد. ومن ذلك مثلاً حديث طه عن البحث الهادئ المعتدل وتعريفه للنقد بوصفه نوعًا من المناظرة أو الجدل. ولا شك أن المقالة بأسرها تدل على أن التنافس بين لطفي وجاويش على توجيه طه قد حسم لصالح الأول لأن التلميذ قد انحاز فيها لمذهب القصد في اللفظ والروية في التفكير.

ورغم أن المقالة التي استعرضناها لم تكتب في تاريخ الأدب، فإنها تتصل بالمقالات التي ألفها طه في هذا المجال بأكثر من سبب. وذلك أن موضوعها هو قواعد النقد الصحيح أو منهجه، والتفكير فيها يسير وفقًا لنظام أو ترتيب صريح أو ضمني، فضلاً عن أنها تتضمن فكرة بسيطة ولكنها نيرة شديدة الخطر. وأعني بذلك القول بأن النقد ينصب على موضوع يراد فيه إظهار الحق. وترجع أهمية الفكرة في هذه المرحلة من تطور طه إلى أنها بمثابة الأساس لكل تفكيره بشأن التاريخ من حيث هو علم. وهي من الناحية المنطقية أول خطوة في تقرير الموضوعية والاستقلال للتاريخ والعلم بصفة عامة. يقول طه في مقالة أخرى عنوانها: «خواطر العزلة» (الهداية، أكتوبر ونوفمبر ١٩١١): «مهما عظمت قوة الاختراع في الإنسان واتسع سلطانها فإنها لا تستطيع أن تتناول الحق لأنه غير خاضع لسلطان، فمظهر الحقائق العلمية ليس مخترعًا لها، بل هي موجودة وصاحبنا قد اهتدى إليها بعد ضلال. فمكتشفا الكهرباء وأسرار البخار لا يقال إنهما قد اخترعاهما إلا إذا كان كرستوف كولمب قد اخترع أمريكا». واضح من هذا أن كاتب المقالة يعتقد أن إظهار الحق الذي يوجد مستقلاً عن الإنسان وغير خاضع لإرادته هدف مشترك لجميع العلوم النظرية وصفة مميزة لها عن أنواع النشاط الأخرى، وقد عبر طه عن نفس الفكرة في التمهيد الذي صدر به تجديد ذكرى أبي العلاء عندما قال: إن عمل المؤرخ الجيد «وصفي لا وضعي، أي أنه يدل على شيء قد كان، من غير أن يخترع شيئًا لم يكن».

ونحن نجد بوادر الوعي بأن التاريخ أحد هذه العلوم التي تكتشف الحقائق كما هي دون أن توجد شيئًا لم يكن في مقالة، لعلها كانت الأولى في تاريخ الأدب بالمعنى الدقيق للكلمة (في مقابل النقد)، وعنوانها «الآداب العربية في الجامعة». (الجريدة، ١٧ مايو ١٩١١). ويبدو من بعض الشواهد الداخلية أن المقالة كانت جزءًا من سجال دار بين مؤلفها وبين أحد أصحاب الرافعي، وأن هذا الصاحب قد اتخذ في السجال دور الناطق بلسان الرافعي بعد أن قرأ الجزء الأول من كتابه عن تاريخ آداب العرب قبل نشره. ومعنى ذلك أن طه حسين كان ينقد في الواقع آراء الرافعي كما وردت في الكتاب المذكور، فطه يدحض رأى الرافعي الذي مر بنا آنفًا والذي يردده صاحبه، ومؤداه أن دراسة الأدب العربي دراسة تاريخية أمر مستحيل. يقول طه: «وأنا أخطئك كل الخطأ وأخطئ الرافعي أيضًا إن وافقك على أنه لا سبيل إلى تحقيق أصول التاريخ لأنها ماتت بأسباب طبيعية. فإن أصول التاريخ لا تزال حية معروفة قد درس بعضها لي الأستاذ المستشرق (نالينو) والأستاذ حفني بك (ناصف). وهل لتاريخ الآداب العربية أصول غير اللغة والدين والحوادث السياسية والأطوار الاجتماعية التي لا يصعب على الباحث المحقق أن يرفع عنها حجاب الجهل والغرور. وإذا كانت هذه الأصول قد ماتت بأسباب طبيعية فهل أحياها صاحبك الرافعي أو هل أتى بأصول أخرى خلقها من عند نفسه، وإلا فمن أين له علم التاريخ؟».

فما هي الأصول التي يعنيها طه؟ هي فيما يقول اللغة العربية والدين الإسلامي والحوادث السياسية والاجتماعية التي وقعت للعرب. وهي باختصار الوقائع أو الحقائق التي ترتكز عليها دراسة تاريخ الأدب العربي إذا أريد له أن يكون موضوعيًا أو علميًا. وهي حقائق مازالت - كما يقول طه - حية معروفة أو يمكن أن تعرف. وهي لا يمكن أن تكون قد ماتت كما يدعي الرافعي. وهنا يحاول طه أن يثبت صحة ما يقول وخطأ خصمه بحجة مؤداها أن هذا الأخير يفترض هو نفسه أصول تاريخ العرب. وإلا فمن أين له علمه بهذا التاريخ؟ (لابد أنه استند إلى هذه الأصول في تأليف كتابه، وإلا فكيف تمكن من تأليفه؟). وعندما يتساءل طه عما إذا كان الرافعي قد أحيا هذه الأصول بعد موتها أم أنه أتى بأصول أخرى خلقها من عند نفسه، فإنما يريد أن يقول إن من المحال أن يكون الرافعي قد فعل ذلك لأن وقائع التاريخ لا تخلق ولا سلطان للإنسان عليها. وهكذا استغل طه التباس موقف الرافعي من التاريخ ليفسد بطلانه، فهو يؤلف كتابًا في تاريخ آداب العرب ويفترض بذلك أصول هذا التاريخ في الوقت الذي يدعي فيه أنها قد ماتت.

وطه يعتقد إذن أن تاريخ الأدب العربي ممكن لأن أصوله أو حقائقه موجودة وجودًا موضوعيًا ويمكن الكشف عنها. والواقع أن توصله إلى هذه النتيجة لم يكن يعني فقط دحض رأى الرافعي، بل كان يعني أيضًا أنه قد انسلخ منطقيًا عن مذهب محمد عبده في الإصلاح الإسلامي. وذلك أن القول بأن العلم يرتكز على حقائق مستقلة يعني أن العلم ليس بحاجة إلى مرجع يسوغه أو سلطة يقدم لها أوراق اعتماده سوى هذه الحقائق. وقديمًا حقق ابن خلدون إنجازًا مماثلاً عندما أسس التاريخ كعلم قائم بذاته لأنه فيما رأى يرتكز على وقائع (العمران) ولا يحكم على صدق أخباره أو كذبها إلا بمقدار تطابقها مع هذه الوقائع.

وفي تاريخ لاحق من نفس السنة نشر طه سلسلة من ثلاث مقالات عنوانها: «نقد صاحب الهلال». (الهداية، يونية ويولية، وأغسطس

وسبتمبر، وأكتوبر ونوفمبر على التوالى). وهى مقالات ذات طابع سجالى صريح لأن كاتبها يفند فيها آراء جرجى زيدان كما وردت فى الجزء الأول من كتابه تاريخ آداب اللغة العربية. غير أن هذا الطابع السجالى لا ينبغى أن يخفى عنا أن النقد هنا بناء فى حقيقته، فهو يجرى وفقًا لترتيب يؤدى خطوة خطوة إلى توضيح طبيعة المنهج التاريخى الصحيح الذى ينبغى اتباعه فى دراسة الأدب العربى، وليس تفنيد آراء جرجى زيدان إلا مناسبة لبسط مبادئ هذا المنهج بدلاً من المنهج الذى اتبعه صاحب الهلال والذى يرى طه أنه قليل الحظ من الصبغة التاريخية، فإذا كان طه قد دحض فى «الآداب العربية فى الجامعة» رأى أعداء النزعة التاريخية وأثبت بذلك إمكان دراسة الأدب العربى دراسة تاريخية، فإنه يحاول فى نقده لجرجى زيدان أن يتقدم خطوة أخرى فيدحض النزعة التاريخية السطحية ويبين بذلك طبيعة المنهج التاريخى السليم. وربما كانت مقالات طه فى نقد جرجى زيدان هى أول محاولة يبذلها فى التفكير الإيجابى بشأن هذا المنهج.

يتصدى طه بادئ ذى بدء لادعاء جرجى زيدان أنه أول من ألف فى تاريخ الأدب العربى وأول من أسماه بهذا الاسم. وهو لا يدع الفرصة تمر دون أن يحاول وضع الأمور فى نصابها فيما يتعلق بنشأة الموضوع من حيث هو علم وبالمصادر التى ينبغى أن يستقى منها، فهو لا يرى لجرجى زيدان فضلاً فى السبق إلى التأليف فى هذا المبحث أو إلى تسميته بالاسم الذى صار معروفًا به، ويقرر أن العرب القدامى هم أول من ألف فيه فجمعوا مادته فى مصنفاتهم الكبرى (مثل الأغانى)، بينما يرجع الفضل للمستشرقين فى تنظيم المادة على أسس منهجية وفى إكساب الموضوع صبغة العلم، «ونحن لهم فى ذلك تبع» - كما يقول.

ثم ينتقل طه إلى نقد تعريف جرجى زيدان للموضوع، وذلك بهدف التوصل إلى تعريف أدق لطبيعة العلم ونطاقه. يقول جرجى زيدان فى تعريفه: «نعنى بتاريخ آداب اللغة العربية تاريخ ما تحويه من العلوم والآداب وما تقلبت عليه فى الأعصر المختلفة أو تاريخ ثمار عقول أبنائها ونتائج قرائحهم». أما الاعتراضات التى يثيرها طه ضد هذا التعريف فإنها تجرى وفقًا لترتيب منطقى صريح أو ضمنى ينتقل من أعم الاعتراضات إلى أخصها كما يلى:

(١) أن التعريف يهمل قسمًا أساسيًا من تاريخ الآداب، وهو تاريخ اللغة «فى نفسها»: كيف نشأت وكيف تطورت من صورتها البدائية البسيطة حتى وصلت إلى ما هى عليه من تقدم وتعقيد وكيف كانت علاقاتها بغيرها من اللغات. فاللغة - كما يقول طه - كائن حى وهى عرضة للتغير. ومؤدى هذا الاعتراض أن تاريخ الآداب - فى رأى طه - ينقسم إلى قسمين رئيسيين: قسم يدرس تاريخ اللغة «فى نفسها» أو «جوهرها»، وهو «علم مقابلة اللغات» (الفيلولوجيا المقارنة)؛ وقسم يدرس تاريخ ما تمخضت عنه قرائح الناطقين باللغة المعنية من علوم وآداب.

(٢) أن التعريف لا يفرق بين تاريخ العلوم وتاريخ الآداب. وذلك أن تاريخ الأدب - فى رأى طه - ينصب فى المقام الأول على الآداب (أو فنون القول أو الكلام من شعر ونثر)، بينما يتطرق إلى تاريخ العلوم على نحو عارض أو كلما اقتضت دراسة الأدب ذلك.

(٣) أن زيدان لم يحسن دراسة فنون الكلام، فلم يبين كيف نشأ الشعر وارتقى وكيف نشأ الغناء العربى وما علاقته بالشعر وكيف نشأت أساليب الكلام عند العرب.

وفى مجموعة أخرى من الاعتراضات التى ترد تحت عنوان: «كيف ينقسم تاريخ الآداب؟» يحاول طه - دون نجاح كبير - أن يحدد الطريقة السليمة فى تقسيم عصور الأدب وطبيعة العوامل التى تؤثر فى الآداب وتغيرها من عصر إلى آخر. فهو يأخذ على زيدان أنه قسم تاريخ الآداب بحسب العهود السياسية أو تسلسل الدول والممالك، وهو ما يعنى ضمنًا أن التغيرات التى تطرأ على الأدب تنتج عن التقلبات التى تجرى على نظم الحكم وتفسر بها، والرأى لدى طه أن «الآداب هى المؤثرة والسياسة هى المتأثرة» أو «أن الآداب منتجة للحوادث السياسية وليست نتيجة لها». غير أن عبارة طه فى هذا الموضع من البحث غامضة ولا تخلو من التباس وقصور، فالآداب التى يعنيها فى هذا السياق ويريد لها أن تكون عوامل مؤثرة فى التغيرات السياسية ليست هى الأعمال أو الظواهر الأدبية؛ وإنما الحياة المعنوية للأمة المعنية وما تشمله هذه الحياة من أخلاق وعادات وتقاليد وأفكار (بما فى ذلك الأفكار التى يعبر عنها فى النصوص الأدبية). وبعبارة أخرى تقول إن طه يرى أن تاريخ الآداب هو الوسيلة إلى فهم التغيرات التى تطرأ على نظم الحكم؛ على أن يفهم من هذا أن تاريخ الآداب هو العلم «الذى يقفنا على حقيقة أفكار الأمة وطبائعها وتركيبها النفسى».

ويرجع القصور فى هذا الكلام إلى سببين.. أولاً: أن طه وقد انشغل بإثبات ضرورة الآداب (بمعنى الأخلاق والأحوال المعنوية بصفة عامة) لتفسير التغيرات التى تطرأ على النظم السياسية فاته أن يبين صراحة ما هى العوامل اللازمة لتفسير التغيرات التى تطرأ على الآداب (بمعنى فنون الكلام من شعر ونثر). وقد نتجاوز عن هذا العيب فنقول إن طه قد أدى هذه المهمة ضمنًا، فقد افترض فيما يبدو أن الآداب بهذا المعنى الأخير تفسر بالرجوع إلى الآداب بالمعنى الأول. فإذا صح هذا ظهر على الفور السبب الثانى لقصور آراء طه فى هذا الصدد. وذلك أنه لا يعتقد فى نهاية المطاف أن أخلاق المجتمع وأحواله المعنوية بصفة عامة تكفى لتفسير التغيرات التى تطرأ على فنون الكلام. وذلك أنه يضيف - على سبيل الاستدراك - عوامل أخرى يرى أنها تؤثر بدورها فى الأدب (بمعنى فنون الكلام)، وأعنى بذلك العوامل البيئية أو ظروف البيئة المادية أو «طبيعة الإقليم» - على حد تعبيره - وخلاصة القول هى أن طه يرى على عكس زيدان أن التغيرات التى تصيب الأدب لا تتوقف على العوامل السياسية إذا أريد بذلك مجرد تعاقب نظم الحكم (فهذا التعاقب هو نفسه نتيجة وليس سببًا) وإنما تتوقف على مؤثرات عميقة فى صميم بنية المجتمع مثل «طبيعة الإقليم والدين والأخلاق والعادات نحو ذلك».

وهكذا كان السجال مع جرجى زيدان فى ذات الوقت محاولة للتعريف على نحو الإجمال بتاريخ الأدب: مصادره وموضوعه وتحديد عصوره وطبيعة العوامل التى يرجع إليها فى التفسير. وأقول «على نحو الإجمال» لأن هذه المحاولة الأولى قاصرة كما رأينا. فطه لم يستطع أن يقدم تعريفًا واضحًا شاملاً لطبيعة تلك المؤثرات أو أن يدرجها فى أى ترتيب دقيق. غير أن أهم ما فى المقالات التى نحن بصددها هو الحديث المنهجى فى حد ذاته. فطه يستقى أفكاره كلا على حدة من أستاذ أو آخر من أساتذته المستشرقين؛ وهو يعترف على أى حال بأن المنهج التاريخى ينبغى أن يلتمس لديهم. ولكن طه ليس مدينًا لأحد من أساتذته بالحديث المنهجى المفصل. يصدق هذا حتى على نالينو. فطه يعتمد عليه اعتمادًا كبيرًا، ولكن نالينو لم يورد فى محاضراته من حديث المنهج إلا ملاحظات عابرة مبعثرة. ويرجع الفضل لطه أنه وهو الطالب المبتدىء قد قرأ أساتذته قراءة تحليلية ناقدة ليستخلص منها حديثًا متصلاً يبين فيه مبادىء المنهج التاريخى فى دراسة الأدب.

ويبقى الآن أن ننظر فى أكبر المؤلفات المبكرة، وأعنى بذلك سلسلة من ثمانى مقالات نشرت فى أوائل سنة ١٩١٤ تحت عنوان «حياة الأدب»[(١)]، ولاتزال حتى اليوم مجهولة تمامًا لا يعرف عنها إلا ما ورد بشأنها من بيانات فى القوائم البيبليوغرافية؛ وذلك رغم أهميتها القصوى. وترجع هذه الأهمية إلى أن المقالة تعد نقطة تحول أخرى فى نطاق المرحلة المبكرة من إنتاج طه حسين. فهو هنا لا يكتفى بتمثل دروس أساتذته وإعادة صياغتها وإنما يبدى مزيدًا من الاستقلال؛ وهو استقلال يتجلى أول ما يتجلى فى ازدياد وعيه المنهجى وفى نزوعه الواضح نحو مزيد من الدقة والصرامة فى بسط المبادىء المنهجية لتاريخ الأدب العربى. والواقع أن «حياة الأدب» عمل فريد بين أعمال طه حسين لأنها تتضمن أوفى محاولة بذلها على الإطلاق لشرح المنهج التاريخى. وهى على عيوبها مقال طه فى المنهج (بالمعنى الديكارتى) رغم أنه عندما ألفها لم يكن يعرف ديكارت. وإنه لمن المؤسف حقًا أنه تركها ناقصة ولم يشأ أو لم يتح له أن يتناولها بالتطوير والتنقيح، وأنها أهملت وطال عليها الإهمال بحيث لم تظهر أهميتها فى حياة طه وفى حياة الفكر العربى الحديث.

فلنلاحظ كيف يصوغ المشكلة الكبرى التى تواجه دراسة الأدب العربى: «لنا بناء أدبى ضخم قديم عمل الزمان على تشييده من قبل التاريخ العربى.. غير أن بيننا وبين هذا البناء سترًا صفيقًا من أنقاض التاريخ قد جمعتها الحوادث بيننا وبينه فأصبحنا لا نميزه إلا بعد الجهد والعناء» («حياة الأدب» ١، الجريدة، ١٥ يناير ١٩١٤) والمشكلة هى إذن رفع هذه الأنقاض أو اختراق هذا الستر الصفيق حتى نصل - نحن العرب المعاصرين - إلى تراثنا. فهو ملكنا ولكنه غير متاح لنا، ملكنا ولكننا محرومون منه. وتذكرنا استعارة «الستر الصفيق» بأن المشكلة تمس طه بصفة شخصية، لأنه كان يشعر دومًا بأن بينه وبين الأشياء حجابًا، ولأن وجود هذا الحجاب كان يعنى لديه أقسى أنواع الحرمان. وهو حين يتحدث عن ذلك الستر الصفيق الذى يقف دون التراث يصوغ المشكلة كما تمسه هو نفسه وليس كما وجدها لدى نالينو أو لدى أى من أساتذته. كيف يمكن إذن رفع تلك الأنقاض التى ألقى بها التاريخ فى الطريق إلى التراث؟ ذلك إذن هو السؤال الأساسى الذى يستوجب البحث فى المنهج. فلا سبيل إلى الاتصال بالتراث إلا باكتشاف المنهج الصحيح أى المنهج التاريخى. وسوف نراه فى مقالاته هذه ينتقد فئات شتى من المفكرين - قدماء ومحدثين - ولكن الهدف الأول من البحث ليس المساجلة، وإنما هو تبين الطريق الحق إلى ثقافتنا.

ومما يلفت النظر أيضًا أن طه يحاول أن يشرح المنهج الصحيح على نحو منظم فيعرض الشرح فى إطار خمس «مقدمات» يمكن أن نعيد صياغتها كما يلى. أولاً مقدمة تمهيدية (ألف) عن جهل العرب المعاصرين بتراثهم الأدبى. ثم تتلو ذلك أربع مقدمات منها ثلاث «لازمة» ومقدمة واحدة «غير لازمة». فأما الثلاث اللازمة فهى: (باء) عن ضرورة الفصل بين الآداب وتاريخها؛ و(جيم) عن ضرورة الفصل بين تاريخ الآداب وتاريخ العلوم، و(دال) عن قصور منهج العلماء العرب الأولين فى مجال النقد الأدبى وتاريخ الأدب. أما المقدمة غير اللازمة فهى (هاء) نموذج من النقد الأدبى على سبيل التوضيح، وموضوعه أبو نواس.

إلا أن مؤلف «حياة الأدب» لم

كان عندئذ يقف فى مفترق الطرق: فيما بين الأزهر والجامعة؛ وفيما بين لطفى السيد وعبد العزيز جاويش؛ وفيما بين هذين كليهما وبين أساتذته المستشرقين. يضاف إلى ذلك أن طه كان طموحًا نهمًا إلى المعرفة فكان ينتقل من أستاذ إلى آخر ويتقاسم اهتمامه وولاءه أناس كثيرون

بدايات



طه حسين

يستطع الوفاء بهذا البرنامج الذى رسمه لنفسه، ومثال ذلك أنه لم يدرس أبا نواس على الإطلاق، وإن تعرض للعصر العباسى فى مواضع متفرقة. يضاف إلى ذلك أن صياغة المقدمتين (باء) و(جيم) لا تعبر عن مقاصده الحقيقية. فهو لايريد الفصل بين الأدب وتاريخه، بل يريد على العكس أن يؤكد ضرورة الربط بينهما. وهو لا يريد حقًا أن يفصل كل الفصل بين تاريخ الأدب وتاريخ العلوم، وإنما يرى ضرورة اعتماد تاريخ الأدب على تاريخ العلوم أو على عدد من العلوم. ويمكننا طلبًا للتبسيط أن نقول إن هذا العمل ينقسم من الوجهة المنطقية إلى قسمين رئيسيين: قسم سلبى ينقد المؤلف فيه المذاهب القديمة والحديثة التى تنافى روح التاريخ أو روح العلم؛ وقسم إيجابى يحاول فيه أن يثبت أن المنهج الصحيح لابد أن يكون تاريخيًا وأن يكون من ثم علميًا أى مرتكزًا على عدد من العلوم. وفى هذا الإطار أراد المؤلف أن يوضح هاتين القضيتين بمثال محدد هو أبو نواس كما نوى أو العصر العباسى كما حدث فى واقع الأمر.

وفيما يتعلق بالجانب السلبى من حجاج طه، نلاحظ أنه فى هذا الطور المتقدم من نشاطه المبكر قد أصبح يوجه نقده إلى تيارات فكرية عريضة بدلاً من استهداف الأفراد (كما هو الحال فى نقده لجرجى زيدان). وهو إذن يوسع نطاق النقد بحيث يشمل النزعات غير التاريخية فى التراث العربى قديمه وحديثه على السواء. بل لقد أصبح ينقد هذا التراث ذاته لافتقاره إلى الروح التاريخى. ومعنى هذا بعبارة أخرى أن تفكير طه قد صار ينزع نزعة راديكالية. ففى مقدمة المذاهب التى ينقدها فى نطاق الجزء السلبى من مقالته مذهب يسميه «مدرسة الآداب»: وهى تسمية تشمل ـ فيما يقول ـ «أساتذتنا ومؤلفينا فى الآداب». ولنا أن نستنتج إذن أنه يستهدف اتجاهًا شائعًا فى دراسة الأدب لا يقتصر على المدارس بل يمتد أيضًا إلى الحياة الثقافية بصفة عامة. ويحق لنا أن نستنتج أيضًا أنه يعنى حسن توفيق العدل ومن حذا حذوه من الأساتذة كما يعنى جرجى زيدان. ولكن هذه المدرسة ليست إلا الهدف الأول أو المباشر. إذ لا يلبث طه أن يوسع نطاق هجومه حتى يشمل أهدافًا أبعد وألصق بالأسس والجذور.

يرى طه أن أتباع مدرسة الآداب يدعون أنهم يدرسون تاريخ الآداب ولكن حظهم من التاريخ قليل لا يتعدى القشور. فهم فيما يقول يقتصرون على «البحث العام غير المعين ولا المحدود». ومعنى ذلك أنهم لا يبحثون الآداب «فى مواطنها الخاصة التى نشأت فيها وتأثرت بمؤثراتها وخضعت لقوانينها» ويرى طه أيضًا أنهم «قد قيدوا أنفسهم بملاحظة الحال السياسية للخلافة الإسلامية». وهو ما يمكن تفسيره بأنهم يكتفون بدراسة الآداب من حيث ارتباطها بتعاقب العصور السياسية أو نظم الحكم. ومن الواضح أن هؤلاء الدارسين إذ يقتصرون على هذا المستوى السياسى السطحى يقنعون ـ فى رأى طه ـ بالقشور من التاريخ؛ وإن دراسة الأدب دراسة تاريخية حقيقية تقتضى الرجوع بالتفسير إلى مستوى أعمق من حياة المجتمع حيث يوجد الأدب فى موطنه المحدد ويتعرض للمؤثرات الحقيقية. مستوى الأخلاق والتقاليد والأفكار.

ومما يأخذه طه على أتباع مدرسة الآداب أنهم يفتقرون إلى روح النقد: فهم يتقبلون الأخبار الموروثة على علاتها ودون تمحيص. يقول فى هذا الصدد: «... من المعقول أن يبالغ الرواة أشد المبالغة فى أخبار الشعراء والخطباء والكتاب. ثم تقبل مدرسة الآداب هذه المبالغة من غير نكير. ومن المعقول أن ينتحل الرواة من الشعر والنثر ما يضيفونه إلى بعض الشعراء والكتاب.. وتذعن مدرسة الآداب لهذا كله من غير شك ولا تردد.. ومن المعقول أن ينتحل البيت من الشعر والفصل من النثر لإثبات كلمة فى اللغة ليست بثابتة.. وتصدق مدرسة الآداب هذا الانتحال لأن الراوى فى ظاهر أمره عدل صدوق». («حياة الآداب» ٥، الجريدة، ٢٩ يناير ١٩١٤).

ويتضح من ذلك أن طه بات يدرك أن دراسة التراث دراسة تاريخية لابد أن تقترن بروح النقد والتمسك بالحذر والشك. كما يتضح أن نقد طه لمدرسة الآداب يقترن بالضرورة بنقده لبعض الجوانب فى هذا التراث: وهو ما رأيناه لتونا فى أقواله عن مبالغات الرواة وانتحالاتهم. وهو يوسع دائرة النقد لتشمل التاريخ القديم بما فيه من أكاذيب رسمية ولتشمل أيضًا تاريخ الإسلام. فهو فى رأيه «مملوء بالمبالغات التى هى ألصق بالقصص الخيالية منها بكتب التاريخ» وهو يرى أن الإسلام لم يكتب له تاريخ صحيح عربى حتى الآن. وحسبك ـ فيما يقول ـ أن «كتب التاريخ الإسلامى لا تعتمد إلا على الروايات (الشفهية) التى تستند إلى الذاكرة وهى مظنة الزيادة والنقص وعرضة للضعف والنسيان». (نفس المصدر). وهذه نقطة أساسية سنعود إليها بعد قليل على أن ننظر الآن فى بعض أقوال طه فى نقد أداء العرب فى مجال التاريخ.

فهو يأخذ على أئمة اللغة أنهم لم يدرسوا اللغة فى نفسها دراسة تاريخية: وذلك لأنهم «لم ينظروا إلى الآداب نظرة علمية إلا من جهة واحدة وهى الجهة التى تحتاج إليها العلوم اللغوية كالنحو والبيان فى تكونها. فأما البحث عن أطوارها المختلفة وأشكالها المتباينة على مرور الأيام واختلاف العصور. فذلك شىء لم يعرفوه ولم يأخذوا منه بنصيب». («حياة الآداب» ٣، الجريدة، ٢١ يناير ١٩١٤).

ثم يخطو المؤلف خطوة أخرى فيعزو جهل علماء العرب بتاريخ الأدب إلى ضعف العلوم التاريخية لدى العرب وقلة حظهم منها. فهم ـ على غرار الشعوب السامية وعلى خلاف اليونانيين والرومان والأوروبيين المحدثين ـ لم يعرفوا من التاريخ إلا مجرد الرواية وتسجيل الحوادث. وصحيح أن طه يستدرك فيعترف بأن بعض المؤرخين العرب ـ مثل ابن الأثير ـ قد ارتقى بصناعة التاريخ شيئًا ما فأخذ يدرس التاريخ لاستخلاص العبرة والموعظة. بل ويلاحظ أن المسلمين قديمًا قد أتقنوا نقد الرواية. إلا أنه يرى رغم ذلك أن كبار المؤرخين العرب ـ مثل الطبرى والمسعودى وابن خلدون ـ لم تنقصهم ملكة نقد الحوادث وتعليلها وحدها بل نقصتهم أيضاً ملكة تدوين التاريخ، لأنهم ـ فيما يقول ـ إنما أخذوا الحوادث من أفواه الرواة ولم يعتمدوا فيها على أوراق الحكومة وسجلات الدواوين إما لأنهم أهملوها أو عجزوا عن الوصول إليها. «حياة الآداب» ٤، الجريدة، ٢٦ يناير ١٩١٤).

وذلك إذن هو الاعتراض الأساسى على التراث التاريخى العربى. فمؤلف «حياة الآداب» كان يعتقد أن التاريخ بالمعنى العلمى لابد أن يعتمد على مصدر مكتوب وأنه لا تاريخ حيث لا توجد كتابة. ومن الغريب أن هذا المؤلف كان ملمًا على نحو ما بقواعد التاريخ القائم على نقد الوثائق. فهو يضرب مثلاً ـ على سبيل الافتراض ـ برسالة دونت فى عصر المأمون عن فتنة خلق القرآن ويعدد الخطوات النقدية التى ينبغى أن تطبق عليها. والغريب فى هذه الأقوال أنها تدل دلالة قاطعة على أن مؤلف «حياة الآداب» كان على علم بكتاب المدخل إلى الدراسات التاريخية للمؤرخين الفرنسيين شارل لانجلوا وشارل سينوبوس[٢]. فكيف أتيح لطه فى سنة ١٩١٤ الاطلاع على آراء لانجلوا وسينوبوس؟ وما مغزى هذا الاطلاع؟ ذلك ما سنناقشه بعد قليل.

أما فيما يتعلق بالجانب الإيجابى من «مقدمات» طه حسين فى «حياة الآداب» فهو كما ذكرنا يستهدف أولاً الوصل بين الأدب والتاريخ بحيث تكون دراسة الأدب تاريخية. وهو يقرر هذه الصلة على نحو صريح عندما يرى ضرورة اعتماد هذه الدراسة على مجموعة من العلوم مثل السياسة والاقتصاد والاجتماع: وكلها فيما يرى علوم تاريخية. ويمكن القول بعبارة أخرى أن الدراسة المعنية لا تكون تاريخية حتى تربط الظواهر الأدبية بأحوال وبيئة المجتمع الذى نشأت فيه؛ وأن هذا لا يتحقق إلا بالاعتماد على التاريخ بمختلف فروعه.

أما وقد بين طه كيف تكون دراسة الأدب تاريخية، فإنه يريد ـ ثانيًا ـ أن يصل بين تاريخ الأدب وتاريخ العلوم، أو إذا شئنا الدقة أن يبين كيف تكون الدراسة التاريخية للأدب علمية الطابع. وهو يرى فى هذا الصدد ضرورة اعتماد هذه الدراسة على عدد من العلوم مثل دراسة اللغات السامية والفلسفة: فالفلسفة فى رأى طه علم أو هى أم العلوم. ولكن الصبغة العلمية لا تتحقق لتاريخ الأدب على النحو الأوفى إلا باعتماده على أحد العلوم الفلسفية بالذات، وهو علم النفس. أما كيف كان ذلك، فإن الأمر فى حاجة إلى شىء من الشرح على ضوء ما ورد فى مستهل المقالة ٧ من «حياة الآداب» (الجريدة، ٧ فبراير ١٩١٤).

يرى المؤلف أن جميع العلوم تتطور وفقًا لنمط واحد، وذلك لأنها ترجع إلى مصدر واحد هو العقل البشرى. فقد تطورت العلوم الطبيعية بحيث لم يعد العقل فيها يقنع بتفسير الجسم المادى بوصفه مركبًا من هيولى وصورة، بل أخذ يستعين بالكيمياء ليدفع بالتحليل حتى يصل إلى المكونات الخفية الدقيقة للأشياء. وعلى نفس النحو ينبغى للدراسة الأدبية أن تتطور فلا تقتصر على تحليل الأقوال إلى مادة (الألفاظ الممثلة للمعانى) وصورة (النظام الجامع بين الألفاظ) بل تلتمس الأسباب الخفية للعمل الأدبى فى نفس الأديب. وهى إذن فى حاجة إلى علم النفس: فهو بمثابة «الكيمياء» التى تكشف عن هذه الأسباب. ولم يعد البحث الأدبى يقنع بالحكم على الكلام من حيث لفظه ومعناه وسبكه: بل صار يطمح إلى تحليل الكلام وتعليله بالرجوع إلى العوامل النفسية، أى كل الملكات والقوى التى تضافرت على إنتاج العمل الأدبى. فالعمل الأدبى فى رأى طه «صورة ناطقة» أو «مرآة» لنفس الكاتب.

غير أن فهم أهمية علم النفس لا يكتمل حتى نضيف إلى ذلك أن تفسير الكلام بالرجوع إلى العوامل النفسية للأديب الفرد ليس إلا جزءًا من تفسير أشمل أو أعمق. فطه يعتقد أن القوى والملكات النفسية للكاتب هى بدورها نتاج لعوامل خارجية أو موضوعية وأن الأديب وأعماله نتاج لمؤثرات اجتماعية (معنوية) وبيئية (مادية). وينبغى إذن تفسير العمل الأدبى على مرحلتين أو مستويين: أولاً: بوصفه نتاجًا أو مرآة لنفس مؤلفه وثانيًا: بوصفه نتاجًا أو مرآة للمجتمع أو للحياة.

وتقتضى الدقة أن يقال أخيرًا أن تفسير الأدب بوصفه مرآة للمجتمع يعنى الرجوع فى نهاية المطاف إلى ما يسميه طه «النفس الاجتماعية». فهو يرى ضمنًا أن الأسباب الخارجية لا تؤثر فى نفس الأديب مباشرة: وإنما تعمل عملها بوصفها مكونات لمزاج اجتماعى أو شخصية خاصة بالمجتمع. ومؤدى كل ذلك أن التفسير العلمى للعمل الأدبى يسير على مستويين. فهو يرجع ـ أولاً ـ إلى مجموعة من القوى والملكات بوصفها عناصر فى شخصية فردية متميزة ثم يفسر هذه

الشخصية نفسها بوصفها نتاجًا لعوامل خارجية هي في نهاية المطاف مكونات لشخصية اجتماعية متميزة بدورها.

وبذلك تكتمل لدينا الصورة فيما يتعلق بمكانة علم النفس ومكانة النفس سواء أكانت فردية أم جمعية في نسق مؤلف «حياة الأداب» فقد رأينا أن دراسة الأدب لا تكون تاريخية حتى تفسر الأعمال الأدبية مستعينة بالعلوم التاريخية مثل الاقتصاد والاجتماع والسياسة. ونستطيع أن نرى الآن أن هذه الدراسة لا تكون علمية بالمعنى الدقيق للكلمة حتى ترتكز على علم النفس ـ «كيمياء» الدراسة الأدبية ـ فترى مختلف العوامل التي كشف عنها البحث التاريخي بوصفها مكونات لشخصية فردية وشخصية اجتماعية.

وعلى ضوء هذا الاستعراض السريع لعدد من المقالات الأولى لطه حسين ينقشع الضباب الذي ظل حتى اليوم يكتنف الفترة المبكرة من حياته ككاتب، ونستطيع أن نتبين معالمها وقسماتها. ويتضح الآن أن تفكير طه قد تطور فيما بين ١٩١١ و١٩١٤. فمن الناحية السلبية نلاحظ نزوعه نحو الراديكالية: من نقد جرجي زيدان إلى نقد مدرسة الآداب فنقد العلماء العرب فالتراث التاريخي العربي بأكمله. أما من الناحية الإيجابية فإن شرح طه للمنهج التاريخي زاد صرامة في نفس الفترة. كما تطور تصور طه للواقع الاجتماعي الذي يستند إليه تاريخ الأدب فيما بين السنتين. ونستطيع هنا أن نميز بين مرحلتين. ففي سنة ١٩١١ كان هذا الواقع يتكون من عوامل شتى: اجتماعية ونفسية اجتماعية واقتصادية وأخلاقية ودينية وفكرية وبيئية وما إلى ذلك. عوامل تنتمي إلى فئات مختلفة لا تخضع لأي حصر أو ترتيب أو لا تنتظمها بنية اجتماعية محددة. وإلى هذا الحد يمكننا أن نصف مذهب طه بأنه نوع من الموضوعية (تفسير الأعمال الأدبية بالرجوع إلى عوامل موضوعية خارج النفس) أو الوضعية الفضفاضة. ويمكننا أن نقول أيضًا أن طه كان إلى ذلك الحد وفيًا لأستاذه الإيطالي ملتزمًا بحدود مذهبه. وذلك لأن نالينو لم يتجاوز حدود هذه الوضعية المعتدلة ولم يقرر أو يفترض أن العوامل المذكورة تخضع لأي حصر كامل أو نظام محكم.

ولكن سنة ١٩١٤ شهدت ظهور مرحلة ثانية ترتبط بشكل جديد من الوضعية. ففي «حياة الآداب» يقدم طه عرضًا صارمًا للمنهج التاريخي في دراسة الأدب ينتهي به إلى شكل من أشكال الوضعية المتطرفة أو العلموية. فهو هنا لا يكتفي بالدعوة إلى أن تكون هذه الدراسة علمية بمعنى من المعاني: وإنما يقرر صراحة ما لم يقرره نالينو، وهو أنها ينبغي أن تحذو حذو العلوم الطبيعية فتفسر الظواهر الأدبية بوصفها ثمرة لشبكة محكمة أو نسق مغلق من العلاقات السلبية التي ترجع في آخر المطاف إلى بؤرة واحدة هي تمحور العوامل الموضوعية جميعًا حول النفس الاجتماعية.

وهذه الوضعية الصارمة أو النسقية هي التي نجدها وقد صيغت صياغة أخيرة مصقولة محكمة في تجديد ذكرى أبي العلاء حيث أسماها طه «الجبر في التاريخ». فأعمال أبي العلاء وفقًا لهذه الجبرية أو الحتمية لا يمكن أن تعزى إليه وحده لأنه هو نفسه ثمرة ضرورية لعوامل شتى تلتقي في إطار الشعب الذي ينتمي إليه أبو العلاء أو النفس الإسلامية كما كانت في مكان أبي العلاء وزمانه. والجبر في التاريخ ليس إذن إلا نسخة معممة مصقولة من السببية المزدوجة كما رأيناها في «حياة الآداب».

ويترتب على هذا أن الذين يؤرخون لطه حسين بداية من كتابه الأول يخطئون خطأ جسيمًا. فلهذا الكتاب تاريخ لا يفسر بدونه: وذلك أنه ليس إلا ختامًا أو تتويجًا للبحوث المنهجية التي أجراها طه في مقالاته المبكرة بداية من سنة ١٩١١. وإن ما نراه في الكتاب من صقل وإحكام يوحيان ببداية النضج ليس سوى علامة من علامات الاستقرار بعد مرحلة من التجريب والاستكشاف في المقالات المبكرة. ونقول بعبارة أخرى أن الكتاب المذكور لا يفهم فهمًا وافيًا بمعزل عن المقالات.

والواقع أن كشف النقاب عن هذه المقالات يفتح الباب على مصراعيه لإعادة النظر في تطور طه والبحث المتعمق في المؤثرات التي تعرض لنا. فمن السهل الآن أن نرى بوضوح أنه كان وضعيًا على الطريقة الفرنسية قبل أن يرحل إلى فرنسا. وتتجلى هذه الوضعية في ثلاثة جوانب. أولاً: الدعوة إلى أن تكون الدراسة الأدبية علمًا (على غرار العلوم الطبيعية). ثانيًا: الجبرية التاريخية أو ما وصفناه بالوضعية الصارمة أو النسقية التي لاحظ بعض الباحثين بحق أنها تشبه على نحو لافت للنظر مذهب الناقد الفرنسي هيبوليت تين في تفسيره لتاريخ الأدب في إطار ثلاثة محاور هي: «الجنس» و«الوسط» و«اللحظة». وثالثًا: علم طه في «حياة الآداب» بأطراف من التاريخ العلمي أو الوثائقي أو الوضعي كما قعده لانجلوا وسينوبوس. وهذا الجانب من وضعية طه المبكرة لم يتنبه إليه أحد حتى الآن.

وهنا لابد أن تثار مشكلة محيرة: من أين كان لطه علمه بهذه الجوانب من الوضعية الفرنسية؟ قد يقال فيما يتعلق بالجانب الأول أن طه لم يكن يصعب عليه أن يستشفه ـ مع شيء من التحوير والتطوير ـ من محاضرات نالينو. أما فيما يتعلق بالجانبين الآخرين، فإننا لا نجد لهما أثرًا في محاضرات نالينو ولا في المحاضرات التي نشرت لغيره من المستشرقين الذين درسوا لطه. فإذا أضفنا إلى ذلك أن فرنسية طه في تلك المرحلة ما كانت لتمكنه من قراءة المصادر الفرنسية ذات الصلة وأن هذه المصادر لم تكن متاحة في ترجمة عربية، تبين لنا أننا بإزاء مشكلة عويصة.

ولكن لنطرح هذه المشكلة جانبًا فهي لاتحتل مكان الصدارة بين أولوياتنا. والأولى بنا أن نبادر إلى استخلاص نتيجة هامة هي أن الوضعية الصارمة كما طورها طه في «حياة الآداب»، وصاغها بإحكام في تجديد ذكرى أبي العلاء المعري تتجاوز مذهب نالينو منطقيًا؛ وأنها أيًا كان مصدرها تدل على أن طه عقد لنفسه صلات وثيقة مع الوضعية الفرنسية قبل أن تطأ قدماه أرض فرنسا. والأمر نفسه يصدق على تلك الأطراف التي ألم بها طه من التاريخ الوضعي في «حياة الآداب».

وهناك نتيجة أخرى أهم وأبعد مدى: وهي أن فهمنا لتطور طه في المرحلة المبكرة أمر لا غنى عنه لفهم تطوره في فرنسا بل وفيما تلى ذلك من مراحل. فلقد كانت تلك الوضعية الصارمة التي تكونت في مصر هي النواة الصلبة التي قام عليها أو تفرع عنها أو دار حولها كل فكره التاريخي. فهو عندما ذهب إلى السوربون وجد الوضعية في انتظاره: كانت هي المذهب السائد في جامعة باريس وفي الحياة الجامعية الفرنسية بصفة عامة. كما وجد أعلام الوضعية لذلك العصر في انتظاره بما فيهم شارل سينوبوس الذي درس له مادة التاريخ الحديث. إلا أن الفكر الوضعي كما وجده طه في السوربون كان بطبيعة الحال وبمقتضى التطور أكثر تقدمًا وأشد تعقيدًا وأقل تجانسًا من وضعيته القطعية الساذجة. وقد أدت الدروس التي استخلصها في ظل الوضعية المتقدمة إلى أنه ظل طيلة حياته فيما بعد يتناول وضعيته الصارمة المبكرة بالتنقيح والتعديل والنقد بل وبالتقويض في آخر المطاف.

ومعنى هذا إذن أن طه ظل طوال حياته مشغولاً على نحو أو آخر بكتاباته الأولى التي تكونت فيها تلك النواة الصلبة. صحيح أنه حجب هذه الكتابات عن الناس وأراد لهم أن ينسوها: ولكنه احتفظ لها بمكان أمين في ذاكرته وظل طيلة حياته يعود إليها في غفلة من الأخرين ليبني على أساسها أو يعدل فيها أو ينميها أو يرفضها. وسبب ذلك أنها رغم طابعها التجريبي أو بسببه كانت تأسيسية: فقد أرسيت فيها القواعد المنهجية وبذرت فيها بذور فكرية خصبة استخدمها طه فيما بعد في تشييد الصرح الذي أقامه في مجال تاريخ الأدب العربي والتاريخ الإسلامي. وسأدلل على ذلك ببعض الأمثلة.

إننا لا يمكن أن نفهم تمامًا الأسباب التي حدت بطه إلى اختيار أبي العلاء موضوعًا لرسالة الدكتوراة الأولى دون أن نراعي تطور معرفته في كتاباته الأولى بالمنهج التاريخي وتزايد وعيه بالعصر العباسي وتقديره له لما شاع فيه من امتزاج بالثقافات الأخرى واتصال بالفلسفة اليونانية وازدهار فكري وتجديد شعري.

كلا وليس يمكننا أن نفهم لماذا اختار طه ابن خلدون موضوعًا لرسالة الدكتوراه الثانية التي أعدها في باريس، إذا لم ندرك من الكتابات الأولى أنه كان وثيق الصلة بالمؤرخ العربي قبل سفره إلى باريس، فهو في «حياة الأداب» ينقد ابن خلدون مع غيره من كبار المؤرخين العرب. كما يدل نفس العمل على أنه كان على ألفة بمقدمة ابن خلدون، فهو يصفها هناك بأنها «جميلة»، بل ويحاكيها عندما يحاول أن يبسط مبادئ تاريخ الأدب بوصفه علما في سلسلة من المقدمات»، تمامًا كما حاول ابن خلدون تأسيس التاريخ كعلم قائم بذاته في مقدمات خاصة به. ولقد كانت الرسالة الباريسية إذن استمرارًا بمعنى من المعاني للكتابات القاهرية.

وعندما شرع طه بعد عودته إلى مصر بوقت قصير (ثلاث سنوات تقريبًا) في تأليف سلسلة المقالات التي كانت النواة الأولى لكتابه الضخم «حديث الأربعاء»، بدأ حديثه عن القدماء والمحدثين، وهو الحديث الذي استهله بعجالة سريعة عن العصر الأموي تفرغ بعدها للعصر العباسي واختار أبا نواس ممثلاً له. أفلا يدل ذلك على أنه أراد عندئذ أن يستأنف الحديث من حيث انقطع في «حياة الأداب»؟

كل هذه التطورات وكثير غيرها مما وقع في حياة طه ككاتب ناضج لا يمكن أن يفهم حقا، ناهيك عن أن يلاحظ أصلاً، دون معرفة بالمقالات المبكرة. ومن المؤكد أن القارئ اليقظ لم يفته أن يرى أن كثيرًا من مواقف طه حسين الراديكالية التي اشتهر بها في مرحلة نضجه قد تكونت في الكتابات المبكرة. ومن ذلك دعوته إلى الفصل بين الدين والعلم وتحرير الدراسة الأدبية والتاريخية من سيطرة الدين والوقوف موقف الشك من الأخبار المأثورة وروايات الرواة.

وغني عن الذكر أن من غير الممكن أن ننقد الصرح الذي شيده طه نقدًا فعالاً دون الرجوع إلى تلك النواة الوضعية الصلبة. وقد أصبح ذلك النقد ممكنًا الآن بعد أن رأينا النواة وهي في مرحلة التكوين قبل أن تتصلب أو لنقل قبل أن يكسوها مؤلف «تجديد ذكرى أبي العلاء» بذلك السطح الأملس الصقيل. ■

يروى طه في الأيام أن لطفي كان يحثه على «القصد في العبارة والأناة في التفكير». إلا أن أستاذه الثاني لم يكن من أصحاب القصد أو الأناة. فقد كان عبد العزيز جاويش هو الذي أغرى طه بنقد المنفلوطي ذلك النقد اللفظي الجارح وأخذ يستزيده منه.

---

(١) نشرت في الجريدة، بداية من ١٥ يناير إلى ٨ مارس ١٩١٤. ويبدو من ترقيم المقالات كما نشرت أن السلسلة كان ينبغي أن تتضمن تسع مقالات. ولكن من الغريب أن «حياة الآداب» ٦ لم تنشر.

(٢) انظر الترجمة العربية لهذا الكتاب في عبد الرحمن بدوي، النقد التاريخي، الطبعة الثالثة (الكويت ١٩٩٧).

إدوارد سعيد.. وقسوة

ترجمة وتقديم

مريد البرغوثي

إدوارد سعيد، صاحب البصيرة النقدية والإنجاز الفكرى الذى يحظى بتقدير عالمنا اليوم، يتناول بالعمق والدقة اللائقين به، رؤية نجيب محفوظ، صاحب البصيرة الأكثر شمولاً فى أدبنا العربىّ الحديث، حوارُ هاتين البصيرتين، بحدّ ذاته، هو جائزةٌ للقراء العرب، الذين يحترمون مهنة النقد ومهنة الفنّ الروائىّ.

لسنا بحاجةٍ إلى إعلان آخر لحزننا وأسفنا على ما آل إليه جانبٌ كبيرٌ من النقد الأدبىّ فى بلادنا العربيّة، من انزلاق لزج على الشاشات الملوّنة، وصفحات الإعلام العشوائىّ، غير المتخصص، وتأرجح بين غبار المديح وغبار الذمّ، واعتبار النقد التطبيقى من الوجبات السريعة، والتطاول عليه بالتعامل مع النصوص الأدبية بسهولة لا تليق.

كما أننا لسنا بحاجة إلى التذكير بأن عدد الدراسات الجادة عن رؤية محفوظ ورواياته، لايزال قليلاً إلى حد غير مفهوم، رغم دوى صيته وغزارة إنتاجه!

ولعل هذا ما شكّلَ لى إغراءً لا يُعتذرُ عنه عندما علمت برغبة «وجهات نظر» فى تقديم دراسة إدوارد سعيد إلى قرائها، فقمت بترجمتها عن الإنجليزية دون تردد، رغم أن الترجمة ليست من شواغلى الأولى.

قبل حصوله على جائزة نوبل عام ١٩٨٨ كان نجيب محفوظ معروفا خارج العالم العربى فى أوساط طلبة الدراسات العربية والشرق أوسطية كمؤلف قصص تفيض بالحيوية تتناول حياة الطبقة الوسطى الدنيا فى القاهرة. لكنهم لم يجدوا فيه صاحب أسلوب مميز أو رؤية خاصة، لأن ترجماته المتوفرة لا توازى نصوصه الأصلية على الإطلاق، وأيضاً لأن محفوظ لم يكن له مترجم واحد (وما زال الأمر كذلك إلى الآن) يجعل مشروع حياته مواصلة تقديم روائعه إلى الإنجليزية.

فى عام ١٩٨٠ حاولتُ إثارة اهتمام أحد ناشرى نيويورك، وكان وقتها يبحث عن كتب من «العالم الثالث»، لتقديم عدد من روايات الكاتب الكبير بترجمات مباشرة من اللغة العربية، لكن الفكرة سرعان ما رفضت، وعندما سألت عن السبب قيل لى (دون تندر) إن اللغة العربية لغة إشكالية! بعد عدة سنوات جرت مراسلات ودية، ومن وجهة نظرى مشجعة أيضاً، مع جاكلين أوناسيس بشأنه، وكانت تفكر فى اتخاذ قرار بتبنّى نشره، وأصبحت فيما بعد واحدة ممن قدموا نجيب محفوظ إلى دار نشر دبل داى التى يستقر فيها الآن، وإن كان ذلك فى روايات متفرقة تمر مرور الكرام. ويمتلك قسم النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة حق الترجمات الإنجليزية لأعماله وبالتالى ليس لمحفوظ - الذى يبدو أنه باعهم تلك الحقوق دون توقع منه أنه سيغدو يوما ما كاتبا عالمياً - أى رأى فيما أصبح من جانب واحد مشروعا تجاريا إلى حد كبير دون تماسك فنى أو لغوى ملحوظ.

بالنسبة للقراء العرب يمتاز محفوظ بصوت خاص يعكس سيطرة ملحوظة على لغته، رغم أنه لا يلفت النظر بشكل محدد إلى هذه السيطرة. بينما يبدو فى بعض الترجمات الإنجليزية شبيها بكل واحد من مترجميه الذين (باستثناء واحد أو اثنين) ليسوا أصحاب أسلوب، ويؤسفنى القول إنهم لم يفهموا جوهر رواياته.

سأحاول أن أقترح فيما يلى أن لمحفوظ رؤية لبلده هى رؤية قابضة مسيطرة. إنه، كإمبراطور يستعرض ملكه، يشعر أنه قادر على أن يلخص تاريخ مصر الطويل، وأن يحكم على هذا التاريخ، ويشكّله، ويشكّل مكانتها المركبة كجائزة رائعة منيرة لخيال الفاتحين كالإسكندر وقيصر ونابليون وأهاليها أيضاً. بالإضافة إلى هذا كله، يمتلك محفوظ الوسيلة الذهبية لنقل ذلك بأسلوب يتفرد به، قوى مباشر وماكر. إنه كشخصياته (التى يبادر إلى وصفها فور ظهورها دائماً) يخرج لك بشكل مباشر ويغمرك بفيض سرده الكثيف ويتركك تسبح فى مياهه، وهو الذى يحدد حياة شخوصه، باتجاهاتها وتموجاتها وتقلباتها - ويقدم لك تاريخ مصر تحت حكم رؤساء وزارات مثل سعد زغلول ومصطفى النحاس وعشرات من التفاصيل المتعلقة بأحزابها، وتاريخ عائلاتها.. إلخ. بمهارة استثنائية.

واقعية، نعم. لكن هناك شيئا آخر أيضاً: رؤية تطمح إلى نوع من الإحاطة الشاملة البالغة الاتساع، ليست بعيدة عن رؤية دانتى التى تُزاوِج بين اليومىّ والخالد، لكن بدون مسيحية دانتى.

لا يستطيع القارئ الأجنبى معرفة أن العائش فى الحقيقة (أضاف الناشر الأمريكى كلمة «اخناتون» إلى العنوان الأصلى) هى من الكتب المتأخرة نسبيا لمحفوظ (١٩٨٥) أو أن موضوعها الفرعونى هو عودة إلى المرحلة المبكرة لدى محفوظ كروائى. (تقول الشائعات إن إضافة «أخناتون» تمت ليتاح بيع الكتاب للسياح الأجانب من زوار الأهرامات!).

بين ١٩٣٩ و١٩٤٤ نشر محفوظ المولود عام ١٩١١ ثلاث روايات - لم تترجم إلى الآن - حول مصر القديمة أثناء عمله كموظف فى وزارة الأوقاف. كما ترجم كتاب جيمس بيكى مصر القديمة قبل أن يعكف على تسجيل حياة القاهرة الحديثة فى خان الخليلى التى نشرت عام ١٩٤٥. وفى عامى ١٩٥٦و ١٩٥٧ توج هذه الفترة بظهور ثلاثيته القاهرية الرائعة التى تتوقف عند١٩٥٢ . وتشكل هذه الروايات فى حقيقة الأمر تلخيصاً للحياة المصرية الحديثة خلال النصف الأول من القرن العشرين.

الثلاثية هى تاريخ النموذج الأبوى للسيد أحمد عبد الجواد وعائلته لما يزيد على ثلاثة أجيال. وهى إذ تقدم كمّا هائلاً من التفاصيل الاجتماعية والسياسية، تشكل، أيضا، دراسة للعلاقات الحميمة بين الرجال والنساء وسجلا لرحلة الابن كمال بحثا عن الإيمان بعد فترة قصيرة من اعتناقه التوجهات الإسلامية.

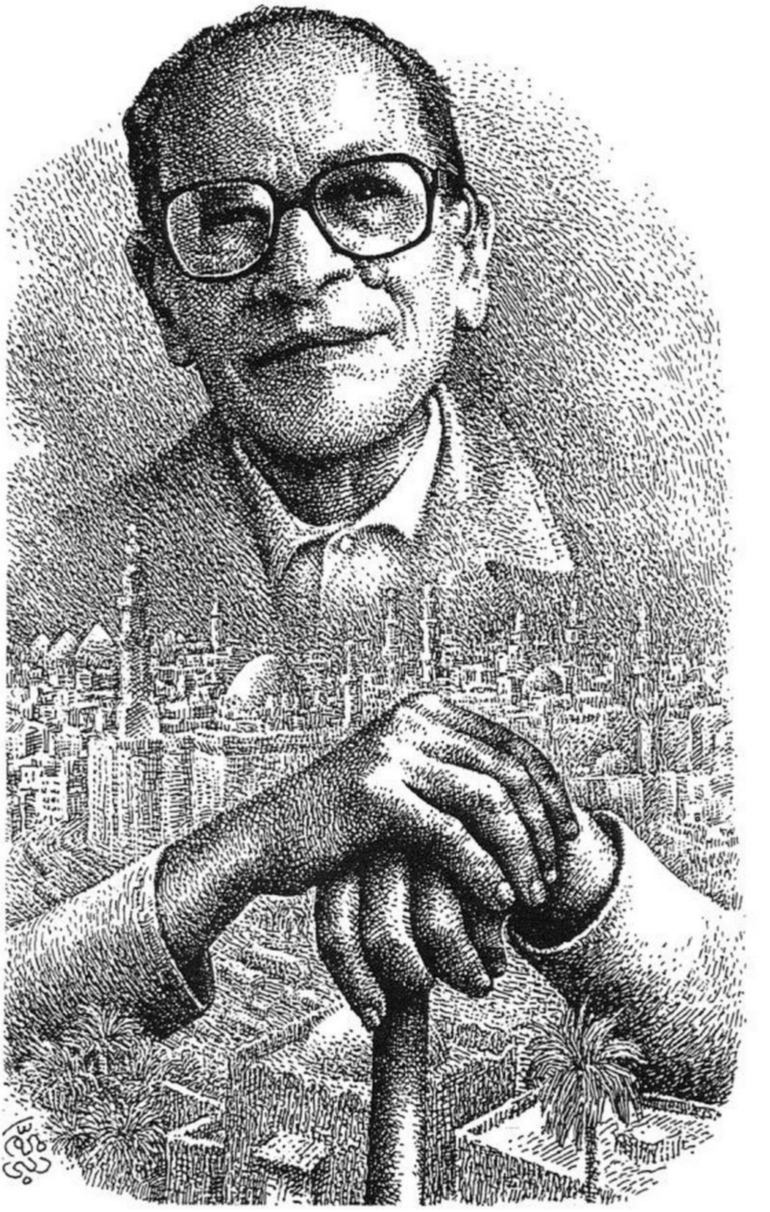
بعد فترة صمت دامت قرابة خمس سنوات أعقبت الثورة المصرية عام ١٩٥٢ تدفقت الأعمال النثرية من قلم نجيب محفوظ بلا انقطاع. روايات، قصص قصيرة، صحافة، مذكرات، مقالات وسيناريوهات للسينما. ومنذ محاولاته الأولى لتصوير العالم القديم أصبح محفوظ غزير الإنتاج بشكل استثنائى، مرتبطاً بواقعه، دون أن يكفّ عن معاودة اكتشاف مصر القديمة، لأن تاريخها يتيح له العثور على جوانب تتعلق بزمانه الراهن، يقطّرها ويعيد تشكيلها لتلائم أغراضه الفنية المركبة. وهذا، فيما أعتقد، ينطبق على العائش فى الحقيقة، التى تشكل جزءا من انشغاله بموضوع السلطة، وموضوع الصراع بين الحقيقة الدينية والحقيقة الشخصية، والتقاطع بين منظورات متكاملة على ما فيها من تناقض ناجم عن شخصية غامضة يصعب سبر أغوارها.

منذ أن أصبح شخصية عالمية مرموقة يوصف محفوظ كواقعى اجتماعى على طريقة بلزاك وجالزورثى وزولا، أو كخيالى خارجٍ مباشرةً من ألف ليلة وليلة (من وجهة نظر ج. م. كوتزى فى وصفه المخيب للآمال لنجيب محفوظ[1]). الأقرب إلى الحقيقة أن ننظر إليه كما نظر الروائى اللبنانى الياس خورى، ككاتب تزودنا رواياته بما يشبه تاريخ الشكل الروائى، من الرواية التاريخية إلى الرومانسية إلى الملحمة إلى الحكاية البيكاريسكية، وتأتى بعد ذلك الأشكال الواقعية الحداثية والطبيعية والعبثية.[2]

أكثر من ذلك، وبالرغم من شفافيته وبساطته، فإن محفوظ شديد التركيب، ليس فقط كصاحب أسلوب فى الأدب العربى، ولكن كتلميذ دءوب للعملية الاجتماعية وللمعرفة - أى طريقة البشر فى معرفة تجاربهم - بشكل لا ينازعه فيه أحد فى العالم العربى أو فى أى مكان آخر إن شئت. ورواياته الواقعية التى عليها تقوم شهرته، لا تقتصر على مجرد كونها مرآة لمصر الحديثة، تعكس الالتزام الاجتماعى بل هى أيضاً محاولات اقتحامية بالغة الجرأة للكشف عن الطرق المادية الملموسة لتشكّل السلطة. فالسلطة قد تأتى من المقدس ، كما فى أمثولة أولاد حارتنا ١٩٥٨ الممنوعة فى مصر إلى وقت قريب(هكذا فى الأصل) حيث يشكل الجبلاوى شخصية إلهية، يطرد أبناءه من جنة عدن، أو من العرش، أو من الأبوة ذاتها، أو من المؤسسات الاجتماعية كالأحزاب السياسية والجامعات والبيروقراطية الحكومية...إلخ. وهذا لا يعنى أن روايات محفوظ مصممة سلفاً حول مبادئ مجردة: فالأمر ليس كذلك وإلا كانت أعماله أقل قيمة بكثير مما يراها عليه قراؤه العرب الذين لا حصر لهم وأيضاً جمهوره الآخذ فى الاتساع عالمياً.[3]

هدف محفوظ، كما أعتقد، هو تجسيد الأفكار بشكل كلّى فى شخصياته وأفعالهم بحيث لا يترك النظرى مكشوفاً وعارياً. لكن ما يفتنه باستمرار هو كيفية تحول المطلق (الذى هو عند المسلمين بالطبع الله بصفته القوة الكاملة) من مادى مدرك إلى ما لا يمكن استعادته وإدراكه كما حدث عندما أخرج

الذاكرة عند نجيب محفوظ!



مرسوم الجبلاوى بطرد أبنائه برميهم إلى المنفى، فيتراجع إلى بيته، قلعته الحصينة ويستحيل الوصول إليه إلى الأبد، بينما يظل بوسعهم رؤية البيت من مناطقهم. إن ما يحس وما يعاش يظل واضحاً ومجسداً ولكن لا يمكن القبض عليه فى الإدراك، بينما يتم الكشف عنه بدقة مضنية فى نثر محفوظ البديع.

ملحمة الحرافيش ١٩٧٧هى تطوير دقيق لهذا الموضوع بعد أولاد حارتنا. إن استخدام محفوظ الذكى للغة يمكنه من ترجمة المطلق إلى تاريخ، إلى شخصية وحدث ومكان وتتابع زمنى بينما، فى نفس الوقت، لأن هذا هو المبدأ الأساسى، يظل هذا المطلق محتفظا على نحو غامض وربما موجع أيضا بنايه الأصلى العنيد. فى أخناتون يغير إله الشمس إلى الأبد الملك الشاب المؤمن مبكرًا بإله واحد لكنه لا يكشف عن نفسه أبداً. تماماً كما أن أخناتون ذاته لا يُرى إلا عن بعد، موصوفا بروايات عديدة على ألسنة أصدقائه وأعدائه وزوجته الذين يحكون حكايته لكنهم لا يستطيعون حل الغازه.

هناك أيضاً جانب لا صوفى شرس فى محفوظ لكنه مخترق بذكريات وحدوس حول قوة عظمى مراوغة تزعجه. انظر على سبيل المثال كيف أن قصة اخناتون تتطلب لا أقل من أربعة عشر راوياً يفشلون جميعاً فى تفسير فترة حكمه.

فى كل عمل أتيح لى الاطلاع عليه من أعمال محفوظ هناك تشخيص مركزى للسلطة، وإن كان من بعيد. ونتذكر هنا على الفور السيد أحمد عبد الجواد فى الثلاثية حيث يخيم حضوره على ثلاثة أجيال بعد موته.

فى الثلاثية لا يبدو انحسار قوته أمرا جانبياً، بل يتم تخفيفه عبر وسائط عادية كزواج عبد الجواد، سلوكه المتحلل، أولاده وتغير ارتباطاته السياسية. ويبدو أن الأمور الحياتية تحير محفوظ، وتؤثر فيه وتبهره فى نفس الوقت، خصوصاً فى رصده لكيفية انحسار تركة السيد أحمد عبد الجواد، الذى لاتزال عائلته (وهى الموضوع الحقيقى عند محفوظ) قادرة على التماسك طوال ثلاثة أجيال على امتداد خمسين عاماً، عبر ثورة ١٩١٩ ثم المرحلة الليبرالية لسعد زغلول، ثم الاحتلال البريطانى، ثم حكم فؤاد الأول خلال فترة ما بين الحربين.

ونتيجة ذلك ما إن تصل إلى نهاية رواية من روايات نجيب محفوظ، فإنك تشعر - وهذه هى المفارقة - بالأسف لما حل بشخصياته فى منحدرهم الطويل (كما يحدث فى الثلاثية عندما يدخل أحد أحفاد

منذ محاولاته الأولى لتصوير العالم القديم أصبح محفوظ غزير الإنتاج بشكل استثنائى، مرتبطاً بواقعه، دون أن يكفّ عن معاودة اكتشاف مصر القديمة، لأن تاريخها يتيح له العثور على جوانب تتعلق بزمانه الراهن، يقطرها ويعيد تشكيلها لتلائم أغراضه الفنية المركبة. وهذا، فيما أعتقد، ينطبق على العائش فى الحقيقة، التى تشكل جزءا من انشغاله بموضوع السلطة، وموضوع الصراع بين الحقيقة الدينية والحقيقة الشخصية

عبد الجواد السجن كشيوعى ويدخله الثانى كعضو فى «الإخوان المسلمون») وتشعر أيضاً بأمل غامض فى أنك، بالعودة إلى بداية الرواية ربما تتمكن من استعادة القوة الطاغية لهذه الشخصيات. وهناك إشارة إلى مثل هذا فى مقطع عنوانه «الرسالة» يضمه كتاب أصداء السيرة الذاتية ١٩٩٤: «قسوة الذاكرة تتجلى فى تذكر ما طواه النسيان». إن محفوظ ليس مسيحى النزعة بل قاضٍ يصدر أحكامه. كما أنه مسجل دقيق لمرور الزمن.

وهكذا فإن محفوظ ليس أبداً ذلك القاص المتواضع الذى يحوم فى مقاهى القاهرة ثم يكتب بعيدا وبهدوء فى زاوية غامضة. إن عناده وافتخاره بصرامة عمله طوال نصف قرن، وبرفضه التنازل للضعف العادى، هى فى صلب ما يفعله ككاتب. إن ما يُمَكِّنُهُ من الاحتفاظ بهذه الرؤية المدهشة والمتصلة للتداخل الوثيق بين الأبدى والراهن، هو بلده، مصر نفسها. فبالنسبة لمحفوظ لا مثيل لمصر، كمكان جغرافى وكتاريخ، فى أية بقعة أخرى من العالم: قديمة فيما وراء التاريخ، ومتميزة جغرافياً بفضل النيل وواديه الخصب. مصر محفوظ هى تراكم هائل للتاريخ، ضاربة فى عمق الزمن منذ آلاف السنين، وهى قادرة على الاحتفاظ بهويتها المتماسكة رغم تنوع الحكام والأنظمة والديانات والأجناس. وأكثر من ذلك، فمصر ذات منزلة فريدة بين الأمم، فهى محط انتباه الفاتحين، والمغامرين والرسامين والكتاب، والعلماء والسياح، لا يضاهيها بلد آخر بفضل موقعها فى التاريخ الانسانى، ورؤيتها التى تتجاوز الأزمنة.

إن النظر إلى التاريخ لا بجدية فقط بل حرفيا أيضاً، هو الإنجاز المركزى لأعمال محفوظ، وشأنه شأن تولستوى وسولنجستين فإن المرء يحيط بشخصيته الأدبية عبر هذا المنظور الحيوى الهائل الاتساع. إن تقديمه مساحات واسعة من تاريخ مصر نيابة عن ذلك التاريخ وشعوره بأنه قادر على سبر أغوار مواطنيها بصفتهم يمثلونها، هو أمر لا نراه إلا نادراً عند الكتاب المعاصرين. أما بالنسبة لقادة مصر الذين شغلوا تاريخها فقد كانوا أيضاً موضوعا لنظرة محفوظ المتفحصة. ففى كتابه الهام (غير المترجم بعد) «أمام العرش» (١٩٨٢) لا يتورع محفوظ عن وضع حكام مصر أمام محكمة التاريخ الأبدية المكونة من أوزيريس الجالس على العرش الذهبى وعلى جانبه إيزيس وحورس ويقوم ثلاثتهم بتقويم مزايا الحكام الذين يعتبرهم محفوظ مسؤولين عن جعل مصر ما هى عليه اليوم.

من الواضح أن هذه الرواية قد كتبت بدافع نفس الرغبة فى التنقيب عن ماضى مصر البعيد الكامنة وراء رواية أخناتون. تبدأ «أمام العرش» بمحاكمة مينا مؤسس البلاد ومرورا بأسماء مشهورة على الطريق، إذ يصل إلى جمال عبد الناصر وخليفته أنور السادات الذى اغتيل قبل فترة قصيرة من ظهور الكتاب. وما يستوقف بشأن هذا الموضوع هو اتخاذه موضوعاً أصلاً. كما لو أن الكاتب شعر أن جزءاً من مشروعه الروائى ومن التزامه الشخصى هو أن يفحص، فى نفس واحد عميق، الأشخاص الذين صنعوا تاريخ مصر. إن الكتاب لا يوافق طموح محفوظ فقط، بل يكشف عما يراه من استمرارية فيما يبدو وكأنه مجرد جزئيات منفصلة عبر امتداد الزمن. وأن عليه أن يتخيل ما يصل بين فراعنة مستبدين ورجال ثوريين شعبيين مثل السادات وناصر ومصطفى النحاس جنباً إلى جنب مع الخديوى العثمانى محمد على (هكذا فى الأصل) والخديوى إسماعيل وبطاركة الأقباط والصوفيين والشعراء ورجال البلاط مما يكشف أكثر وأكثر اهتمام محفوظ العميق بالسلطة، إن لم نقل بالتنافس معها بصفته مؤرخها الذى يحس بالغيرة. إنه يبقى القادة القدماء الذين يستدعيهم للمحاكمة، داخل القاعة كشهود على اللاحقين، يستجوبونهم أحياناً أو يستنكرون أفعالهم أو يمدحونهم أو يناقشونهم بشكل عام. وينجم عن ذلك كله نسيج كثيف من القيم التى كونت شخصية مصر التاريخية بتضافرها مع قادتها العظام عبر العصور!



يجدر بالذكر أنه منذ بداية الستينيات نشأ جدل حول حقيقة الهوية الثقافية لمصر ما زال مستمرا إلى اليوم. كانت دعوة ناصر للقومية العربية هى البداية المحفزة لهذا الجدل، فقد رآها كتّاب مثل لويس عوض ومحفوظ ذاته على أنها أدت إلى تقطيع التاريخ اللاعربى لمصر بمفاهيم قدمها المتحمسون القوميون مثل التاريخ العربى والاشتراكية العربية، وانضمت الأحزاب الإسلامية ورموزها بعد ذلك إلى هذا الجدل، منادين بأن ما ينبغى التوكيد عليه هو شخصية مصر الإسلامية، بما أن الأزهر، أقدم مؤسسة علمية إسلامية مكرسة للسنة، لا يزال مزدهرا فى القاهرة.

فى الأشهر الأخيرة، نشب جدال مستمر تسببت فيه رواية لكاتب سورى هو حيدر حيدر، هى «وليمة لأعشاب البحر» حيث رأى البعض أنه من غير اللائق توزيعها فى مصر المسلمة بكل ما تحويه من «زندقة وفجور»[٤] إن الجدال حول رسالة مصر وجوهرها وهويتها الثقافية لم يخمد أبداً، مما يضفى على أعمال محفوظ أهمية مركزية عند المصريين والعرب على السواء.

فلا غرو والحالة هذه، أن يكون جمال عبد الناصر وحده هو الذى يتعرض لمعاملة غليظة على أيدى قضاته وشهوده فى رواية «أمام العرش». إن رمسيس الثانى مثلاً، يعبر لناصر عن إعجابه به وقربه منه كقائد عظيم، لكنه يشعر بالأسف لكون مصر فى عهده (عهد رمسيس) كانت قوة أساسية بينما مصر عبد الناصر أصبحت بلداً صغيراً لا يرقى إلى الطموح العريض الذى يصبو إليه. أما مينا فينتقد ناصر بسبب إغراقه مصر التى لا مثيل لها فى القومية العربية. وهذه تهمة خطيرة لكونها موجهة من مينا الذى بسط سلطته على الشمال والجنوب الموحدين.

ولا يقل عنها خطورة الاستنكار القوى الذى يبديه مصطفى النحاس آخر السياسيين المصريين الكبار فى العهد الملكى، والمعروف وزوجته بالذوق المبالغ فى الترف، وأحياناً فى المظهرية والادعاء.

إن محفوظ لا يكتفى برفع النحاس إلى مصاف رجال مصر العظماء بل يجعله يهاجم انتهاك عبد الناصر لحقوق الإنسان وتدميره للمثقفين «طليعة الشعب المصرى» بإذلالهم والحط من إنسانيتهم وتخريبه للتعليم مما أدى جميعه إلى (فى واحدة من أجمل تعبيرات محفوظ): «أساطير فارغة تقوم على تل من الخرائب».

وعندما يرد عبد الناصر ردا أراه ضعيفا إلى حد ما، بأنه استطاع على الأقل أن يوقظ مصر والبلاد العربية ويخرجها من شروط الهزيمة، ينبرى النحاس ثانية لمواصلة هجومه: «ليتك تواضعت فى طموحك، ليتك عكفت على إصلاح وطنك وفتح نوافذ التقدم له فى شتى مجالات الحضارة. إن تنمية القرية المصرية أهم من تبنى ثورات العالم، إن تشجيع البحث العلمى أهم من حملة اليمن». وهنا يختم أوزيريس الجلسة بالاعتراف بأن عبد الناصر هو أول زعماء مصر الذين اهتموا فعلا بشؤون شعبهم، لكنه يضيف أن الإله العظيم سيفسح له مكاناً بين الخالدين بشرط أن يترك للزمن إصدار الحكم النهائى على كافة أعماله فى محكمة مناسبة.

يختم محفوظ كتابه الدال بأحكام شخصية حول السياسة المصرية خلال التاريخ بمحاكمة أنور السادات، وهى أصلا مهمة أخف وطأة من محاكمة عبد الناصر. أمران يستحقان التوقف هنا، الأول أن أخناتون يزج بنفسه فجأة فى النقاش مؤكدا أنهما هو والفرعون المعاصر المقتول اغتيالاً، يشتركان فى تكريس حياتيهما من أجل السلام، ويشتركان فى تهمة الخيانة أيضاً. والأمر الثانى هو ذلك النقاش المخادع بين عبد الناصر والسادات، وهو نقاش يتسم بمقدار من المرارة فيه شد وجذب متلاحق بين متآمرين ورفيقى سلاح سابقين، وفى نفس الوقت حاكمين متعارضين لمصر الحديثة، ولا يستطيع غير محفوظ الملم بأسلوب الحديث عند المصريين والمالك لناصية النثر العربى أن يرسم هذا المشهد بطريقة مدهشة وأمينة أيضاً:

سأله جمال عبد الناصر:

- كيف هان عليكَ أن تقفَ من ذكراى ذلك الموقف الغادر؟

فقال أنور السادات:

- اتخذتُ ذلك الموقف مضطراً إذ قامت سياستى فى جوهرها على تصحيح الأخطاء التى ورثتُها عن عهدك.

ناصر:

- ولكنى عهدتكَ راضياً ومشجعاً وصديقاً؟

السادات:

- من الظلم أن يحاسَبَ إنسان على موقف اتخذه فى زمن رعب أسود خاف فيه الأب ابنه والأخ أخاه!

ناصر:

- وما النصر الذى أحرزته إلا ثمرة استعدادى الطويل له!

السادات:

- ما كان لمنهزم مثلك أن يحقق انتصاراً. ولكنى أرجعتُ للشعب حريته وكرامته ثم قدتُه إلى نصر أكيد.

ناصر:

- ثم نزلتَ عن كل شىء فى سبيل سلام مهين فطعنتَ وحدة العرب طعنة قاتلة وقضيتَ على مصر بالانعزال والغربة.

السادات:

- لقد ورثتُ عنك وطناً يترنح على هاوية الفناء، ولم يمد لى العرب يدَ عونٍ صادقة، ووضح لى أنهم لا يرغبون فى موتنا كما لا يرغبون فى قوتنا كى نظل راكعين تحت رحمتهم، فلم أتردد فى اتخاذ قرارى.

ناصر:

- واستبدلتَ بعملاق طالما ساندنا، عملاقا طالما ناصبنا العداء.

السادات:

- اتجهتُ إلى العملاق الذى بيده الحل، وصدقت الحوادث ظنونى!

ناصر:

- واندلقتَ فى الانفتاح حتى أغرقتَ البلاد فى موجة غلاء وفساد، وبمقدار ما كان عهدى أماناً للفقراء كان عهدك أمانا للأغنياء واللصوص.

السادات:

بالرغم من شفافيته وبساطته، فإن محفوظ شديد التركيب. ليس فقط كصاحب أسلوب فى الأدب العربى، ولكن كتلميذ دؤوب للعملية الاجتماعية وللمعرفة. أى طريقة البشر فى معرفة تجاربهم. بشكل لا ينازعه فيه أحد فى العالم العربى أو فى أى مكان آخر إن شئت. ورواياته الواقعية التى عليها تقوم شهرته، لا تقتصر على مجرد كونها مرآة لمصر الحديثة. تعكس الالتزام الاجتماعى بل هى أيضاً محاولات اقتحامية بالغة الجرأة للكشف عن الطرق المادية الملموسة لتشكّل السلطة

ـ لقد عملتُ لخير مصر فوثب الانتهازيون من وراء ظهرى!

هذا الفحص نفسه الذى رأيناه فى أمام العرش هو فى قلب رواية أخناتون القائمة التى يعود فيها محفوظ أيضاً إلى إجراءات فى القص تذكّر براشومون والتى ميزت رائعته عن الاسكندرية ميرامار ١٩٦٨.

تدور أحداث ميرامار فى بنسيون حيث تعمل الخادمة زهرة الفتاة الريفية الجذابة التى يشتهيها النزلاء. ويمثل كل واحد منهم شريحة من المشهد السياسى المصرى فى السنوات الأخيرة من ثورة الضباط فى بداية الخمسينيات. وكذا يتيح محفوظ لوفدى ولاشتراكى معارض وناصرى انتهازى أن يقدم كل منهم روايته.

فى أخناتون، يرى مرى مون الشاب ووالده أثناء ارتحالهما جنوباً على امتداد النيل، بمدينة مهجورة. الشاب، مبهورا بما رأى، يتعلم من والده ما يكفى ليقرر البحث عن حقيقة تلك المدينة، وحاكمها المتوفى، وأرملته الملكة التى تعيش فى عزلة.

إنه يفعل ذلك بالطلب إلى كل واحد من المشاركين فى قصة أخناتون أن يخبره بما حدث من وجهة نظره. يفسر مرى مون بعد ذلك لماذا تصدى لهذا البحث:

«بل لعله تحمس لها فى باطنه لسابق ولعه بتسجيل الحقائق، ولرسوخه فى العلم الذى جعل من قصرنا منتدى لرجال الدين والدنيا»

«For father himself had a passion for knowledge and recording the truth, a fact that made our palace a gathering point for men of both worldly and religious affairs».

المشكلة فى هذه الجملة أن تعبير recording the truth هو تفسير يخص المترجم، وهذا (لو بدرجة ضئيلة) يغير من طبيعة نثر محفوظ غير المسرف.

ينبغى القول هنا إننى لست مترجما ولن أكون، لكن الأمر الذى خطر لى عندما قارنت النسختين العربية والإنجليزية لأخناتون هو تلك التجاوزات الكثيرة للأصل، ومعظمها توضيحات مقحمة.

إن ما لفت نظرى دائما بالنسبة لمحفوظ، ليس فقط هو الطبيعة الإيحائية التى تميز أسلوبه بالعربية، وإنما ثراء إمكانيات المعنى أيضاً.

فالمعنى عنده لا يقدم بطريقة تقريرية بل يرشح بين السطور، كما يقال. فى الجملة المقتطفة أعلاه يمارس المترجم تدخلا لا ضرورة له، تماما عند النقطة التى يغفلها الأصل العربى.

فكلمات had a passion for يغيرها المترجم بثقة قاطعة عن الأصل الذى يقول «لرسوخه فى العلم»، وهو ما يمكنه من الإيحاء بحياة الأب الراكدة ورحلة الشاب الساعى للمعرفة التفصيلية طوال ما تبقى من الرواية.

على أية حال، مسلحا برسائل التوصية، يقوم الشاب مرى مون بإجراء مقابلات مع كل الشخصيات الأساسية التى لعبت دورا وآخرهم نفرتيتى، زوجة أخناتون التى لا تزال على قيد الحياة فى مأساة الملك الشاب، وفترة حكمه الكارثية المتسمة بالسلام والمؤامرات التى أحاطت به، والتى أدت فى النهاية إلى موته محتارا ووحيدا وعلى الأغلب مغدورا.



إن اخناتون هو من زوايا عديدة نقيض كيرتس عند كونراد، أى شخصية من النور فى مواجهة الظلام، (و قلب الظلام هى واحدة من الروايات التى يتحدث عنها محفوظ بإعجاب غير مبرر) يتم استعادة ذكرى الملك الغامض من قبل أقربائه ورجال بلاطه وجنرالاته وأصحابه وشُرطه، والفنانين والكهنة استجابة لأسئلة مرى مون اللامناسبة.

ومرى مون يعطينا باستمرار انطباعاته لاستنتاجاته. المادة نفسها غنية وفى نفس الوقت معقدة بشكل مربك، فهى خليط متضاد من المواضيع ونقائضها وكلها تدور حول أسئلة من نوع ما إذا كان أخناتون وأمه عاشقين، وما إذا كانت نفرتيتى متآمرة مصابة بجنون السلطة، أو رفيقة مخلصة.

وما إذا كان الملك أكثر عقلا وجنونا من معظم الذين يطورون ويجمعون لغز أخناتون.

وجوهر هذا اللغز هو ما إذا كان أخناتون صاحب رؤية توحيدية وأن إيمانه بالإله الواحد الذى لا يوصف واعتناقه للسلام كان سابقاً لزمانه ومتجاوزاً له، أو أنه مارق ضعيف عاجز ومحتال، كما بدا لأتباع الإله آمون بسبب قضائه على كل الآلهة الآخرين.

ولكن وبالعودة إلى «أمام العرش»، نرى أن الفرق بين الفرعون الغامض والسادات الذى يبدو فى ذهن محفوظ شبيها بأسلافه القدامى، هو أن الحاكم الفرعونى كان يزعم خدمة الآلهة بينما السادات لم يكد يفعل شيئا من هذا القبيل، بل ظل أنانيا بشكل صارخ.

وهكذا فإن انبهار محفوظ بهذه الحقبة القديمة لا يرجع إلى جهلنا بالبطل الحقيقى، بل إلى أن بحث البطل عن حقيقة نائية يزيد من صعوبة إدراكنا لكنهه.

فى أخناتون نرى هوية مصر تتواصل فى سلطتها وتكاملها، كما يراها الكثير من المغامرين مهددة. وفى الحالتين فإن السلطة فى ثباتها وانحدارها تظل مركزية فى الرواية بشكل أساسى لأن أخناتون لا يعرف كيف يستخدمها لدعم قضيته. ولا أعتقد أن مهمة محفوظ الروائى باتت أقل صعوبة نتيجة لكون أخناتون ونفرتيتى وتوت عنخ آمون (خليفة أخناتون الشاب) أشهر شخصيات التاريخ المصرى القديم، أولا: بسبب كثرة ما كتب عنهم وثانيا: لأنهم شخصيات إنسانية أكثر من امنحوتب الأول ورمسيس الثانى وتحتمس الرابع، مما جعلهم محط إعجاب المحللين المعاصرين.

لدى مثال يوضح ما أقصده وهو فيلم المصرى بطولة مايكل وايلدنغ فى دور أخناتون، وجين تيرنى فى دور نفرتيتى وفكتور ماتيور فى دور حور محب صديق طفولة اخناتون. كان هذا فيلما من أفلام هوليوود تأثرت به عندما كنت فى القاهرة فى فترة شبابى قبل سنوات طويلة، رغم أنى نشأت وكبرت محاطا بألق مصر القديمة، ومواقعها الأثرية الحقيقية وقد صور الفيلم الصراع بين روحانية السلطة وماديتها. وفى السنوات القريبة شاهد العالم الغربى توت فى معارض باذخة كما حصل أخناتون على نصيبه من الاهتمام فى معارض عديدة بما فى ذلك واحد نظم هذا العام فى متحف بوسطن للفنون الجميلة[٥]، وأبرزت هذه المعارض مدينة تل العمارنة وقربتها من الذهن المعاصر كما أبرزت أسلوب حكمه الرخو المخنث الممتد بشكل غير مألوف. وذهب كتاب آخر عن اخناتون لمؤلفته كريستين المهدى[٦] فى الاتجاه الآخر تماما إلى القول إن أخناتون يمتلك رؤية دينية أصيلة، ومن المحتمل أنه كان شاذا جنسيا ـ وهى فكرة لم يبد أنها خطرت ببال محفوظ. هناك مسائل أخرى لا بد من الإشارة إليها هنا، أحدها انبهار محفوظ بالطريقة التى تنتشر بها المعلومات، وكيف أمكن فى السياق أن يتحول الزمن التاريخى إلى تفاصيل دقيقة (واضحة دائما وغير نهائية) تتعلق بالحياة اليومية. اللغة عند محفوظ لا تعنى فقط نقل المعلومة بل تعنى بتبين التشوهات الحتمية فى المفردات، عن طريق الشخصيات والعواطف والمصالح العادية والهوية. بعد استماعه إلى أعداء أخناتون وأصدقائه يقابل مرى مون أخيرا زوجته نفرتيتى التى كانت أقرب الجميع إلى أخناتون. إننا نتوقع بشدة أن تقوم بحل اللغز بتقديم زوجها كباحث عن الحقيقة كما يعتقد مرى مون. إنها تعترف بأنها تركته لكى تنقذ حياته (ربما فكرت أنه بغيابها قد يتغلب على تردده فى اللجوء إلى العنف) وإنقاذا للبلاد من الغزاة وأنه نتيجة ذلك قد يلجأ للفعل.

غير أن نفرتيتى ذاتها سوف لن تعرف الحقيقة النهائية بشأن زواجها، وستعتمد على تقرير جاف يقول إن المارق مات وحيدا بالمرض، رغم أنه قد يكون مات مقتولاً. كل الشهادات كانت إذاً غامضة بشكل فاقع وبلا توكيد، باستثناء أن كل من قابله كان يشعر أنه مؤمن بعقيدته غير أنه لم يستطع نقلها إلى الآخرين تماماً، ولم يستطع أن يجعلها تعيش بعد حكمه. إن كل الشهادات بما فى ذلك شهادته هو تقدم صورة خاطئة إلى حد ما، كان الحقيقة، مع كل تصريح بها أو إذاعة لها، تتلاشى مع تلاشى سلطة الفرعون. وكلما استولت عليه عاطفته ازداد ضعفاً كحاكم، وكأن العقيدة التى يحاول نشرها تزداد ذاتيةً، وباحتباسها داخل نفسه وكونها بعيدة المنال بالتعبير الإنسانى، تغدو أكثر فأكثر ـ شيئا شبيها بالموت.

تظهر بعض وجهات النظر العامة من خلال ما ترويه لمرى مون شخصيات مثل تايى أم أخناتون النوبية القوية والتى يقال أنها كانت عشيقته، وآى والد نفرتيتى، وتوت الكاتب الرئيسى وميرى را، الكاهن الأعلى لإله أخناتون الأوحد، وماهو، رئيس شرطة أخناتون. إن أكثر ما يؤثر فى الجميع هو إيمان أخناتون الراسخ والكلى فى إلهه الخفى الصامت.

إنه لا يرغب مطلقًا فى السماح للآخَر، أى الآلهه التقليدية، بأى مكان فى مصر. ويتم التعبير عن ذلك بشكل غنائى عبر الأناشيد التى يقال أنه كان يغنيها لإلهه الذى أصبح يخصه بشكل شخصى.

الأمر الثانى هو إيمانه الكلى بالسلام، ورفضه استخدام القوة أو العنف، ورغبته أن تشع مملكته بالمحبة، ولا يشير محفوظ إلى أنه يقر بعجز أخناتون كحاكم، بل إنه فى الحقيقة إذا حكمنا على الفرعون من أعمال أخرى لمحفوظ لا يبدى أى تعاطف واضح معه. بل سنلاحظ مسحة من الاحتقار إلى جانب الإعجاب بحماسه الدينى. وهناك موضوع آخر بشأن أخناتون، وهو إغفاله للرموز الدنيوية، ولأمور السلطة مما سيكلفه فى النهاية خسارته

تأييد صديقه حورمحب القائد العسكري العظيم الذي ينتزع من أخناتون السلطة في آخر عهده.

إن ما يهم محفوظ بوضوح هو استحالة الصلح بين معتقدات أخناتون الصارمة والحفاظ على تماسك مصر كدولة وكفكرة أثناء حكمه. فالمشكلة أن أخناتون لا يسمح بأي حلول وسطى على الإطلاق ويرفض رفضا تاما أن تكون له علاقة بالسياسة. مما يطرح السؤال بقوة عما إذا كان قديسا أو في واقع الأمر رجلا خطيرا، رجلا مستعدا للتضحية بمصلحة بلده، إذ يرفض الدفاع عن حدودها من أجل معتقداته.

ولا تقدم لنا الرواية جوابا شافيا، فيما عدا إبرازها وتعميقها لهذا السؤال، بنقله من مجال المعرفة إلى مجال التاريخ الدنيوي. تتكرر مفردة الدنيا إزاء مفردة العالم الآخر بالعربية، ويرى محفوظ أن أسمى الأفكار وأفضلها تعجز عن التغلب على العداوات والمنافسات والمصالح التاريخية ليس لأن الأفكار النبيلة ليست قوية بما يكفي، ولكن لأنه لا يوجد زمن خال من التعقيدات ومن الناس بما يكفي لتفعيل تلك الأفكار بما فيها من قوة الخلاص والإصلاح الشافي. كما أن هناك مشكلة أخرى وهي أن الدنيا تتطلب نوعا ما من النظام المركزي الذي يحميها من الفوضى العارمة التي يلمح إليها محفوظ في قصصه ورواياته اللاحقة والتي ينحى فيها باللائمة على طبقة المثقفين.

تصور مجموعة من روايات محفوظ في الفترة ما بين ١٩٦٧ـ١٩٨٠ هذه الحال، وتحديدا ثرثرة فوق النيل وتحت المظلة. فالأولى تدور حول بعض الأصدقاء الذين يجتمعون في عوامة على النيل حول أنيس زكي الموظف الحكومي الذي فقد زوجته وابنته، وعلى شاكلته يعيش أصدقاؤه في عالم من نشوة المخدرات والإحباط، ويتعرضون لحادث مرور ينجم عنه قتل أحد الفلاحين. ولا يمتلك أي منهم الشجاعة للإبلاغ عن ذاك الحادث. أما تحت المظلة، المكونة من ست قصص قصيرة وخمس مسرحيات، فتجنح إلى المدرسة التعبيرية، تصور القصة التي تحمل اسم المجموعة أفرادا واقفين تحت مظلة إحدى محطات الأوتوبيس يراقبون بشكل سلبي، أحداثا شديدة الغرابة (حفلات جنس جماعي، رؤوسا تتدحرج على التراب، حوادث سيارات...إلخ) دون موضوع مركزي ودون هدف.

إن مصر محفوظ هي بلد مشحون يعج بالحيوية بفضل دقته وطرافته في تصويرها. فلا هي مأخوذة تماما بالأبطال العظام، ولا هي قادرة على الاستغناء عن حلم ما بالانسجام المطلق يشبه ما يجاهد أخناتون لتحقيقه دون جدوى. مصر بدون قوة مركزية مسيطرة، قابلة للسقوط في الفوضى أو في طغيان عبثي يعتمد إما على العقيدة الدينية الثابتة أو الديكتاتورية الفردية.

محفوظ ليس أبداً ذلك القاص المتواضع الذي يحوم في مقاهي القاهرة ثم يكتب بعيدا وبهدوء في زاوية غامضة. إن عناده وافتخاره بصرامة عمله طوال نصف قرن، وبرفضه التنازل للضعف العادي، هي في صلب ما يفعله ككاتب. إن ما يمكنه من الاحتفاظ بهذه الرؤية المدهشة والمتصلة للتداخل الوثيق بين الأبدية والراهن، هو بلده، مصر نفسها

إن محفوظ الآن في التاسعة والثمانين من العمر، فاقد لبصره تقريباً، وبعد أن تعرض لحادث الاعتداء الجسدي عليه، من قبل المتعصبين الدينيين في عام ١٩٩٤ بسبب موقفه المعتدل من آيات شيطانية لسلمان رشدي، لجأ إلى الاعتكاف والعزلة. إن اللافت والمؤثر فيما يتعلق بمحفوظ هو كيف أنه، باتساع رؤيته ورواياته، يبدو كمن لا يزال يحرس إيمانه الليبرالي المنتمي إلى القرن التاسع عشر بمجتمع إنساني النزعة يليق بمصر، بالرغم من أن البرهان الذي لا يكف عن التنقيب عنه واستجلائه والكتابة عنه في الواقع الحي وفي التاريخ يدحض ذلك الإيمان. وتتجلى المفارقة في أنه ـ أكثر من أي كاتب آخر ـ جسد في أعماله التناقض الذي تمثله مصر كما يراها، بين القيم المطلقة العظيمة من ناحية، وبين تفتت هذه القيم وتآكلها على يد الناس والتاريخ والمجتمع. إنه لم يستطع أبداً أن يصالح بين هذين النقيضين. أما كمواطن، فإن محفوظ يرى أن التمدن، واستمرارية الشخصية المصرية المتسمة باستقرارها وتعدديتها في أعماله، تملك القدرة على النجاة من عوامل الضعف والوهن الناجمة عن الصراعات والتحلل التاريخي الذي صوره بقوة أكثر من أي شخص آخر قرأته في حياتي. ■

بترتيب خاص مع مجلة
New York Review of Books

هوامش:

(١) Fabulous Mahfouz," the New York.. Review, sep.22.1994

(٢) الياس خوري، مواقف، العدد ٥٧، شتاء ١٩٨٩

(٣) أرى أن كتاب رشيد العناني The Pursuit of Meaning, Routledge, 1993 مفيد جداً. إنه أكثر الدراسات شمولا عن محفوظ باللغة الإنجليزية.

(٤) حول هذا الموضوع انظر مقال «صيد الساحرات في مصر» لـ Max Rodenbeck في New York Review 16 نوفمبر، ٢٠٠٠ و صبري حافظ.
The Novel, Politics and Islam, New Left Review, vol. 5 Second Series, (Sept.-Oct., 2000), 117-141.

(٥) "Pharaohs of the Sun: Akhenaten, Nefertiti, Tutankhamen", Nov.14, 1999 - Feb.6 2000

(٦) Tutankhamen: The Life and Death of the Boy-King (St.Martin's 2000).



Flight
Departures
Arrivals
EF025 ENGLAND
EF001 HONGKONG
EF254 YEMEN
EF261 NEWYORK
EF255 SAUDIARA.
EF013 KUWAIT
EF225 JORDAN
EF420 EGYPT
EF540 SPAIN
QATAR
EGYPT
ETHIOPIA
JORDAN
BOTSWANA
KENYA
NAMIBIA
MOROCCO
ZIMBABWE
EFG - Hermes

أزمة السياسة فى انتخابات الرئاسة

كتب الأستاذ محمد حسنين هيكل فى العدد الثالث والعشرين ـ ديسمبر ٢٠٠٠ مقالاً بعنوان «أزمة السياسة فى انتخابات الرئاسة» تحدث فيه وبشىء من التركيز على الخطاب السياسى ودوره فى مجريات العملية الانتخابية مؤكدًا على جانب الدعاية فى هذا المجال، وسائلها وأثرها وانعكاس ذلك على الناخب، وقد كانت الانتخابات الأمريكية الحالية محور الحديث. ولم يفت الأستاذ هيكل أن يذهب إلى أبعد من ذلك ليفصّل فى الناحية الشكلية التى تتعلق بمظهر المرشح وفريق التجميل الذى يرافقه بما فى ذلك المساحيق اللازمة، وقد ضرب مثلاً بحالة المرشح الجمهورى الجنرال دوايت ايزنهاور فى مطلع الخمسينيات وكذلك فقد تعرض إلى التطور التكنولوجى وأثره فى العملية الانتخابية.

ولكن أستاذنا الكبير ابتعد فى حديثه حول السياسة عن لعبة السياسة خاصة فى الانتخابات الأمريكية المشار إليها وبالتحديد فى ولاية فلوريدا التى تستوطن نسبة عالية من السكان اليهود خاصة فى تلك المقاطعات التى طلب فيها إعادة الفرز يدويًا.

لقد ابتعد الأستاذ هيكل عن الخوض فى الأسباب الرئيسية التى أدت إلى المأزق السياسى مدار البحث بكافة الأبعاد المحتملة، سواء تلك التى تتعلق بأطماع اليهود فى التحكم المباشر بالقوى المسئولة عن صنع القرار داخليًا أو سواء تلك المسئولة عن سياسة أمريكا الخارجية وبشكل خاص الصراع العربى الإسرائيلى والشرق أوسطية، وحتى نكون أكثر وضوحًا فلا نقصد بهذه الإشارة أن جورج بوش الجمهورى إذا قدر له أن يصبح سيد البيت الأبيض سيكون أقل سوءًا من منافسه آل جور الديمقراطى ولكن السر يكمن فى نائب الرئيس.

ومهما يكن من أمر فإن أهم ما يلفت النظر فى حديث الأستاذ هيكل هو قناعته بأن سبب الأزمة الانتخابية هو عدم لياقة أى من المتنافسين لكسب المعركة حيث قال «ان أحد الرجلين تنقصه الجاذبية والثانى ينقصه الذكاء» وطبعًا المقصود بالرجلين «جورج بوش وآل جور».

نعم قد يكون فى ذلك شىء من الصحة ولكن فإن جولة حول السير الذاتية وكفاءات الرؤساء السالفين للبيت الأبيض توضح لنا ضعف العديد منهم لحد «الخرف» ومع ذلك تم انتخابهم، حتى رونالد ريجان الذى ورد ذكره فى مقال الأستاذ هيكل لم يكن من الاطلاع والذكاء الذى يؤهله لمحاورة جورباتشوف فى لقاءاتهما لولا فريق العمل الذى كان يرافقه والسيناريوهات التى كانوا يعدونها له على أشرطة فيديو، ليتدرب عليها وذلك على عكس ما قاله الأستاذ هيكل بأنه أدى دوره بامتياز.

على أية حال أرجو أن يتسع صدر الأستاذ هيكل لهذه التساؤلات:

ـ أفلا يعتقد أستاذنا أن مقالاً كهذا وفى هذا الوقت بالذات يفترض أن يتعرض للإشكالية المفتعلة التى اختلقها الفريق الديمقراطى فى فلوريدا أملاً فى فرض آل جور؟

ـ وهل يعتقد الأستاذ هيكل أن ما حدث فى ولاية فلوريدا هو محض صدفة فقط لأن أيًا من المرشحين لم يحظ بأغلبية تؤهله لكسب المعركة؟ وبقدرة قادر أسند قرار تعيين رئيس للبيت الأبيض إلى المحاكم؟ وهل لو كان آل جور صاحب السبق الأول فى الفوز وهناه بوش لحصل ما حصل؟

ـ أفلا يعتقد الأستاذ هيكل أن اختيار «ليبرمان» نائبًا للمرشح الديمقراطى كان فيه دلالات واضحة على خطة مدبرة تستهدف تحقيق الكثير (لشعب الله المختار!) ؟

ـ أفلا يعتقد الأستاذ هيكل أن طموحات اليهود بقيادة الحركة الصهيونية من حكم العالم وبشكل مباشر من موقع القوة كانت السبب الرئيسى فى معركة فلوريدا؟

ـ لماذا كان الدستور الأمريكى وعلى امتداد ما ينوف على المائتى عام قادرًا على تغطية عملية الانتخابات الرئاسية بكافة تفاصيلها وقد قصر فقط عندما أصبح يفصل اليهود عن حكم العالم مجرد نبضة قلب؟

د. خليل حمدى
علوم سياسية / الأردن

العلاقة بين القارئ والكتاب فى العالم العربى

فى عدد نوفمبر، ٢٠٠٠ من «الكتب.. وجهات نظر»، قرأنا مقالاً ممتعًا ومؤلمًا فى نفس الوقت حول «أزمة الإنسان والكتاب فى العالم العربى» للأستاذ قاسم عبده قاسم.. وفى الحقيقة فقد أفزعنى المقال وجعلنى أقف بانتباه وتساؤل أمام العديد من الفقرات والحقائق التى جاءت به وكان من أهمها «الفقرة التى يقول فيها الأستاذ قاسم عبده قاسم بالنص:

بيد أن هناك بعدًا آخر يمكن أن يساعدنا على تفسير أزمة العلاقة بين الإنسان والكتاب فى العالم العربى.. فعلى الرغم من كثرة عدد السكان النسبى وعلى الرغم من أن نصفهم على أقل تقدير قد أفلتوا من براثن الأمية.. فإن أوسع الكتب انتشارًا فى العالم العربى لا تطبع منه سوى عدة آلاف قليلة لا تتناسب مع عدد الملايين القارئة فى البلاد العربية، وإذا ما استثنينا الكتب الدراسية فإن توزيع الكتاب فى العالم العربى يعانى أزمة حقيقية على الرغم من كثرة عدد المعارض وأسواق الكتب.

واسمح لى أن أقول بعض الحقائق المفزعة.. هل تتصور مثلاً أن أخطر كتاب سياسى فى مصر لا يوزع سوى ١٠ آلاف نسخة فقط وديوان الشعر فى مصر الذى يحمل على غلافه أسماء كبيرة لو تم توزيع ٢٠٠٠ أو ٣٠٠٠ نسخة تعد هذه معجزة!!!

ونصمت قليلاً ونقول: ما هذا؟! وما ذاك؟!

هل هذه هى الحقيقة فعلاً بكل ما تحمله من معان؟ وإذا كانت هذه بالفعل هى حقيقة توزيع الكتاب فى مصر فمن المسئول عن هذه الكارثة.. الكاتب أم القارئ أم الناشر؟!

من من هؤلاء على وجه التحديد؟ وإلى متى سنصمت أمام هذه الحقائق المخجلة والمفزعة فى آن واحد؟! إلى متى سنقف مكتوفى الأيدى أمام تخلف مجتمع تخطى عدد سكانه الـ ٦٥ مليونا، ولم يتجاوز توزيع أشهر كتاب فيه حاجز الـ ١٠٠٠٠ نسخة فقط.

... فى الواقع أنا ألوم الجميع، وأتوجه بأسئلتى واندهاشى إليهم جميعًا كتابا وقراء وناشرين بصفتى شابا مصريا أولاً، وقارئا مهتما متألما ثانيًا.

فأزمة توزيع الكتاب فى العالم العربى وفى مصر على وجه التحديد ـ من وجهة نظرى ـ مسئولية الكاتب الذى لم يستطع أن يكتب موضوعًا حيويًا يجذب قارئه ويحس معه أنه يقرأ فصولاً مثيرة من قصة حياته ـ القارئ «التى هى قصة حياة الجميع» تحتاج إلى إعادة نظر، وإعادة تفكير ليصل إلى حل لمشكلته وقضيته ويستطيع بهذا الكتاب وذاك أن يتغلب على مشكلته سواء كانت اجتماعية أم اقتصادية أو سياسية أو حتى عاطفية ويصحح من رؤيته للحياة والبشر.

ومسئولية القارئ سواء كان أبا أو أمًا أو شابا، لأنه لم يدرك أن الحياة ليست طعاما أو شرابا أو تسلية تلفزيونية وسينمائية فقط، ولكن متابعة فكرية وثقافية أيضًا تخرجه يومًا بعد يوم من حيز التفكير الخاطئ والمعتقدات المغلوطة للحياة المتحضرة. وتضع له حلولاً كثيرة لمشاكل اقتصادية وأسرية وعاطفية وسياسية تقابله وتضغط عليه، ولا يجد من حل أو فرار، فالقراءة غذاء للروح والجسد والعقل وبها نستطيع أن ننجو من براثن الفقر ونحتل مع الأيام القادمة مكانًا متميزًا بين الأمم المتحضرة.

وللأسف الشديد، فإن آخر إحصاء صادر عن البنك الدولى صرح مباشرة بأن نحو أكثر من ٣٣٪ من سكان مصر يعيشون تحت خط الفقر ومستوى الدخل العام للفرد منخفض بصفة عامة، ولذا فقد غالى فى سعر كتابه إلى الحد الذى لم يعد معقولاً على الإطلاق، فرأينا فى السنوات الأخيرة أسعار الكثير من الكتب وقد تخطت حاجز الـ ٣٠ والأربعين والـ ٥٠ جنيهًا للكتاب الواحد، فهل هذا معقول؟ ولن نتكلم عن الموسوعات حتى لا تصد نفس الناس أكثر مما هى مصدودة بالفعل عن الكتاب ويكفى أن نقول إن ثمن موسوعة واحدة تخطى الـ ١٥٠٠ جنيه؟!

وإذا كنا نرى أن هناك العديد من الدوافع التى دفعت الناشر إلى رفع ثمن الكتاب مثل ارتفاع سعر الورق بشكل عام من ناحية، وأسعار آلات الطبع من ناحية أخرى، فيجب ألا يكون أيضًا إلى هذا الحد ولنتذكر تصريح د سمير سرحان عن توزيع كتب مكتبة الأسرة والتى يباع منها الكتاب بجنيهين وثلاثة الذى يقول فيه «الناشر دائمًا كسبان، ونحن نبيع بجنيه واحد ونكسب أيضًا». بالتأكيد هناك فروق واضحة بين جودة كتاب لـ مكتبة الأسرة وكتاب آخر لإحدى دور النشر الخاصة، ولكن لا يمنعنا هذا أيضًا من المطالبة ثانية بخفض ثمن الكتاب قليلاً مع الحفاظ فى نفس الوقت على نسبة الربح المواكبة لارتفاع ثمن الورق. أيضًا من بين أسباب أزمة الكتاب، مشكلة التوزيع وهنا تقع المسئولية بشكل مباشر على الناشر الذى لم يعلن عن كتابه بالشكل الأمثل فى كافة وسائل الإعلام واكتفى ببضعة مربعات إعلانية صغيرة فى أسفل صفحات جريدتى الأهرام، والأخبار.

** وإلى الأستاذ إبراهيم المعلم رئيس اتحاد الناشرين العرب، أتوجه برجاء خاص وأظنه جماهيريا أيضًا، بطلب «كتابة تقرير واف، وتحقيق كامل عن حقائق توزيع الكتاب فى مصر من الكتاب الصحفى، إلى الرواية والديوان والموسوعة، وكذلك طلب مقارنة بين توزيع كتب أساتذة الخمسينيات والستينيات وما قبلهم مثل توزيع كتب أ. محمد حسنين هيكل وروايات الأساتذة نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس ويوسف إدريس ويوسف السباعى وغيرهم من العمالقة، وبين توزيعات كتب الكتاب والروائيين الحاليين، لتنتهى المبالغة من حياتنا ومن خلال تصريحات وحوارات الكثير من الكتاب أنفسهم، ونكف عن بيع الأوهام.

و نهاية.. نتوجه وللمرة الثانية إلى الأستاذ إبراهيم المعلم بطلب الكتابة والتوضيح، وكل التقدير للأستاذ قاسم عبده قاسم ومقالة «أزمة الإنسان والكتاب فى العالم العربى» الذى أثار القضية.

وكل الشكر والعرفان.. لمجلتنا المحترمة «الكتب.. وجهات نظر» ورئاسة تحريرها، لإتاحة الفرصة لنا ـ نحن الشباب ـ كى نعبر عن آلامنا وطموحاتنا بحرية.. وعلنية واضحة للجميع.

إبراهيم شعبان مصطفى
بكالوريوس التربية
جامعة المنوفية

اللوحات الاستشراقية

كعادتها طالعتنا مجلة «وجهات نظر» في عدد ديسمبر بالعديد من المقالات القيمة في مناخ ثقافية وسياسية وفكرية شتى. وكعادتها، فقد زودت غالبية تلك المقالات برسومات معبرة وملاحة، تختزل منها نقاطًا مهمة أو تضخم فيها نقدًا، ما عدا مقال الأستاذ قاسم عبده قاسم عن الصور التاريخية المصرية لشهر رمضان الذى استخدم عددًا كبيرًا من اللوحات الاستشراقية مما يستوجب التعليق على أكثر من صعيد. فبالإضافة لعدم التوافق التاريخى بين تلك اللوحات التى تعود للقرن التاسع عشر ووصف القاهرة الفاطمية أو المملوكية التى يستخدمها الأستاذ قاسم، وعدم مواءمة مواضيع تلك اللوحات للصور الرمضانية (كحالة منظر الحريم)، فهناك - برأيي - مشكلة أعمق بحاجة ملحة لأن تطرح على بساط البحث النقدى في عالمنا العربى. حيث يحظى الفن الاستشراقى بإقبال منقطع النظير من قبل مقتنى الفن الأثرياء فى مزادات «كريستى» و«سوذبى» وغيرهما مما دفع بأسعاره إلى مستويات لا تبررها إطلاقًا قيمته الفنية أو التمثيلية.

فهذه اللوحات الاستشراقية، التى تدعى تمثيل مناظر حقيقية من الحياة اليومية للقاهريين فى بيوتهم وأزقتهم وكتاتيبهم وجوامعهم وأسواقهم، على واقعيتها الظاهرية وعلى دغدغتها لإحساسنا بالتواصل التاريخى بيننا وبين ماض نحن إليه، لا تمثل بحقيقة الأمر «شرقنا» نحن. إنها حتى لا تمثل شرقًا حقيقيًا، بل تخلق عبر أساليب الصنعة صورًا «واقعية» للشرق المتخيل، ثم تثبت هذه «الحقيقة الواقعية» من خلال إنتاجها فنيًا على سطح اللوحة نفسها، وهى بواقع الأمر تعطينا صورًا مصنوعة، ومركبة، ومسيسة، ومبنية على تراث الاستشراق الطويل والمفعم بالتناقضات فى بلادنا. والاستشراق كما بين إدوارد سعيد فى كتابه الرائد، «نظام منهجى تمكنت الحضارة الأوروبية عبره من دراسة وتصنيف وحتى إنتاج الشرق سياسيًا واجتماعيًا وعقائديًا وعلميًا وحتى خياليًا فى فترة ما بعد عصر التنوير».

والحال أنه لا يمكننا فهم الاستشراق - والفن الاستشراقى بمدارسه المختلفة من رومانتيكية وغرائبية وواقعية كجزء من الاستشراق - بمعزل عن المشروع الأوروبى الأكبر والأهم، أى الاستعمار، الذى تبنى الاستشراق ووجه خطاه واستفاد منه فى توسعه وسيطرته على الشعوب الشرقية وغيرها. وقد ساير معظم الفن الاستشراقى المشروع الاستعمارى فى خطواته مصورًا ومبررًا ومؤججًا، ونادرًا ما كان ناقدًا أو مصححًا. والنتيجة أن الشرق نفسه قد اختفى تحت غلالة تمثيل تأويلى ذى امتدادات ثقافية بغيضة من تركيز على غرائبية الآخر الشرقى، إلى الجهل والخوف من الجار المسلم، والتمييز العنصرى ضد الشعوب داكنة البشرة، والشعور المفعم بالانتصار وبحق السيادة على الحضارات الأخرى، بالإضافة إلى المبررات الأخرى الأقل إشكالية مثل حب الاستطلاع والاستكشاف والمغامرة ورومانتيكية الروايات الشرقية المشهورة والحنين إلى ماض بسيط وأخلاقى والتخوف من الحداثة ومستحقاتها فى أوروبا نفسها.

وقد خطت الدراسات النقدية فى أوروبا والولايات المتحدة فى العقدين المنصرمين خطوات مهمة فى تحليل وتفكيك خطاب الاستشراق وتبيان خلفياته السياسية والثقافية المتعالية والمتراكمة. وعليه لا يمكننا اليوم استخدام اللوحات الاستشراقية بالبراءة التى استخدمتها بها مجلة وجهات نظر أو اقتناؤها - كما يفعل العديد من أثرياء العرب - على أنها صور فنية عابقة بتراثنا، من دون أن نعى دورها التاريخى الأساسى فى خدمة المشروع الاستشراقى والاستعمارى وفى تبريرهما وفى تمثيل نظرتهما للشرق الذى كان، وربما لم يزل، آخر مختلفًا ومرفوضًا، وموضوعًا للبحث والدراسة والتمثيل، ولقمة سائغة للاستغلال.

ناصر الرباط
أستاذ الأغا خان للعمارة الإسلامية
معهد ماساشوستس للتكنولوجيا

تنويه

أنا قارئ دائم لأعداد الظاهرة الثقافية «وجهات نظر»، وأرجو أن تستمر هذه المجلة الغراء على نفس المستوى الرفيع من حيث المادة المقدمة ومن حيث الكتاب العمالقة الذين يثرون الحياة الثقافية فى مصرنا الحبيبة.

وقد لاحظت فى العدد الأخير (يناير ٢٠٠١) ملاحظتين أرجو أن يتسع صدركم ووقتكم لقراءتهما:

أولاً: ذكر الأستاذ الكبير محمد حسنين هيكل فى صفحة ٥ من العدد المشار إليه أن سليم الثانى قد غزا مصر عبر الشام والثابت أن المقصود هو سليم الأول والذى حكم الدولة العثمانية خلال الفترة من ١٥١٢ حتى ١٥٢٠، وليس سليم الثانى والذى جلس على سدة الحكم خلال المدة من ١٥٦٦ حتى ١٥٧٤.

ثانيًا: الصورة المنشورة فى صفحة ٣٣ ذكر أعلاها (من الشمال أحمد ماهر باشا..... ١٩٤٧) والثابت أيضًا أن أحمد باشا ماهر قد جرى اغتياله سنة ١٩٤٥ لذا لزم التنويه.

وأخيرًا وليس آخرًا أرجو إبلاغ تقديرى لكل من ساهم فى إعداد هذه الظاهرة الثقافية.

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

د. أحمد التونسى

كتاب الزاوية

رسالة الغفران

٢ـ حديثه مع آدم

فإذا رأى قلة الفوائد لديهم، تركهم فى الشقاء السرمد، وعمد لمحله فى الجنان، فيلقى آدم ـ عليه السلام ـ فى الطريق، فيقول: «يا أبانا ـ صلى الله عليك، قد روى لنا عنك شعر منه قولك:

«نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقنا، وإليها نعود
والسعد لا يبقى لأصحابه والنحس تمحوه ليالى السعود»

فيقول: «إن هذا القول حق، وما نطقه إلا بعض الحكماء، ولكنى لا أسمع به حتى الساعة». فيقول: «فلعلك يا أبانا قلته ثم نسيت؟ فقد علمت أن النسيان متسرع إليك، وحسبك شهيداً على ذلك، الآية المتلوة فى قرآن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما﴾ وقد زعم بعض العلماء أنك سميت إنسانًا لنسيانك واحتج (أتى بالحجة) على ذلك بقولهم فى التصغير «أنيسان»، وفى الجمع ناس. «وقد روى أن الإنسان من النسيان عن ابن عباس»، وقال الطائى:

لا تنسين تلك العهود، وإنما سميت إنسانًا لأنى ناسى

فيقول آدم ـ صلى الله عليه وسلم ـ «أبيتم إلا عقوقًا وأذية؟ إنما كنت أتكلم العربية، وأنا فى الجنة، فلما هبطت الأرض نقل لسانى إلى السريانية فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت، فلما ردنى الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى الجنة عادت على العربية، فأى حين نظمت هذا الشعر، فى العاجلة أم الآجلة، والذى قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو فى الدار الماكرة، ألا ترى قوله «منها خلقنا وإليها نعود؟» فكيف أقول هذا المقال ولسانى سريانى؟

عروض موجزة

كتب عربية

الهولوكوست بين الإنكار والتأكيد

رمسيس عوض

القاهرة: دار الهلال ٢٠٠٠، ٢٢٠ صفحة

٥ جنيهات



يعرض هذا الكتاب باستفاضة لثلاثة كتب حديثة، تدور جميعها حول المعرفة النازية «الهولوكوست» وهي الحدث الذى تمكن اليهود من استثماره دعائيًا وماديًا، وحصدوا بموجبه مئات المليارات من الدولارات، بزعم تكفير «العالم» عن جريمته في حق اليهود، فالألمان دفعوا ومازالوا يدفعون. وكذلك عديد من دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، أما التعويض الفادح الذى تلقوه، فهو توطينهم في أرض عربية بالقوة، ودعمهم ماديًا ومعنويًا كي يظلوا فيها بصرف النظر عن أية اعتبارات جغرافية أو إنسانية أو تاريخية.

والكتب الثلاثة تتباين في موقفها من «الهولوكوست». فالكتاب الأول وهو من تأليف الكاتب اليهودى نورمان فلنكشتين «صناعة الهولوكوست» لا ينكره، وكذلك يفعل كتاب اليهودية ديبوراه ليبستادت «إنكار الهولوكوست». أما الكتاب الثالث فيتعرض للحكم الذى صدر ضد الكاتب والمؤرخ البريطاني «دافيد إرفنج»، وهومن أبرز المفكرين للهولوكوست.

لقد حوَّل اليهود - كما يتضح من الكتب الثلاثة - الهولوكوست إلى تجارة، أو نموذج تحيزى للابتزاز. فسويسرا مثلاً التى لا علاقة لها بما جرى لليهود على أيدى النازى، اضطرت إلى الاعتذار رسميًا لليهود بواسطة رئيسها عام ١٩٩٥، أى بعد نصف قرن من نهاية الحرب العالمية الثانية، لأنها لم تفتح أبوابها لليهود الفارين من الاضطهاد النازى، وحين فعلت ذلك، تمادت المنظمات اليهودية وطالبت سويسرا بتسديد مئات الملايين من الدولارات، زعمت أن اليهود كانوا يحتفظون بها في البنوك السويسرية في صورة ودائع نقدية وذهبية، وتم تشكيل لجنة لبحث مظالم اليهود، لكن التشهير اليهودى بسويسرا وبنوكها لم يتوقف بزعم احتياج ضحايا الهولوكوست إلى تعويضات عاجلة، وتحت هذا الضغط المكثف والمنظم، اضطرت البنوك السويسرية في فبراير ١٩٩٧ إلى تخصيص مبلغ ٢٠٠ مليار دولار لتعويض الضحايا بشكل عاجل، ومع ذلك لم تسلم بنوك سويسرا من الضغط اليهودى، الذى أجبر عشرات المؤسسات والبنوك في أمريكا والغرب، على سحب ودائعها من البنوك السويسرية.

وما جرى في سويسرا، جرى في دول أوروبا جميعها وأمريكا، ومازال، وربما أراد اليهود بما فعلوه مؤخرًا مع المؤرخ البريطاني «إرفنج» ومن قبله المفكر الفرنسي «روجيه جارودى» أن يؤكدوا لكل من تسول له نفسه تكذيب الهولوكوست أو حتى التقليل من شأن ما جرى فيه، أنه سيلقى مصير الاثنين باعتبارهما «من أنصار هتلر الذين يضعون على عيونهم العصابات ولا يرون الحقائق». لقد تجرأ «إرفنج» وزعم أن هتلر عامل اليهود بشكل إنساني، وأنه أصدر أوامره بوقف الهجوم عليهم أو نهب ممتلكاتهم، وتجرأ جارودى وقال أن ما لاقاه اليهود على يد النازى لاقى مثله وأكثر منه البولنديون والفرنسيون والتشيك وغيرهم، فحوكم الاثنان بمقتضى قوانين أوروبية تحرِّم التشكيك في المحرقة أو حتى تنقض وقائعها، وتعرضوا للتشهير و«السحل» المعنوى، كي يظلوا دائمًا عبرة للآخرين، اليوم، وفي المستقبل.

□ □ □

الوفاء والغدر عند النساء والرجال

خازن عبود

بيروت: دار الكتب الحديثة ٢٠٠٠، ١٤٢ صفحة



قيل «أوفى من فكيهة»، وفكيهة هى امرأة من بني قيس بن ثعلبة كان وفاؤها مضرب المثل، وقيل أيضًا أوفى من أم جميل، وأم جميل هى من رهط أبى هريرة من دوس، وقيل أوفى من السموءل بن عادياء، وكان من وفائه أن الشاعر امرء القيس بن حجر، لما أراد الخروج إلى قيصر ملك الروم استودع السموءل دروعًا، فلما مات امرؤ القيس، غزا ملك من ملوك الروم الشام، وأخذ الملك ابنًا للسموءل وصاح به: هذا ابنك في يدى وقد علمت أن امرء القيس أودع لديك الدروع، فإن أعطيتنيها عفوت عن ابنك وإلا ذبحته، فأجابه: أجِلْني، فأجَّله، وجمع السموءل أهل بيته وشاورهم، فأشاروا عليه بدفع الدروع لإنقاذ ابنه، فلما أصبح، قال لملك الروم: ليس إلى دفع الدروع سبيل أيها الملك فاصنع ما أنت صانع، فذبح الملك ابن السموءل، وأعاد السموءل الدروع إلى ورثة امرىء القيس، وقال في ذلك:

وفيت بأدرع الكندى إني
إذا ما خان أقوام وفيت

ومن أشهر الشعراء في الوفاء عنترة العبسي، الذى كان من أشهر فرسان العرب في الجاهلية، وقد عرف عنه حبه الشديد لابنة عمه عبلة، لكن سيرته وبطولته، جعلت كثيرات من النساء يهمن به، وقد التقته امرأة من بني كندة، وعرضت عليه أن يتزوجها وأن يقيم في ديارها سيدًا في قومها، فأجابها عنترة:

إن حُب عبلة ملك قلبي وشغافه

وأنشد في ذلك شعرًا يقول فيه:

لو كان قلبي معي ما اخترت غيْركُمُ
ولا رضيت سواكُم في الهوى بدلا
لكنه راغب في من يعذبُه
فليس يقبل لا لومًا ولا عزلا

وعن حبه لعبلة في معلقته الشهيرة:

ولقد ذكرتُكِ والرماح نواهلٌ
مَني وبيض الهند تقطرُ من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

عشرات من قصص الوفاء والغدر ونوادرها في التراث العربي يحتشد بها هذا المؤلف، الذى جمع صورًا منها عند الرجال والنساء.

□ □ □

مستقبل النفط العربي

حسين عبدالله

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية



يستهل الباحث كتابه بشرح مفصل لتطور أسعار النفط وتوزيع الريع النفطى معبرًا عنه بصافي ما يتحقق من البيع في أسواقه النهائية بعد استقطاع كافة التكاليف. ويوضح في الفصل الأول كيف أن توزيع هذا الريع بين الدول المصدرة للنفط وبين الدول المستوردة له كان ولايزال ينطوى على غبن بيِّن للحقوق المشروعة للدول المصدرة. كذلك يوضح كيف نجحت السياسات التى استخدمتها الدول الصناعية الغربية، بمساندة شركاتها البترولية العملاقة، في استعادة ما حققته الدول المصدرة للنفط، بفضل حرب أكتوبر، من مكاسب ومن حرية في إدارة صناعتها الأساسية.

ويشرح الفصل الثاني الاعتماد العالمي المتزايد على النفط العربي، موضحًا اتجاه الطلب العالمي على النفط إلى الارتفاع المطرد حتى عام ٢٠٢٠ وهو الإطار الزمني للمستقبل المنظور، ومبينًا اتجاه العرض العالمي للنفط إلى التركز في أيدى عدد محدود من الدول المصدرة وهى المجموعة العربية في الخليج مضافًا إليها إيران وفنزويلا، ومن ثم سيكون من السهل تنسيق سياسة الإنتاج والتصدير بما يحافظ على استقرار السوق العالمية للبترول وعلى القيمة الحقيقية للعوائد النفطية.

أما الفصل الثالث فيشرح الجوانب الدقيقة للطاقة النووية باعتبارها منافسًا للنفط، ويوضح تفوق النفط عليها اقتصاديًا وأيضًا من حيث عظم مخاطرها. ويتناول الفصل الرابع الغاز الطبيعي باعتباره وقود الغد، ويشرح تجارب الدول المستهلكة للغاز والآفاق المتوقعة لتجارته العالمية والدور الذى يمكن أن تلعبه الدول العربية في أسواقه العالمية.

وفي الفصل الخامس يتابع الباحث الحوار الدائر بين منتجي النفط ومستهلكيه، موضحًا قصور الحوار وإغفاله أهم المشاكل التى ينبغي أن يتناولها الحوار وهو سعر النفط وتوزيع الريع النفطي. وفي ختام القسم الأول يعرض الفصل السادس توقعات أسعار النفط خلال المستقبل المنظور ويفند حجج الذين يساندون استمرار تدني الأسعار. كذلك يوضح الباحث أن تلك الأسعار لم تتجاوز خلال عقد التسعينيات ٤ دولارات للبرميل بدولارات عام ١٩٧٣ وأن السعر العادل لا يجب أن يقل عن ٣٢ دولارًا، ويشرح مبرراته، متوقعًا ارتفاع السعر بمعدل ٥٪ سنويًا على الأقل خلال المستقبل المنظور حفاظًا على قيمته الحقيقية.

وفي القسم الثاني من الكتاب يشرح الباحث في الفصل السابع المبادىء الأساسية لاتفاقيات جات بعد جولة أوروجواى، لكى يتحول في الفصل الثامن إلى مناقشة القيود التى تفرضها تلك الأحكام على تصدير النفط واتهام جات لمنظمة أوبك بأنها تكتل احتكارى يستهدف رفع أسعار النفط فوق معدلها الطبيعي بالمخالفة لأحكام جات. ويشرح الفصل التاسع العوائق التى تعرقل تدفق النفط ومنتجاته إلى أسواق الدول الصناعية ممثلة في الضرائب التى تفرضها تلك الدول على استهلاكه في أسواقها المحلية.

أما الفصلان العاشر والحادى عشر فيعرضان للآثار المنعكسة على صناعة النفط نتيجة لعدد من الاتفاقيات الفرعية والمستحدثة في إطار جات، ومن أمثلتها الاتفاقية العامة للتجارة في الخدمات، والتدابير التعويضية للدعم أو الإعانة، ومكافحة الإغراق، والعوائق الفنية للتجارة، والاتحادات الجمركية ومناطق التجارة الحرة، وتدابير الاستثمار المرتبطة بالتجارة.

وأما القسم الثالث من الكتاب فيتناول

عــــــروض
مــــوجــــزة

آثار البيئة على صادرات وعوائد النفط بدءًا بشرح ارتباط الطاقة بالمبتعثات الكربونية، والجهود الدولية التى تبذل لتخفيف الآثار الضارة لتلك المبتعثات.

□ □ □

يهود مصر منذ عصر الفراعنة حتى عام ٢٠٠٠

عرفة عبده على

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠، ٥٢٠ صفحة، ٥٧٥ قرشًا



لم تعرف الجماعات اليهودية التى عاشت فى محيط ثقافى عربى إسلامى ظاهرة الجيتو التى عرفتها فى أوروبا قسرًا».

كان يهود الحضارة الإسلامية مندمجين فى هذه الحضارة لغويًا وفكريًا وسياسيًا واجتماعيًا. وبرغم المبالغات التى يسبغها اليهود على ما تعرضوا له فى ألمانيا النازية، واستثمارهم الدعائى للمحرقة «الهولوكوست»، فإن ذلك يثبت من ناحية ثانية، أن اليهود عاشوا فى أمان فى إطار المحيط العربى الإسلامى.

يركز الكتاب أساسًا على يهود مصر، الذين تعود علاقتهم بها إلى أزمنة نزول أولاد يعقوب فيها، وبقاء بعضهم فى منطقة الفيوم عقب خروج «موسى» منها.

وقد أثبت المؤرخون - كما يشير المؤلف - أن طائفة يهودية وجدت فى مصر فى القرن السادس قبل الميلاد، وقد استقر بعضهم فى مدن الدلتا، واستقر بعض آخر فى جزيرة «إليفانتين» فى مصر العليا، وبعد فتح الإسكندر الأكبر لفلسطين عام ٣٢٢ق.م جاءت جماعة أخرى، وشجع بطليموس الأول اليهود على الاستقرار بالإسكندرية، وبعد سقوط القدس فى يد «تيتوس» عام ٦٦م، أرسل آلافًا من الأسرى اليهود إلى مصر، وتعرضوا لتقلبات عديدة، حتى كان الفتح العربى لمصر، فتحسنت أوضاعهم، وازدهرت أحوال الطوائف عمومًا وفقًا للتعاليم الإسلامية التى أوصت المسلمين خيرًا بأهل الكتاب، وانتقل كثير من اليهود إلى الفسطاط التى صارت عاصمة لمصر، وصارت أيضًا مركزًا روحيًا كبيرًا لهم.

لم يعش يهود مصر داخل جيتو، ولم يعتبرهم المجتمع جالية أجنبية، واعتنق كثير من المصريين الديانة اليهودية، وفى عصر الدولة الفاطمية والأيوبية وعصر سلاطين المماليك، عاش يهود مصر ازدهارًا اقتصاديًا وثقافيًا واجتماعيًا مماثلاً لما شهدته الطوائف اليهودية حتى الأندلس والمغرب العربى، تحت ظلال الحكم الإسلامى.

وحين فتح العثمانيون مصر عام ١٥١٧، حافظ النظام الملى على حقوق والتزامات اليهود، وتحقق لهم نوع من الاستقلال الدينى والإدارى، واستفادوا من تشجيع محمد على وأسرته للجاليات الأجنبية، فاثروا كثيرًا من أعمال التجارة والمال والسمسرة، وتولى كثير منهم وظائف عليا فى الدولة، وشيدوا لهم مدارس ومعابد ومستشفيات، وأصدروا صحفًا ومجلات، لقد كان النصف الأول من هذا القرن - كما يؤكد المؤلف - عصرًا ذهبيًا لليهود، بعكس ادعاءات مؤرخيهم المعاصرين، التى يدحضها المؤلف فى هذا الكتاب الضخم الذى يتتبع حياتهم فى مصر منذ عصر الفراعنة وحتى اليوم.

□ □ □

ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق

يوسف القرضاوى

القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٠، ١٠٠ صفحة



يعرض الكتاب للمسألة الثقافية من وجهة نظر إسلامية، وهذه المسألة كانت دائمًا محور جدل ومحل نقاش بين الجماعة الثقافية منذ بدايات النهضة وحتى اليوم، وفى إطار بحث المسألة تشعبت التساؤلات عن معنى الثقافة لدينا، وما هى الثقافة المعبرة عنا حقًا، أهى عربية إسلامية أم إحداهما، وما هى حدود الأخذ والرد من الثقافات الأخرى، وكيف لنا أن نأخذ وندع، دون أن يؤثر ذلك على هويتنا الثقافية والحضارية من ناحية، ودون أن يعزلنا عن العالم من ناحية ثانية.

يحدد المؤلف عددًا من الخصائص لثقافتنا التى يرى أنها عربية إسلامية، فهذه

صناعة الخبر في كواليس الصحف الأمريكية

جون ماكسويل هاملتون و جورج أ. كريمسكى

ترجمة: أحمد محمود

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٢٠٦ صفحة



لم تكن الصحافة يومًا، ولا يجب أن تكون فرعًا في جمعية ماسونية تحيط نفسها بالسرية والغموض لأن ذلك مناف لطبيعتها على طول الخط. وإذا كانت الصحافة، بشكل عام، لا تمل من مطالبة الحكومات والمؤسسات بالشفافية والوضوح فإنها مطالبة هى الأخرى بذلك أمام القارئ.

وفى عالم تطورت فيه وسائل الاتصال بشكل مذهل فإن المسافات الشاسعة التى كانت تفصل بين الصحافة وقارئها يجب أن تتلاشى حتى يحرص هذا القارئ على صحيفته مهما كانت الإغراءات الأخرى، وحتى يمكن للصحافة التى تقدم على ورق أن تعيش في عصر أصبحت فيه حياتها موضوع تساؤل حتى لا نقول شك.

وفى هذا الكتاب الذى ترجمه إلى العربية الزميل أحمد محمود، يقدم المؤلفان، وهما صحفيان أمريكيان جمعا بين العمل الميدانى والأكاديمى، منظورًا ثريًا زاخرًا بحقائق التحليل والتأويل والفهم لما يجرى وفى كواليس الصحف الأمريكية، كبرياتها وصغرياتها، ويعتقد المؤلفان أن هناك حاجة حقيقية لأن يعرف القراء قواعد اللعبة الصحفية، أى معايير الصحافة وأسلوبها وبنيتها، وكذلك كيفية كتابة الأخبار والسبب في كتابتها.

ومن خلال ثمانية فصول ممتعة يجوب الكتاب عالم الصحافة مبادئ وصناعة وعلاقة بمن هم خارجها دون أن يفتقد القارئ عناصر المتعة والإثارة والإبهار التى تلازمه من بداية الكتاب حتى آخره، وبذلك يقدم المؤلفان دليلاً عمليًا على أن الكتابة يمكن أن تكون جادة وثرية بالحقائق والمعلومات دون أن تفقد المتعة التى بدونها لن تجد القارئ عند منتصف الطريق أو حتى قبل ذلك.

إذا قالت أمك إنها تحبك، عليك بالتأكد من صحة قولها.. تلك مقولة صحفية أمريكية ربما لا تنم عن الاحترام، لكنها تؤكد ضرورة تعامل الصحفيين مع الحقائق وليس المشاعر، فلا يجب على الصحفى أن يصدق كل شيء، بل عليه أن يبحث عن الحقائق، وعليه أن يكون مستقلاً عن أى مؤسسة أو أى قضية، فالصحفى بشكل عام ليس مجاهدًا، وباستثناء الصحافة التى نذرت نفسها للدفاع عن قضية معينة والترويج لها، فإن المطلوب من الصحفى أن يعرض كل الحقائق دون أن يخفى شيئًا.

ومن المبادئ إلي البيزنس.. فالصحافة عمل تجارى ربحيته عالية، لكن ذلك لا يعنى أن عيون المحررين والمخبرين الصحفيين تكون علي المكسب والخسارة، بل يشير الكتاب إلى أن الصحفى عليه أن يدرك أنه يعمل في بيئة تنافسية لا مكان فيها سوى لأصحاب الامكانات المالية الضخمة والذين يحاولون باستمرار زيادة نسبة التوزيع والإعلانات. وقد هبط عدد الصحف اليومية الأمريكية هبوطًا مطردًا، ففى عام ١٩٩٥ كان هناك صحيفة يومية في حين كان عددها ١٧٧٢ في عام ١٩٥٠، وفي وسط هذا الجو شاعت عبارة.. أعرف أن الصحفى يكتب تلك القصة الخبرية لكى يبيع صحيفته.. ورغم أن ما سبق ليس حقيقة مسلم بها لأن الصحفى لا يفكر في بيع الصحيفة وهو جالس علي مكتبه يكتب قصته، لكن الصحف في أحيان كثيرة تقوم بتشكيل مضمون الأخبار لترضى المعلنين، وحرصًا منها عليهم فإنها قد لا تنشر مثلاً خبرًا عن سقوط إحدى الطائرات في صفحة بها إعلان لشركة خطوط جوية.

وإضافة إلي الحديث بشكل شبه تفصيلى عن كتابة القصص الخبرية وكيفية نشرها ولماذا يأخذ خبر ما طريقه لأعلى الصفحة الأولى بينما يتم إرسال خبر آخر إلى «ظلمات» صفحة داخلية، يتحدث الكتاب عن الصحفي في موقع الحدث وكيف يأخذ زاوية ما ويترك الأخرى، ثم يعرج علي أولويات الصحف الأمريكية في الاهتمام بالأخبار، وبالطبع تفوز الأخبار المحلية علي حساب الخارجية. ثم إن هناك أخبار كثيرة جديرة بالاهتمام، ولكن حينما لا يوجد صحفيون لن تكون هناك أخبار من الحكمة القديمة تقول.. هل تحدث الشجرة ضجة عند سقوطها ما لم يسمعها أحد!

لا يكتفى المؤلفان بذلك، بل يتحدثان عن الصحفيين أنفسهم وانتماءاتهم الاجتماعية ولماذا هم مصلحون وليسوا ثوارًا.. إنهم حسب سياسى أمريكى ملوك السلبية الثرثارون، كما يتناولان علاقة الجمهور بالصحافة سواء كان هذا الجمهور موضوعًا للقصة الخبرية أو مرسلاً لرسالة يبدى فيه رأيه في قضية ما. ويثير الكتاب قضايا كثيرة تستحق النقاش والدراسة في الصحافة العربية، وهو مفيد للقارئ العادى ولطلاب الصحافة وقبل كل ذلك للصحفيين أنفسهم الذين هم في حاجة للتعرف علي تجارب أخرى متقدمة أكثر خبرة.

عبد الله عبد السلام

عروض موجزة

الثقافة ربانية، امتزجت بها فكرة الإيمان والتوحد. وهي اخلاقية. وهذه سمة لازمتها منذ الجاهلية وجاء الإسلام لتعميقها، حين لم يعترف بأن الغاية تبرر الوسيلة، بل دعا إلى الوسائل الشريفة.. فالله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا.

وهي إنسانية تحترم الإنسان وترعى فطرته.. «ولقد كرّمنا بني آدم». وهي عالمية غير متعصبة أو منغلقة على نفسها.. «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين». وهي بهذا المعنى متسامحة ومتنوعة، وفيها كما يقول المؤلف سلفية ابن تيمية وصوفية ابن عربي وظاهرية ابن حزم ومقاصدية الشاطبي وعقلانية الفلاسفة والتزام الفقهاء واجتهاد المجددين وتزمت المقلدين.

وهي ثقافة ترحب بالحوار.. «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن». كما أنها تؤمن بالتجديد، سواء كان هذا التجديد في الدين أو في الحياة. يقول الرسول الكريم: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها». وهو تجديد يبقى على الجوهر ويجتهد من داخل مقاصد الشريعة وروحها. ويميز المؤلف في قضية الحوار والتنوير، بين ثلاثة مفاهيم: التفاعل الثقافي والنقل الثقافي والغزو الثقافي. والأول لابد أن يكون متكافئًا. أما الثاني فتلقين دون اختيار أو تفكير. وأما الثالث فهدفه سياسي يتخفى في ثياب ثقافية مبهرة. وعليه يرى المؤلف أن التفاعل بين الثقافات هو أرقى درجات الحوار بين الحضارات الإنسانية. وهو ما حرصت عليه دومًا الثقافة والحضارات الإسلامية، التي شهدت جدلاً فكريًا بين اثنين من أقطابها، الإمام أبو حامد الغزالي، وابن رشد. الأول كان فقيهًا ورفض كثيرًا مما قال به المتفلسفون، والثاني انتصر للفلاسفة وخصوصًا أرسطو. وقد أفاد تراث الإسلام من الاثنين على اختلافهما. فثقافة الإسلام وحضارته قبلت دومًا التنوع في إطار الوحدة كما عبر أحد الفقهاء.

□ □ □

المتخيل والسلطة

علال سنقوقة

الجزائر: منشورات الاختلاف ٢٠٠٠،

٢٩١ صفحة، ٢٠٠ دينار



يلاحظ المؤلف أن الإلغاء والعنف المعنوي والمادي والتشويه المتعمد لمرجعية الآخر، قد سيطر على النصوص الروائية الجزائرية، خصوصًا تلك ذات المنزع الثوري التي بسطت قضية الثورة أيديولوجيًا وجماليًا، مما أدى إلى سيادة الطابع المعرفي التبسيطي للايديولوجيات على النصوص.

ويرى أن الخطاب الأيديولوجي السياسي كان أكثر بروزًا من الروايات الواقعية النقدية والاشتراكية، حتى أنه طغى على البناء الفني. ويشير في هذا الإطار إلى روايات مرزاق بقطاش «البزاة» و«طيور في الظهيرة» وكذلك إلى رواية الطاهر وطار «اللاز» التي اعتبرها دليلاً على هيمنة الأيديولوجيات (الماركسية في هذه الحالة) على المتن الروائي.

وهكذا، عبر هذه النماذج وغيرها، يرى المؤلف أن النص تحوّل إلى مجرد وعاء يستوعب الأفكار السياسية التي تتزامن مع فعل الكتابة، لكنها أبعد من أن تستوعب رؤية فنية جديدة تخرجها من اللغة الروائية البسيطة.

وفيما بعد.. أي انقضاء مرحلة الثورية، خفت الخطاب الأيديولوجي السياسي إلى حد ما أو تنوع فلم يبق واحدًا، حضرت مرجعيات سياسية مختلفة، وبعد أن كانت الرؤية الماركسية والوطنية المحافظة هي المهيمنة على النصوص الروائية، ظهرت في الثمانينيات والتسعينيات، روايات تدعو إلى قيم الحرية والديمقراطية والحداثة، لكنها بقيت تمارس العنف والإلغاء، فضلاً عن أنها فنيًا ضعيفة وسطحية كباقياتها.

ويشير المؤلف إلى رواية أحلام مستغانمي «ذاكرة الجسد» التي يرى أنها بلغتها الشاعرية وأفكار شخوصها وقدراتها التعبيرية وأفقها المفتوح، انفلتت من أسر الخطابة والتقريرية والسطحية التي ميزت كتابات أدباء الثورة الجزائريين، وحين يعرض لرواية «الشمعة والدهاليز» للطاهر وطار، يراها لم تبعد كثيرًا عما كانت عليه «اللاز» برغم الفارق الزمني بين الروايتين، وإن كان في الأخيرة، يتضامن مع «عمار بن ياسر» زعيم التيار السلفي الذي يسعى لإقامة النظام الإسلامي في المجتمع، بعكس توجهاته الماركسية الرافضة للتيار السلفي في «اللاز».

يعرض المؤلف بالنقد والتحليل لأعمال أدباء آخرين مثل رواية «فاجعة الليلة السابعة بعد الألف» لواسيني الأعرج، بوصفها توظف التراث وتناقش إشكاليات السلطة العربية الإسلامية والأصالة والمعاصرة والأنا والآخر، والمقدس والحرية، وقد حاولت بذلك أن تكون تعبيرًا عن أزمة الإنسان العربي وأن تطرح بعض تساؤلاته بفنية بعيدة عن التقريرية المباشرة.

وإلى جانب ما تثيره دراسة المؤلف لهذه الأعمال من قضايا فنية، فقد سعى إلى اكتشاف التمايزات بين الواقعي والمتخيل في بعضها، خصوصًا أن عددًا من تلك الروايات أشار إلى شخوص بعينها وأحيانًا بأسمائها الحقيقية، وربما هذا هو سر تسميته الكتاب بـ«المتخيل والسلطة».

□ □ □

كتب أجنبية

The Open Door

(الباب المفتوح)

Latifa Al-Zayyat

Translated by Marilyn Booth

The American University in Cairo Press, 2000, £22.50, L.E 70.00



لم تكن الراحلة الدكتورة لطيفة الزيات مجرد أستاذة للأدب الإنجليزي بالجامعة، بل كانت مناضلة سياسية ومناصرة لحقوق المرأة، وأديبة، وقبل كل شيء رائدة تحلق حولها كثيرات وكثيرون وقدمت لهم نموذجًا لسيدة تجاوزت اهتماماتها حياتها الشخصية لتشمل الوطن وأبناءه.

ككل الشخصيات الموسوعية، كتبت لطيفة الزيات (١٩٢٣-١٩٩٦م) القصة، ومن أهم أعمالها «الباب المفتوح» الذي صدر للمرة الأولى باللغة العربية عام ١٩٦٠، واعتبر النقاد هذا العمل رائدًا آنذاك، فقد تناول فتاة من الطبقة الوسطى وتطرق إلى حياتها السياسية والجنسية في إطار الحركة الوطنية التي سبقت ثورة يوليو ١٩٥٢، وتتعقب القصة الضغوط التي تعرضت لها الفتاة، والتي يكاد يجمع كثير من النقاد علي أنها الكاتبة نفسها، في ذلك الوقت وكذلك أقرانها في تلك الفئة العمرية من الذكور والإناث نتيجة لمحاولة التخلص من سيطرة الأسرة وقيود المجتمع.

وتدور القصة حول الفتاة ليلى التي تشارك مع شقيقها في الأنشطة الطلابية السياسية في الأربعينيات وأوائل الخمسينيات والمقاومة الشعبية لاستمرار الاحتلال البريطاني لمصر، وتصل أحداث الرواية إلي الذروة عندما يعلن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عام ١٩٥٦ تاميم قناة السويس، الأمر الذي نتج عنه العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي علي مصر.

إن لطيفة الزيات في هذه القصة لم تكن جريئة فقط في تناول قضيتها، بل أيضًا في أسلوبها، فقد استخدمت اللغة العامية في الحوار، وقد أشاد كثير من الأدباء والنقاد، وعلي رأسهم نجيب محفوظ بالمؤلفة، وبالعمل الذي يعد من عيون القصة العربية في عصرنا الحالي.

□ □ □

In The Shadow of A Saint: A Son's Journey to Understand his Father's Legacy

(في ظل قديس.. رحلة ابن لفهم تراث والده)

Ken Wiwa

Doubleday, 2000, 216PP., £16.99



في عام ١٩٩٥، جرى تنفيذ حكم الإعدام في كين سارو ويوا نشيط حقوق الإنسان ورجل البيئة والمدافع عن الأقليات في نيجيريا.. كانت التهمة إن سارو ويوا قتل ٤ من زعماء قبيلة «أوجوني» ومن بينهم شقيق زوجته، لكن الحقيقة أنه لم يكن له يد في هذا القتل، وأن حاكم نيجيريا العسكري آنذاك ساني ابانشا كان راغبًا في إنهاء حياة سارو ويوا لأسباب عديدة بينها دفاعه عن حقوق قبيلة «أوجوني» ووقوفه كرجل مدافع عن البيئة ضد ما تقوم به شركة شل العالمية العملاقة من أعمال تشوه البيئة من أجل استكشاف البترول وإنتاجه، ولهذا كله كان المطلوب هو اسكات سارو ويوا.

ومؤلف هذا الكتاب هو ابن سارو ويوا الذي كان قبل سنوات غير مهتم بالمرة بنشاط والده حتى أنه يذكر تلقيه في خريف ١٩٩٤، رسالة من والده السجين آنذاك يقول له.. عزيزي الابن لم أسمع منك كلمة منذ شهور، والدك كين، وكان الابن آنذاك في لندن يحاول أن يتجاهل محنة والده التي تكاد تسيطر علي حياته هو، بل وتحدد مصيره، وهو أي الابن كان يرغب في أن يحدد مصيره بنفسه، لكن شبح والده ظل يتعقبه.

وعندما تم توجيه الاتهام عام ١٩٩٤ إلي الوالد، ترك الابن -٢٦ عامًا- وظيفته وكرس حياته لإنقاذ والده ومارس ضغوطًا علي السياسيين ورؤساء الدول للتدخل وكتب مقالات وأجرى مقابلات في سبيل ذلك، لكن الجنرال اباتشي لم يحرك ساكنًا، وجرى تنفيذ الإعدام بعد ذلك بعام، وفي هذا الكتاب يحاول الابن تناول حياته مع والده من خلال تتبع نشاط الأب منذ بدايات استقلال البلاد عن بريطانيا في الستينيات ودور الحكم العسكري في إحباط مسيرة البلاد مرات عديدة، والكتاب أيضًا يبدو كما لو كان أغنية مهداة إلي شعب أوجوني إطراء لكفاحهم، وهو يحكي قصتهم مع المعاناة في نيجيريا.

□ □ □

عروض موجزة

A child's Year of Stories and Poems

(عام قصص وقصائد الطفل)

Edited by John a Gard
Age 4-7
Puffin, 2000, £12.99



ما أفضل أن نحتفل بقدوم العام الجديد بأن نشتري كتابًا جميلاً ونهديه لأطفالنا. إن ذلك يعطي الطفل سعادة كبيرة وبشكل خاص إذا ما كان الكتاب معدًا بطريقة جذابة وجيدة وبسيطة في آن. وهذه المجموعة من القصص والأشعار تضم أعمالاً لمؤلفين مشهورين بجانب آخرين مغمورين. ومن خلال الرسوم التوضيحية يبدو الكتاب جديرًا بأن يكون هدية جيدة للأطفال. ورغم أن القصص الموجودة في الكتاب نشرت من قبل إلا أن الصور جديدة، وهي تعطي الإحساس بأن الكتاب أيضًا جديد. وقد تم اختيار الكلمات بعناية، لكي يستطيع الأطفال في هذه الفئة العمرية (٤-٧ سنوات) فهمها.

وقد اجتهدت محررة الكتاب في أن يتضمن أعمالاً قصصية إنجليزية للأطفال صدرت على فترات زمنية طويلة لكن تجمعها الرغبة في إمتاع الأطفال وإسعادهم وكذلك فتح عوالم جديدة أمامهم.

□ □ □

Salisbury: Victorian Titan

(سالزبوري: عملاق فيكتوري)

Andrew Roberts
Phoenix, 2000, £12.99



قبل أيام أحيا البريطانيون ذكرى مرور مائة عام على وفاة الملكة فيكتوريا التي حكمت الامبراطورية البريطانية في الفترة من ١٨٤٠ حتى ١٩٠١، وجعلتها امبراطورية لا تغيب عنها الشمس وتبارى الكتاب في ذكر محاسن ومساوئ هذه الفترة المهمة للغاية في التاريخ البريطاني.

(ومن بين رجالات هذا العهد لورد سالزبوري الذي تولى رئاسة الوزارة ٣ مرات. ويقول مؤلف الكتاب المؤرخ الشاب أندرو روبرتس إنه رغم تلك المدة الطويلة التي حكمها سالزبوري، ذلك السياسي المحافظ، فإن من النادر ذكره الآن، فقد توارى اسمه وراء عمالقة آخرين ظهروا في العصر الفيكتوري مثل دزرائيلي وجلادستون وحتى وراء رؤساء وزراء ظهروا بعد ذلك مثل ونستون تشرشل.

ويتناول الكتاب حياة روبرت آرثر تالبوت جاسكون سيسيل كما كان يسمى سالزبوري عند ولادته، وهو سليل أسرة عريقة في التاريخ البريطاني. وكانت أشهر صفاته أنه عملي ومؤمن بقيم الامبراطورية. وقد درس في مدرسة ايتون التي يدرس فيها أبناء النبلاء وتعرض هناك لمعاملة قاسية للغاية أثرت على حياته فيما بعد. وكان سياسيًا يفتقر للعاطفة ويتصرف ببرود يليق بسياسي بريطاني عتيد. وقد أصبح سالزبوري أحد أهم المهندسين «السياسيين» للعصر الفيكتوري سواء على المستوى الداخلي أو المستوى الخارجي.

ومؤلف هذا الكتاب يثير في أعماله التاريخية قضايا جدالية كثيرة، وعلى سبيل المثال فإنه اتهم تشرشل بالرغبة في مواصلة الحرب العالمية الثانية رغم أنه كانت هناك فرص عديدة لوقفها وتجنيب البريطانيين الخسائر الهائلة التي تكبدوها.

□ □ □

Howard Carter: The Path to TutAnkhAmun

(هوارد كارتر: الطريق إلى توت عنخ آمون)

T.G.H. James
The American University in Cairo Press, 2000, $19.95, L.E 70



كثيرون في أنحاء العالم تستهويهم، بل تسحرهم شخصية توت عنخ آمون والأساطير المحيطة بحياته القصيرة، والتي مازال علماء الآثار ومؤرخو التاريخ القديم يتناولونها بشغف واهتمام كبيرين كما لو كان الفرعون الشاب أحد نجوم عصرنا الحالي. لكن قليلين يعرفون قصة مكتشف هذا الأثر الشديد العظمة والروعة، وهو هوارد كارتر الذي وصل إلى مصر قبل توصله إلى اكتشافه في نوفمبر ١٩٢٢ بثلاثين عامًا، ولم يكن هوارد قد استكمل تعليمه، لكنه علم وطور نفسه ليصبح كبير مفتشي الآثار في صعيد مصر. وقد أقام الشاب هوارد شراكة محظوظة مع إيرل كارنافون وأصبح هوارد مساعدًا له وشارك الشاب هوارد هذا الأرستقراطي في عدد من الاستكشافات، لكن اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون في وادي الملوك هو الذي ضمن له مكانة في التاريخ. ويتناول المؤلف، وهو رئيس قسم المصريات السابق في المتحف البريطاني، جوانب عديدة من حياة هوارد كارتر لم يتم التركيز عليها من قبل. والكتاب مفيد للغاية بالنسبة لمحبي علم الآثار وعلم المصريات بشكل خاص أو أولئك الذين لديهم ولع بتوت عنخ آمون ومقبرته.

وقد سبق للمؤلف أن نشر عدة كتب عن الفن والتاريخ في مصر القديمة.

□ □ □

Hitler's Pope: The Secret History of Pius XII

(بابا هتلر: التاريخ السري للبابا بيوس الثاني عشر)

John Cornwell
Penguin, 2000, £7.99



البابا بيوس الثاني عشر بابا الفاتيكان في الفترة من ١٩٣٩ حتى ١٩٥٨، شخصية مثيرة للجدل بشكل كبير، فالكنيسة الكاثوليكية وكتب التاريخ تقول: إن هذا البابا الذي ولد عام ١٨٧٦ وتوفي عام ١٩٥٨، عمل كل ما في جهده للحيلولة دون نشوب الحرب العالمية الثانية، ونتيجة لهذا الدور وأمور أخرى فإن البابا بيوس الثاني عشر مرشح لاعتباره قديسًا من جانب الفاتيكان.

إلا أن مؤلف الكتاب جون كورنويل أجرى تحقيقًا تاريخيًا موسعًا حول هذا البابا وخرج بنتائج مفزعة حول سنوات اعتلائه كرسي البابوية في الظروف التاريخية غير العادية التي مر بها العالم وبشكل خاص خلال الحرب العالمية الثانية.

ويتهم المؤلف بيوس الثاني عشر بأنه كان مستبدًا وحاكمًا مطلقًا كما يردد نفس التهمة التي كررها يهود كثيرون وهي أن هذا البابا كان مناهضًا للسامية. ويقول كورنويل: إنه رغبة من البابا في حماية البابوية فإنه ارتدى «قناعًا» استطاع من خلاله أن يقنع العالم بأنه يكره من النازية، لكنه كان في الحقيقة يضع أمن البابوية فوق مصير اليهود أي أنه غض الطرف عن الفظائع التي ارتكبها هتلر ضد اليهود في سبيل مصلحته الشخصية. وقد قدم المؤلف أدلته على ذلك بشكل جيد ومقنع، وهو الأمر الذي يتطلب أن ترد الكنيسة الكاثوليكية على هذه الاتهامات التي تطال أحد أهم رموزها في العصر الحديث.

□ □ □

William Shakespeare: His Life and Work

(وليام شكسبير، حياته وأعماله)

Anthony Holden
Abacus, 2000, £7.99



لم يعد وليام شكسبير حكرًا على نقاد الأدب ومؤرخيه والأدباء، بل أصبح أيضًا في قبضة الماركسيين والحركة النسوية والمؤرخين الجدد وما بعد الحركة النسوية والتفكيكيين وما بعد الاستعماريين والامبرياليين الثقافيين. لقد قام كل هؤلاء بتمزيق تاريخه إربًا وفسروا كل شاردة وواردة في أعماله وحياته تفسيرًا يوافق معتقداتهم، لكن مؤلف هذا الكتاب انتوني هولدن يعيد تجميع هذه الأجزاء مرة أخرى ليقدم سيرة ذاتية جامعة لهذا الكاتب المسرحي الذي لا يجادل اثنان في تربعه على عرش الأدب العالمي على مر العصور.

إن كل جيل يعيد تشكيل شكسبير حسب العصر الذي يعيش فيه. والمؤلف هنا يحاول أن يقدم شكسبير بشكل مختلف من خلال تتبع مراحل حياته، وهو يختلف مع من قال إن شكسبير كان شاذًا جنسيًا ويتحدث عن توجهاته الدينية، ولم يكتف هولدن بذلك، بل علق على آراء كثير من النقاد والمفكرين في شكسبير. ومن خلال أسلوب شيق وجذاب ومرتب يتحدث المؤلف عن المعاناة التي عاشها ذلك الفتى شكسبير ورحلته من أجل أن يكون له مكان في الحركة المسرحية في لندن.

وكتاب هولدن لم يكن الأول بالطبع ولن يكون الأخير عن شكسبير الذي لم تخل لغة في العالم من ترجمة أعماله ومن كتب عن حياته وأعماله. وإضافة إلى المهتمين بالعلوم الإنسانية فإن العلماء لم يبتعدوا أيضًا عن شكسبير، فهناك أبحاث ودراسات علمية عن شكسبير وحقيقة وجوده.

□ □ □

أزيـــاء

The Fashion Business: Theory, Practice, Image

(تجارة الأزياء: النظرية والممارسة والصورة)

Nicola White, Ian Grifiths (eds)

Berg Ltd. 2000, 256PP., $19.50

يتناول الكتاب صناعة وتجارة الأزياء في النصف الثاني من القرن العشرين، ويحتوى على إسهامات من خبراء في ثلاثة مجالات مثيرة للجدل في هذه الصناعة: أولاً: ثقافة ونظرية الأزياء، ثانيًا: التصميم والصناعة، ثالثًا: التسويق وصناعة الصورة.

وفي هذه المجالات تثار قضايا مثل علاقة الثقافة بالملابس، والتداخل بين الموضة والحداثة، والتحدي الذي تفرضه السلاسل التجارية، وبداية عصر مصمم الأزياء المفكر.

■■■

The End of Fashion: How Marketing Changed The Clothing Business Forever

(نهاية الموضة: كيف غير التسويق من تجارة الأزياء إلى الأبد)

Teri Agins

Harper Collins, 2000, 336pp., $14.00

إن العهد الذي كانت الموضة فيه يحددها مصممو الأزياء الفرنسيون بملابس لا يقوى على شرائها سوى أفراد النخبة قد ولى. فالمصممون الآن يتوجهون للجمهور الواسع من المستهلكين، ويتركز الإبداع في طرق وأساليب التسويق الجماهيري للملابس أكثر من تركزه في تصميمها. هكذا تصف المؤلفة حال صناعة الأزياء في العالم الآن، كما تتناول عددًا من بيوت الأزياء الشهيرة، كيف تعمل وتخطط، والمنافسات التي تنشأ بينها، وتروي تفاصيل المنافسة العدائية بين رالف لورين وتومي هيلفيجر.

■■■

Obsessed by Dress

(الانشغال المرضي بالملبس)

Tobi Tobias

Beacon Press, 2000, 176pp., $17.50

إن التزين (أو رفض التزين) كان دائمًا من الدوافع الإنسانية الملحة في كل الأماكن وفي كل الأزمنة. وهذا الكتاب يحاول استعراض صراع الإنسان مع الأزياء والموضة عن طريق تجميع الملاحظات والمقولات المتعلقة بهذه المسألة التي وردت عن فلاسفة وأدباء ومصممي أزياء من أفلاطون مرورًا بأوسكار وايلد ومارسل بروست وحتى كوكو شانيل.

إعـــلام

البحث العلمي في الدراسات الإعلامية

محمد عبد الحميد

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٠.

استعراض لأهم أساليب البحث العلمي في مجال الدراسات الإعلامية، وهي في معظمها تطبيقية تتتبع التجارب الصحفية والإعلامية. ما هي الصعوبات التي تواجه الباحثين في هذا المجال وكيف يمكن التغلب عليها؟

■■■

الاتصال الجماهيري

ترجمة: إبراهيم سلامة إبراهيم

القاهرة: المشروع القومي للترجمة، ٢٠٠٠.

يعرض الكتاب لأنشطة الاتصال المقروءة والمسموعة والمرئية، وهو يركز على مستوى التطبيق على الولايات المتحدة الأمريكية أساسًا، لكن المنهج العلمي الذي استخدمه المؤلف، يرشح الكتاب لأن يستفيد منه العاملون في مجال الاتصال الجماهيري في أي مكان في العالم.

■■■

A Grain of Truth: The Media, The Public, and Biotechnology

(ذرة من الحقيقة: وسائل الإعلام والجمهور والتكنولوجيا الحيوية)

Susanna Horrig Priest

Rowman & Little Field Publishers, 2001, 160pp., $19.95

يتناول الكتاب دور وسائل الإعلام في انتشار الشعور بعدم الثقة تجاه المواد المعدلة وراثيًا بين الجمهور. فهناك من يتهم وسائل الإعلام بالجهل العلمي أو الرغبة في الإثارة مما أدى إلى تصاعد الموقف السلبي تجاه هذه المواد، ولكن من ناحية أخرى يبين الكتاب أن التغطية الإعلامية لهذه القضايا يسيطر عليها المتحدثون باسم هذه الصناعات. وبعد استعراض الموضوعات الخلافية واستطلاعات الرأي التي نشرتها الصحف حول صناعة هرمونات النمو واستنساخ النعجة دوللي، والمنتجات الزراعية المعدلة وراثيًا.. وغيرها، تنتهي المؤلفة بتوجيه الاتهام لكل من وسائل الإعلام وأرباب هذه الصناعات لتجاهلهم الأشياء التي تقلق الجمهور العام.

اقتصـــاد

أزمة النمور الآسيوية.. الجذور والآليات والدروس المستفادة

إعداد: عمرو محيي الدين

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠.

شهد عام ١٩٨٩ بدء خروج دول أوروبا الاشتراكية عن الفلك السوفيتي واتجاهها نحو نظام اجتماعي واقتصادي جديد تسوده الملكية الفردية وتلعب فيه آلية السوق دورًا فعالاً في تخصيص الموارد، وأصبحت الرأسمالية وصفة جاهزة لأمراض الدول النامية، لكن الأزمة المالية التي حدثت في دول جنوب شرق آسيا وكوريا الجنوبية، ثم تحولت إلى أزمة عالمية تثير علامات استفهام وشكًا حول انتصار الرأسمالية. ويتناول الكتاب أزمة النمور الآسيوية والدور المحوري الذي لعبه الجهاز المصرفي قبل وبعد الأزمة، ثم يدرس آثار الأزمة الجانبية على مناطق العالم المختلفة، كما يتعرض لقضايا جوهرية ومحورية أثارتها تلك الأزمة على مستوى التحليل الاقتصادي والدروس المستفادة وإمكانية منع تكرارها في عالم اليوم.

■■■

The Virtue of Prosperity: Finding Values in an Age of techno - Affluence

(فضيلة الرخاء، البحث عن القيم في عصر من الوفرة)

Dicesh D'Souza

New York: Free Press, 2000, 284pp., $26.00

المؤلف يدافع عن الرأسمالية التكنولوجية الجديدة والوفرة التي جلبتها، فيقول إن الاقتصاد الجديد جعل من فقراء المجتمع الأمريكي أحسن حالاً من الفقراء في أي مكان آخر، وجعلهم أحسن حالاً مما كانوا عليه من خمسين عامًا مضت.

أما الفجوة التي تتسع بين الأغنياء والفقراء، فيدافع أيضًا عنها المؤلف باعتبار أنها تعود إلى الجدارة، حيث لا يوجد عامل اجتماعي أو عنصر في النظام السياسي يمنع أي شخص من صعود سلم النجاح.

■■■

تاريـــخ

التحنيط وفلسفة الخلود في مصر القديمة

أحمد صالح

القاهرة: دار حور، ٢٠٠٠.

يلقي المؤلف أضواء على فكرة التحنيط من وجهة نظر الإنسان المصري القديم، والتحنيط ليس مجرد عادة أو طقس فرعوني يتعلق بالموت، إنما هو يتعلق أكثر ما يكون بفكرة البعث والخلود عند المصريين القدماء، وهي فلسفة مصرية أصيلة، دفعت المصريين إلى ضرورة الحفاظ على الجسد كي يكون في أبهى صورة عند البعث.

■■■

الحرب الصليبية الثالثة

وليم شتابز

ترجمة: حسن حبشي

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

وثيقة تاريخية مهمة، كتبها شاهد عيان في جيش ريتشارد قلب الأسد، تعبيرًا عن إعجابه بملكه، ومن البديهي أن تنطوي وجهة نظره على آراء مخالفة، لما عرف في أدبيات الحروب الصليبية وما كتبه المؤرخون العرب عنها.

■■■

الطبقات الشعبية في القاهرة المملوكية

محاسن الوقاد

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠.

ملامح من حياة الطبقات الشعبية وعرض تفصيلي لأماكن تجمعاتها في الأسواق والوكالات التجارية والخانات، ودراسة اجتماعية وديموجرافية عن الأحياء التي سكنها أبناء هذه الطبقات وأحوالهم الاقتصادية وسياسة الدولة تجاههم، ثم أهم عاداتهم.

■■■

Crimea: The Great Crimean War, 1854 - 1856

(حرب القرم العظيمة، ١٨٥٤-١٨٥٦)

Trevor Royle

New York: St - Martin's Press, 2000, 465pp., $35.00

تعد حرب القرم في كثير من جوانبها أول حرب حديثة في التاريخ، وقد نبعت أهميتها من كونها متعددة الجبهات، فقد دارت معاركها في البلطيق وفي عدد من شواطئ البحر الأسود. كما كانت تلك الحرب هي الأولى التي قام فيها المراسلون بتغطية أحداثها، ومن أشهرهم «ويليام هوارد راسل»، الأمر الذي أنتج ضغوطًا على السياسيين والجنرالات بسبب دخول عنصر «الرأي العام» في الحسابات الاستراتيجية. أما خلفية الحرب فتتشابه مع الخريطة المعاصرة، حيث شملت مجزرة عرقية في البلقان، وانفلاتًا في القوقاز، واضطرابًا في الأراضي المقدسة، حيث كان سبب قيام الحرب مفتاح كنيسة القيامة ببيت لحم. فقد أصر نابليون الثالث أن مكانه مع رجال الدين الكاثوليك، بينما ساند قيصر روسيا نيوكولاس الأول الأرثوذكس، فقامت الحرب بين روسيا ضد الامبراطورية العثمانية وانضمت فرنسا وبريطانيا لمساندة العثمانيين ضد الروس. وهناك بالطبع أسباب أخرى استراتيجية لكل طرف من الأطراف يشرحها المؤلف بالتفصيل في الكتاب، الذي يفسر أيضًا لماذا تعتبر حرب القرم - تلك التي خسرت فيها جميع الأطراف - أكبر خطأ عسكري ودبلوماسي في التاريخ.

تجارة الكتب

Everyday Life in the German Book Trade: Friedrich Nicolai As Bookseller and Publisher in the Age of Enlightenment 1750 - 1810

(الحياة اليومية في سوق الكتاب الألماني: فريدريش نيكولاي ناشرًا وبائعًا للكتب في عصر التنوير ١٧٥٠-١٨١٠)

Pamela Eve Selwyn

Pennylvania Stake Press, 2000, $75.00

عندما كان المثقفون الألمان يقولون في نهاية القرن الثامن عشر إنهم يعيشون في عصر فريدريك، كانوا لا يقصدون الملك فريدريك، وإنما بائع الكتب الشهير في برلين في ذلك الوقت «فريدريش نيكولاي».

وهذا الكتاب يقوم على أساس رسالة الدكتوراة التي أعدتها المؤلفة والتي تكشف من خلال حياة فريدريش نيكولاي الناشر وبائع الكتب والناقد أيضًا، طبيعة سوق الكتاب في ذلك الوقت، ومحاولات الحكومة فرض الرقابة على بيع الكتب، ونوع القرصنة التي كانت سائدة، وأساليب الكتّاب والناشرين في تدعيم قواعد النشر

وفى إنجاح تجارتهم وإثراء الحياة الثقافية فى ألمانيا فى عصر التنوير.

■■■

Book Business: Publishing: Past, Present, and Future

(تجـارة الكتـاب: النشـر: الماضى والحاضر والمستقبل)

Jason Epstein

Norton & Co., 2000, 144pp., $21.05

يقول جايسون إبستين عن صناعة الكتاب إنها واقفة الآن على حافة تحوّل تاريخى، ويناقش فى كتابه هذا، الأزمات الحادة التى تواجه تجارة الكتاب اليوم.. تلك الأزمات التى تؤثر على الكتّاب والقراء، بالإضافة إلى الناشرين. وكان جايسون إبستين قد تولى منصب المدير التحريرى لدار نشر «راندوم هاوس». ويعود إليه الفضل فى بداية استخدام الكتب ذات الأغلفة الورقية فى عام ١٩٥٢، والتى أحدثت ثورة فى تجارة الكتاب فى ذلك الوقت.

■■■

1001 Ways to Market Your Books

(ألف ومائة طريقة لتسويق كتبك)

John Kremer

Open Horizons, 2000, 704PP., $27.95

يعمل المؤلف رئيسًا لتحرير مجلة «بوك ماركتنج أبدايت» المختصة بتسويق الكتب. ويقوم فى هذا الكتاب بتقديم أكثر من ألف فكرة لتسويق مختلف أنواع الكتب، مستعينًا بأمثلة من الحياة توضح كيف نجح ناشرون ومؤلفون آخرون فى تسويق كتبهم.

تــــراث

الأغانى فى التراث الشعبى الكويتى

يعقوب الغنيم

الكويت: المؤلف، ٢٠٠٠.

يبحث الكتاب فى العلاقة بين الأغنية الكويتية والشعر النبطى، وبين اللهجة الكويتية واللغة الفصيحة الأم، ما الذى أضافه كل منهم إلى الآخر، وما حدود التأثر والتأثير بينهما ومخاطره ومزاياه؟

■■■

المناقب المزيدية

أبو البقاء الحلى

تحقيق: محمد خريسات وصالح درادكة

العين: مركز زايد للتراث والتاريخ، ٢٠٠٠.

تحقيق لمخطوطة نادرة وفريدة عن أحوال العرب قبل الإسلام فى الحيرة والحلة، حيث حكم آل نصر وآل مزيد.

روايـــــة وأدب

أشجار قليلة عند المنحنى

نعمات البحيرى

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠.

رواية جديدة للكاتبة بعد عدد من المجموعات القصصية، والرواية عن معنى الوطن الذى قد يهجره الإنسان جبرًا أو اختيارًا، لكن الوطن يظل عائشًا فيه، يحكم سلوكه ونظرته إلى الكون والعالم.

■■■

المجموعة الكاملة

فؤاد سليمان

بيروت: الشركة العالمية للكتاب، ٢٠٠٠.

ثلاثة مجلدات تتضمن: «تموزيانا»، يأتى إلى أين»، «القناديل الحمراء». وهى تمثل الأعمال الكاملة للأديب والكاتب اللبنانى، وموضوعاته تناقش قضايا وطنية وقومية فى إطار اجتماعى، كما أن كتاباته تنهل من الواقع اللبنانى ذاته وتناقش أزماته الطاحنة كالبطالة وإهدار المال والفساد والتخرب وغيرها.

■■■

لمسة من عالم غريب

مصطفى ذكرى

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠٠.

نصوص تجول فى عالم ميتا فيزيقى وغير مألوف، مثل كثير من كتابات المؤلف السابقة التى تسعى دائمًا إلى استنطاق الأشياء والموجودات بحثًا عن أسرار الكون الشاسع.

■■■

الناب

إلياس العطروني

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٠.

رواية تتوزع أحداثها على منعطفات تاريخية مهمة، منها انقلاب المؤججين والانفصال المصرى السورى والحرب الأهلية اللبنانية، وعبر هذه الأحداث السياسية، ثمة كوابيس شخصية مبعثها إحباطات الراوى فى زمن الانكسارات العربى.

■■■

فتنة الرؤوس والنسوة

سالم حميش

بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٠.

محور الرواية هو الصراع حول السلطة عبر التاريخ، فالسلطة تفتن الرؤوس كما النساء، والمؤلف يقيم بروايته معادلاً للواقع، ويرسم شبيهًا لأنظمة عسكرية عربية مازالت قائمة إلى اليوم.

■■■

مقام البكاء

نافذ أبو حسنة

دمشق: دار ابن رشد، ٢٠٠٠.

واحدة من الحكايات الفلسطينية الكثيرة التى تطرح تساؤلات الفلسطينى المشرد ومعاناته عبر أجيال متلاحقة منذ نكبة ١٩٤٨، أسئلة الرواية وطنية وسياسية لكنها شخصية أيضًا، كما هى حالة معاناة الفلسطينيين منذ نصف قرن أو يزيد.

■■■

وداعًا بابل

نعيم قطان

ترجمة: آدم فتحى

كولونيا: دار الجمل، ٢٠٠٠.

رحلة فى عالم الطفولة المفقود بكل براءته ودهشة اكتشافاته الأولى، يستعيد المؤلف عبرها ملامح حياته فى العراق التى غادرها إلى كندا قبل نحو نصف قرن، وهو يعرض لقضايا سياسية بالغة الحساسية، بينها موقف يهود العراق من المشروع الإمبريالى الصهيونى.

■■■

The Stone Woman

(امرأة الحجر)

Tarq Ali

Verso, 2000, $23.00

رواية «امرأة الحجر» هى الرواية الثالثة فى «الرباعية الإسلامية» التى يكتبها طارق على. وتدور أحداثها فى نهاية القرن التاسع عشر فى اسطنبول، عندما يجتمع أحفاد «يوسف باشا» لقضاء الصيف فى القصر الذى كان قد بناه قبل نفيه من اسطنبول على يد السلطان.

ومن خلال مشكلات هذه العائلة يكشف المؤلف عن متاعب الامبراطورية العثمانية فى مرحلة احتضارها.

■■■

Hemingway on Fishing

(همنجواى وصيد السمك)

Ernest Hemingway, Jack Hemingway (Foreward)

Nick Lyons (editor)

Lyons Press, 2000, 320pp., $29.95

يتكون هذا الكتاب من كل ما كتبه إرنست همنجواى عن صيد السمك، سواء فى مقالات صحفية ونثرية أو فى أجزاء من رواياته. وقام بكتابة مقدمة الكتاب ابنه جاك همنجواى. ومن المعروف عن همنجواى عشقه منذ الطفولة لهواية صيد السمك، وقد ظهرت فى كثير من كتاباته مثل «الشمس تشرق أيضًا» و«الرجل العجوز والبحر» و«جزر فى النهر».. وغيرها.

ومن خلال المختارات التى يقدمها الكتاب، يظهر التطور فى أسلوب وبلاغة همنجواى، منذ مقالاته الصحفية التى تتصف بالخشونة، وحتى رواياته التى حصل بها على جائزة نوبل. كذلك تبين دقة ملاحظته وتمتعه بعقلية علمية، ومهارته فى نقل مشاعره إلى مشاعر القارئ.

سـيـاسـة

الدور الضائع

مروان اسكندر

بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠٠.

انتهت الحرب الأهلية فى لبنان، وتطلع كثيرون إلى دور أكبر للبنان فى محيطها العربى وفى العالم، سياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا، لكن هذا الدور مازال محدودًا حتى الآن، ومازال مكبلاً بأوضاع وعثرات خارجية وداخلية.

■■■

الطريق الأطول.. النساء فى أول برلمان فلسطينى

كتاب الزاوية

رسالة الغفران

٣ـ حديث إبليس

فيطلع فيرى إبليس ـ لعنه الله ـ وهو يضطرب فى الأغلال والسلاسل، ومقاطع الحديد تأخذه من أيدى الزبانية! فيقول: «الحمد لله الذى أمكن منك يا عدو الله وعدو أوليائه، لقد أهلكت من بنى آدم طوائف لا يعلم عددها إلا الله».

فيقول: «من الرجل؟».

فيقول: «أنا فلان بن فلان، من أهل حلب، كانت صناعتى الأدب أتقرب به إلى الملوك».

فيقول: بئس الصناعة! إنها تهبُ غُفَّة من العيش لا يتسع بها العيال، وإنها لمزلة القدم، وكم أهلكت مثلك، فهنيئًا لك إذ نجوت، وإن لى إليك لحاجة، فإن قضيتها شكرتك يد المنون».

فيقول: «إنى لا أقدر لك على نفع، فإن الآية سبقت فى أهل النار أعنى قوله تعالى ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾.

فيقول: «إنى لا أسألك فى شىء من ذلك، ولكن أسألك عن خبر تخبرنيه، إن الخمر حرمت عليكم فى الدنيا، وأحلت لكم فى الآخرة، فهل يفعل أهل الجنة بالولدان المخلدون فعل أهل القريات؟».

فيقول: عليك البهلة (اللعنة) أما شغلك ما أنت فيه! أما سمعت قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

قــــــراءات جـــــديدة

انجيلا جرونرت
ترجمة: سالمة صالح
كولونيا: دار الجمل، ٢٠٠٠.

إلى جانب الرجل، كافحت المرأة الفلسطينية دفاعًا عن حقوق الوطن وحقوقها، ومازالت تشارك الرجل مسئولياته فى بناء المجتمع الفلسطينى الناهض برغم الصعوبات والتحديات التى يواجهها من المحتل الإسرائيلى. النساء الفلسطينيات مثل حنان عشراوى وراوية الشوا وآلاف غيرهن، مازلن يعطين ويضربن المثل لعطاء المرأة العربية فى ظروف بالغة القسوة والضراوة.

■■■

العلاقات العربية التركية
حسن بكر أحمد
أبو ظبى، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٠.

يفترض أن العلاقات العربية التركية ذات خصوصية تاريخية وجغرافية، لكن المياه جرت فى بحور السياسة على غير ما يشتهى الجميع لتلك العلاقات، التى شهدت تدهورًا فى السنوات الأخيرة بسبب تنامى العلاقات بين تركيا وإسرائيل واستراتيجيات الدفاع المشترك بينهما، فإلى أين تصل هذه العلاقات وما مستقبلها؟

■■■

إيران.. سباق الإصلاح من الرئاسة إلى البرلمان
محمد صادق الحسينى
بيروت: دار رياض نجيب الريس، ٢٠٠٠.

منذ تولى الرئيس محمد خاتمى الحكم فى إيران وهو يسعى للإصلاح، لكن محاولاته الإصلاحية، ووجهت دومًا بمعارضة من قبل المحافظين، وقد نجحوا أحيانًا فى تقويض بعض توجهاته وحدوا من تطلعاته الإصلاحية، ومع ذلك فإن ما تحقق خلال سنوات حكمه يعد بالكثير على المدى الطويل.

■■■

سنوات الفوضى والجنون
محمد خوجة
الجزائر: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف سنوات حكم الرئيس الشاذلى بن جديد، التى يرى أنها سبب رئيسى فيما آلت إليه الأوضاع فى الجزائر من تدهور، كما يحمله المؤلف مسئولية تفشى العنف والإرهاب، وتحويله الجزائر من دولة سياسية إلى دولة إدارية، صار هو ـ بحسب رأى المؤلف ـ حاكمها وسيدها الأوحد.

■■■

مستقبل المجتمع المدنى فى الوطن العربى
أحمد شكر الصبيحى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠.

يرتبط نشاط المجتمع المدنى بشيوع القيم الديمقراطية وترسخها فى مؤسسات الدولة، التى بديمقراطيتها تمنح هامشًا أوسع من حرية الفكر والتعبير والعقل للمؤسسات الأهلية، كما تمارس دورًا إيجابيًا إلى جانبها، وتبادر فى انشطة قد تحجم الدولة عنها أو لا ترغب فى القيام بدور فيها. وهذا الكتاب يناقش مستقبل المجتمع المدنى فى ضوء الوضع الحالى للأنظمة العربية واحتمالات تطورها فى المستقبل.

■■■

نحو استراتيجية وخطة عمل للصراع العربى الصهيونى
إعداد: مجدى حماد
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠.

تصورات عديدة لعدد من كبار الكتاب والمفكرين العرب، تقدم فهما لقضايا الصراع الذى طال أمده وتشعبت وسائله، والخلاصة، أن الوقوف عند بديل واحد بوصفه خيارًا وحيدًا أمر بالغ الخطورة، فباب البدائل والخيارات ينبغى أن يظل مفتوحًا دومًا حتى يغلق تمامًا ملف الصراع بعودة الحق لأصحابه.

■■■

The End of Days: Fundamentialism and the Struggle for the Temple Mount
(نهاية العالم: الأصولية والصراع على جبل الهيكل)
Gersham Gorenberg
Free Press, 2000, 288pp., $25.00

يرصد المؤلف شيوع الاعتقاد بين كل من المسيحيين واليهود والمسلمين فى الآونة الأخيرة باقتراب نهاية العالم، وتزداد بالتالى اهمية ومركزية جبل الهيكل وقبة الصخرة فى سياق هذه النبوءة. يتحدث المؤلف عن المسيحيين الأصوليين فى أمريكا، كيف يؤيدون إسرائيل وفى نفس الوقت ينتظرون تحقق النبوءة التى تتوقع موت اليهود أو تحولهم إلى المسيحية. كذلك ينتظر كل من اليهود والمسيحيين إعادة تشييد الهيكل الثالث فى نفس المكان الذى تشغله الآن قبة الصخرة. ولهذا لا يستبعد المؤلف اشتعال حرب مقدسة بسبب الرغبة فى السيادة على تلك البقعة المقدسة المهمة عند كل من اليهود والمسيحيين والمسلمين.

شـــعــر

أنظر إليك
مرام المصرى
بيروت: مركز المطبوعات للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠.

قصائد مكتوبة بلغة مكثفة لا زوائد فيها، الحدث الواقعى أو الانفعالى والنفسى هو الذى يخلق الشعر فيها، والشاعرة السورية المقيمة فى فرنسا، تواصل حفر تجربتها الشعرية وتضيف إليها بقصائدها تلك على مستوى الشكل والمضمون.

■■■

ديوان المعتمد بن عباد
جمع وتحقيق: حامد عبد المجيد ـ أحمد أحمد بدوى
القاهرة: دار الكتب والوثائق المصرية، ٢٠٠٠.

عاش المعتمد بن عباد حياة حافلة، فقد

قـــــراءات جـــــديدة

ولد وعاش فى ديار الملك فى الأندلس، يرفل فى النعيم وينهل من عيون الأدب والتراث العربى، كتب الشعر وشجّع شعراء عصره، ويمثل شعره سجلاً لفترات ازدهار دولة بنى عباد وانكسارها، ففى فترة الازدهار غلبت على شعره أغراض تعكس تلك الحالة، ومع اندحار الحالة، صبغت شعره صبغة حزينة وكان أكثره فى المراثى.

طـــب وصحـــة

المسنون بين الصحة والمرض.. كيف تزيد من حلاوة سنوات النضج

محمد صادق صبور

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠.

يلعب العمر دورًا ثانويًا فى النشاط الذهنى بعد سن الخامسة والخمسين، فنصف تعداد البشر ممن تقل أعمارهم عن ٧٥ سنة وثلث الناس الذين تزيد أعمارهم عن ٧٥ سنة يؤدون وظائفهم العقلية بنفس درجة كفاءة متوسطى العمر. ويهدف المؤلف من هذا الكتاب إلى توضيح ما الذى يجب علينا أن نفعله - أنا وأنت - لكى نظل نشيطين جسديًا وذهنيًا لأطول مدى ممكن فى سنواتنا المقبلة، كما يهدف إلى بيان المعتقدات الخاطئة عن المسنين، ثم إسداء النصح لهؤلاء المسنين وبيان السبل التى تزيد من حلاوة سنواتهم الأخيرة. والكتاب ليس فقط للمسنين، بل لمن لم يصلوا إلى سن الأربعين ليتزودوا بما ينفعهم من أفكار فى مقتبل أيامهم.

■■■

صحة الثدى

ميريام ستوباره

ترجمة: سامح بيومى السباعى

القاهرة: دار أبو الهول ولونجمان، ٢٠٠٠.

تشغل صحة الثدى وما يصيبه من أمراض، كثيرًا من السيدات، وسرطان الثدى أحد أهم المخاطر فى هذا الصدد، والمؤلفة تشير إلى كيفية تفادى هذا الخطر الذى قد تسببه ضغوط الحياة وملوثاتها.

■■■

عالج طفلك حتى يصل الطبيب

نانسى عبد العزيز سليمان

القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٠.

تواجه الأم مشاكل عديدة فيما يتصل بصحة طفلها لا تعرف كيف تواجهها، المؤلفة الطبيبة تعرض لأساليب المواجهة السريعة حين تظهر أعراض المرض على الأطفال، خصوصًا فى حالات القىء والإسهال وارتفاع الحرارة ولدغ الحشرات وتناول الطفل مواد سامة أو كاوية، وهى وصفات سريعة كى لا تتفاقم الحالة وحتى يمكن استدعاء الطبيب.

■■■

كلام جديد عن الكبد والجهاز الهضمى

محمد فريد عبد الوهاب

القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٠.

للكبد وظيفة مهمة فى الجسم، وقد شاعت فى السنوات الأخيرة أمراضه بين المصريين بسبب الملوثات فى الجو وفى الطعام، ما يقدمه المؤلف هنا حقائق عن الكبد والجهاز الهضمى وتأثير الكبد على وظائف الجسم عمومًا والأمراض التى تصيبه وكيف يمكن تجنبها بأسلوب مبسط يخاطب به القارئ العادى.

■■■

The Executive Brain: The Frontal Lobes and The Civilized Mind

(المخ التنفيذى: الفصوص الأمامية والعقل المتحضر)

Elknonon Goldberg

Oxford UP. 2001. 288pp., $29.95

يشرح الكتاب - بشكل يستطيع تتبعه القارئ العادى - أهمية الفصوص الأمامية فى المخ البشرى. فهذا الجزء من المخ هو الذى يتحكم فى العمليات العقلية المعقدة مثل إصدار الأحكام، واتخاذ القرارات. كما يتحكم فى السلوك الأخلاقى والاجتماعى للإنسان. ويبين الكتاب كيف أن الفصوص الأمامية هذه هى الأكثر عرضة للإصابة. فإذا أصابها أى تلف أو ضرر، يؤدى ذلك فى أغلب الأحيان إلى سلوكيات غير منظمة وغير اجتماعية، وأحيانًا إجرامية.

فكـــر

أزمة الثقافة الإسلامية

هشام جعيط

بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٠.

مجموعة من الدراسات الفكرية التى كتبها المؤلف على مدى أكثر من عشرين سنة، تختص أساسًا بالوطن العربى، لكنها تتجاوزه إلى العالم الإسلامى. والمؤلف يؤكد فى دراسته على أن العرب والمسلمين لن يمكنهم أن يشاركوا فى العالم المعاصر إلا إذا استمسكوا بالحداثة فى المعرفة والفن والأدب وأبدعوا فيها جنبًا إلى جنب الإبداع العالمى.

■■■

الإسلام والأصولية التاريخية

أسامة خليل

القاهرة: المركز العربى الأوروبى للدراسات، ٢٠٠٠.

استفادت الحضارة الغربية من الحضارة الإسلامية، وجرى الأمر نفسه بالنسبة للأخيرة، فهل كانت هذه الإفادة المتبادلة نوعًا من المحاكاة أم التأثر الواعى فى الحالتين، وما هى المعايير التى قامت عليها عملية التأثير الحضارى خصوصًا بالنسبة للحضارة الإسلامية؟ المؤلف يتتبع عملية التلاقح الحضارى تلك على الجانبين.

■■■

الحداثة وما بعد الحداثة

صالح أبو إصبع وآخرون

عمان: منشورات جامعة فيلادلفيا، ٢٠٠٠.

يجمع الكتاب أوراق المؤتمر العلمى الخامس لكلية الآداب والفنون الذى يناقش هذه المسألة - مسألة الحداثة - التى تبدو نظرية، لكنها تدخل فى صميم تطور المستقبل العربى لسنوات قادمة.

■■■

كتـــاب الــزاويـــة

رسالة الغفران

٤ - حديث فاطمة

فطفت على العترة المتخبين، فقلت «إنى كنت فى الدار الذاهبة إذا كتبت كتابًا وفرغت منه قلت فى آخره «وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى عترته الأخيار الطيبين، وهذه حرمة لى ووسيلة».

فقالوا: «وما نصنع بك؟» فقلت: «إن مولاتنا فاطمة - عليها السلام - قد دخلت الجنة منذ دهر. وأنها تخرج فى كل حين مقداره أربع وعشرون ساعة من ساعات الدنيا الفانية. فتسلم على أبيها وهو قائم لشهادة القضاء. ثم تعود إلى مستقرها فى الجنان، فإذا هى خرجت كالعادة فاسألوها فى أمرى بأجمعكم فلعلها تسأل أباها فىّ»، فلما حان خروجها ونادى الهاتف أن غضوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد - صلى الله عليه وسلم - اجتمع من آل أبى طالب خلق كثير من ذكور وإناث، ممن لم يشرب خمرًا ولا عرف قط منكرًا. فلقوها فى بعض السبيل، فلما رأتهم قالت: «ما بال هذه الزرفة؟ (الجماعة) ألكم حال تذكر؟» فقالوا: «نحن بخير أنا نلتذ بتحف أهل الجنة. غير أنا محبوسون للكلمة السابقة، ولا نريد أن نتسرع إلى الجنة قبل الميقات إذ كنا آمنين ناعمين.

وكان فيهم على بن الحسين وابناه محمد وزيد وغيرهم من الأبرار الصالحين. ومع فاطمة عليها السلام امرأة أخرى تجرى مجراها فى الشرف والجلالة. فقيل: «من هذه؟» فقيل: «خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبدالعُزى» ومعها شباب على أفراس من نور، فقيل: «من هؤلاء؟» فقيل: «عبدالله والقاسم والطيب والطاهر وإبراهيم، بنو محمد - صلى الله عليه وسلم».

قـــــراءات جـــــديدة

زرافة محمد على.. من مجاهل أفريقيا إلى قلب باريس

مايكل إلين

ترجمة: مجدى شرشر

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١.

رؤية لعالمى الشرق والغرب من خلال زرافة أهداها محمد على والى مصر ومؤسس نهضتها الحديثة إلى الملك شارل ملك فرنسا، وعبر رحلة الزرافة يلقى المؤلف أضواءً على الأوضاع الاجتماعية وأحوال الناس فى المدن التى مرت بها الزرافة.

■■■

فى التربية والسياسة

ناصيف نصار

بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٠.

يحمل الكتاب عنوانًا ثانيًا إشكاليًا: متى يصير الفرد فى الدول العربية مواطنًا؟ والسؤال يتضمن إجابته، إذ الفرد لم يرتق بعد فى المجتمعات العربية إلى مرحلة المواطن، يفعل المؤلف ذلك عبر مقاربات بين الفلسفة التى تخصص فيها وغيرها من العلوم فى مجالات التربية والسياسة وسواهما.

فكر دينى

الأنوار البهية فى الوصايا الإسلامية

إسماعيل عبد الفتاح

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠.

عن معنى الوصية فى القرآن والسنة وأهميتها، وكيف أوصى الله سبحانه وتعالى عباده بعمل الصالحات وأكل الطيبات والاستمتاع بكل ما هو طيب وحلال. والوصية فى المحصلة هى عهد بين المؤمن وربه.

■■■

المغازى الأولى ومؤرخوها

يوسف هوروفتس

ترجمة: حسين نصار

القاهرة: مكتبة الخانجى، ٢٠٠٠.

دراسة تتناول طائفة من المؤرخين المبكرين الذين وصفوا حياة الرسول الكريم وكتبوا عن غزواته، والدراسة ليست عن الغزوات ذاتها وإنما عن المؤرخين وأهم أعمالهم وسير حياتهم.

■■■

مواقف من حياة الصحابة

على أحمد الخطيب

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠.

أصحاب الرسول هم تطبيق للمنهج الإسلامى الصحيح الذى زرعه فيهم الرسول الكريم مسترشدًا بتعاليم الإسلام السمحة وشريعته، وهذا الكتاب يعرض لعشرات المواقف التى تبين هذا المنهج لدى صحابته الكرام.

فلسفة

مدخل إلى علم الكلام

محمد صالح السيد

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١.

يتناول نشأة علم الكلام على يد الحسن البصرى وواصل بن عطاء إمام المعتزلة، وأهم موضوعات هذا العلم ومدى ارتباطه بالمشكلات التى ظهرت فى زمنه، والتيارات الدينية والفكرية التى وجدت فيه، وأثر الفلسفة اليونانية على تطوره، ثم أهم الفرق الكلامية التى ظهرت وأثرت فى مسيرة الفكر الدينى والفلسفى.

■■■

الخطاب الفلسفى المعاصر من العام إلى الأعم

محمد السيد الشاهد

القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١.

دراسة عن أهم المحطات والمنعطفات فى الفكر الفلسفى المعاصر فى عصوره المختلفة، ويربط المؤلف بين الخطاب الفلسفى والخطاب الدينى وعلاقة الخطابين بالوحى، كما يناقش قضايا مهمة مثل التراث والمعاصرة، الحداثة والتقليد، شبهات التناقض بين الدين والعلم، ويستعرض فى مناقشته لتلك الإشكاليات الخلفيات الثقافية والتاريخية لها.

فنـــون

أفاق الفن التشكيلى على مشارف القرن الحادى والعشرين

مختار العطار

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠.

دراسة معمقة عن الفنون التشكيلية والمقصود بهذه الفنون اللوحات المرسومة والمصورة والتماثيل وكل إبداع صنعه الإنسان، وقد دخلت خامات جديدة وأساليب غير مسبوقة على التعبيرات الفنية خلال الربع الأخير من القرن العشرين وتغيرت المفاهيم التقليدية والفوارق المعتادة بين فنون إبداع التماثيل والرسم والتلوين والتشكيل المرئى.

ويتناول المؤلف الآفاق الجديدة للفن التشكيلى على مشارف القرن الجديد، فقد اختلطت الفنون الجميلة بفنون الرقص والتمثيل والموسيقى والفوتوغرافيا والمسطحات، بل اختلط الفن باللا فن، ودخلت معايير جديدة يدافع عنها فلاسفة ومفكرون جدد.

■■■

Graphic Design in Germany, 1890 - 1945

(تصميم الجرافيك فى ألمانيا، ١٨٩٠-١٩٤٥)

By Jeremy Aynsley

California UP, 2000.$ 60.00

كانت ألمانيا هى مركز الطباعة الدعائية الحديثة وإنتاج الكتب منذ عام ١٩٠٠ وحتى عام ١٩٩٣، حيث كانت فنون الجرافيك الألمانية هى الأكثر تقدمًا من بين كل الدول الصناعية، والأكثر تأثيرًا فى باقى

قـــــــراءات جـــــــديـدة

أوروبا. ويضم هذا المجال تصميمات الشعار أو الماركة التجارية «اللوجو»، والملصقات الدعائية، والمجلات والكتب.

ويتناول الكتاب إسهامات أبرز الألمان الذين أرسوا القواعد الحديثة فى الفن التجارى أو الدعائى، وأولهم بيتر برنز الذى كان أول من طور نظامًا رمزيًا ثابتًا لشركة الكهرباء الألمانية، ثم لوسيان برنار الذى أبدع الشكل الحديث من الملصق الإعلانى مستعينًا بالصورة بدلاً من الكلمات وغيرها.

■■■

Comedy Is Man in Trouble: Slapstick in American Movies

(الكوميديا هى رجل فى مأزق: الكوميديا فى الأفلام الأمريكية)

Alan Dale

Minneseta UP.. 2000. $25.95

يتناول الكوميديا الأمريكية منذ الأفلام الصامتة وتشارلى تشابلن مرورًا بدين مارتن وجيرى لويس وحتى جيم كارى.

مذكرات وسير

السجينة

ميشيل فينوس. مليكة أوفقير

ترجمة: ميشيل خورى

دمشق: دار ورد، ٢٠٠٠.

قضت أسرة أوفقير عشر سنوات فى سجون المغرب إبان حكم الملك السابق محمد الخامس بتهمة الخيانة ومحاولة قلب نظام الحكم. ابنة أوفقير «مليكة»، تروى عن الأهوال التى لاقتها هى وأسرتها، وكيف تمكنت هى وأمها من تعليم أولادها الخمسة خلف الأسوار، إلى أن أطلق سراحهم وهاجروا إلى فرنسا لينشروا هناك قصتهم.

■■■

الغلام القتيل

محمد عبد القادر أحمد

المنامة: جامعة البحرين، ٢٠٠٠.

دراسة فى شعر وشخصية طرفة بن العبد الشاعر الجاهلى الأشهر، كيف أثرت شخصيته على شعره، وكيف كان شعره تعبيرًا عن شخصيته.

■■■

طلاق إمبراطورة، طلاق شاه إيران والامبراطورة فوزية.. القصة الكاملة والأسرار الخفية

كريم ثابت

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠.

مؤلف هذا الكتاب لم يكن شخصًا عاديًا، بل كان قريبًا من الملك فاروق، وهو يزيح الستار عن أسرار موضوع زواج الأميرة فوزية شقيقة فاروق من شاه إيران محمد رضا بهلوى للمرة الأولى، ويتناول قصة الزواج، ثم الطلاق الذى لم يعرف الناس أسبابه، بل إن الشاه نفسه لم يعرف الأسباب الحقيقية. ويقول المؤلف إن القصة تبدو فى بعض أجزائها أقرب إلى القصص الخيالية منها إلى القصص الواقعية، ومع ذلك فهو يؤكد أنه ليس فى هذا الكتاب سطر واحد من نسج الخيال.

■■■

هيكل الآخر

مفيد فوزى

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠.

سجل لحوارات مطولة أجراها المؤلف مع الكاتب والصحفى الكبير، تناولت عشرات من قضايا عصره التى كان شاهدًا على بعضها كمراقب وصحافى، ومشاركًا فى بعضها الآخر بحكم قربه من مراكز صنع القرار. كما لم تخلُ الحوارات من جوانب شخصية حين سعى المؤلف إلى اقتحام الحياة الخاصة لمحاوره، ولمس الجوانب الأكثر حميمية فى علاقاته مع الناس والأسرة والأحفاد.

نقـــد أدبى

الفكاهة فى الأدب.. أصولها وأنواعها

أحمد محمد الحوفى

القاهرة: دار نهضة مصر، ٢٠٠١.

دراسة عن الفكاهة وأنواعها، والضحك ودلالاته فى الأدب، وكيف استثمر الأدب الساخر فى معالجة القضايا الاجتماعية والسياسية، وهو نمط من الأدب عرفه العرب الذين يزخر تراثهم بعشرات النوادر عن البخلاء وغيرهم. كما اخترع العرب شخصيات أجروا على ألسنتهم حكايات ومواقف ضاحكة تحمل الحكمة وسرعة البديهة إلى جانب الطرفة.

■■■

استشفاف الشعر

يوسف حسن نوفل

القاهرة: أبو الهول ولونجمان، ٢٠٠٠.

دراسة مستفيضة عن الشعر العربى من خلال قراءة نقدية لأكثر من خمسة وعشرين ديوانًا، انتقاها المؤلف لتمثل مراحل وتجارب مختلفة فى مسيرة فن العربية الأول، عبر منهج يسعى إلى سبر أغوار النصوص لا الوقوف على ظاهرها.

■■■

الأسطورة فى القصة العراقية

فرج ياسين

بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ٢٠٠٠.

يكشف المؤلف عن المصادر الأساسية المهمة التى استلهمت منها القصة العراقية الحديثة مادتها الأسطورية، وكيف أسهم هذا الاستلهام فى تحديث أساليب السرد وفتح آفاق جديدة للقصة العراقية، ويقدم نماذج تطبيقية لهذا الاستلهام من أعمال محمود جنداري ومحمد خضير وجليل القيسى وغيرهم.

■■■

"نــــون"

أزمــة الثــقــافــة..
وثقــافــة الأزمــة!

هذه الأزمات التى تهبط من السماء على عالمنا العربى أو تخرج من باطن الأرض، تتوالى من جميع الاتجاهات وتتناول كل مناحى الحياة بدون استثناء. لا فرق فى ذلك بين أزمات سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية.. سرعان ما تنعكس بكل مضاعفاتها على حياتنا الثقافية والروحية، فتشكل غطاء صفيقًا يحجب الرؤية عن حقيقة المعضلة التى تواجه العقل العربى، فتحول بينه وبين مسايرة التقدم الذى حققته المجتمعات الأخرى فى الغرب، وتمنعه من الانفتاح على الحضارات والثقافات المعاصرة.

إذ بينما يعبر العالم ألفية جديدة وقرنًا جديدًا، وتستجمع الشعوب والمجتمعات قواها- وبالأخص تلك التى تستشعر خطورة الجمود فى وجه متغيرات عالمية متسارعة لتقطع فى قفزة كبيرة ما فاتها من أسباب التقدم، تتعثر أقدام المجتمعات العربية فى أزمات ثقافية وفكرية حادة، تتقاطع فيها حرية الفكر والإبداع مع القيود والمعوقات الاجتماعية، وتتصادم فيها حقوق الأفراد مع السلطات الراسخة التى تملك قوى البطش والقمع فى المجتمع.. وتشتد حيرة الأجيال الجديدة الصاعدة فى سعيها للانطلاق نحو آفاق الحرية والتقدم، دون أن تنجح فى التوفيق بين ملكات الفرد وتطلعاته من ناحية، والمرجعيات الدينية والفكرية والأخلاقية الثابتة بكل مكتسباتها وامتيازاتها الاجتماعية من ناحية أخرى.

والنتيجة المترتبة على ذلك، أنك تجد نفسك بإزاء حالة من التشرذم الثقافى، والتخبط الفكرى، والضلال الروحى، والنكوص المعرفى.. اتجاهات ثقافية متصارعة فقدت القدرة على الجدل البنّاء والحوار المثمر. وَشُلَلٌ من المثقفين أو مدعى الثقافة تغوص فى أوحال اليأس والاغتراب عن المجتمع وعن الحياة الحديثة بكل مقوماتها، تظل ساكنة مستريحة عند مرحلة إدراكية لا تتجاوزها إلى المراحل الأعلى، الأكثر تطورًا وتعقيدًا واقتحامًا، والأقدر على الإحاطة بما جَد على العالم من تطورات علمية وتكنولوجية تكاد تغير وجه الحياة على الأرض تغييرًا كاملاً، وتعيد صياغة الإنسان والمجتمعات صياغة جديدة تمامًا!!

فى ذات السنة التى خيل فيها للإنسانية أنها حققت نقلة نوعية إلى منظومة معرفية أكثر تعقيدًا ودقة وشمولاً، وأكثر استجابة لحاجات الإنسان والمجتمعات، فى إطار ثورة معلوماتية تفتح آفاق المعرفة بغير حدود، وتحرر الأفراد والمجتمعات من قيود كثيرة تفرضها الأوضاع الجغرافية والتاريخية والاجتماعية.. تفجرت فى معظم المجتمعات العربية أزمات ثقافية وحضارية عنيفة.

فى مصر تفجرت نفس المشكلة التى تفجرت فى العام السابق حول «وليمة لأعشاب البحر».. وفى هذه المرة حول ثلاث روايات لأدباء شبان لم يسمع بهم أحد، ولا هم على شىء من الموهبة والانتشار. ولكنهم يحاولون سلوك طرق غير ممهدة، فيصطدمون بتقاليد جامدة وعقول مغلقة واجتهادات موروثة. ولأن الدولة ممثلة فى وزارة الثقافة هى التى تقوم على نشر هذه الكتب وتوزيعها. فإن ما تحمله صفحات الرواية من ابتذال فى اللفظ أو الأسلوب أو الفكر سرعان ما يحسب على أنه ابتذال تبيحه وتروجه الدولة، ومن ثم يجب أن تتبرأ منه ومن مرتكبيه. وأن تدفع بالمسئولين عنه إلى مقصلة التحقيق والإقالة والفصل، وإلا اعتبر ذلك خروجًا من الدولة على الدين والأخلاق ودعوة للانحلال.

أصبح هذا المشهد المأساوى يتكرر بين وقت وآخر. على وتيرة متسارعة فى مختلف الأقطار العربية وليس فى مصر وحدها. وقد شهدت الكويت أزمة ثلاث مبدعات عربيات صودرت كتبهن وصدرت ضد بعضهن أحكام بالسجن بتهمة التطاول على الذات الإلهية. وتجرى فى الوقت نفسه مصادرة الصحف وإغلاقها فى معظم الدول العربية ابتداء من مصر إلى المغرب والأردن والكويت، باستخفاف شديد وبنفس البساطة التى يتم بها إغلاق دكان يقدم أطعمة فاسدة. تتساوى فى ذلك كتب أو صحف تتهم بالابتذال والفسوق، أو صحف وكتب تتهم بالإرهاب والتطرف، وفى كلتا الحالتين يصبح طمس الكلمة المكتوبة وتجريم التعبير عنها، وسيلة لقمع الفكر وفرض القيود على محاولة تحريره من أغلاله.

أزمة الثقافة فى مصر. كما فى العالم العربى. هى أزمة الحرية: حرية التفكير من ناحية وحرية التعبير من ناحية أخرى. وقد ظلت حرية التفكير عندنا ومازالت محصورة فى قوالب جامدة، تستند إلى مرجعيات مطلقة. يعطى أصحاب السلطان لأنفسهم حق تفسيرها وتطبيقها. وسواء كان أصحاب السلطان من أهل الدين أو من أهل الدنيا، فإن الفرد فى مجتمعاتنا مازال محرومًا من القدرة على التفكير الحر دون أن يصطدم بغائيات مطلقة وغيبيات مفروضة على المستوى الروحى، أو بنظم سياسية ذات سلطات لا حدود لها على المستوى الواقعى والمادى.

ومن المعروف أن النهضة الأوروبية لم تتحقق إلا بعد أن تمردت شعوبها على هذه القيود، وجعلت من أهم حقوق الفرد أن يمارس حريته فى التفكير والتعبير داخل إطار الجماعة. فليست هناك حقوق مطلقة للجماعة على حساب الفرد. كما أنه ليست هناك حقوق مطلقة للفرد على حساب الجماعة. ولكن ثمة معايير نسبية، تتغير بتغير الظروف ودرجة التقدم العلمى والرخاء الاجتماعى والتطور السياسى.

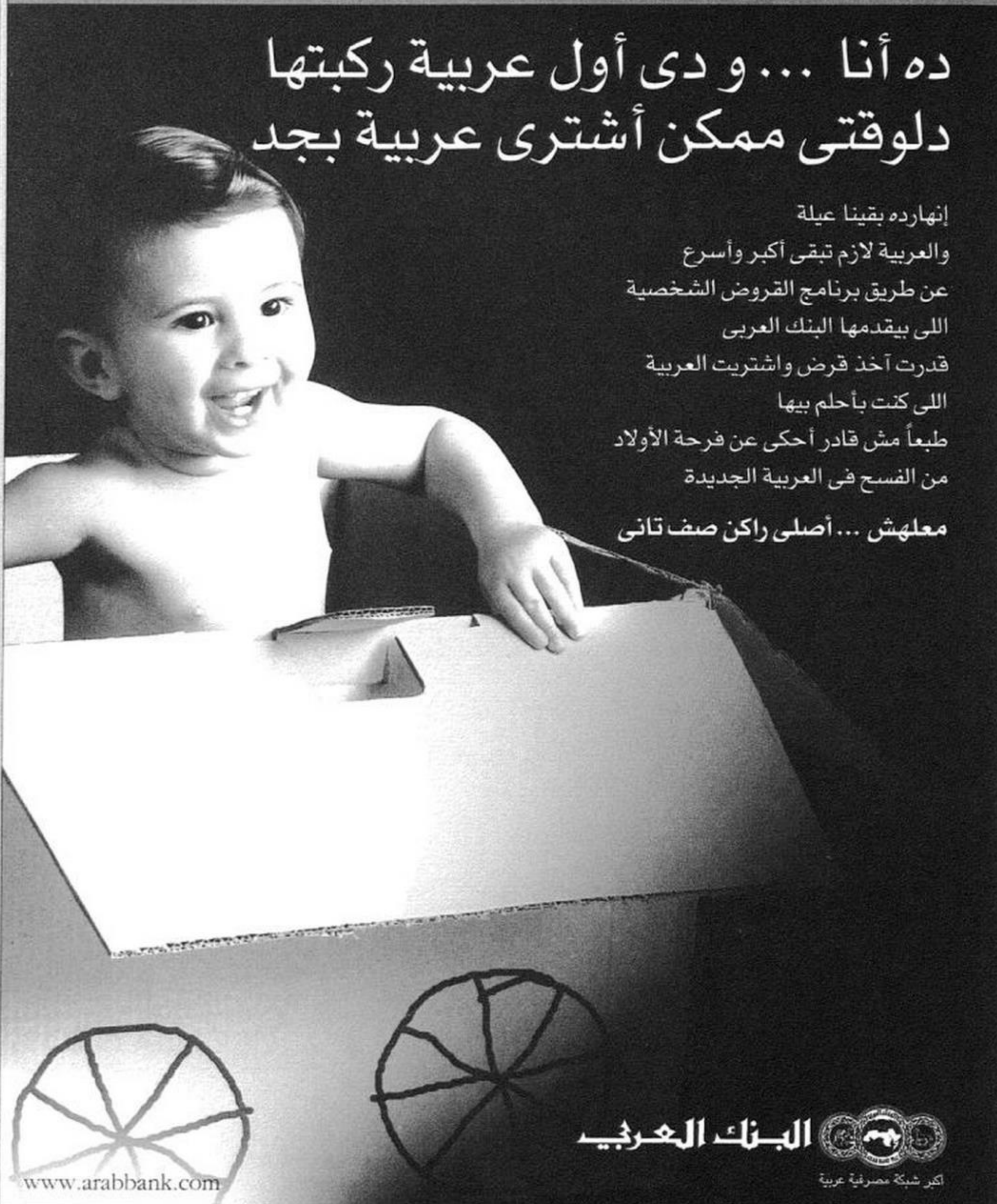
وقد خاض رواد النهضة فى أوروبا معارك ضارية من أجل تثبيت الأسس الفكرية والاجتماعية التى تضمن للفرد حقه فى ممارسة حريته فى التفكير والتعبير. وكانت هذه المعارك هى الأساس الذى أقيم عليه بناء الحضارة الحديثة فى كافة المجالات، بعد أن تخلصت من رقابة السلطة الدينية وتعسف السلطة الحاكمة. ولم يكن هذا التغيير الهائل والنهضة الصناعية والعلمية الكاسحة التى اجتاحت أوروبا لتتحقق بدون تحديد دقيق لمفهوم الحرية على جميع مستوياتها، مع الاعتراف للفرد بكيانه المستقل عن الجماعة، والاعتراف للجماعة بحقها فى الحفاظ على مصالح المجموع، دون إهدار لكرامة الفرد وإنسانيته وحقه فى ممارسة حريته فى التعبير والتفكير.

ما هى إذن الأسباب التى حالت بين الأمة العربية وبين المضى قدمًا فى طريق النهضة بعد أن طرقت أبوابه فى بدايات القرن العشرين؟ لماذا عجزت عن إيجاد نقطة التوازن الصحيحة بين الحرية الفردية والحرية الاجتماعية؟ ولماذا تعثرت أقدامنا فى مختلف الميادين السياسية والاجتماعية والفكرية، فضاقت الحياة السياسية إلى درجة الاختناق بينما تتسع آفاق الحرية والديمقراطية على شعوب أخرى من حولنا؟ ولماذا يظل هذا التخلف المعرفى الذى يشل الأمة العربية من مصر إلى الجزائر ومن الكويت إلى تونس والمغرب، فيحول دون إطلاق حرية التفكير والتعبير فى شتى مجالات الفنون الأدبية والموسيقية والغنائية، ويجعل ممارسة الأفراد لهذا الحق عرضة للاتهام بالخروج على الجماعة والعقيدة، وإنزال العقوبات القاسية بهم؟

يعتقد علماء الاجتماع أن ظاهرة «التخلف الثقافى أو المعرفى» تحدث عندما تتغير الثقافة المادية بسرعة تغيرًا شديدًا دون أن تتغير معها الثقافة غير المادية، ويعنى بها نظام الحكم والمعايير الاجتماعية والبنى الأخلاقية فى المجتمع. ومن الواضح أن معظم المجتمعات العربية لم تخرج بعد من طور البداوة أو الزراعة إلى طور الثورة الصناعية وما بعدها. وعلى حين يتحرك العالم بسرعة بالغة إلى مستويات أعلى وأرقى، وتتحرك معها المنظومات المعرفية، فإن الأمة العربية تجمدت عند حدود الاستمتاع بالمنتجات المادية لحضارة ليست من صنعها هى الحضارة الغربية. وربما تفوقنا فى كثير من مظاهرها بدرجة لا تبارينا فيها ذات المجتمعات التى تنتج هذه الأدوات الحضارية، ومن ثم ظهرت هذه التناقضات الصارخة.. التى لا تجد لها حلاً فى مجتمعاتنا. فنحن نسمح للمرأة بالعمل والخروج من البيت إلى الشارع، ولكننا لا نعطيها الحق فى السفر والانتقال، ونحرمها حتى من قيادة السيارات ومن حقها السياسى فى بعض المجتمعات، أى حقها فى الترشيح والانتخاب. ونحن نعطى لبعض التيارات الرجعية المتزمتة حقها فى التعبير والنشر بأكثر الوسائل الإعلامية انتشارًا، ونحجب عن آخرين حقهم فى التعبير لأسباب دينية أو جنسية أو عرقية. وهناك من يطالب بإطلاق حرية السوق دون قيود، ولكنه يعارض حرية تبادل الأفكار والمعلومات ويطالب بوضع قيود على وسائل الاتصال الحديثة مثل الإنترنت. ونحن نسمح بأفلام سينمائية تفرط فى الابتذال ونمنعها من الكتب والمجلات، مع أن الأفلام أوسع انتشارًا وتصل إلى جميع الطبقات المتعلمة وغير المتعلمة.

ومعنى ذلك أننا بحاجة إلى انتفاضة ثقافية شاملة، تعيد وضع الأمور فى نصابها. وترسى قواعد الحرية فى مجالات الفكر والتعبير. وإذا كانت هناك دعوة لعقد مؤتمر للمثقفين، فإن الأولوية يجب أن تنصب على أزمة الثقافة فى مصر بالذات. إذ يبدو أن أصداء الأزمات الثقافية المتعاقبة فى مصر، تجد لها ردود فعل فى الأقطار العربية الأخرى على نحو أشد وطأة وسلبية. ولاجدال فى أن الحرية الثقافية تبدأ بالحرية السياسية، وبدونها لن نخرج من أزمات الثقافة إلا لنقع فى ثقافة الأزمات دون أن نخطو خطوة واحدة إلى الأمام.

سلامة أحمد سلامة



ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
اكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com